الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشّعبية

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة 1 - الحاج لخضر

كلية اللّغة والأدب العربيّ والفنون

قسم اللّغة والأدب العربيّ

تداوليّة الخطاب السّردي
الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيدي
"نموذجا"

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربيّ القديم

تخصّص: الأدب العباسيّ

إعداد الطّالبة:

خوخة رابح

إشراف الأستاذ الدّكتور:

جمال سعادنة

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللّقب	الرّتبة العلميّة	الجامعة الأصليّة	الصّفة
عبد القادر دامخي	أستاذ	جامعة باتنة-1-	رئيسا
جمال سعادنة	أستاذ	جامعة باتنة-1-	مشرفا ومقرّرا
سامية راجح	أستاذ	جامعة بسكرة	عضوا مناقشا
لعجال لكحل	محاضر "أ"	جامعة باتنة-1-	عضوا مناقشا
رضا معرف	محاضر "أ"	جامعة بسكرة	عضوا مناقشا
بشير عبيد	محاضر "أ"	جامعة جيجل	عضوا مناقشا

السّنة الجامعيّة: 1445هـ -1446هـ/2023م-2024م

بسم الله الرّحمن الرّحيم

شكر وتقدير:

أحمد الله سبحانه وتعالى وأشكره على ما وهبني إيّاه من العزم والتّوفيق لإتمام هذا البحث.

كما أتقدّم بجزيل الشّكر إلى أستاذي الدّكتور: "إسماعيل زردومي" على كلّ ما بذله من وقت وجهد في إبداء النّصيحة والتّوجيه، فجزاه الله خيرا، وجعل كلّ ذلك في ميزان حسناته.

كما أتفضّل بالشكر الجزيل للأستاذ الدّكتور "جمال سعادنة " على ما بذله من جُهد في مساعدتي طِوال فترة الاستعداد للمناقشة، فله جزيل الشّكر.

كما أشكر سلفا أعضاء لجنة المناقشة كلٌ باسمه على ما سيبذلونه من وقت وجهد لقراءة هذه الرّسالة وتقييمها.

وأسأل الله تعالى التّوفيق والسّداد.

"إنّ الكلامَ على الكلامِ صعبٌ"

التّوحيديّ

مقدّمة

اللّهمّ يسّر وأعِنْ.

تعتبر اللّغة وسيلة للتّعبير والتّبليغ ضمن إطار التّواصل في التّخاطب الإنسانيّ الّذي تقتضيه طبيعة التّعاملات الضّرورية في الحياة اليوميّة، بواسطة الفعل الكلامي النّاجم عن مختلف علاقات التّخاطب اللّغوي بهدف توصيل فكرة ما، أو لغرض التّعامل لاستمرار التّواصل والانسجام بين بني البشر.

التّواصل ضرورة تقتضيها مختلف التّعاملات الإنسانية الهادفة إلى استمرار وتحقيق التّواصل بين المتخاطبين بنيّة تفعيل التّأثير والتّأثّر، وفق نظام لغويّ كلامي تقتضيه مختلف العلاقات والتّعاملات البشريّة ،ولهذا كان الإنسان متلازما والفعل الكلامي رغبة منه في تحقيــق التّواصل ضمن سياق منظّم حتّى يتسنّى له التّبليغ وتحقيق مقصديّة مبتغاه بفعل اللّغة الّتي تشكّل عاملا مهمّا في سيرورة التّواصـل لكشف كُنه وسرّ مختلف أشكال الخطاب وتنوّعه وفق سياق تواصليّ تحكمه مجموعة من الخصائص اللّغوية الخاضعة لمعيارية ومقاييس محدّدة.

تنوّعت الخطابات بتنوّع المقصديّة من الكلام ومحتواه البلاغي والمفاهيميّ والتّعبيريّ الّذي يقتضي اختيار وانتقاء الملفوظات لبيان حجم الخطاب من النّاحية الجماليّة والتّعبيريّة والتّبليغيّة، فكان هذا التّنوّع يخضع لتنوّع الهدف التّعبيري واختلافه والغاية منه من ناحيّة التّوجيه أو المثاقفة، وسواء كان الخطاب أدبيا أو فكريّا...، فهو يندرج ضمن نظام لغوي يحدّده سياق الكلام .

لقد حظيت اللّغة بنصيب أوفر من الاهتمام والدّراسة بدءًا من الفلسفة التّحليليّة وظهور مدارس لغويّة حديثة ومتنوّعة كعلم اللّغة البنيويّ الّذي يدرس اللّغة بوصفها تجريدا لوقائع كلامية، تفتقر إلى الوظيفة الأساسيّة للّغة والّتي تتمثّل في الوظيفة التّواصلية الّتي من خلالها يتمكّن الإنسان من تبليغ أفكاره ومقاصده وفق نظام كلامي محدّد.

ونظرا لأهمية اللّغة حاول العلماء الاهتمام بها من جميع جوانبها وسبر أغوارها، وفهم حقيقتها لأنّها سرّ العلاقات الإنسانية الهادفة إلى التّعامل والتّواصل الاجتماعيّ، فكان للدّراسات الحديثة تنظيرٌ منهجيٌّ، وعلم قائم بذاتـــه ساهم في دراسة اللّغة بكلّ أبعـــادها

ومعطياتها العلميّة ضمن إطار دراسيّ للعلامات اللّغويّة وتحديد العلاقات بينها باعتبارها رموزا تمثلها أصوات تعكس الفكر البشري وتيسّر البَوح فتُعبّر عن الذات، ولهذا كلّه انبثقت نظريات واتّجاهات تعكس مدارس لغويّة مختلفة تهتم بخاصية التّواصل والتّبليغ كالمدرسة السّيميائية التي يندرج عنها سيمياء التّواصل، والّتي يذهب أصحابها إلى أنّ العلامة تتكون من وحدة الدّال والمدلول، ويركزون في أبحاثهم على الوظيفة التّواصلية، وتفرع عن هذا الاتجاه مدرسة جديدة تعرف باللّسانيات التّداوليّة Pragmatiqe.

ونظرا لتعدّد المفاهيم الخاصّة بالتّداوليّة وكثرة تشعباتها وروافدها الّتي استمدتها من علوم مختلفة كالفلسفة والمنطق والبلاغة...، على اعتبار أنّها نظرية لسانيّة تهتم بدراسة اللّغة وفق الاستعمال والتّواصل في سياق مقاميّ معيّن، فإنّها تهدف إلى تحقيق أغراض نفعية ضمن ذلك التّواصل الاجتماعي. ومهما كانت تلك التّعاملات فإنها لا تخرج عن نطاق تداول الكلام في إطار التّخاطب والاستعمال اللّغوي، هذا الاستعمال مرتبط بالمتكلم والمتلقي وفق سياق محدّد للكشف عن المعنى الّذي يقصده المتكلّم، وكيف يستقبله المتلقي ليتفاعل معه ويحقّق فعل الإنجاز المرجو منه، وهذا ما أهملته النّظريات السّابقة كالبنيويّة الّتي أقصت جانب الدّلالة، وأهملت اللّغة في إطار التّواصل والاستعمال في السّياق التّداوليّ.

التّداوليّة نظريّة تسعى إلى دراسة وتحقيق القصد من الكلام أو الملفوظ، فالكلام يحقّق معنًى معيّنا ومقصودا. ودلالة الكلمة المنطوقة تنبع من مقصديّة المتكلم والهدف من كلامه، فكان للتّلفّظ دوره في هذه النظريّة لأنّه يعكس أفعال الكلام الّتي تصدر من المتلقّي وتعبّر عن حالة نفسية معيّنة بواسطة التلفّظ بها؛ إذْ يستطيع المتكلّم إصدار أقوال، تلك الملفوظات تحقق قوّة التّلفّظ بحيث تكون له مقصديّة محدّدة يريد إيصالها للمتلقّي ضمن إطار سياق محدّد هدفه إنجاز المطلوب وتحقيق فعل الكلام.

فالتّداوليّة بمفاهيمها الأساسيّة واهتماماتها بالسّياق وغرض المتكلّم، ومقصديته وإفادة السّامع، ومراعاة العلاقة بين مستعملي اللّغة. فإنّها تركّز وتدرس كلّ ما يتعلّق بالقول والملفوظ بين المتكلّم والمتلقّي في سياق المقام لتحقيق فعل الكلام. هذا الاتّجاه التّنظيريّ من الدّراسات اللّغوية، نسعى من خلاله إلى قراءة التّراث العربي اللّغوي قراءة دقيقة، وتطبيقه

على الخطاب الأدبي القديم، وبعثه من جديد بجميع معطياته الجماليّة والبلاغيّة، قد يمكّننا ويساعدها على إثبات وجود أصول ومنابع المنهج التّداولي في الخطاب العربي القديم.

ومن الأسباب الوجيهة الّتي أدّت إلى اختياري لهذا الموضوع هو جانب التّخصّص الّذي فرض نفسه باختيار مدوّنة من الأدب العربيّ العباسيّ القديم، وهو كتاب" الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيّان التّوحيديّ؛ لأنّه جدير بالقراءة لتعدّد مميّزاته وبراعة تأليف مُحتواه والّذي لامس آليات المنهج التّداوليّ، فكان لهذا المنهج نصيب من القراءة لعدّة خطابات حديثة وقديمة، أمّا فيما يخص قراءة المدوّنة فدرست من جانب الحجاج كرسالة لنيل شهادة الماجستير، بعنوان: الحجاج في " الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيّان التّوحيديّ.

إنّ قراءة الخطاب التّراثيّ ضمن دائرة النّقد التّنظيريّ الحديث، يُمكّننا من استنطاقه، وكشف سرّه وجماليته الأدبيّة والفكريّة والبلاغيّة. وخطاب "الإمتاع والمؤانسة" نصّ أدبيّ تتجلّى معالمه أثناء قراءته، وتأويل علاماته وفق مسار سياقيّ يُبرز عُمق معانيه الدّاخليّة، وبيان البعد الدّلالي الّذي يتضمّنه الخطاب السّرديّ، والّذي بدوره يدلّ على تَعالُق أدبيّ جماليّ يكشفه ذلك الحوار بين المبدع والمتلقّي، المستوحى مضمونه من عصر الازدهار الفكريّ والفلسفيّ بامتياز. إنّه خطاب تتداخل فيه مجموعة من النّصوص المعرفيّة المتعلّقة بجوانب الحياة الفكريّة والسّياسيّة والثّقافيّة والعلميّة...، وفي خضمّ هذه المعارف الّتي استحوذ عليها كتاب" الإمتاع المؤانسة" علينا أن نُحدّد هويته باعتباره خطابا سرديّا، أو نصّا جامعًا للمعارف وعلوم العصر، أو تتابع مجالس السّمر، ومتعة الحديث الأدبيّ البلاغيّ المُستوحى من تلك المناظرات ومجالس الفكر، والاهتمام بعصور سبقته تمثّلت في عصر الفلسفة اليونانيّة والشّعوب الوثنيّة. إنّه كلّ ذلك، فالمدوّنة موسوعة حقيقيّة عكست ما في ذاكرة التّوحيديّ من ثقافة، واختصرت عصر المعرفة على درجة عاليّة من الوصف والسّرد، والإبداع الفنيّ في إطار سياق تواصليّ تداوليّ .

ليس من السّهل أن نُعرّج على تراث أدبيّ موسوعيّ عربيّ، ونبعثه من جديد لكشف سرّ صياغته الأسلوبيّة والبلاغيّة، بالإضافة إلى الجوانب الفكريّة لديه. ونجعل منه مُعاصرا لنا بقراءته من جديد وفق منهج حديث، فنعيش بذلك زمنه الفكري والعلمي والفلسفي؛ بمعنى أنّنا نضطلع إلى قراءته في زمن غير زمانه، ووفق شروط مُغايرة تماما لعصره، وذلك

لإعطاء محتواه وكشف كُنهه، وجماليته بوصفه نصّا فريدا من نوعه. ونضعه ضمن دائرة عصرنا لنعرف الجوانب الجماليّة المتعلّقة بسرديّة النصّ التّراثيّ والّتي تنطوي على جوانب المتعة والفائدة من جهة، وجانب البيان الإبداعيّ الّذي يتخلّله الخطاب السّردي من خلال التّواصل التّداوليّ ضمن سياق حواريّ وحجاجيّ من جهة ثانيّة.

هذا العمق الفكري والبلاغي الّذي يتضمّنه الخطاب السّردي التّوحيديّ، ينطوي على توجّه تداوليّ ووظيفة تأثيريّة فعليّة عمليّة تُساهم في طرح عدّة خطابات ثقافيّة وتوجيهيّة...، وبالتّالي فخطاب" الإمتاع والمؤانسة" تضمّن استراتيجيّة من أولوياتها العناية بالجانب البلاغيّ والطّرح الفكريّ الفلسفيّ، في إطار تداول حواريّ تواصليّ في مجلس الوزير.

هذه الإشكاليّة انبثقت عنها مجموعة من التّساؤلات كالتّالي:

إلى أيّ مدى يمكن تحقيق آليات المنهج التّداوليّ في الخطاب السّرديّ؟ وما الّذي يضيفه هذا المنهج للدّراسات النّقديّـة الحديثة في استنطاقه للنّصوص، وتركيزه على مقصديّة المتكلّـم، ومقام العمليّـة التّخاطبيّة في سياق معيّن؟ وكيف تُسهم التّداوليّة في فهم النّصوص السّردية العربيّة القديمة وتفجير دلالاتها التأويليّة؟

وهل يستطيع هذا التّنظير النّقدي الحديث اكتشاف عُمق الإبداع البلاغيّ في إطار الحوار التّداوليّ بين المبدع والمتلقّي ضمن سياق تواصليّ مُعين؟

وماهي الجوانب الّتي تُثيرها التّداوليّة بخلاف غيرها من المناهج؟ وهل تُظهر لنا جوانب الإبداع في الخطاب السّرديّ مغايرة لِما سنّته المناهج الأخرى؟ وهل تُعيننا على كشف مضامين عناصر التّواصل في سياق تداولي كلامي بين أطراف الحوار؟

يتميّز خطاب " **الإمتاع والمؤانسة**" باشتماله على نظام لغويّ بلاغيّ خاصّ لا يحيد عن مقصديّة التّخاطب والتّواصل، باستثمار آليات تخاطبيّة شتّى كالحوار والجدال بين المتخاطبين وأهمّ الأفعال اللّغويّة النّاجمة عن ذلك، وقوفا عند مقصديّة المتكلّم، وفهم المتلقي في سياق معيّن، من خلال تلك المجالس الأدبيّة الّتي تعكس نوعا مميّزا من الخطاب الأدبيّ الذي لا يقتصر على هيمنة خاصية السّرد فيه فقط، بقدر ما تكتنفه تلك العلاقات التّداوليّة على مستوى التّخاطب والتّبادلات الكلاميّة الّتي يُقيمها الرّاوي بينه وبين المتلقيّ في المقام الحواريّ.

وبما أنّ طبيعة البحث تتحكّم إلى حدّ بعيد في نوع المنهج المتّبع، فإنّ الموضوع تطلّب المنهج التّداوليّ التّحليليّ الّذي يدرس جوانب الخطاب من النّاحيّة التّعبيريّة بين المتخاطبين في المحادثة من منظور السّياق التّواصليّ الّذي ورد فيه. مع التّركيز على مقصديّة المتكلّم لإفهام المتلقي لتحقيق التّواصل بين مستعملي اللّغة في الخطاب التّداوليّ. واعتماد المنهج التّاريخيّ في المدخل عن بعض المفاهيم اللّسانيّة، لغرض بيان بعض الفروقات في مجال التّنظير اللّساني التّداوليّ الحديث، والّذي يعتبر بجميع آلياته مُغايرا تماما لما سبقه من تنظير بنيوي أهمل جانب اللّغة ضمن الاستعمال والتّواصل .

وقد جسّدت كلّ هذا في خطّة بحث تتضمّن ما يلي:

يشتمل البحث على أربعة فصول، مسبوقة بمدخل مفاهيمي لامس قضايا لسانيّة كالخطاب ومقارنته بالنصّ، والمنهج التّداوليّ وعلاقته بعلم الدّلالة وبتحليل الخطاب.

تطرّقت في الفصل الأوّل إلى **التّداوليّة وآلياتها، مقاربة نظريّة،** من منظور تحديد مفاهيم كلّ من: التّلفّظ وعناصر السّياق، والقصديّة ومبدأ التّعاون، والإشاريات بأنواعها، ودورها في عملية التّداول اللّغوي. والاستلزام الحواريّ وأفعال الكلام.

فيما اندرج الفصل الثّاني تحت عنوان:

البنية السّرديّة في خطاب " الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيّان التّوحيديّ. مشتملا على عناصر البنية السّرديّة، كما تطرّقت إلى ذِكر **السّياق في الخطاب السّرديّ.**

ذكر فيه أهمّ آليات التّداوليّة :* السّياق وتداوليّة الخطاب السّرديّ.

* والإشاريات الخطابيّة وأبعادها التّداوليّة في سرد التّوحيديّ.

أمّا الفصل الثّالث فاندرج تحت عنوان: **تداوليّة الحوار في الخطاب السّرديّ.**

وتضمن أهم الأطراف المتخاطبة، مع بيان أهمّ الأنظمة التّواصليّة في الخطاب السّردي وأبعادها التّداوليّة، و الخطاب السّردي وقواعد التّخاطب فيه.

الفصل الرّابع فكان تحت عنوان: **أفعال الكلام وتداوليّة الخطاب السّرديّ.**

وتطرّقت فيه إلى أفعال الكلام ووظيفتها التّواصليّة في الخطاب السّرديّ. مع بيان طُرق التّداول في الخطاب بين فعل معرفة وحجاج ووصف.

وأختم كلّ فصل بخلاصة شاملة تبرز المحتوى العام والنّتيجـة المُتَوصل إليها.

أمّا الخاتمة النّهائيّة فكانت حصيلة لمجموعة من النّتائج المتوصل إليها، تتبعها قائمة المصادر والمراجع. معظمها مصادر نقديّة حديثة تخصّ التّنظير التّداوليّ بآلياته الّتي أدرجت في البحث لتعكس مدى تطبيق هذا المنهج على الخطاب السّرديّ، وإظهار البعد التّداوليّ الحواريّ فيه.كما قُمت بإدراج مُلحق تضمّن مدخلا مفاهيميّا حول:التّعريف بالكاتب أبي حيّان التّوحيديّ، بالإضافة إلى عرض التّعريف بالمدوّنة وأسباب وشروط تأليفها.

ثمّ إنّني بعد شكر الله – عزّ وجلّ- الّذي أنعم وتفضّل، أتقدّم بالشّكر الجزيل إلى الأستاذ الدّكتور: " إسماعيل زردومي" مشرفا وموجّها، والّذي أبدى القبول والموافقة للأشراف على البحث، ولم يتأخّر في إبداء الرّأي، وإسداء النّصح والمشورة، فله الجميل الّذي لا يُنسى، جزاه الله خيرا إن شاء الله.

مدخــل

- بين النصّ الخطـــاب
- التّداوليّة وجذورها الفلسفيّـــة
- التّداوليّة بين النّشأة والماهيّة
- أنواعـــــها وخصائصـــــها
- التّداوليّـــــة وعلم الدّلالـــــة
- التّداوليّة وتحليل الخطـــاب

اللّغة ظاهرة إنسانيّة لا غنىً عنها في حياتنا الطّبيعيّة، ولا يتمّ التّواصل الاجتماعي إلا بحضورها، ذلك الحضور الفعليّ النّابع من الفكر ليمكننا من ممارسة عمليّة التّبليغ والتّواصل والاتّصال مع الآخر.

لغة ما لبثت أن ترجمت فكر ومشاعر البشر، فألهمت دارسيها التّنقيب في وظيفتها وكُنه سحرها، وعُذوبة خطاباتها عبر التّواصل الإنسانيّ، فحظيت بمكانة مرموقة في التّأليف لدى المفكّرين عبر صيرورة التّاريخ الإنسانيّ الطّويل منذ البدء إلى يومنا هذا، عبر انتهاجها وسيلة للإقرار والإفصاح عن مكنونات النّفس والإحساس والمشاعر.

منذ عصور سابقة بدءًا بعصر أرسطو الّذي اعتبر فيه أن اللّغة توازي الفكر، وقد تسبقه، إذ أصبح الكلام خاضعا لمختلف الرّؤى الفكريّة باعتباره أنّه تعبير عن الفكر، وقد سادت هذه المفاهيم المنطقيّة حقبة من الزّمن، ولكن إلى حين انبثاق النّظريات المستحدثة في مجال اللّغة والفكر اللّغوي والكلام خلال القرن الماضي، واستطاع مفكرو اللّغة وغيرهم من الفلاسفة إعطاء بديل منهجيّ للمفاهيم اللّغويّة واللّسانيّة، وكان هذا بدوره طفرة علميّة وتغييرا يكاد يكون جذريّا. وهي تغيّرات في الاتّجاهات الفكريّة على مستوى النّظام اللّغويّ في العصر الحديث ومع بداية القرن العشرين أخذ الدّرس اللّغويّ طابعا علميّا على يد اللّغويّ السّوسيري فرديناند دي سوسير(1857م- 1913م) ferdinard de sousur، الّذي لُقّب بأبي اللّسانيات الحديثة...، بكتابه محاضرات في اللّسانيات العامّة، وقد عُدّ هذا الكتاب ثورة في الدّراسات اللّغوية الحديث"[1]. هذا الوعي الّذي أُستجدّ في القرن الماضي أرسى قواعد وأصولا منهجيّة تكاد تكون الانطلاقة الحقيقيّة لنشوء فكرة " دراسة اللّغة " دراسة علميّة تؤهّلها من حِيازة اهتمام بالغ لرواد أتوا بعده، وما لبثوا أن جعلوها محلّ اهتمامهم في بحوثهم المستفيضة، من خلال اجتهاداتهم الّتي تندرج ضمن نظرية اللّغة والتّلفظ واللّسان.

وإذا رصدنا انطلاقتها كمادّة للبحث، ومعرفه وجودها وعلاقتها بالإنسان ووظيفتها الاجتماعيّة ، فإنّنا نرجع بالتّاريخ إلى أوّل من باشر بطرح ثنائيّة اللغّة والكلام ، والدّال والمدلول، وحمل لواء الدّرس اللّغويّ الّذي تكاد تكون انطلاقته على يده.

---

[1] ـ محمّد محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط:2004،01م، ص10.

إنّه "دي سوسير"، هذا العالم الّذي استطاع أن يولّد رؤية جديدة ارتكزت على دراسة اللّغة من ناحية التّوجّه الدّلالي للّغة كبديل جديد ظهر في خضمّ المعارف الفلسفيّة الّتي وصلت إلى أوج تطورها، فكان من أجمل ما قدّمه للّغة أنّه علّم التّنظير اللّغوي الحديث كيف يتعامل معها، وذلك بكشف سرّ وجودها وعلاقتها بالكلام، ومعرفة مميّزاتها والوقوف على خصائصها ومعطياتها، ودراسة اللّغة دراسة علميّة في ذاتها ولأجل ذاته " فمن جهة أولى لا يوجد شيء أخصّ من اللّغة بجعلنا نفهم طبيعة الإشكاليّة الدّلاليّة، ولكن كان علينا لنضع هذا الإشكال وضعا مناسبا أن ندرس اللّغة في ذاتها" [1]، وأعطى للّغة أهميّة بالغة بدليل أنّه أخضعها حيّز الدّراسة العلميّة أكثر من دراسة الكلام؛ أي دراستها لذاتها، فحقّق بذلك إنجازا عظيما كان ينبئ بولادتها من جديد، فكانت أفكاره إلهاما وبوادر بعث جديدة لمن جاءوا بعده، وأثاروا مسالة وظيفتها التّواصليّة، فكان إنجازهم عتبة جديدة لمسار اللّغة - كلغة لا تخصّ لغة معيّنة- فأصبحت دراساتهم تُسقط وتطبّق على أيّة لغة، فاعتبرت هذه الدّراسات عاملا إنسانيّا مشتركا بين بني البشر.

وقد عُرِف علم اللّغة بأنّه ذلك العلم الّذي يبحث في اللّغة، ويدرس وظائفها وأساليبها المتعدّدة، فالدّراسة العلميّة للّغة لا تقتصر على دراسة لغة معينة، بل تهتمّ بدراسة الظّاهرة الإنسانية المعروفة في المجتمعات باسم اللّغة، وهذا ما توجه إليه "دي سوسير" في دراسته للّغة على أنّها نتاج اجتماعيّ فضلا عن أنّها لغة تواصل وتعبير، وممارستها في عمليّة التّواصل تقوم على ملكة فطريّة، يتمتّع بها الإنسان وفق طريقة تعامله التّخاطبيّ مع الآخرين"لأنّ ممارسة الكلام تقوم على ملكة فطريّة وهبتها لنا الطّبيعة، بينما اللّغة حاصلة عن طريق الاكتساب والتّواطؤ. فيكون الكلام بذلك خاضعا لغريزة طبيعيّة بدل أن تخضع له "[2]. والعمليّة التّواصلية تتحقّق بين جميع الأفراد الذين تربطهم لغة واحدة لذا تعتبر إنتاجا جماعيا ينبثق من المخزون المكتسب على مستوى الفرد والمجتمع. هذه الممارسة اللّغويّة الاجتماعيّة لنسق من القواعد الموجودة في عقل الفرد الواحد، فإنّــــها تُعيــن

---

[1]- فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللّسان ، ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشّرق ، 2016م، ط03، ص32.

[2] - نفسه، ص23.

على التّواصل الاجتماعيّ بشكل صحيح ومفهوم، " لأنّ اللّغة عبارة عن نسق من القواعد النّحويّة الموجودة في كلّ دماغ أو بالضّبط في أدمغة مجموعة الأفراد"[1]، بمكوناتها اللّغوية على المستوى المجتمعي على نوع من الاتّفاق والتّناسق في كيفيّة التّعامل اللّغوي وفق ما حُدّد وعُرف مُسبقا.

لقد عالج "دي سوسير" مكوّنات العمليّة الكلامية من خلال الكلام الذي هو نتاج فردي، واهتمّ أكثر باللّغة وفرّق بينها والكلام، ويرجّح الكفّة في الدراسة العلميّة للغة وليس لعمليّة التّلفّظ أو الكلام فيقول:" إنّنا نفرّق بين اللّسان la longe، وبين اللّغة langage، فليس اللّسان إلاّ جزءا محدّدا من اللّغة، وهو جزء أساسيّ لا شكّ فيه، وبهذا الاعتبار يكون اللّسان في ذات الوقت إنتاجا مُجتمعيّا حادثا من ملكة اللّغة " [2]، وفرق بين اللّغة كملكة فطريّة لدى كلّ إنسان، تميّزه عن غيره من الكائنات الحيّة، وبين اللّغة الوضعيّة بالعربيّة والإنجليزيّة فهي نظام مُكتسب، وبين الكلام الّذي له بعد فرديّ ؛ أي الإنجاز الفرديّ للّغة، لذا " اهتمّ بدراسة اللّغة من جهتين:

أ - من حيث هي ذات طابع اجتماعيّ.

ب - ذات طابع فردي ينحصر في التّلفظ والكلام ، وأمّا الكلام فهو فعل فرديّ متعلّق بالإرادة والذّكاء " [3] ،لذا أحدث هذا الطّرح ثورة علميّة جديدة تُعرف باسم : اللّسانيات الحديثّة: كعلم جديد له أسسه ونظرياته استطاع أن يحدّد مجالها وأسسها. ويقدّم تصوّرا هامّا جدّا في دراسة اللّغة على الرّغم من أنّ جهودا سبقته في ذلك، ووردت عند بعض اللّغويين قبله. "يقول " رومان ياكبسون" في ذلك: تعود أغلب المفاهيم والمبادئ النّظريّة والرّئيسة الّتي قدّمها "دي سوسير" إلى معاصريه الأكبر سنّا منه وهما: " بادون دي كورتني"

---

[1] - المصدر السّـابق، ص28.

[2] - نفسه ص23.

[3] - نفسه ص29.

وكوسز فسكي"[1] ، وعلى الرّغم من ذلك فهو يعتبر الرّائد في إرساء نظريّة اللّغة الّتي تعتبر همزة وصل بين الإنسان وعالمه الخارجيّ. كما أقرّ بأنّها ظاهرة اجتماعيّة. ويعدّ هذا التّأسيس التّنظيريّ للفكر الإنسانيّ الحديث أبرز ما يميّز القرن العشرين. بل يُعتبر مرحلة جديدة لتأسيس تصوّرات مختلفة تكاد تكون مُغايرة تماما لتصوّرات الدّارسين في مجال علم اللّسان واللّغة. هذا التّنظير المستحدث يُعتبر قفزة نوعيّة مكّنت أقطاب اللّغة وعلمائها من النّظر بشكل جديّ للّغة. وإنّ اختلاف الرؤى في تحديد مفهومها من طرف هؤلاء الّذين حملوا على عاتقهم راية دراستها يرجع إلى اختلاف توجّهاتهم الفلسفيّة، وتشعّب آرائهم وتخصّصاتهم بحسب المدارس اللّغويّة واللّسانيّة الّتي ينتمون إليها، كما تجدر الإشارة إلى أنّ اختلاف هذه الآراء حول اللّغة بتعدّد مفاهيمها وتعريفاتها يرجع إلى مدى اهتمام هؤلاء بجانب من جوانبها المختلة، على أنّ كلّ دارس ينظر إليها من مسار محدّد يراه مناسبا لذلك.

هذه اللسانيات الحديثة أخذت مُنعرجا هامّا في دراسة اللّغة من حيث أن لها وظيفتها التّبليغيّة والتّواصلية. انطلاقا من النّظرية اللّغوية الّتي سطّرها "دي سوير"، والّتي بدورها اختصرت لدارسي اللّغة بعده طريقا طويلا. فاجتازوا على منواله وأكملوا عند نقطة التّوقّف لديه.

لأنهم سرعان ما لاحظوا أن اللّغة لا تتوقّف عند نظرية الدّال و المدلول، و اللّغة و الكلام، ومع ذلك كانت هذه النّظريّة العتبة المعرفيّة الّتي ولد على منوالها نهجا جديدًا عرِفَ : باللّسانيات liguistics الحديثة، " و تُسمى أيضا بالألسنية وعلم اللّغة، وبأنّها الدّراسة العلميّة للّغة " [2]، و بدورها اهتمّت بالمتكلّم والمتلقي في سياق اجتماعيّ معين، وبالتّالي خروج اللّغة عن الجانب الشّكلي و تحوّلها إلى نصّ أو خطاب له دلالات لغويّة تتعدّى الاستيعاب البسيط من منظور الفكر والعقل. إذا فعلاً كانت تعبّر عن الأفكار والرّؤى، ووجهات نظر جديّة للوصول إلى فهم واستيعاب المخاطب .

---

[1] ـ خليفة بوجادي ، في اللّسانيات التّداوليّة ، محاولة تأصيليّة في الدّرس العربيّ القديم،بيت الحكمة، ط01،2009م،ص16

[2] ـ محمّد محمّد يونس علي،مدخل إلى اللّسانيات،ص09

إلا أنّ علماء اللّغة تجاوزوا معنى اللّغة. وماهيّة اللّغة وعلم اللّغة، فأسهبوا كثيرا في طرحها ضمن أسفارهم و مؤلفاتهم منذ قرن من الزّمن. إلى النّظر كيف تستطيع اللّغة أن تنمو و تتشكّل عندما تلتحم أجزاؤها اللّفظية وكلماتها المُوحية بالمعاني العميقة، لتتشكّل وفق بناء محكم. أتكون متناثرة الكلمات؟ فتصبح بذلك مجرد كلام غير مرتب، أم تكوّن نسيجا من الكلمات كلّما ارتقت إلى مرحلة التّماسك والانسجام، وتوافقت دلالاتها فتشكّلت بذلك جملا، أو متتالية من الجمل، فتصبح كيانا لغويا تطفو دلالته وتظهر، فتتجلّى معانيه فيصبح نصًّا .

فمـــاهو النصّ؟

بين النصّ والخطاب:

إنّ نظرة المحدثين إلى اللّغة لا يقتصر على عمليّة التّواصل فقط. بل تتعداه لترنو إلى عملية الإبداع و التّشكل الفنيّ واللّغويّ والفكريّ، الّذي بدوره يعكس مدى تطوّر الفكر الإنسانيّ الرّامي إلى ماهو أرقى وأفضل، فينتج عن ذلك خطاب أو نصّ لغويّ فنيّ يرقى إلى مستوى الإبداع الفنيّ، فيتعدّى بذلك التّواصل والاتّصال اللّغويّ المعهود . وهذا ما يسمىّ بالنصّ أو الخطاب كفنّ لغويّ أدبيّ إبداعيّ.

اللّغة تشكّل مجالا رحبا في التّعبير عن الذّات الإنسانيّة وتكشف من خلالها ضروب المعرفة المختلفة، فتصبّ هذه المعارف في قالب يَصدق أن نُطلق عليه اسم نصّ أو خطاب؛ أيْ أنّ كليهما مرتبط باللّغة، ويندرجان ضمن تجلياتها ومعانيها ووظيفتها التّواصليّة.

لقد اختلف علماء اللّغة في تحديد مفهوم النصّ، و تحديد ما يعنيه و اختلاف أنواعه، نظرا لاختلاف توجّهاتهم الإيديولوجيّة، والمدارس النقديّة الّتي ينتمون إليها. لهذا يصعب تحديد مفهوم النّص في الدراسات اللّغوية الحديثة لتشعّبها وتعدّد النّظريات الفكريّة الّتي درست اللّغة في جانبها اللّفظي الشّكلي، والجانب الدّلالي. هذا الاختلاف أدى إلى اختلاف الرّؤى حول ماهيّة النصّ الّذي يُعدّ شكلا من أشكال اللّغة، وهو مرتبط ببعض استخدامات الكلام، "فالنصّ عبارة عن سلسلة لسانيّة محكمة أو مكتوبة تشكّل وحدة تواصليّة، ولا يهمّ أن يكون المقصود هو متتاليّة من الجمل أو جملة واحدة أو جزء من جملة " [1]، فالنصّ اليوم أصبح مصطلحًا أدبيّا على درجة من الأهمية ، يتناوله النّقاد بالقراءة والتّحليل من جانب الإبداع اللّفظي والدّلالي ، وما أُختير من ألفاظ إبداعية تعكس جانب المعنى المقصود بتوصيل ما يمكن جعله مفهوما وفق كيان و نسيج مطلق لا يخلو من إبداع مقصود، ولهذا "فالنصّ نسيج أنيق من الألفاظ الصّامتة الّتي تحمل المعاني في ذاتها، فهو كتابة سحرية، وهو نبع الألفاظ بجمالية الانزياح، وأناقة النّسيج وعبقرية التّصوير"[2]، وهذا ما يوحي إلى

[1] - منذر عياشي، العلاماتيّة وعلم النصّ، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب، ط01، 2004م، ص119.

[2] - عبد المالك مرتاض، نظريّة النصّ الأدبيّ، دارهومة للطّباعة، الجزائر، 2007م، ص47.

جمالية الكتابة والتّعبير، فالنصّ الأدبيّ يحمل في طياته جمالية التّصوير بألوانه المنسجمة الّتي تمثلها ألفاظه برونقها الّذي يأسر الوجدان والعقل معًا.

ولهذا فالنصّ عند "عبد الملك مرتاض" لا ينأى عن جمالية الكتابة الأدبيّة بكلّ معطياتها البلاغيّة والمجازيّة، ولكنّها تتجسّد في النصّ الأدبيّ، على اعتبار أنّ "الكتابة الأدبيّة هي عمليّة إنجاز نسيج لغويّ يجسّد نصّا أدبيّا أساسه الخيال لا الواقع"[1]، فالنصّ لا يخلو من جماليّة التّعبير ورونق النّسج، ويقصد بذلك النصّ الأدبيّ بالمقارنة مع غيره من النّصوص الّتي لا تصل إلى درجة السّموّ البلاغي للّغة بجميع مفرداتها وألفاظها بحسب توظيف الجانب النّحويّ فيها " لأنّ النصّ عامة إذا كان نسجا، فإنّ النصّ الأدبيّ نسيج من درجة ثانية، لا تختلف فيه قواعد الرّبط، ولكنّه يتميّز عن سائر النّصوص بطرق توظيف هذه القواعد ومثيلاتها فيه"[2]، وبهذا فالنصّ لا يخلوا من مجموع الرّوابط اللّغويّة الّتي تشكله وتخرجه كتركيب لغويّ مترابط المعنى ومحكم البناء بجميع ألفاظه وجمله وعباراته وهو كيان قائمٌ بذاته. إذْ "لا يقوم مفهوم النصّ من المستوى نفسه الّذي يقوم عليه مفهوم الجملة(أوالقصّة أوالتّركيب)، ويجب على النصّ بهذا المعنى أن يكون مميّزا من"الفقرة"ومن وحدة النّموذج الكتابيّ لعدد من الجمل. فالنصّ يمكنه أن يتطابق مع جملة كما يمكنه أن يتطابق مع كتاب كامل"[3] فهو يتجاوز الجملة لأنّه يحتوي على متتالية من الجمل، وهو كيان متماسك وفق معانٍ تتلاحم داخل بنية نصيّة تزخر بعدّة وظائف، منها الوظيفة التّواصليّة وهي جوهر النصّ، والوظيفة التّأثيريّة الّتي تُستشفّ من متعة القراءة والإبداع النصّي،ووظيفة جماليّة تنبع بين ثنايا الكلمات لتُضفي على النصّ جماليّة التّعبير والتّواصل، ووظيفة الجانب الاجتماعيّ التّواصلي الضّروريّ بين بني الإنسان، حتىّ يتسنّى لهم التّواصل فيما بينهم.هذا الاهتمام البالغ والجدّي مكّن علماء اللّسانيات المحدثين من النّظر

---

[1] - المرجع السّابق، ص123

[2] - الأزهر الزنّاد، نسيج النصّ، بحث فيما يكون فيه الملفوظ نصّا،المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت،ط01،1996م، ص07.

[3] - منذر عيّاش،العلاماتيّة وعلم النصّ ، ص109

إلى النصّ من زاوية تكاد تكون محدّدة، وهي كعلم قائم بذاته، أو كنظريّة علميّة ألهمت مُبدعيها لدرجة أنّهم أدرجوا النصّ ضمن عناوين كتاباتهم اللّغويّة تحت عنوان(علم النصّ- نظريّة النصّ– اللّسانيات...)، واتّخذ بذلك النصّ درجة العلميّة كباقي العلوم الإنسانيّة الأخرى، فـعلم النصّ " هو التّحليل العلميّ الّذي يتناول مستويات النصّ بالتّحليل والدّراسة"[1]. إذ لا تخلو دراسته من التّحليل المنطقيّ والمعرفيّ والاجتماعيّ، لأنّه يتّخذ نظام اللّغة كوسيلة لتشكيله لغويّا، وتحريره فكريا، ليصبح كيانا مستقلا بذاته يحمل في طيّاته عبء فكر المؤلّف، وجهد القارئ.لذلك فالنصّ "هو منتوج لغويّ، فإنّه يتعيّن علينا فحص مكوّناته اللّغويّة،وهو ما يمكّننا من وصفه بأنّه نصّ أو:لا نصّ "[2]، نظرا لمعطياته اللّغويّة والتّركيبيّة والدّلاليّة.وبعد ظهور الدّراسات اللّغويّة الدّلاليّة في القرن العشرين أصبح النصّ موضوعا لسانيّا يؤخذ بعين الاعتبار لكلّ باحث ومُنظّر لسانيّ. وقد ساهمت هذه النّظريات في قراءة النصّ، وفي معرفة كُنهه والاقتراب من ماهيته كعلم لغويّ حديث، وكشف سرّ وجوده ووجود اللّغة قبله. فتواجده مُرتبط بتواجدها، هذا التّعالق النصّي اللّغويّ، أجبر علماء اللّغة أن يُخضعوا النصّ لآليات لغويّة حديثة ساهمت بشكل كبير في قراءة النّصوص، وكشف ميزة حوار النّصوص وتداخلها، وهو ما يُعرف بخاصيّة التّناص الّتي تُوحي بحوار النّصوص وتعالقها. وينظر رولان بارت إلى النصّ " أنّه كائن لغويّ يشهد حضور التّراث...، وهو نسيج سواء كان قديما أو حديثا، وهي آلة العمل المفيدة في أيّ دراسة من دراسات التّناص "[3]، إذن النصّ متعدّد الدلالات وتداخلها، وتُكثّف فيه المعاني لتضفي نصاً جديدا مغايرا لما قبله من النّصوص لأنّ المعاني جانب بشريّ مشترك، وإن اختلفت من نصّ إلى آخر في الطّريقة والطّرح والتّشكيل اللّغويّ. ولكونه يتضمّن مرجعيات فكريّة ومعرفيّة وإحالات سياقيّة كوّنته وجعلت منه نسيجا مُتلاحما، تلك المرجعيات جميعاً تشكّله وتجعل منه نصّا جديدا.

---

[1] - حسين خمري، نظريّة النصّ، من بنية المعنى إلى سيميائيّة الدّال، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2007م، ص22.

[2] - نفسه، ص39

[3] - رولان بارت، لذّة النصّ- ترجمة منذر عياشي، ط01، 1992م، ص14.

تختلف وجهات النظر في تعريف النصّ من اللّغوي واللّساني والنّاقد إلى المؤرخ والفيلسوف...، وهذا نظرا لأهميته على مستوى التّنظير اللّغوي، بأنّه مرتبط بجانبين أساسيين: جانب التّشكيل اللّفظي، و جانب المدلول/الدّلالي. فالنصّ لا ينتج إلاّ باللّغة، هي الأداة الهدف في الوقت ذاته. فباللّغة تتولّد المعاني، و تمثّل الوحدة الطّبيعيّة للتّفاعل اللّغوي بين المتكلم و المخاطب -المتلقي - .

وإنّ التّعريف الاصطلاحي للنصّ عند النّاقدة البلغاريّة "جوليا كرستيفا "، وكما أورده الدّكتور "صلاح فضل "هو: "جهاز عَبْر لغويّ يُعيد توزيع نظام اللّغة ليكشف العلاقة بين الكلمات التّواصليّة، والنصّ نتيجة لذلك، إنّما هو عمليّة إنتاجيّة من جانب علاقته باللّغة التي تتموقع فيه، ومن جهة أخرى يمثل النصّ عملية استبدال من نصوص أخرى؛ أيْ عمليّة تناص. ففي فضاء النصّ تتقاطع أقوال عديدة مأخوذة من نصوص أخرى" [1]، وإنَّ إضافات "جوليا كرستيفا "، تُعدّ بالغة الأهمية من ناحية أعطت مفهوما للنصّ، وجعلته قضية كبيرة لها الصّدارة في المعالجة والقراءة، ومن ناحية أخرى أرادت أن تؤسّس مفهوما لعلم النصّ، وذلك بتصنيفه ضمن التّحليل والدّراسة، بواسطة آلية التّناص ، ومدى علاقته بإنتاجية النّص.

إنَّ النصّ لا ينحصر على أن يكون لغة تواصليّة من أجل التّواصل فقط مع خضوعه لقوانين نحوية صارمة. فهو لا يقتصر على تصوير الواقع، أو يعكس ما فيه فقط. بل يتعدّاه إلى أكثر من ذلك. فهو يُساهم في تغيير الواقع لأنّه مرتبط به، كما يُساهم في تغيير حركة المجتمع. فالنصّ عند كلّ من "جوليا كرستيفا"، و" فان دايك" و" رولان بارت" وحدة إنتاجية. باعتباره بنية عامة كبرى لها مدلول لغويّ يفوق مستوى الجملة. "فمصطلح البنية العامّة الكبرى هذا متّصل بما تتضمّنه المستويات الدلاليّة...،هذه البنيات الكبرى لم يُعبّر عنها في قول واحد، أو في جملة إنّما في تسلسل مطّرد من الجمل "[2]. بجميع معطياته الدلالية والتّعبيريّة الّتي تشكّله وجعلت منه بناءً محكما .

---

[1] - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ،عالم المعرفة، 1992م، ص211،212.

[2] - فان دايك، النصّ والسّياق، استقصاء البحث في الخطاب الدّلاليّ والتّداوليّ، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشّرق، المغرب، 2013م، ص27.

ومنهم من نظر إلى النصّ بطريقة أكثر عمقا ودلالة. فأبرز للنصّ معطيات خفيّة لا تظهر إلاّ بالقراءة الجديّة والمركّزة. هذه المعطيات تشكّل نسيجه المحبك والمتناسق، كما نجد هذا عند ""حلمي خليل" الّذي أعطى بعض هذه المعايير الّتي لا يكون النصّ إلاّ بها، وهي سبعة معايير مجتمعة: السّبك – الحبك – القصد – القبول - الإعلامية - المقامية – والتّناص" [1]. إلاّ أن "جميل حمداوي" أضاف على ذلك معيارين مهمّين في تكوين وبناء النّص ألا وهما : الاتّساق والانسجام فهو يرى أنّ النصّ تتوفّر فيه مجموعة من الشّروط الجوهريّة هي: الاتّساق والانسجام والتّناص والقصد والقبول والاتّصال والمقاميّة"[2]. وكلّها عناصر تُساهم في تحقيق بنية نصيّة دالّة على معنى.

ونظرا لتوسّع الدّراسات اللّغويّة الحديثة، والّتي تولّدت على منوالها مفاهيم مستحدثة لاحتْ على إثرها بوادر مصطلح جديد أُعتمد في الدّراسات اللّسانيّة، و كان محلّ جدل ونقاش واسعين، ومحلّ دراسة وقراءة مُعمّقة طُرحت على طاولة المفاهيم اللّسانيّة: ألا وهو " الخطاب".

فمنهم من اعتبره موازيا لمفهوم النصّ، ومنهم من جعله مختلفا تماما عن النصّ، ومنهم من لاحظ أنّه أشمل وأجدر بالوضع الاصطلاحيّ كبديل عن النصّ.

فمــاهو الخطاب؟

---

[1] - أُنظر: حلمي خليل، في اللّسانيات التّطبيقيّة، در المعرفة، مصر، 2002م، ص57.

[2] - أُنظر: جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النصّ، شبكة الألوكة، ط01، 2015م، ص07.

الخطـاب:

لقد ظهرت في العصر الحديث مصطلحات جديدة مثل : نظريّة النصّ – علم النصّ- نظرية الخطاب ، تحليل الخطاب، وحازت على اهتمام الدّارسين والباحثين، وأصبحت لها الأولوية في الدّراسة والبحث، وقد كرّس لها التّنظير النّقدي الحديث كلّ الوقت. بل قرنًا من الزّمن. ومازالت تُعالَج و يتطرّق لها في ميادين الفكر الفلسفي والنقدي. بشكل غير مسبوق، ومن فرط الاهتمام به فضّله البعض على النصّ بقولهم: " وداعا أيُّها النّصّ، مرحبا أيّها الخطاب "[1]، ومنحوه التّميّز والتّفضيل، وأحاطوه بالدّراسة والتّحليل.

لقد استحوذ بحث الخطاب في القرن العشرين اهتمامات دارسي اللّغة والأدب بفضل ما قدّمته هذه المعارف من نظريات نقديّة ساهمت بشكل كبير في إعطاء ماهيّة للخطاب ككيان لسانيّ لغويّ حتّى وإنْ اختلفت تعاريفه بحسب توجّهات الدّراسيين ومعارفهم، وكذلك بحسب المناهج والدّراسات اللّسانية الّتي عرفته بدورها في العالم العربيّ بواسطة التّرجمة.

وللوقوف على تطوّر واتّجاهات الخطاب من منظور المدارس النّقديّة الحديثة، لابدّ أن نطرح فِكر و توجّهات هؤلاء النّقاد حتّى وإن اختلفت آراؤهم، أو على الأقلّ نحاول أن نوجز بعض التّعاريف من بعض المهتمين الّذين حصروا ماهيته بعلاقته باللّغة والتّواصل. والملاحظ أنّه برزت جدليّة واسعة حول مفهومه وماهيته، كان السّبق فيها للتّنظير الغربيّ قبل البحث العربي المعاصر. هذه الدّراسات كان لها تأثير كبير على النّقد الأدبيّ الحديث.

فالخطاب تشكيل وحدة معرفية تُنتج من طرف المرسل إلى المتلقّي في سياق معين، فهو إنتاج إبداعيّ تواصلي يُؤدّي دلالة معيّنة في إطار مقام معيّن. فالخطاب عند " "غاردنر" Gardnier: هو نشاط إنساني منطلقه عموما حدث مخصوص، أو مُثير، يتواصل بواسطة متكلّم مع مخاطَب، مُستعملا إشارات لفظيّة منظّمة حسب شفرة مشتركة" [2]، هذا التّواصل بين المتكلّم والمتلقي وفق سياق معيّن يفرض وجود رسالة لغويّة تتمّ بواسطة التّواصل

---

[1] - جملة أوردتها: كورنيليا فون راد، عن فارنكي أنقو، مقالات في تحليل الخطاب (مؤلّف جماعيّ) تقديم:حماد صمود، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، منوبة، 2008م، ص74.

[2] - جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة، ترجمة مجموعة باحثين، بإشراف عزّ الدّين المجدوي، المركز الوطنيّ للتّرجمة، تونس، ط02، 2010م، ص51.

بينهما تتمثّل في الخطاب الّذي تمّ تشكيله بواسطة اللّغة، فهو الّذي يُوجِدُ اللّغة بوصفها سابقة له " كنظام سابق على الخطاب، فهي موجودة بالقوّة، في حين أنّ الخطاب ما يُوجدها بالفعل"[1]. وبهذا فالخطاب ليس بمعزل عن اللّغة، ذلك أنّ هذا المصطلح تعود جذوره إلى النّظريّة اللّسانيّة الّتي تمحورت حول عنصري "اللّغة" و "الكلام". "فاللّغة نظام من الرّموز يستعملها الفرد للتّعبير عن أغراضه، و الكلام إنجاز لغويّ فرديّ، يتوجّه به المتكلّم إلى شخص آخر يُدعى المخاطَب"[2]. هذه اللّغة بدورها تشكّله و تحتوي معانيه، وتُنتجه لأنّها صادرة عن ذهن المتكلم، ولها وقعٌ جدّ هامّ على المتلقي في سياق اجتماعيّ معيّن. لهذا فالدّراسات اللّسانية تجاوزت البحث في الجانب الشّكلي البنيويّ للّغة، وركّزت على دور اللّغة في عمليّة التّواصل، وعلى الخطاب وما يعكسه من دلالات ومعانٍ لها دورها في المقام التّواصليّ.

وفي ظل هذا التقابل بين الخطاب واللّغة والبديل الاصطلاحيّ للثّنائيّة المعروفة "اللّغة والكلام، الّتي أطلقها "دي سوسير"، تكون بمقتضاها اللّغة نظاما من القيم الافتراضية الموجودة في أذهان المجموعة البشريّة النّاطقة بها، والّتي تتقابل مع الكلام أو الخطاب؛ أيْ الاستعمال الفردي لذلك النظام، و في ظلّ هذا التّقابل اقترح "غيُوم" مثلا استعمال مصطلح "الخطاب" بدل استعمال مصطلح الكلام الّذي يرجع إلى دي سوسير" [3]. والّذي حصره في العلامة الّتي تتكّون بدورها من وحدة(الدّال و المدلول)؛ أي الكلمة (اللّفظ) والمعنى. وللكلمة دائما ما يُبرّر وجودها وتلفظها، وما يبرز صوغها وفق معايير معرفيّة لا مناص منها لأنّها وسيلة للتّواصل. وبالكلمات تتشكّل الجمل، أو متتاليّة من الجمل الّتي بدورها

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليّة، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط01، 2004م، ص37.

[2] - عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبيّ وقضايا النصّ-دراسة، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2006م، ص11.

[3] - حافظ إسماعيل علويّ، منتصر أمين عبد الرّحمن، التّداوليات وتحليل الخطاب، بحوث مُحكمة، كنوز المعرفة، الأردن، ط01، 2014م، ص209.

تشكّل خطابا. وبذلك انبثق عن الدّرس اللّسانيّ الحديث ثلاث معطيات لغويّة شغلت دارسي اللّغة، وهي: الجملة والنصّ والخطاب. هاته العناصر تعالقت بشكل مباشر مع كلّ دراسة لغويّة سواء من حيث المفهوم، أو من حيث الدّراسة، فاختلفت منطلقات دارسيها باختلاف توجّهاتهم التّنظيريّة في مجال اللّسانيات.

فالخطاب عند "فان دايك" ليس جملة. وهو يتكون من مجموعة من الجمل " المنتظمة في متوالية تنتسب في نفس أو "عين " محلّ الخطاب" [1]، فالجملة الواحدة متعلّقة باتّصالها وتلاحمها مع سائر الجمل الّتي يتضمّنها الخطاب. وإذا تمّت المقابلة بين الجملة والخطاب "على أساس أنّ الجملة مقولة صرفيّة تركيبيّة صوريّة، شأنها في الصّوريّة شأن المفردة والمركّب (الاسمي – الوصفي – الحرفي)، وعُدّت بهذا التّحديد موضوع الوصف والتّفسير اللّغويين. فإنّ الخطاب قد تميّز عن الجملة باعتباره سمتين: تعدّيه للجملة من حيث حجمه وملابسته لخصائص غير لغويّة: دلاليّة وتداوليّة وسياقيّة" [2]، مع أنّ المفهوم الغالب في الدّراسات اللّغويّة الحديثة أنّ الخطاب قد يتجاوز حجمه الجملة إلى متتاليّة من الجمل، تتضمّن مدلولات وصياغة لغويّة واضحة ولها معنًى، وبالتّالي تُساهم في فهم قصد المتكلّم، " بيد أنّ مفهوم الخطاب قد نال من التّعدّد والتّنوّع، وبذلك بتأثير الدّراسات الّتي أجراها عليه الباحثون، ولهذا فهو يُطلق إجمالا على أحد مفهومين، يتّفق أحدهما مع ما ورد قديما عند العرب، وهذان المفهومان هما: الأوّل أنّه ذلك الملفوظ الموجّه إلى الغير، بإفهامه قصدا معيّنا ، والآخر الشّكل اللّغويّ الّذي يتجاوز الجملة" [3] . هذه الجمل ليست منفصلة عن بعضها، بل تُفعّل في سياق اجتماعيّ معيّن، ولها تأثيرها الحاسم على طريقة تفكير الأفراد، وتعبيرهم عن أنفسهم.

---

[1] - فان دايك، النصّ والسّياق، ص26.

[2] - أحمد المتوكّل، الخطاب وخصائص اللّغة العربيّة، دراسة في الوظيفة والبنية والنّمطّ ، دار الأمان، الرّباط، ط01، 2010م، ص21،22.

[3] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، ص36-37.

واللّسانيات الحديثة أبرمت عقدا قويّا مع الخطاب كمصطلح شملته أسفارهم ومؤلّفاتهم، وتجاوز ذلك إلى أنّ تصدّر عناوين كتبهم، وأسهموا وساهموا في إثراء معناه ومعطياته ومجالاته ومفهومه وفق ما تسنّى لهم من وعي معرفيّ حديث، كان الفضل فيه للفلسفة التّحليليّة الّتي انصبّت معظم أبحاثها على اللّغة الّتي لها دور كبير في تشكيل وبناء "النصّ" أو" الخطاب". هذا الأخير الّذي منحه التّنظير النّقديّ الحديث أهمّية قُصوى، إذْ استطاع أن يخرج صناعة الخطاب من مفهومها الضيّق الّذي طالما حُصر قديما في الرّسائل والخطبة والمناظرة، لتشمل الخطاب الكليّ الّذي يحمله أيّ كتاب يؤلّفه صاحبه فيصبح "الخطاب: هو مجموع المعاني الّتي تحملها الأجزاء، أو مجموع المقاصد الكليّة المراد إبلاغها وكذا الأشكال التّعبيريّة الّتي حقّقت ذلك...، وهو مجموع المعاني المُعبّر عنها بوسائل أسلوبيّة وبلاغيّة سمحت بتحقيقه إنجازا وتلقّيا" [1]. هذه الأشكال التّعبيريّة قد تتجاوز الجملة إلى سلسلة من الجمل أو نصّا كاملا، أو خطابات تمثّلها مؤلّفات قائمة بذاتها كالقصّة : لها بداية ونهاية...، كما تختلف من حيث نمطه فيكون إمّا خطابا سرديّا أو خطابا وصفيّا أو خطابا حجاجيّا أو علميّا...، وبهذا فالخطاب بمختلف هذه الأوجه والتّنوّع في الطّرح والإخراج وبمختلف المدارس النّقديّة الحديثة الّتي تنظر إليه من زاوية الدّلالة والمعنى. لكنّ الاتّفاق يكمن في كُنهه وجوهره ومحتواه الّذي ما يلبث أن يُعرِب عن وحدته اللّغويّة الدّالة بمختلف معانيه الّتي تحتويه وتشكّله، وتبرزه ككيان وبناء لغويّ جدير بالقراءة.

لقد حرّر النّقد الحديث كلّ من النصّ والخطاب من قيود النّحو والبلاغة، وتجاوز بذلك مرحلة جدّ واقعيّة بسيطة هي مرجعيّة أنّ الخطاب يكمن جوهره في "عمليّة التّواصل"، فحصر معظم الباحثين اللّغويين الخطاب في مجال التّواصل، ويُعتبر النصّ " خطابا إذا نظرنا إليه مجمُوعا مع سياق إنتاجه. ويذهب " جان ميشال آدم J.M.Adamمن خلال تمييزه بين"النصّ والخطاب"، و"أجناس الخطاب". فالخطاب عنده هو اعتبار المقام التّلفظيّ، والتّفاعليّ الفرديّ الّذي يُؤخذ فيه النصّ وعلاقته مع الخطابات الأخرى، داخل

---

[1] - محمّد بازي، صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتّأويليّة العربيّة، دار كنوز المعرفة، عمّان، ط01، 2015م، ص26.

الخطابيّة، وعلى هذا فإنّ نصّا ما لا يتمّ اعتباره خطابا إلاّ في حالة تداخل الخطابات لتشكيلة اجتماعيّة خطابيّة، وهذه التّشكيلة تحدّد بأنّها مجال تبادل النّصوص والأنماط النّوعيّة الخاضعة لتبادل أجناس الخطاب" [1]؛ أي أنّ الخطاب يتشكّل ضمن عمليّة التّواصل في مقام أو سياق اجتماعيّ معيّن. هذا الخطاب قد يتشكّل ويتمّ بناؤه من تداخل الخطابات، وتأثير النّصوص وتأثّر بعضها ببعض بما يسمّى بـ: نظريّة التّناص، ويعتبر "تداخل الخطابات مصطلح حديث النّشأة خاص بتحليل الخطاب، وإذا كان مصطلح التّناص نشأ في ظلّ انتشار المنهج البنيويّ، فإنّ مصطلح تداخل الخطابات نشأ في ظلّ مفهوم الخطاب" [2]. ومع أنّ الدّراسات اللّسانيّة الحديثة لم تقتصر على دراسة الخطاب وبيان ماهية وأنواعه فقط، بل تجاوزت ذلك إلى تحليل الخطاب. والخطاب بدوره وحدة لغويّة يكشف عنها تحليل الخطاب. ويرى " جورج يول" GeargeYule: أنّ تحليل الخطاب هو دراسة اللّغة سواء صدرت من المتكلمين أو من مستعملي اللّغة، ليس في وظيفتها الشّخصيّة التّفاعليّة؛ (أي المشاركة في تفاعل اجتماعيّ) فحسب، وإنّما وظيفتها النّصيّة؛(أي إيجاد نصّ مناسب ذي بنية صحيحة)، وكذلك في وظيفتها التّصويريّة (أي تمثيل الفكر والتّجربة بطريقة مترابطة).وتسمّى دراسة هذا المجال الأوسع لشكل ووظيفة ما يُقال أو يكتب ب: "تحليل الخطاب" [3]، هذا التّحليل لا يركّز على الخطاب المكتوب. بل يركّز كذلك على الخطاب قيد الاستعمال والتّواصل في بعض السّياقات للتّعبير عن القصد.

---

[1] - محمود طلحة، تداوليّة الخطاب السّرديّ، دراسة تحليليّة في وحي القلم للرّافعيّ، عالم الكتب الحديث،الأردن ، ط01، 2012م، ص18.

[2] - نفسه، ص65.

[3] - أنظر: جورج يول، التّداوليّة-ترجمة قصي العتابي، دار الأمان، الرّباط، ط01، 2010م، ص127.

ولا يمكن أن نطلق اسم" الخطاب" على قول تشكّل بشكل عشوائيّ معنىً ولغة، إلاّ بوجود تناسق وترابط في التّركيب والدّلالة. ذلك بأنّ " أيّ نسق من الجمل لابدّ أن يترابط لكي يصنع خطابا" [1]. فالخطاب بمعطياته الدلالية والتّفكير المسبق المشكّل بطريقة إبداعية تستهوي ذهن القارئ، تشكّله عدّة جمل متماسكة فيما بينها لتحقق التّأثير في المتلقي. والخطاب نص إبداعي لا يخرج عن منحى اللّغة، فهي أداة الإبداع والتّعبير فيه، فهو يتحقّق باللّغة، ومن خلال اللّغة.

وتحليل الخطاب يعني بدوره تحليل اللّغة، لأنّه مرتبط بها من حيث الوظيفة والتّبليغ للمتلقّي أثناء عملية التّواصل " فنظرية الخطاب الّتي تدرس لا الخطاب نفسه، بل العناصر والكيفيات الّتي ينشأ عنها الخطاب، والتي تحقّق بها هدفه وتأثيره "[2]، ومن بين هذه العناصر هي اللّغة الّتي أنتجته، وباشرت إلى إنجازه وإبداعه. هذا الإبداع الفنيّ يخترق كلّ مجالات العلم والإيديولوجيا من حيث هو خطاب متعدّد الرّؤى، ومتنوّع اللّسان، بتحديد ألفاظه الّتي ستظهر لنا كتابة ذلك البلّور المُنبعث من عمق الدّلالات الّتي تعكسها المفردات اللّغوية، والّتي تشكّل بدورها فضاء لا مُتناهٍ يتمثّل في الخطاب الأدبيّ الفنيّ، أو على شكل نصّ فني إبداعيّ.

بيد أنّ التّداخل بين النصّ والخطاب من ناحية المفهوم والطّرح في التّنظير اللّساني يظهر بشكل جليّ وواضح لدى الباحثين اللّسانيين في مؤلّفاتهم، على اعتبار "أنّ النصّ بنية مترابطة تكوّن وحدة دلالية، في حين أنّ الخطاب ينبغي النّظر إليه على أنّه موقف ينبغي للّغة أن تحاول العمل على مطابقته، وعلى ذلك فإنّ الخطاب أوسع من النصّ، فالخطاب ليس بنية بالضّرورة، ثمّ إنّ غلبة النصّ على المكتوب، والخطاب على الملفوظ ليس حاسما، فأحدهما يلتبس بالآخر" [3]. وقد فرق "بول ريكور" بين النصّ والخطاب، على أساس أنّ

---

[1] - دنيال مكدونيل، مقدّمة في نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم عز الدّين إسماعيل، المكتبة الأكاديميّة، مصر، 2001م، ص30.

[2] - نفسه، ص31.

[3] - محمّد العيد، النصّ والخطاب والاتّصال، الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط01، 2005م، ص12.

الخطاب قد يكون ملفوظا، أمّا النصّ فبالضّرورة تثبّته الكتابة فرأى أنّ النصّ خطاب أثبتته الكتابة" [1]، إذ يعتبر أنّ الخطاب على الأرجح أن يكون ملفوظا بحكم أنّه فعل لسانيّ مرتبط بسياق تواصليّ معيّن وتدوينه كتابيّا نستطيع أن نصنّفه ضمن خاصيّة النّصية (النصّ) ،والنصّ من وجهة نظره أعمّ من الخطاب. إذ يُعتبر تسجيلا للخطاب لكي يبقى أطول فترة بواسطة آليات وأدوات اللّغة الّتي تساهم في تثبيته كتابيّا، وذلك "عندما يأخذ النصّ مكان الكلام يحدث شيء مهمّ في تبادل الكلام، يكون كلّ من المتكلّمين حاضرا بالنّسبة للآخر، وكذلك الوضع المحيط، والوسيط الطّرفي للخطاب كذلك. ولا يكون الخطاب دالاّ تماما إلاّ مقارنة بين الوسط الظّرفي ...، وتُسهم أسماء الإشارة وظروف الزّمان والمكان، ضمائر المتكلمين، أزمنة الأفعال، عموما كلّ القرائن الإشارية والجهارية في تثبيت الخطاب " [2]، وعلى هذا الأساس فالخطاب يركّز على حضور المتكلّم والمتلقي كطرفين أساسيين ومهمين في عملية التّواصل بواسطة التلفّظ الّذي سبقهما. على اعتبار أنّ الخطاب ملفوظا ينتج في سياق لغويّ معيّن. هذا التلفّظ هو الّذي يشكّل الخطاب، ويبعث فيه الحياة، ويصدره إلى المتلقّي. هذا الأخير يستعمل كلّ الوسائل المعرفيّة والتّأويليّة لفهم واستيعاب هذا التّلفّظ المتمثّل في الخطاب. ونعني " بالتّلفّظ : فعل الاستعمال الفردي لنظام اللّغة، فهو مرتبط بمقاصد الاستعمال، والمقامات الّتي يجري فيها، وتدخل في تكوينه عدّة مكوّنات: المتلفِّظ (صاحب الخطاب)، والمتلقي وقد سُمّي في تحليل الخطاب بالمتلفّظ المشارك، والملفوظ: أيْ نِتاج فعل التلفّظ، وقناة التلفّظ ؛ أيْ الوسيلة الّتي يستعملها صاحب الخطاب لإيصال ملفوظه إلى المتلقي، واللّغة المستعملة، والمقام الّذي يجرى فيه التلفّظ " [3]، وبهذا المعنى يركّز الخطاب على عمليّة التلفّظ ، وكلّ ملفوظ يُعتبر خطابا في سياق تواصليّ وظيفي.

---

[1] - أُنظر: بول ريكور، من النصّ إلى الفعل، ترجمة محمّد برادة وحسّان بورقية، الدّراسات والبحوث الإنشائيّة، ط01، 2001م، ص106.

[2] - نفسه، ص108.

[3] - محمود طلحة، تداوليّة الخطاب السّرديّ، ص39.

أما من وجهة نظر أحمد المتوكّل فإنّ:" الخطاب وحدة تواصليّة يحددّها مقام وموضوع وعرض، في حين أنّ: النصّ وحدة بنيويّة تقابل المركب والجملة، يمكن أن يكون الخطاب جملة بسيطة أو جملة مركبة، أو جملة كبرى ، إذا كانت هذه الجملة تشكّل وحدة تواصليّة كاملة...،إلاّ أنّ النصّ لا يمكن أن يكون إلا مجموعة جُمل، وليس كلّ مجموعة من الجمل نصًا، فلا يقوم النصّ إلاّ إذا ربطت بين وحداته علاقات اتّساق بعبارة أخرى، لا تشكّل مجموعة من الجمل نصًا إلاّ إذا كانت تكوّن خطابا؛ أي وحدة تواصليّة ذات موضوع وغرض معينين "[1] ، هذه المقارنة الواضحة والجليّة بين النصّ والخطاب توحي إلى ما مدى اهتمام المناهج اللّغوية الحديثة بدراسة الخطاب بأنواعه، نظرا لكون هذه النّظريات والمناهج ركّزت على اللّغة في حالة الاستعمال والتّواصل؛ أي خلال عمليّة ممارسة اللّغة في سياق تواصلي محدّد. وقد "عرّف" ميشال فوكو" الخطاب: كمجال عام لكلّ العبارات، وأحيانا كمجوعة من العبارات الخاصّة، وأحيانا أخرى كممارسة منظّمة تفسّر وتبرّر العديد من العبارات"[2]. وتعلّق "سارة ميلز" : على كلام "ميشال فوكو " تقول: يعتبر تعريف "فوكو" أشمل التّعاريف: <مجال عامّ لكلّ العبارات>، وهذا يعني أنّ كلّ ما يكتب أو يُتفوّه به ويكون له معنى ومفعول في العالم الحقيقي يعتبر خطابا. وهو يدلّ على الخطاب بصفة عامّة أكثر ممّا يدلّ على خطاب معيّن، أمّا تعريفه:< مجموعة من العبارات الخاصّة >؛ أي مجموعة العبارات الّتي تبدو منظّمة بطريقة معيّنة ومنسجمة، ولها مفعول مشترك، و قوّة واحدة. أمّا أنّه < ممارسة منظّمة تفسّر وتبرّر العديد من العبارات >. أعتقد أنّ "فوكو" يهتم بالتّركيب والقواعد الّتي تحكم الخطاب. فأهمّ شيء أنّ الخطاب يخضع لقواعد وضوابط معينة "[3].

---

[1] - أحمد المتوكّل، قضايا اللّغة العربيّة في للّسانيات الوظيفيّة، بنية الخطاب من الجملة إلى النصّ، دار الأمان، الرّباط، المغرب، 2001م، ص81،82.

[2] - سارة ميلز، الخطاب- ترجمة يوسف بغول، منشورات مخبر التّرجمة، قسنطينة، 2004م، ص05.

[3] - نفسه، ص05.

النصّ والخطاب كلّ منهما يخضع لقواعد لغويّة مضبوطة، وبالتّالي لم يعد هناك فرق كبير بينهما. لكن قد تكون خاصية " التلفّظ " في عمليّة التّواصل هي ما يميزهما عن بعض. ذلك أنّ الخطاب ملفوظ في سياق تواصليّ معيّن، سواء كانت جملة أو متتالية من الجمل، وهذا لا يمنع من أن تكون له ضوابط لغويّة تؤهّله من أن يكون بناءً مُحكما تحكمه قواعد وضوابط لغويّة حتّى يكون أسهل فهما و أكثر دلالة لدى لمتلقي .

لذا اهتمّ المنظّرون في مجال اللّسانيات الحديثة بالخطاب، وببنيته وبألفاظه داخل سياق معيّن وفق عملية التّواصل؛ أي بظروف إنتاجه. هذه الخاصيّة تفرض وجوده بتوفر أطراف الحوار: المتكلّم والمتلقي (السّامع). وبهذا فإذا كان الخطاب مرتبطًا بالتلفّظ والسّياق التّواصلي، فإنّ النصّ يتميّز بكونه مجردا من السّياق. وهذا ما حاول إثباته "ميشيل آدم (M. adam) حين ميّز بينهما بالشّكل الرّياضيّ التّاليّ: [1]

الخطاب = النصّ + ظروف الإنتاج .

النــصّ = الخطاب- ظروف الإنتاج.

وهذا التّمييز الواضح بينهما يكمن في حضور الظروف المحيطية بالنّسبة للخطاب؛ أي الظّروف الخارجيّة الّتي تتمثّل في السّياق، فالخطاب أخذ متّسعا دراسيّا جدّ مميّز ضمن الدّراسات اللّسانيّة الحديثة، فصار يُطلق عليه اسم (نظريّة الخطاب)، في حين أنّ بعض الدّارسين صرّح بالمطابقة بين النصّ والخطاب، وقد " يستخدمان كمرادفين يتعاقبان، وهما مصطلحا " النصّ" text، و" الخطاب" discourse...،إلاّ أنّ الاتّجاه الغالب الآن هو اختيار مصطلح " الخطاب"، وتفضيله عن منافسه، ولعلّ السّبب في هذا التّفضيل هو أنّ مصطلح "الخطاب" يوحي أكثر من مصطلح " النصّ"، بأنّ المقصود ليس مجرّد سلسلة لفظيّة (عبارة أو مجموعة من العبارات) تحكمها قوانين الاتّساق الدّاخلي (الصّوتيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة الصّرف)، بل كلّ إنتاج لغويّ يربط فيه ربط تبعيّة بين بنيته الدّاخليّة وظروفه المقاميّة بالمعنى الواسع" [2]، و "ربط تبعية تعني: أنّ لبنية الخطاب علاقة

[1] - جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النصّ، ص08.

[2] - أحمد المتوكّل، قضايا اللّغة العربيّة في اللّسانيات الوظيفيّة، ص16.

بوظيفته؛ بل إنّها خاضعة لتلك الوظيفة" [1]، وبهذا فالخطاب بغض النّظر عن حجمه، فهو يخضع للوظيفة السّياقيّة الّتي أُنتج فيها ومن أجلها.

الخطاب هو كلّ ملفوظ سواء اقتصر على جملة أو متتاليّة من الجمل الّتي تشكّل بدورها وحدة تواصليّة ذات دلالات تُؤهّله إلى أن يُحقّق فعلا إنجازيّا من خلال التّلفظ. هذا التّواصل يعبّر عن تفاعل اجتماعيّ عن طريق المحادثة في إطار مقام تواصليّ مُعيّن .

فقد تتحقّق فكرة نقديّة من خلال جملة واحدة، فتسمىّ هذه "خطابا نقدياّ ، لأنّنا لا ننظر إلى حجم الخطاب بقدر ما نركّز على أنّه استوفى معنى ملفوظاته، ودلالتها النّقدية المقصورة الّتي تُعطي لنا فكرة صائبة وهادفة.

وبناءً على ذلك فالخطاب: ملفوظ تُشكّله وحدة لغويّة وفق سياق تواصليّ معيّن؛ أيْ الظروف المحيطة الخارجية المنتجة له، ليحقّق فعلا منجزا مفيدا وهادفا، يكون نِتاج ذلك الحوار التّداوليّ بين أطراف التّواصل.

---

1 - السّابق، ص17.

التّداوليّة وجذورها الفلسفيّة:

الخطاب بكلّ معطياته، وأسسه اللّغويّة والدّلاليّة والسّياقيّة أصبح رهين الدّراسات اللّسانيّة الحديثة بكلّ مناهجها المعرفيّة ودراستها اللّغويّة الّتي ما لبثت أن وضعته تحت المجهر للمعالجة والقراءة. هذه النّظريات اللّسانيّة ليست بديلا لوضع قواعد ومفاهيم لسانيّة نظريّة فقط ، بل هي مجموع الأدوات والمعطيات الّتي تجعل من الخطاب محلّ الدّراسة والتّحليل، خاصّة "عندما يكون القول هو الفعل" [1]. هذه الدّراسات اللّسانيّة ظهرت كمنهج معرفيّ جديد حاصر اللّغة من جميع جوانبها الشّكلية والدّلاليّة والوظيفيّة، فظهرت اتّجاهات ومناهج لسانيّة مختلفة كالسّيمائية والأسلوبيّة والبنيويّة والتّداوليّة، والتّأويل ونظريات المعنى...، وكلّها حركات نقديّة حديثة ظهرت في الغرب، كان هدف أصحابها البحث عن المنهج النّاجع والوجيه لدراسة اللّغة دراسة تمكّنهم من معرفة حقيقتها التّواصليّة والاجتماعيّة، ويحمل عبء دراسة اللّغة بجميع مسوغاتها ودلالاتها ومعانيها، وعلاقتها بمستعمليها، بغضّ النّظر عن نوع الخطاب، ونوع مستعمليه. هذه الجهود مكّنت علماء العصر الحديث إلى إعادة النّظر في كُنه الخطاب ووجوده.

وتعدّدت مستويات القراءة والبحث في الخطاب بجميع أنواعه، والّتي ركز بعضها على الجانب الشّكلي للّغة أكثر من عمقها الدّلالي، وهذا ما اختصّ به المنهج البنيوي دون غيره فعالم اللّغة " دي سوسير استطاع أن يشكّل رأيا مسموعا، وعُدّ مؤسّس اللّسانيات البنيويّة، وصارت أفكاره أسس نظريّة لدى اللّسانيين فيما بعده " [2]، مع أنّ "جان بيجيه" يقرّ بأنّ: ""دي سوسير" يُنتسب له المنهج البنيويّ مع أنه لم يستعمل لفظ بنية " [3]. هذا المنهج اتّسم بدراسة البنيات الّتي تُؤلّف النصّ وتحدّد علاقاته ومفرداته، وتنظيمها، وإعادة بناء هذا التّفكيك تحت ما يُسمّى " بالنّظريّة البنيويّة " الّتي ركّزت على تفكيك النصّ وإعادة بنائــه

---

[1] - حافظ إسماعيل علويّ، التّداوليات وتحليل الخطاب، ص142.

[2] - خليفة بوجادي، في اللّسانيات التّداوليّة، مع محاولة تأصيليّة في الدّرس العربيّ القديم، ص17.

[3] - أنظر: جان بيجيه، البنيويّة- ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط04، 1980م، ص64.

من جديد "لأنّ الفكرة الرئيسيّة للبنيويّة الصيغيّة هي بنية الجملة" [1]، وهذا الجانب الشّكليّ غير مُجدٍ مع الخطاب الأدبيّ الّذي هو أعمق من أن يُفكّك ويُبنى شكله، والّذي لا يُضيف إليه غير السّكون، دون تحديد فحواه ومحتواه النصيّ الّذي ينبض بالحركة والدّلالة وعمق المعنى .

لقد اهتمت اللّسانيات البنيويّة بالجانب الشّكلي الضيّق للّغة، إذ أخذت على عاتقها دراسة اللّغة من جانب بنيتها التّركيبيّة، وأهملت جانب الإنجاز الكلامي واللّغوي الّذي يتمثّل في دراسة اللّغة وفق العوامل الخارجيّة، والعوامل الّتي بها صِلة بالمعنى ومدلول اللّفظ. وعليه فإنّ المنهج البنيويّ عجز عن حلّ المشكلات والمسائل المتعلّقة باللّغة نظرا للمسار الضيّق الّذي انحصرت فيه اللّغة، وهو الجانب الشّكلي لها. متطلّعة في ذلك إلى " دراسة اللّغة في ذاتها" [2]، فأقصت بذلك جانب التّواصل بجمع معطياته التّخاطبيّة والسّياقيّة، ومجال المقام الّذي يُنجز ضمنه الخطاب.

وعلى الرّغم من أنّ المنهج البنيويّ لاق انتقادات عديدة من طرف فلاسفة وعلماء اللّغة المحدثين، لكن الحقيقة أنّه لا يخلو من جانب إيجابيّ مفيد لا ننكره، و تكمن أهميّته في أنّه ألهم المفكّرين اللّسانيين، والفلاسفة اللّغويين إعادة النّظر في اللّغة من جديد، بنظرة ثاقبة وأكثر عمقا ودلالة عن سابق عهدها، وتمثّلت في الجانب الوظيفي للّغة أثناء عملية الاستعمال والتّواصل.

وبما أنّ هذا المنهج لا يجيب عن أسئلة النّقاد. كان لابدّ من إعادة النّظر فيما يمكن أن يكون عليه "النصّ أو الخطاب"، ويُقرأ قراءة دقيقة تمكّنهم من معرفته وفك شفراته ومحتواه. وعلى هذا الأساس بدأ تيار "ما بعد البنيويّة " يبحث عن حقيقة المعنى الّذي ألهم بدوره المفكّرين في التّنظير اللّغوي إلى الخوض في مضمار الأنظمة اللّغويّة في حال الاستعمال والتّواصل، واتّسع بذلك نطاق البحث ليشمل النصّ والخطاب، واستنباط معانيهما الدّالة ووظيفتهما التّواصليّة.

---

[1] - السّابق، ص47.

[2] - فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللّسانّ، ص32

هذه الوظيفة التّواصليّة المستحدثة الّتي تنبع من تداول اللغّة والكلام في المجتمع البشريّ، ضمن سياق تواصليّ، كانت من نصيب التّنظير الجديد ألا وهو: "المنهج التّداولي" الّذي ذاب على إثره جليد بنية الكلمة وعدد حروفها، مع المنهج البنيويّ المولّد لها، والمساند لشكلها الحرفيّ قبل جوهرها الدّلاليّ. هذا التّنظير المستحدث تجاوز بذلك الكلمة المفردة إلى مستوى الخطاب بالتّمعّن في معانيه ودلالاته وظروفه الخارجية، وسياقاته التّداوليّة .

والمنهج التّداولي يُولي اهتماما كبيرا لدراسة الكلام والسّياق الّذي يجول فيه لدرجة أنّ هذه الظّروف الخارجيّة هي الّتي تساهم في فهم مقصديّة الكلام، والتّداولية كمنهج لغوي يرجّح دراستهما معا؛ إذ لا يمكن أن نعزل اللّغة عن الكلام لأنّها لا تتحقّق إلاّ بوجود هذا الفعل الّذي هو ملكه في ذات الإنسان، ولا يمكن تجاهلها لأنّها تصدر من جانب فيزيولوجي وتعبّر عن فكر داخليّ طالما كان الكلام هو الوسيلة الّتي تمكّننا من البوح، و به تتحقّق عمليّة التّواصل، مع أنّ البنيويّة تلغي صفة اللّغة الّتي تُفعّل بالتّواصل والتّأثير. لكن التّداولية تهتمّ بدراسة اللّغة أثناء الاستعمال والتّواصل، مركزة على وجود عوامل خارجية تتمثّل في السّياق ومتلقٍ يستوعب عمليّة التّبليغ في مسار كلامي تواصليّ كان للّغة الدّور الأساسيّ فيه.

لقد ازدحمت الدّراسات اللّغويّة الحديثة بتوجّهات معرفيّة وفلسفيّة جديدة أثّرت بشكل جليّ وكبير على مناهج ونظريات اللّغة إذ " تمّ اختراق ساحة العلوم اللّغويّة بتيارات فلسفيّة ونفسيّة واتّصاليّة، وتمّ تقسيم البحث اللّغوي في اللّسانيات الغربيّة إلى نموذجين لسانيين متنافسين:المنحى الشّكلي الصّوري بزعامة " البنيوية"، والمنحى الوظيفي بزعامة " التّداولية :" [1]. هذه المناهج زاحمت بعضها البعض. فيما نستطيع أن نطلق عليه ب " زحام المناهج " أو حوار المناهج في الدّرس اللّغوي الحديث، ومع أنّها أتت متأخّرة ، لكنّها استطاعت أن تأخذ الصّدارة في تناول الخطاب تحليلا ودراسة ، فتراجعت على إثر ذلك البنيويّة بإرادتها ورفعت راية الاستسلام لتترك السّاحة اللّغوية للتّداوليّة؛ لأنّها لطالما

[1] - مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي، دار التّنوير، الجزائر، ط01، 2008م، ص15.

انطلقت من نظريات لغوية كأساس لها، ولكن كان ذنبها الوحيد يتمثّل في أنّها أقصت وأهملت اللّغة ضمن إطار التّواصل والاستعمال. وبهذا تجاوزت اللّسانيات مرحلة ما بعد البنيويّة. فشهدت منعطفا جديدا أجبر علماء اللّغة أن يغيّروا نظرتهم إلى اللّغة بشكل مغاير عمّا كان عليه سابقا، ليحدثوا بذلك انقلابا واسعا في الجانب المفاهيميّ للّسانيات بشكل عام. كما استطاعت أن تستوعب كلّ جوانب اللّغة، أو على الأقلّ تطرّقت إلى جُلّها بدءًا من علاقة اللّغة الطّبيعيّة بالإنسان، وعلاقتها بالفكر الّذي تعتبر هي أداته .

لقد اهتم الفلاسفة والمفكرون باللّغة بالدّرجة الأولى عند أولئك الّذين يتشبّثون بحقيقة الجمل الهادفة، وبالجمل التي نطلق عليها اللّغات الطّبيعيّة...، ومن هؤلاء الفلاسفة: " فريج (Freg)،روسل (Russel)،كارناب(Carnep)،وتطرّق جلّهم إلى البعد التّداولي، أي الأخذ بعين الاعتبار لدور المتكلّمين، والسّياق كشيء يتطلّب الإلمام به...، أمّا في الدّرجة الثّانية: فتظهر التأملات القريبة من التّداولية عند هؤلاء الّذين يهتمون منذ أمد بعيد بآثار الخطاب على المتكلّمين والمسمعين، من سوسيولوجيين، ومعالجين نفسانيين، وممارسي التّواصل، ولسانيّ تحليل الخطاب. أمثال: بيرلمان(Porelmon وديكرو(Ducrot)، وهم أقرب عامة من إحدى مصادر التّداولية...، كما يوجد صنف من المنظّرين الّذين يجمعون بين الدلالة والجملة...، كما عند أوستين (Aushine)، وسيرل (Saerle)، وتعدّ التّداوليّة عند هؤلاء شيئا أساسيّا ومركزيا:" [1]. وبهذا فقد تبنّت هذه الفلسفة التّحليل كمنهج لدراسة اللّغة، وبيان عناصرها، وعلاقتها بالإنسان، وبعالمه الخارجي، وبذلك فقد أسهمت إسهاما كبيرا في دراسة اللّغة من جانب الإنجاز والتّواصل. فوجدت نفسها أمام قضايا اللّغة بجميع مكوّناتها، ومعطياتها الأساسيّة بدءا من المتكلّم وعلاقته بالمتلقّي في سياق تواصليّ معيّن.

كما اكتشفت هذه الفلسفة ظواهر لغويّة عديدة أُعتبرت فيما بعد أنّها الأسس اللّغوية الّتي يركّز عليها التّحليل في المنهج التّداولي فعكفوا على دراستها، " وتميّز تحليلهم بالجدّة والعمق، وأهمّها "ظاهرة الإحالة " و"مفهوم الاقتضاء " وظاهرة الاستلزام التّخاطبيّ"

---

[1] - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة- ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء التّوجيهيّ، الرّباط، ص 06، 07.

و"الافتراضات المسبقة "و"ظاهرة الأفعال الكلاميّة " و" الحجاج"..." [1]، وهذه الظّواهر اللّغوية صنّفت فيما بعد بأنّها الآليات الأساسيّة الّتي يقوم عليها المنهج التّداولي. الّذي بدوره استلم اللّغة، واستطاع أن يُحاصرها من كلّ جوانبها اللّغويّة والتّبليغيّة والتّواصليّة والوظيفيّة والاجتماعيّة و الغائيّة، لأنّها تهدف إلى غاية تتمثّل في اتّصال وحوار الإنسان مع غيره بلغة طبيعية تستوفيها ظروف تعامله مع الآخرين في حياته الاجتماعيّة.

هذا المنهج استطاع أن يعنى بدراسة اللّغة من ناحيّة التّواصل والاستعمال اللّغويّ في سياق اجتماعيّ معيّن، وهذا مؤشّر لـ: " نشوء اللّسانيات الوظيفيّة بدءا ممّا قدمّه الشّكلانيون الرّوس، ثمّ أعلام مدرسة براغ، والمدرسة النّسقيّة، الّذين اهتمّوا جميعا بالوظيفة، انطلاقا من مفهوم التّواصل بعدّه وظيفة أساسيّة في النّشاط اللّغوي لدى الإنسان" [2]، وبهذا تكون اللّسانيات الوظيفيّة قد تجاوزت النصّ إلى الوظيفية المقاميّة الّتي لا تقتصر على جانب تلقّي الكلام، بقدر ما تهتمّ بظروف التّواصل الخارجيّة فيه، وقيمتها التبليغيّة الدلاليّة المقصودة. وهذا ما يستدل به المنهج التّداولي لتبرير طرحه في دراسة اللّغة، ومعالجتها من جانبي الاستعمال والتّواصل .

ويعد مفهوم التّداوليّة من المفاهيم اللّسانيّة الحديثة الّتي أسِرت عقول وتفكير المنظّرين اللّغويين والباحثين المهتمين بدراسة اللّغة. لكونها نقطة الوصل بين الإنسان وعالمه الخارجي، لقد شدت انتباه الدارسين وأصبحت من المصطلحات المثيرة للجدل، فتضاربت الآراء حول تحديد ماهيّة دقيقة لهذا المصطلح، وحاول العديد من الباحثين تأسيس قواعد وأطر معرفيّه تمكّنهم من حصر آلياتها، والإلمام بجوانبها المعرفيّة، وأساسياتها في تحليل الخطاب. ومع تشعّب منطلقاتها الفكريّة. " فهي تقع في مفترق طرق الأبحاث اللّسانية والفلسفيّة " [3]، لأنّها نشأت وانبثقت من رحم الفكر الفلسفي التّحليليّ - الفلسفة التّحليليّة – وتُشير إلى ذلك: "فرنسواز أرمينكو (fronsoise Armingaud) في قولها: كسبت

[1] - مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، ص36.

[2] - خليفة بوجادي، في اللّسانيات التّداوليّة، ص60.

[3] - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ص 06.

التّداولية درسا منكفئا على نفسه، فهي تصدر مفاهيمها في اتّجاهات متعدّدة، ولا تقوم فقط "بتفجير إطار المدارس اللّسانيّة التقليديّة"...، بل تتدخّل في قضايا كلاسيكية داخليّة للفلسفة، فهي تلهم الفلاسفة...، فالتداولية مفترق طرق غنيّة لتداخل - اختصاصات اللّسانيين، والمناطقة والسّميائيين، الفلاسفة، السّيكولوجيين والسوسيولوجيين، فنظام التقاطعات هو نظام للالتقاءات والافتراقات" [1]، أما جانب الافتراق، فلكلّ فرع من الفروع الفلسفيّة مجاله ونظامه والإيديولوجيا الخاصة به. أمّا الالتقاء والتّقاطع بينها وبين جميع هذه المعارف الفلسفيّة، فإنّه يكمن في أنّها غدت مجالا رحبا للدّراسة والبحث كنظرية نقدية تناولت الخطاب دراسة وتحليلا. ومن جانب آخر استطاعت أن تستقي من هذه الفروع والمعارف آلياتها وأركانها وعناصرها الأساسيّة الّتي طُرحت في تحليل الخطاب.

يعود استعمال مصطلح"التّداولية Pragmatics"بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكيّ " شارلز موريس"Chales Merris . ففي سنة 1937م استطاع أن يميّز في مقال كتبه في موسوعة علميّة بين مختلف الاختصاصات الّتي تعالج اللّغة وهي:

_ **علم التّراكيب** : (بالإجمال النّحو الّذي يقتصر على دراسة العلاقات بين العلامات).

_ **علم الدلالة** : (الّذي يدور على الدّلالة الّتي تتحدّد بعلاقة تعيين المعنى الحقيقي القائم بين العلامات، وما تدلّ عليه). وأخيرا **التداوليّة** : الّتي تُعنى في رأي موريس بالعلاقات بين العلامات ومُستخدميها، والّذي استقرّ في ذهنه أن: " التّداوليّة " تقتصر على دراسة المقام الّذي يجري فيه التّواصل" [2]، ويعود "هذا التّطبيق الثّلاثيّ إلى "بيرس"Peirse وإن كان موريس هو أوّل من رسمه بوضوح" [3]، حيث أنّه يعتبر أنّ التّداوليّة فرعا من فروعاللّسانيات؛ أي هي منهج لدراسة الخطاب بصفة عامّة، من ناحيّة التّراكيب وأنساق

---

[1] - المرجع السّابق، ص11.

[2] - آن روبول، جاك موشلر، التّداوليّة اليوم علم جديد للتّواصل، ترجمة سيف الدّين دغفوس، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، لبنان، ط01، 2003م، ص29.

[3] - محمّد محمّد يونس عليّ، مدخل غلى اللّسانيات، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ط01، 2004م، ص19.

القواعد المخصّصة، ومن ناحيّة الجانب الدّلالي الّذي يحدّد معانيه ومدلولاته. ومن ناحيّة التّداولية كمنهج لغوي، أو علم جديد لدراسة اللّغة من جميع جوانبها، وفي بعدها من جانب الاستعمال الّذي يركز فيه على عناصر السّياق الّذي يجري فيه التّواصل .

غير أنّه وُجدت دراسات سبقته تمثّلت في " محاضرات " وليام جيمس" الّتي ألقاها الفيلسوف" جون أوستين " عام 1955م. ولم يكن يفكّر في تأسيس اختصاص فرعيّ للّسانيات، فلقد كان هدفه تأسيس اختصاص فلسفيّ جديد هو " فلسفة اللّغة" .ونجح في ذلك. بيد أنّ محاضرات "وليام جيمس" ستكون كذلك بوتقة التّداولية اللّسانيّة " [1]، وهذا الفيلسوف نظر للبرغماتيّة كنظرية فلسفية. لكن يكفي أنّه كان من الباحثين السبّاقين الّذين أفردوا لها مؤلفا تحت عنوان "البرغماتية"، ووضّح فيه أنّها "كلمة مشتقة من الأصل اليونانيّ، وهو كلمة برغما (pragma)، وتعني العمل، ومنها أيضا كلمة (practice)
(يمارس عملا). وكلمة (pratical) (عملي) " [2]، ومع ذلك فهو يُقرّ ويصرّح بقوله: كان السيّد " شارل بيرس" 1839 _1914م، أوّل من أدخلها في الفلسفة عام 1878م. ففي مقالته " كيف نجعل أفكارنا واضحة ." يقول السيّد " بيرس": لكي نطوّر معنى فكرة ما، فما علينا إلاّ أن نحدّد السّلوك المناسب الّذي تنتجه: السّلوك في نظرنا هو الأهميّة الوحيدة لها. والحقيقة الملموسة الكائنة في جذر أفكارنا كلها...، هذا هو مبدأ "بيرس"peirc". إنّه مبدأ البرغماتيّة. لقد ظل هاجعا لم يلفظه أحد لعشرين عاما يقول وليام جيمس: حتى جئت أنا وقدّمته للعلن. أمام الاتّحاد الفلسفيّ لجامعة كاليفورنيا 1898م " [3]. ومهما كانت هذه الجذور الفلسفيّة للنّظريّة التّداوليّة. فإنّنا سوف نركّز على أهمّ الفلاسفة الّذين أدمجوا هذه النظريّة لدراسة اللّغة. وركّزوا على كلّ ما يصدر من المتكلّم، وما يصل إلى المتلقّي من تضمينات يجب فكّها لفهم مقصديّة الكلام. ومن أشهر الّذين اعتمدوا " **التّداوليّة**" في الدّرس اللّغوي

---

1 - آن روبول، التّداوليّة اليوم علم جديد للتّواصل، ص29.

2 - وليام جيمس، البرغماتيّة، Pragmatics، ترجمة وليد شحادة، دار الفرقد، سوريا، ط01، 2014م، ص 54.

3 - نفسه، ص54.

المعاصر "لفيلسوف الأمريكي"بول كراس عرّاب التّداوليّة، وتعتبر محاضرات "وليام جيمس" الّتي ألقاها في جامعة هارفرد في 1967م . نقطة الانطلاق لدراسة التّداوليّة، اعتمادًا على معنى ما قاله المتكلّم، والافتراضات المسبقة أو السّياقيّة،والمبادئ التّواصليّة العامّة،وبهذا يصل السّامع إلى"تضمينات"ما قاله المتكلّم" [1]، وكذلك وضع كل من أوستن J.Laustin، وتلميذه سيرل J.R seurle" نواة التّداوليّة في حقل فلسفة اللّغة العاديّة" [2]. هؤلاء الفلاسفة الثّلاث الّذين قاموا بتطويرها في الدّرس اللّغوي. ومع ذلك يصعب وضع تعريف جامع لها وشامل ووافٍ وكافٍ، نظرا لصعوبتها، واتّساع مجالها. فهي لا تقتصر على علم اللّغة. بل تتداخل مع علوم أخرى، ومع ذلك فالعديد من الباحثين والفلاسفة استطاعوا أن يقدّموا مفاهيم كثيرة وماهيّة متعدّدة للتّداوليّة .

[1] - جورج يول،التّداوليّة، ص13.

[2] - فيليب بلانشيه،التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر حباشة، دار الحوار، سوريا، ط01، 2007م، ص 20.

التّداوليّة بين النّشأة والماهيّة:

وتعرّف التداولية " بأنّها دراسة استعمال اللّغة، مقابل دراسة النّظام اللّساني الّذي تُعنى به تحديدًا اللّسانيات" [1]، فأصبحت التّداوليّة من أهمّ وسائل البحث اللّساني الحديث. إذ بواسطتها استطاع الباحثون أن يكتشفوا أهميّة ودور اللّغة من النّاحيتين: الإيديولوجية والسّوسيولوجية ، وتوسّعت نظراتهم لها بشكل أوسع عن سابقيها من المناهج الأخرى. وقد عرفّها " فيليب بلانشيه": " بأنّها الدّراسة الّتي تُعنى باستعمال اللّغة، وتهتمّ بقضيّة التّلاؤم بين التّعابير الرّمزية والسّياقات المرجعيّة والمقاميّة الحديثة والبشرية" [2]. فالتداولية تدرس اللّغة أثناء الاستعمال، مركّزة في ذلك على عمليّة التّواصل الّتي تنحصر في عنصر السّياق والمقام بجميع مكوّناته الّتي يجمع بينها التّواصل في المحادثة. دون إهمال المعنى الّذي يحدّده السّياق .

تساؤلات عديدة طرحها علماء اللّغة، واللّسانيات المعاصرة بعد أن تمرّدوا على التّنظير البنيويّ الّذي كان هدفه النّظر إلى اللّغة من الجانب الشّكليّ لا الدّلالي. فتساءلوا: من هو المتكلم ؟ ومن هو المخاطب ؟ وكيف تتمّ عمليّة التّخاطب في ظلّ وجود كلام مُغاير تماما لما قد يقصده المتكلّم؟ أي قد يكون ضمنيّا. ومن يفهم ويستوعب هذا الكلام الّذي يتوارى خلف قائل أو متكلم غير معروف؟ ، وما هو المنهج الّذي يمكّننا الوثوق به للإجابة عمّا يؤرّق هؤلاء ؟. وما هي أهمّ المسائل الّتي لم يتوّصل هؤلاء الدّارسون إلى البحث فيها؟

لقد اهتمّ الفلاسفة بأنظمة التحليل الشكلية المستقاة غالبا من الرّياضيات والمنطق، فركزوا على بعض المبادئ والنّظريات الّتي تهمّ اللّغة، فدرسوها من جميع الجوانب، وأهملوا جانب استعمال اللّغة في والحوار والتّواصل، ودفعوا ما عجزوا عن دراسته نحو حافة طاولة أعمالهم "وعندما اكتظت الطّاولة وامتلأت، أخذ الكثير من هذه الملاحظات حول الاستعمال المعهود للّغة بالانحسار لينتهي به الأمر في"سلّة المهملات"...تلك المحتويات لم يتم ترتيبها في بادئ الأمر تحت تصنيف معيّن، ولكّنها عُرفِّت سلبيّا على أنّها المواد

---

[1] - جاك موشلر و آن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة، ص21.

[2] - فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ص18.

الّتي لم تُعالج بسهولة ضمن طرائق التّحليل الشّكليّة. لذا فإذا أردنا فهم بعض المواد الّتي سنستخرجها من سلّة المهملات،علينا أن نتعرّف على كيفيّة وصولها إلى السلّة أصلا" [1]؛ أيْ كيفيّة وصول هذه المعضلات الّتي أُهملت من طرف دراسي اللّغة إلى التداولية الّتي عُدّت بالنّسبة لبعض الباحثين أنّها " سلّة المهملات ".

تساءل"يول"عن دراسي اللّغة الّذين عجزوا عن حلّ بعض المسائل والجوانب الّتي تخصّ اللّغة. ذلك أنّهم لم يدرسوا اللّغة من جانب الاستعمال والتّواصل. وإنّ قُصور هذه المناهج الشّكليّة عن حلّ القضايا العالقة في اللّغة. أكسب التّداوليّة سواء بوصفها دراسة العلاقة بين اللّغة ومستعمليها، أو في فهم الكلام وتأويله. أهميّةً لدراسة ما عجز هؤلاء عن دراسته والبحث فيه. فما أُهمل من طرف هؤلاء احتضنته التّداولية، واستطاعت أن تُجيب عليه، فأطلق عليها اسم "سلة ". فأصبحت التّداولية المنهج اللساني الوحيد الّذي قد يُجيب على تلك التّساؤلات، أو على الأقل على بعضها، مُعلنة بذلك بداية عصر تنظيري لغويّ جديد يتمثل في:أنّها "علم جديد للتّواصل، وفنّ إنجاز الفعل".وبهذا ظهرت تعريفات إيجابية "تسند إلى التّداولية وظيفة معالجة بعض القضايا(التّركيبيّة والدّلاليّة). وضمن هذا التّصوّر لم تعد التّداوليّة سلّة مهملات. بلْ أداة تبسيط اللّسانيات " [2]، وعلى هذا فكلّ ما أُهملت دراسته، وهُمّش على غرار ما تبنّته النّظريات الشّكلية. حان وقت تبسيطه ضمن اللّسانيات الحديثة الّتي احتضنته وحاصرته ، لتلقي به في بوتقة المنهج التّداولي الّذي أصبح يُدير ويهتمّ بدراسة اللّغة وفق الاستعمال والتّواصل التّداولي بين أطراف الحوار، أو على مستوى الخطاب. وتذكر"فرنسواز أرمينكو"أوّل تعريف للتّداولية مُتبنّية في ذلك تعريف"موريس" (سنة1938م) أنّها جزء من السّميائيّة الّتي تُعالج العلاقة بين العلامات.ومُستعملي هذه العلامات "[3]. لذا استقى مُعظم الباحثين اللّسانيين من تعريف "موريس"جانب:" استعمال اللّغة". فقاموا في جلّ تعاريفهم بتثبيت فكرة:"أنّ التّداوليّة دراسة اللّغة وفق وقيد الاستعمال".واعتبر هذا التّعريف نقطة تقاطع بينهم جميعا.

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة ، ص 23.

[2] - جاك موشلر و آن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة ، ص28.

[3] - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ص 06.

لقد ربط الدّارسون اللّغة في المنهج التّداولي بعمليّة " التّواصل " أثناء الحوار بين المتكلّم والسّامع، ومن بينهم"جيوفري ليتش"الّذي يرى أنّه: " لا يمكن أن نفهم على الحقيقة طبيعة اللّغة ذاتها. إلاّ إذا فهمنا التّداوليّة: وهي كيف تُستعمل اللّغة في التّواصل...، وهي دراسة التّواصل اللّساني في معنى مبادئ التّحاور " [1]. ومع ذلك لقد تجاوزت التّداوليّة فكرة أنّ اللّغة وسيلة للتّواصل. بل تتعدّى إلى أنّ لها عدّة وظائف أهمّها أنّها ذات وظيفة تأثيريّة لأنّها قد تغيّر في المواقف والآراء. ولهذا فالتّداوليّة كمنهج وطريقة تحليل الخطاب جاءت لتُحدث فارقا ومفارقة في الدّراسات النّقديّة الحديثة، وهي تدعو إلى تغيير النّظرة في قراءة الخطاب، وتغيير نظرة هؤلاء الّذين تبنّوا فكرة البنيويّة الّتي بدورها ترى أنّ الخطاب أو النصّ بعيدا كلّ البعد عن الفعل الكلاميّ، وبهذا فقد فرضت التّداوليّة نفسها في قراءة الخطابات. مع أنّها تجاوزت حدود الخطاب بدراسة اللّغة كنشاط إنساني في مقام الاستعمال والتّواصل. وهي دراسة تهتمّ بما يقوله المتكلّم، وما يفعله المستمع (المخاطَب) في دائرة إنجاز الأفعال. ومن ضمن الباحثين الّذين أسّسوا مفهوما للتّداوليّة، ضمن مؤلف تحت عنوان " التّداوليّة " هو جورج يول فقد وضع هذا التّأسيس وفق عدة جوانب أو مجالات أربعة اختصّت، واهتمّت بها التّداولية، حيث يرى أنّها : " تختصّ بدراسة المعنى من جانب المتكلّم والسّامع (المتلقي)، والسّياق وعوامل خارجيّة تتمثّل في العوامل الماديّة والاجتماعيّة" [2] . في إطار سياق تواصليّ واضح المعالم.

النّظريّة التّداوليّة أضفت على الدّراسات الحديثة لمسة جديدة في كيفيّة التّعامل مع اللّغة وتحليل الخطاب، إذ عالجت الكثير من القضايا اللّغويّة الّتي عجزت مناهج سابقة على فكّ رموزها، واستقصاء حقائقها من خلال دراسة الخطاب اللّغوي، وذلك بإعطائه بعدا دلاليّا وعمليّا، بالإضافة إلى الجانب الوظيفيّ فيه الّذي يصبو إلى دراسة اللّغة من ناحيّة إنجاز الفعل، ومن ناحيّة أخرى أهم، هي "دراسة اللّغة قيد الاستعمال أو الاستخدام، بمعنى

---

[1] - جيوفري ليتش، مبادئ التّداوليّة، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشّرق، المغرب،ة2013م، ص09،22.

[2] - جورج يول، التّداوليّة، ص19،20.

دراسة اللّغة في سياقاتها الواقعيّة، لا في حدودها المعجميّة أو تراكيبها النّحويّة " [1]،على أساس أنّ هذه الدّراسة الوصفية تتعلّق بقواعد النّحو، وليس من اختصاص التّداولية.

لكنّنا نرى بأن "فان دايك "، استطاع أن يدلي برأيه ويختصر ماهيّة وتعريف التّداوليّة، بأنّها دراسة اللّغة من جانبي الاستعمال والتّواصل، دون إهمال جانب التّقعيد اللّغوي الموضوع والمتّفق عليه، القائم على صياغة هذه الأنساق والتّراكيب بشكل واضح وتامّ في جعل التّلفظ بالعبارات مقبولا ومفهوما وسهل التأويل. إذ يقول : "التّداوليّة ينبغي أن تكون مهمّتها دراسة العلاقات بين الرّموز والعلاقات والمستعملين لها" [2]، فهو بذلك يحرص على الاستخدام المنظّم للعبارات المتلفّظ بها في شروط سياقيّة تتحقّق وفق كلّ موقف تواصليّ في ظلّ توفّر الأطراف المتحاورة .

كما اكتسبت التّداوليّة تعاريف متعدّدة بناءً على تركيز الباحثين المعاصرين على جانب من جوانبها، لكن لا يعني ذلك أنهم يهملون أحد هذه الجوانب. .فقد يُقتصر على دراسة المعنى في سياق التّواصل، أو دراسة جانب السّياق وما تعتريه من ظروف خارجيّة متعدّدة، أو الجانب التّواصلي الحواريّ بين المتكلّم والسّامع، ولكن حتّى وإن طغى عنصر من هذه العناصر في تعاريفهم، هذا لا يعنى أنّهم يُقصون باقي العناصر و الآليات، فقد تُعرّف التّداوليّة على أنّها: "دراسة المعنى التّواصلي، أو معنى المرسل في كيفيّة قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله" [3].فهي تدرس اللّغة وفق الاستعمال التّخاطبي، وضمن سياق تواصلي يحتمل كلاما ضمنيّا يتجاوز المعنى الظّاهر، فما على المتلقيّ إلا انتهاج سُبُل التّأويل لمعرفة وفهم مقصديّة المتكلّم في المقام التّداولي الحواري. وبهذا فالسّياق عامل مهمّ في الخطاب التّواصلي، يُحيل على فهم واستيعاب الكلام و قصديّة المتكلّم.

يقول"محمود أحمد نحلة" أنّ:" أوجز تعريف للتّداوليّة، وأقربه إلى القبول هو: دراسة اللّغة في الاستعمال، أو في التّواصل، لأنّه يشير إلى أنّ المعنى ليس شيئا متّصلا في الكلمات

---

[1] - بهاء الدّين محمّد مزيد، تبسيط التّداوليّة، شمس للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط01، 2010، ص18.

[2] - فان دايك، النصّ والسّياق، ص326

[3] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، ص22.

وحدها. ولا يرتبط بالمتكلّم وحده، ولا السّامع وحده. فصناعة المعنى تتمثّل في تداول اللّغة بين المتكلّم والسّامع في سياق محدّد (ماديّ واجتماعيّ ولغويّ) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما " [1]، فمهما ركّز هؤلاء الباحثون على آلية أو عنصر من عناصر التّداوليّة، فإنّها مرتبطة ببعضها. وقد "جمع "هانسون"hansson، هذه الحلقات والآليات الّتي تُؤسّس وتُثمّن الدّراسة التّداوليّة ضمن نظام وبرنامج تطوّر هذا المنهج. وذلك بتمييزه لثلاث درجات الأولى: هي دراسة للرّموز الإشاريّة. ضمن ظروف استعمالها (أي سياق تلفظها). والثانيّة: هي دراسة ما مدى ارتباط المعنى بالملفوظ الّذي يُعبّر عنه، وهذا يُظهر مقصديّة المتكلّم الّتي تُفهم من خلال السّياق، ومتضمّنات القول.والدّرجة الثّالثة:وتتمثّل في نظرية "أفعال الكلام" الّتي يُعبّر عنها بواسطة اللّغة عبر هذا الموقف التّواصليّ" [2].

كلّ هذه الآليات اللّغويّة، والمعطيات الفكريّة ساهمت بشكل كبير في اتّساع مجال البحث في التّداوليّة، كمنهج لغويّ استطاع أن يُجيب على العديد من التّساؤلات العالقة بمستوى اللّغة الّتي لم تعد مجرّد وسيلة للتّفكير وعمليّة التّواصل، بل تجاوزت ذلك كلّه إلى أن أصبحت لها وظيفة تفاعليّة لها تأثير في السّلوك والمواقف، ولها اهتمام بالغ بالمتلقّي، كطرف فعّال في سيرورة العمليّة التّواصليّة، وما مدى استجابته لمقصديّة المتكلّم ضمن إنتاج لغويّ تواصليّ مفهوم.

---

[1] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 2002م، ص14.

[2] - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، (بتصرّف)، ص38.

أنواع التّداوليّة وخصائصها:

لقد تعدّدت فروع التّداولية بتعدد توجيهات مفكري ودارسي اللّغة، وكذلك بتعدّد الآليات اللّغوية الّتي تُساهم بشكل مباشر في تحليل الخطاب وقراءة ، ولمّا كان مجال البحث في التّداوليّة على درجة كبيرة من التّنوّع، فقد أخذت تظهر لها فروع عديدة يتميّز كلّ منها عن الآخر بميزات تُؤهّله إلى أن يكون قائما بذاته. ومنها:

التّداوليّة الاجتماعيّة: Socio pragmatics : الّتي تهتمّ بدراسة عناصر الاستعمال اللّغوي المستنبطة من السّياق الاجتماعي.

التّداوليّة اللّغويّة: Linguistics pragmatics : الّتي تدرس الاستعمال اللّغويّ من وجهة نظر تركيبيّة، وهي بذلك تنطلق من اتّجاه مقابل للتّداوليّة الاجتماعية. فإذا كانت هذه تنطلق من السّياق الاجتماعيّ إلى التّركيب اللّغويّ. فإنّ تلك تنطق من التّركيب اللّغوي إلى السّياق الاجتماعيّ الّذي تُستخدم فيه.

أما التّداوليّة التّطبيقيّة: pragmatics Applied: وهي تُعنى بمشكلات التّواصل في المواقف المختلفة، كالاستشارة الطّبيعيّة وجلسات المحاكمة.

التّداولية العامّة: general pragmatics: وهي الّتي تُعنى بدراسة الأسس الّتي يقوم عليها استعمال اللّغة استعمالا اتّصاليا" [1]. وقد ركّز عليها الدّرس اللّغويّ الحديث الّذي يهتمّ بطبيعة اللّغة في وضع تواصليّ، أو تفاعل بين أطراف الحوار.

بالإضافة إلى هاته الفروع اللّغويّة للتّداوليّة كنظريّة تهتمّ بدراسة اللّغة قيد الاستعمال في سياق تواصليّ واضح.وبالرّغم من تنوّع روافد وفروع التّداوليّة الّتي أصبحت"تداوليات" نظرا لتعدّد تعاريفها وأنواعها، وتشعّب آلياتها الّتي أسقطت على حين غرّة على الخطاب فحاصرته واستولت عليه، وأخضعته لشروطها، وأحاطته بجميع عناصرها وأدواتها ليخضع إلى تحليل ودراسة لغويّة دقيقة لم يَعهدها النّقد من قبل. فإنّ التّداوليّة أصبحت منهجا لسانيّا أخذت على عاتقها مسؤوليّة دراسة اللّغة وفق الاستعمال والتّواصل. فبدت أهمّيتها

---

[1] ـ محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، ص15.

وخصائصها تظهر جليّا على مرأى الصّعيد التّنظيريّ والجانب التّطبيقيّ في مجال اللّسانيات الحديثة.

فحظيت هذه النّظريّة بمجموعة من الميزات والخصائص، أهّلتها إلى أن تكون المنهج الجديد الّذي استحوذ على اهتمام النّقاد في دراسة الخطاب وفق آليات التّداوليّة، لأنّهم يرون أنّ هذه التقنيات التّطبيقيّة استطاعت أن تُنقذ الخطاب من جمود سابق استولى عليه طيلة قرن من الزّمن، فدفعه إلى إطلاق سراح اللّغة من نمطيّة شكليّة ركّزت على جوانب البنية الحرفية والعدديّة للكلمات وحروفها. إلى دراستها في حيّز الاستعمال والتّواصل والبوح في المحادثة بين أطراف الحوار وفق مقام تواصليّ عًرفت عناصره، وبانت معانيه ومدلولاته. وبذلك استطاع هذا المنهج أن يمنح للخطاب متّسعا ومجالا رَحبا من الإقرار والإفصاح عن مصداقيّة القول، ومعرفه مقصديّته وهدفه المرجو في إطار السّياق التّداولي الّذي أنتجه الخطاب ودلّ عليه.

ومن بين هذه الخصائص الّتي ميّزت النظرية التّداوليّة، هي تحقيق وظيفة الكلام ضمن إطار التّواصل ، والّتي تؤدّي إلى إنجاز الفعل الكلاميّ المُراد الوصول إليه. لذا فهي لا تنظر إلى الخطاب على أنّه تتابع جمل أو أكثر من جملة، أو وحدة دالّة وإنّما " تنظر إلي الخطاب على أنّه سيرورة تواصليّة دلاليّة لا تفتكّ عن المقام التّواصليّ الّذي تمّ إنتاجه فيه "[1]. بعناصر المحادثة الّتي تبدو معالم وضوحها إثر استمرار التّواصل التّداولي بين طرفي الحوار.

لقد تجاوزت التّداوليّة كمنهج اللّغة في مجالها التّواصلي إلى تعدّد وظائفها، فأصبحت تنظر إلى اللّغة على أنّها: أداة للتّواصل والتّبليغ وفق نظام استعمال معين. فهي تسعى إلى دراسة اللّغة في ظلّ الاستعمال والتّواصل في ظروف سياقيّة معيّنة.كما أخذت مكانتها في اللّسانيات الحديثة، وجعلت من اللّغة: مجالا رَحبا للاستطلاع على أنساقها وتراكيبها، ودلالاتها وفق الاستعمال المقاميّ. ولهذا جعلت من الخطاب فضاءً ممنوحا وميسّرا ومتاحا

[1] - محمود طلحة، تداوليّة الخطاب السّرديّ، ص15.

لتعدّد القراءات وفق آلياتها المحدّدة. بالإضافة إلى أنّ لها وظيفة التأثير، واستنباط الفعل الكلاميّ من القول المطروح، ومعرفة ما يدلّ عليه من مضمون يتوارى خلف الكلمات؛ أيْ غير مصرّح به من طرف المتكلّم.

فالتّداوليّة تدرس الظّروف المحيطة بالخطاب، وهذا الجانب صعّد من قيمة اللّغة، وكشف جلّ أسرارها، ومدى علاقتها وأهميّتها في الصيرورة الحياتيّة والاجتماعية. وتكمن أهمّيها كذلك في أنّها أنقذت اللّغة من وتيرة السّكون الشّكلي، وأظهرت بذلك أنّ الخطاب له مدلول لغويّ ضمن إطار التّواصل، ويؤثّر في المتلقيّ ويجبره على إنجاز الفعل المُراد تحقيقه. فيتحقّق بذلك التّواصل الفعليّ المستمرّ والوظيفي الهادف.

لهذا كلّه فاللّسانيات التّداوليّة اهتمت بالخطاب من حيث :

- الوظيفة التّواصليّة في عمليّة التّواصل اللّغوي.

- من حيث تأثيره على المتلقي، وفهم هذا الأخير له بدءًا من إنتاج الملفوظ إلى تحديد قصد المتكلم فيه.

- كما حدّدت اللّغة اجتماعيّا؛ بل أبعد من ذلك؛ إذ استطاعت أن تبيّن أنّ لها وظيفة تأثيريّة من حيث تحقيق القصد من الخطاب التّداوليّ، ومن جانب الوصول إلى هدف ونتيجة تأثيريّة تُحقّق بدورها فعل الكلام ، أو بالأحرى الفعل المرجو من الخطاب. لذا ارتبطت التّداوليّة بعلم الدلالة ارتباطا غير مسبوق، أو على الأقلّ لم تشهده النّظريات الشّكليّة قبلها. فما علاقتها بهــا؟

التّداولية وعلم الدّلالة:

تعد التّداوليّة فرعا من فروع اللّسانيات الحديثة الّتي استطاعت أن تخطو خطوة عملاقة في قراءة الخطاب بكلّ أنواعه ومعطياته، واتجاهاته. فكوّنت لنفسها مسارا خاصّا لمعالجة الخطاب وتحليله بطريقة مُغايرة للمناهج الّتي سبقتها.

وقد اعترف "" شارلز مورس" بأنّ الدّلالة تُعنى بدراسة علاقة العلامة بموضوعاتها، في حين اعتبر أنّ " التّداوليّة " تدرس العلاقة بين العلامة ومؤوّليها،؛ أيْ تُركّز على استعمال العلامات، ويُبنى هذا التّعارض بين الدّلالة والتّداوليّة على تمييز "دي سوسير" بين اللّغة والكلام. فالدّلالة ترتبط باللّغة لتركيزها على السّمات الدّلاليّة للوحدات المعجميّة والجمل، في حين أنّ التّداوليّة تتّصل بالكلام والخطاب، لاهتمامها بالمنجز والمحقّق والمستعمل من العبارات "[1] ،وبهذا استطاع "موريس" في تعامله مع اللّغة أن يعتبر الجوانب الثّلاث (التّراكيب والدّلالة والتّداوليّة) عناصر متداخلة ومتكاملة. وذكر أنّ "علم الدّلالة " هو ذلك المعنى الحقيقي القائم بين العلامات وما تدلّ عليه. أمّا "التّداوليّة " كمنهج لغوي يدرس اللّغة في حال الاستعمال، ثمّ إنّ الفرق بين "المعاني اللّغويّة، ومقاصد المتكلّمين(أو مرادهم) وثيقة الصّلة بين"علم الدلالة "، و"علم التخاطب" التّداوليّة. فالمعاني اللّغويّة تنضوي في إطار اهتمامات علم الدّلالة، أمّا مقاصد المتكلّمين فلا يمكن التّوصل إليها إلاّ بمعرفة السّياقات الّتي قِيل فيها الكلام" [2]. ولهذا فالتّداوليّة وعلم الدّلالة من بين الفروع اللّسانيّة الّتي تهتمّ بدراسة اللّغة، والكشف من مدلولاتها العميقة المُوحية، والدّالة داخل الخطاب . فإذا كانت الدّلالة تدرس المعاني بعيدا عن المقام، فالتّداوليّة تدرس المعنى وفق الاستعمال اللّغوي في سياق محدّد. وتتداخل مع الدّلالة في بعض جوانب الدّرس اللّغوي."" وعلم الدّلالة" يشارك"التّداوليّة "في دراسة المعنى على خلاف العناية ببعض مستوياته" [3].ويبحث كلّ من التّداوليّة وعلم الدّلالة في جانب المعنى للّغة.

---

[1] - جواد ختام، التّداوليّة، أصولها واتّجاهاتها، دار الكنوز المعرفة،عمّان، ط01، 2016م، ص69.

[2] - محمّد محمد يونس، مدخل إلى اللّسانيات، ص19،20.

[3] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص10.

وكلاهما يدرس المعنى، لكن التّداوليّة تدرس جانب المعنى التّلفّظي للكلام ضمن إطار الأداء والاستعمال. ويُصنّف علماء اللّغة "علم "الدلالة" ضمن القدرة (معرفة اللّغة)، ويصنّفون "التّداوليّة" ضمن الأداء أو الإنجاز(استخدام اللّغة" [1]؛ أي أنّها تدرس الجانب الوظيفي للّغة، وتحرص على دراسة الاستعمال اللّغوي في سياق معيّن، بالإضافة إلى دراستها في حال الاستعمال والتّواصل، وبيان مقصديّة المتكلّم، ومدى استيعاب المتلقي للكلام الملفوظ في سياق محدّد، بوضوح ظاهره ومعالمه وعوامله الخارجيّة الّتي بواسطتها نستشفّ قوّة إنجاز الفعل .

أمّا "الدلالة" كعلم قائم بذاته يهتمّ بمعنى اللّغة بالتّركيز على الكلمات المفردة، وتعتني بدراسة المعنى بمعزل عن السّياق كليّا، ودون سيطرة العوامل الخارجيّة المقاميّة على تحليل الخطاب الملفوظ. كما تدرس المعنى للألفاظ داخل الجمل دون الاعتماد على السّياق التّواصلي للخطاب.

التّداوليّة تستنبط الجانب الدّلاليّ (المعنى) للملفوظات ليُمكّنها ذلك من تحقيق وإنجاز الفعل الكلامي، وبالتّالي فهي تستعين بعلم الدّلالة لدراسة وتحليل لغة الخطاب وفق شروطها الّتي تربط تلك المعاني بمدى تحقيق فعل الكلام، لأنّها تدرس المعاني وفق شروط الاستعمال في سياق معيّن لتحقيق الأفعال المُراد والمطلوب إنجازها من طرف المخاطب. ولهذا فالتّداوليّة توظّف الدّلالة لصالحها ووفق شروط معيّنة، إذ أنّها لا تقتصر فقط على توضيح معنى اللّفظ في نسق وتراكيب الجمل، بل تتعدّاه إلى معنى تحقيق الفعل في موقف تواصليّ معيّن. وخلاصة ذلك تهتمّ الدّلالة "بالشّروط الّتي تجعل الأقوال مفهومة، وقابلة للتّفسير. بينما تُعنى التّداوليّة بالشّروط اللاّزمة لكي تكون الأقوال اللّغويّة مضبوطة وناجحة، وملائمة في الموقف التّواصليّ الّذي يتحدّث فيه المتكلم " [2]. لهذا أصبحت التّداوليّة من المناهج الحديثة الّتي استطاعت أن تستوعب اللّغة وتدرسها من جميع جوانبها . مثلما اهتمت بالمتكلّم

---

[1] - جون لينز، اللّغة والمعنى والسّياق، ترجمة عبّاس صادق الوهاب، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط01، 1987م، ص32.

[2] - نادية رمضان النّجار، الاتّجاه التّداوليّ والوظيفيّ في الدّرس اللّغويّ، ط2013،01م، ص18.

والمتلقي، اهتمت أيضا بالسّياق الخارجي بجميع عناصره ومعطياته. كما اهتمت أيضا بالمعنى الدّلالي للملفوظات، واستطاعت أن تقوم بدراسة وتحليل الخطاب وفق شروطها ومعالمها اللّغوية. وبذلك فإنّها بهذا كلّه تجاوزت المعنى الدّلالي البسيط إلى المعنى الّذي تصبو إليه، والمتمثّل في استنباط المعاني الخفيّة الّتي تُحقّق إنجاز الفعل المحدّد. إذن فالتّداوليّة "لها قدرة على التّدخل في إثراء معاني الكلام. والذّهاب في تأويل المسكوت عنه. هي من الغِنى والسَّعَة ما يُثري الخطاب بتمكينه من إثمار قراءات لم تكن دلالة اللّغة البسيطة تحتملها" [1]. وبما أنّ المعاني اللّغويّة من أولويات علم الدّلالة، هذا لا يعني أنّ التّداوليّة تتنحّى جانبا دون مُلامستها للمعاني عند دراسة الاستعمال اللّغويّ. فالمتكلّم يتلّفظ معانٍ، وعلى المتلقي أن يستوعبها، ويستنتج المعنى الضّمني للكلام المُرسل، كما يجب أن يفهم مقصديّته من خلال معاني تلك الملفوظات الّتي بها يتحقّق الفعل المراد إنجازه. فالمنهج التّداولي يهتم بالعناصر المكوّنة للسّياق لكي يجعل الكلام مفهوما. أمّا الدّلالة فتهتم بمعاني العناصر اللّغويّة دون الاهتمام بالعوامل الخارجيّة.

لذا ارتقى "علم الدلالة " في ظلّ التّنظير النّقدي التّداولي، وأصبحت دراسة المعنى (الدلالة) جزءًا لا يتجزأ من النّظرية التّداوليّة؛ أي تعدّ آلية من آلياتها الّتي تنصب على دراسة اللّغة وفق المعاني الّتي تترجمها أثناء الاستعمال والتّواصل. فالدّلالة تربط بين جميع عناصرها وآلياتها اللّغوية، وبذلك تعدّ كلّ من التّداوليّة والسّيمانطيقا حقلين مترابطين متكاملين.

لذا وجد علماء اللّسانيات والنّقد الحديث أنفسهم أمام وُجهة جديدة، ومسار آخر جدير بالدّراسة، ووجوب الخوض فيه، ألا وهو تفعيل آليات التّداوليّة وتوظيفها في الخطاب التّواصليّ، وإخضاعه لمجموع هذه الرّوافد المستوحاة ممّا أقرّته النّظريّة التّداولية من طُرق وأساليب وفروع التّنظير المُستحدثة عند" دراسة اللّغة وفق الاستعمال والتّواصل". وأخضعتها جميعا لدراسة الخطاب، واستنباط الجانب الوظيفي فيه، وهو ما يُعرف بجانب النّقد والتّحليل للخطاب. وبهذا فالتّداوليّة تتداخل مع مجموعة من العلوم الأخرى، والّتي لها علاقة باللّغة. ومنها: " تحليل الخطاب ".

---

[1] - عبد الملك مرتاض، نظريّة النصّ الأدبيّ، ص394.

التّداوليّة وتحليل الخطاب:

توسّعت مجالات اللّغة وأهميّتها وفق "المنهج التّداولي" الّذي كشف أسرارها، فلم تعد اللّغة مجرّد وسيلة لتمثيل الواقع والفكر؛ بل يُمكنها أن تتعدّى ذلك إلى إظهار فعل الإنجاز، إثر عمليّة التّأثير الحاصلة. هذا التّنظير الحديث تبنّاه المنهج التّداوليّ، وأرسى معالم أُسُسه، ونظريّاته على الدّراسات اللّسانيّة الحديثة؛ إذ لا تخلو دراسة من الدّراسات اللّغوية، دون أن يكون لحضور هذه الآليات التّداوليّة وقعا فيها. لذا كان لهذا المنهج مساهمة كبيرة في "تحليل الخطاب " بجميع معطياته، ومميّزاته النّصيّة، ومدى علاقته بظهور مصطلح "الخطاب" في الدّراسات الحديثّة، كبديل للنصّ في حالة الاستعمال؛ أي أنّه ارتبط بوظيفة الكلام ضمن إطار التّواصل، ومن ثمّ برزت نظرية تحليل الخطاب. وقد حدّدت قراءتها للخطاب من جديد اعتمادا على "النّظريّة التّداوليّة " الّتي استطاعت أن تُخرج اللّغة من مجال بنية الكلمة إلى مجال إبراز جانبها الوظيفيّ، بالنّظر إلى التّلفّظ بها أثناء الاستعمال ضمن عمليّة التّواصل في سياق معيّن. ولذا يُمكن رُؤية تحليل الخطاب "كردّ فعل على اتّجاه في مجال ألسنيّ تقليديّ- الألسنيّة الشّكليّة والألسنيّة البنيويّة - الّذي يركّز على الوحدات المكوّنة للجملة وبنياتها، ولا يهتمّ بتحليل اللّغة أثناء استعمالها" [1].ولذا يبدو أنّ مصطلح تحليل الخطاب نشأ وارتقى في ظلّ اللّسانيات الوظيفيّة الّتي ركّزت على وظيفة الخطاب حال الاستعمال والتواصل، لذا "تستعمل كلمة "الخطاب" ضمن مجالات الألسنيّة، وخاصّة منها مجال " تحليل الخطاب "، لوصف بنية تتجاوز حدود الجملة" [2]. لهذا أخذت " التّداوليّة" الرّيادة في دراسة تحليل الخطاب، أوّلا لأنّها المنهج المستحدث والعملي الوظيفي لاستنباط فحوى الخطاب ومعانيه ومدلولاته، وثانيا لكونها المنهج الجدير فعلا في السّاحة النّقديّة لدراسة وتحليل الخطاب بآلياته المُتعدّدة الّتي تبدي الجانب الوظيفي فيه. لأنّها تتوفّر على آليات وإمكانيات لغويّة مناسبة ، تستطيع قراءته وتحليله وإخراجه والكشف

---

[1] - سارة ميلز، الخطاب، ص108.

[2] - المرجع نفسه ، ص105.

عن مزاياه وأسراره الدّفينة الّتي تعكسها معانيه، والّتي تُترجم لنا الأفعال الإنجازيّة التي يسّرت البوح عن تلك الدّلالات العميقة الّتي تتوارى خلف كلّ خطاب.

المنهج التّداولي تبنّى دراسة وتحليل الخطاب في التّداول والتّواصل في حال الاستعمال اللّغوي بين أطراف الحوار. فالخطاب "ظاهرة تداوليّة، ويُمكن أنْ يُختزل في الأقوال الّتي تكوّنه...، والتّمييز بين الجملة والقول تمييزٌ جوهريّ...، موقفنا إذن بسيط: ليس الخطاب سوى سلسلة الأقوال الّتي تكوّنه " [1]. وبما أنّه كذلك، فالفضل يرجع للتّداوليّة الّتي استطاعت أن تُحيط بجميع أنساقه، ومكوّناته النّصيّة، بما أنّه إنتاج لغويّ. وتدرسه من جمع جوانبه الدّلاليّة، وجوانبه التّراكيبيّة في ظروف اجتماعيّة وسياقيّة واضحة، كما أنّ "تحليل الخطاب بدوره يهتمّ بالسّياق الاجتماعيّ الّذي تُستخدم اللّغة فيه، وخُصوصا ما يتّصل منه بالتّفاعل بين من يستخدمها " [2]. وبهذا فوجه الشّبه والتّوافق بين "التّداوليّة " كتنظير نقدي في تحليله للنّصوص، وبين "تحليل الخطاب" يبدو جليّا، لأنّ كلاًّ منهما يهتم بالخطاب دراسة وتحليلا.

لقد اهتمت اللّسانيات الحديثة بتحليل الخطاب ضمن درسها اللّغويّ، فانكبّت على دراسة الخطابات والنّصوص، وقراءتها وفق المنهج التّداوليّ نظرا للخصائص والمميّزات الّتي انفردت بها، والّتي ذكرناها سابقا. وبهذا يكون " المنظور التّداوليّ ضمن دراسة الخطاب أكثر تخصصًا، حيث يميل إلى التّركيز خصوصا على مميّزات ما لم يتمّ قوله، وما لم يكتب (بالرّغم من إيصاله) ضمن الخطاب المُراد تحليله...، ففي تداوليّة الخطاب نكون مجبرين لا مخيّرين على استطلاع ما في ذهن المتكلّم أو الكاتب " [3]. وبما أنّ التّداوليّة تدرس اللّغة قَيد الاستعمال في ظروف تواصليّة وسياقيّة مناسبة، فإنّها تتجاوز تحليل الخطاب، لأنّ هدفها الأسمى دراسة اللّغة في وجود المقام بجميع عناصره المكوّنة له.

---

[1] - آن ريبول ّ، جاك موشلر، التّداوليّة اليوم علم جديد للتّواصل، ص215.

[2] - بهاء الدّين مزيد، تبسيط التّداوليّة، ص86.

[3] - جورج يول، التّداوليّة، ص128.

وتحليل الخطاب بدوره يدرس اللّغة بجميع معطياتها اللّغويّة والتّواصليّة، ضمن السّياق الّذي تستخدم فيه اللّغة. هذا يعني أنّ " تحليل الخطاب" استلهم تعريفه وماهيته من التّداوليّة الّتي اكتشفته، فخضع لها بجميع آلياتها اللّغويّة طوعا؛ بمعنى أنّ الفلسفة التحليلية لها دور كبير في تحديد ماهية " الخطاب "و"تحليل الخطاب"، مثلما لها دور كبير في نشوء "التّداوليّة " كمنهج لغويّ حديث اكتسح ساحة النّقد في مجال اللّسانيات واللّغة الطّبيعيّة. فكان المنهج الوحيد في هذا العصر الحديث الّذي أحدث مُفارقة جدّ واضحة في تحليله " للخطاب" أكثر من غيره من المناهج الشّكليّة الّتي سبقته.

وبهذا فالتّداوليّة و"تحليل الخطاب" مصطلحيان " بمفهوم واتّجاه واحد(بوصفهما مترادفين) وتَرِد التّداوليّة أحيانا بوصفها نوعا من تحليل الخطاب الّذي يركّز على أبعاد اللّغة، وما يرتبط بها من:تضمين، وافتراض، ومقاصد، وتأويل، لكنّها تفتقر إلى شموليّة تحليل الخطاب وانشغاله بالنّصوص لا بالجمل" [1]، ومهما يكن تظلّ التّداوليّة، وتحليل الخطاب من النّظريات الّتي أخذت الرّيادة، واكتسحت اللّسانيات الحديثة في تناول الخطابات والنّصوص والأقوال، ودراسة اللّغة من ناحية التّواصل والاستعمال في ظروف خارجيّة معيّنة.

والتّداوليّة منهج لغوي قد نُسقطه على الخطاب ليقوم بدراسته وتحليله، وبيان سياقه التّواصلي. ومن ثمّ يصبح تحت مسمّى" تحليل الخطاب "؛ لأنّ هذا التّحليل تفرضه آليات التّداولية بخصائصها الوظيفيّة ومعطياتها اللّغويّة والفلسفيّة، للوقوف على المفاهيم اللّغوية والدّلاليّة والأنساق والتّراكيب المُكوّنة لها، وجانب الأفعال المُنجزة الّتي تعكسها وتحقّقها الأقوال الصحيحة والصّادقة. وبهذا كلّه يخضع الخطاب في تحليله للمنهج التّداولي"، ويستفيد منه كما استفادت التّداولية في تطوّرها من تحليل الكلام / الخطاب. محاولة منها إظهار جوانب المعنى فيه، والمستوحاة من انسجام تراكيبه وعناصره اللّغويّة وترابطها، والّتي تُبرز بدورها دلالاتها العميقة، والدّالة على ما تترجمه تلك الأقوال، وما تبعثه من معانٍ تدلّ على الجانب الوظيفيّ والعمليّ للّغة.

---

[1] - بهاء الدّين مزيد، تبسيط التّداوليّة، ص26.

الفصل الأوّل:

- التّداوليّة وآلياتها، مقاربة نظريّة:
  أ-التّلفّظ
  ب-السّياق
  * عناصر السّياق
- آليات تحليل الخطاب:
  1- القصـديّـــــــــــة
  2-مبـدأ التّعـــــــــاون
  3- مبدأ الملاءمــــــــة
  4-الإحالة وأنواعــــــها
  5- الإشاريات وأنواعها
  6- متضمّنات القـــول:
  7- الافتراض المُسبـــق
  * أنواع الافتراض المسبق
  8- الاستلزام الحواري
  9-أفعال الكــــــــــــــلام
  - نظريّة أفعال الكلام
  - تصنيف أفعال الكلام
  - خصائص الأفعال الكلاميّة

التّداوليّة وآليـــــاتها مقاربة نظريّة:

التّداوليّة منهج لغويّ حديث انبثق من معارف فلسفيّة ولسانيّة حديثة، واستطاعت أن تغزو اللّغة بعدما رَسَت بشراعها على ضفاف اللّغة بمعطياتها وعناصرها وتراكيبها وأنساقها اللّغويّة. لكونها نظام لغويّ تظهر تجلّياته الوظيفيّة في عمليتيّ الاستعمال والتّواصل، هذا العلم التّواصلي الجديد قد لاحَ في أُفُق اللّسانيات الحديثة كتنظير نقدي مُستحدث في مشروع البحث اللّغويّ اللّسانيّ المعاصر، وكنظريّة جديرة بالاهتمام مكّنت العلماء والفلاسفة من النّظر إلى اللّغة وفق الاستعمال ودراستها من جميع جوانبها التّواصليّة والسّياقيّة، بما في ذلك علاقتها وارتباطها بالواقع الاجتماعيّ، وإبراز كُنْهها المستور الّذي يتوارى خلف زوايا الأفعال المنطوقة أو الملفوظات الّتي ما لبثت أن ودّعت الصّمت وأبرمت عقدا مع عوالم التّلفّظ والكلام والإيحاء والبوح بالمدلولات المُستَلهمة من ذهن المتكلّم إلى المتلقّي، لتصل إلى عُمق الفاعليّة الاجتماعيّة؛ أي الجانب الوظيفي للّغة لتحقيق الفعل الكلامي من خلالها.

هذه الفاعليّة الوظيفيّة أراد علماء اللّسانيات تحقيقها وإبرام وجودها مع المنهج التّداوليّ بدءًا من: **السيّاق** الّذي يحتضن مجرى التّلفّظ، بكلّ عناصره المتمثّلة في: المرسِل والمرسَل إليه والزّمان والمكان والرّسالة. مرُورا بمسار كلامي بين أطراف الحوار يصبو كلّ منهما إلى تحقيق **مقصديّة** القول، أو الوصول إلى كشف وبيان الهدف من الكلام الملفوظ، سواء كان القصد ضمنيّا أو واضحا في الكلام بواسطة **مبدأ التّعاون** بين الأطراف الّذي يجمعهم الحوار التّداوليّ،ما ينتج عنه من خطاب يُحيل (**الإحالة**) إلى معنًى قبليّا أو بعديّا ويستلزمه الاقتضاء؛ أيْ الظّروف الدّاخليّة للنصّ أو الخارجيّة المقاميّة له. بالاستعانة **بالإشاريات**، تلك الأسماء الّتي لها مدلولات ومعانٍ موحية داخل التراكيب والأنساق اللّغويّة، فتكون كبديل لاختصار ما يُشار إليه بواسطتها، والّتي بدورها تعكس إحالات ضمنيّة سواء ضمن إطار النصّ أو خارجه.

كما يمكن أن يكون كلام المتكلّم متضمّنا لمعانٍ (**مُتضمّنات القول**) يقع فهمها على عاتق المتلقّي فهمها،واستيعاب معانيها، خاصّة إذا وظّف **الافتراض المُسبق** الّذي يسبق الكلام، ويكون في ذهن المتكلمين. أو استعان **بالاستلزام الحواريّ** الّذي يُركّز على الكلام المتضمّن ليحقّق الجانب الوظيفي للكلام ألا وهو **أفعال الكلام**.

هذه الأفعال تعكس بدورها صورة الفعل وتفاصيل المعنى واتّجاهاته ومقصديّته، وذلك عند تفاعل الأطراف المتحاورة في السّياق التّواصليّ، لتصير أفعالا إنجازيّة مُحقّقة تُشير إلى عُمق ما يجول في ذهن المتكلّم، وما يقصده من معانٍ ضمن علاقة تواصليّة ذات مدلولات عميقة.

كلّ هذه الآليات والمعارف التّداوليّة ساهمت الفلسفة التّحليليّة في ظهورها وبعثها للوجود، لكن سُرعان ما تطوّرت هذه المعارف، وانصبّت على اللّغة، وجعلتها محورا لها، وركزّت على أنّها لا تتجاهل قضايا الاستعمال اللّغويّ.

وبهذا سأقتصر على هذه الآليات ومحاولة تطبيقها ضمن الخطاب السّردي التّوحيديّ، والّتي يراها أعلام التّنظير في اللّسانيات الحديثة جوهر الدّرس التّداوليّ، كنقطة أساسيّة فيه بدءًا من عنصر التّلفّظ الّذي يُعدّ نقطة انطلاق المنهج التّداولي ليُبيّن وجهته المُغايرة تماما لما سبقته من دراسات اعتمدت الجانب الشّكلي البنيوي للّغة أكثر من تركيزها على جانب التّواصل فيها.

التلفّظ:

لقد اهتمّت اللّسانيات الحديثة بالملفوظ بدلاً من الجملة، كما في الدّراسات اللّسانيّة الشّكليّة، واعتبرته نقطة انطلاق التّواصل بين المتكلّم والسّامع. وكيف يمكن لهذا الأخير أن يستوعب ويفهم ما طُرِح من كلام،وما مدى تفاعله مع عمليّة التّواصل في سياق معيّن.

وبالرّجوع إلى سابق عهد بوادر التّفكير الفلسفيّ في مجال اللّسانيات الحديثة، يجب أن نُعرّج على نقطة انطلاق ثنائيّة اللّغة والكلام الّتي خضعت للقراءة المُتقصّية والأبحاث المُستفيضة والّتي تُعتبر اللّبنة الأولى في التّنظير السوسيريّ، يظهر أنّ " دي سوسير" اهتمّ بموضوع اللّغة ودراستا أكثر من اهتمامه بالبحث في مجال نطاق الكلام، فالكلام يتمثّل في كلّ ما يقوله المتكلّمون والّذي يدخل في نطاق عمليّة النّطق، هذه العمليّة الفيزيولوجيّة بالنّسبة له مجرّد وحدة مركّبة سمعيّة وصوتيّة تُعبّر عمّا في ذهن المتكلّم، وهذه الأصوات تُعبّر عن الفكر، وفي نفس الوقت هي أداة للتّفكير، بينما يعتبر "" شارل باليه" ch.bally. أنّ النّضال لا يزال مُتواصلا بين اللّغة والكلام. فإنْ كانت اللّغة هي أداة للتّفاهم الإنسانيّ، فإنّ الكلام هو المُعبّر الوحيد عن الواقعيّة والعاطفيّة " [1]. وهذا ما اتّجهت التّداوليّة إلى دراسته، فتجاوزت الجانب الدّلالي الخالص لتهتمّ بالجانب الوظيفيّ للكلام.

اهتمّت الدّراسات الحديثة بدراسة اللّغة كنظام تعبيريّ له وظيفته التّبليغيّة بواسطة التّلفّظ و الملفوظ، والّذي يتمثّل في علاقة اللّغة بالمتكلّم. هذا الاتّجاه التّنظيريّ الجديد في دراسة اللّغة والكلام وفق الاستعمال تبنّته التّداوليّة. إذْ اهتمّت بالملفوظ أو الجملة في سياق التّلفّظ ممّا يسمح بمعالجة اللّغة على أساس أنّها نشاط كلاميّ بتبنٍّ تداوليّ جديد.

فبعد أن حدّد "الفرنسيّ " بنفنست" benveniste (1902-1976): اللّغة ضمن عمليّة التّلفّظ، Lenonciation، أثار من جديد قضيّة استعمال الفرد للّغة " [2]. والتلفّظ يصدر بدءًا

---

[1] - حافظ إسماعيل علوي، منتصر أمين عبد الرّحيم، التّداوليات وتحليل الخطابّ، بحوث مُحكمة، كنوز المعرفة، الأردن، ط01، 2014م، ص179.

[2] - نفسه، ص157.

من المتكلّم (الفرد)، ويستوجب مُتلقّيا لاستقبال ما أراد المتكلّم التّعبير والإفصاح عنه، إنّه استعمال اللّغة وتوظيفها توظيفا فرديّا.

التّلفّظ يظهر عمليّا من خلال تواصل الأفراد في سياق اجتماعيّ مُحدّد، ولذا فهو من الظّواهر الّتي يمكن رصدها أثناء الحديث. وهو فعل يظهر عن طريق التّواصل وممارسة الكلام الّذي تفرضه وتُوجبه العلاقات الاجتماعيّة السوسيولوجيّة بين الأفراد.

والتّلفّظ عند ""دكرو" Ducrot، عمليّة بسيكولوجيّة تسمح بإنتاج الملفوظ، وهذا بطريقة تهدف فيه لسانيات التّلفّظ إلى الكشف عن العمليات الخفيّة الدّاخلة في ممارسة الكلام " [1].

فالتّلفّظ ظاهرة عمليّة تواصليّة تتداول بين الأفراد، تفرضها عليهم علاقاتهم الاجتماعيّة الرّامية إلى تفعيل التّواصل والتّعبير عمّا يجيش في الأنفس والذّات، لتحقيق علاقة الاتّصال مع الآخر.

التّلفّظ / الملفوظ، ينطلق من عمليّة التّوظيف الفرديّ، أو من المُتكلّم في سيرورة الاتّصال اللّغويّ الاجتماعيّ، وهذا ما يُحيل إلى أنّ اهتمام التّداوليّة بدراسة التّلفّظ والكلام واللّغة وفق الاستعمال والتّواصل في ظروف خارجيّة معيّنة، أمر مهم جدا حرص وأصرّ عليه علماء التّنظير التّداولي، ذلك أنّ حجم الملفوظ قد " يتعلّق بجميع الكلمات أو بكتاب كامل...، الملفوظات القصيرة، والأمثلة والحكم، وأخرى طويلة كالمحاضرات " [2]. وكل ما يتلفظ به المتكلّم في سياق تواصلي اجتماعي منظّم، يكون له تأثير على المتلقيّ؛ أي الوصول إلى القصد المُراد تحقيقه، كما يُحدّد "التّلفّظ/ الملفوظ حسب نظرة "غريماس": أنّه تتابع من الجمل المُحقّقة؛ أي كلّ ما يتلفّظ به الإنسان منطوقا أو مكتوبا يتحدّد ضمن التّلفّظ عن طريق ضمائر الشّخص، وضمائر الملكيّة، والصّفات والظّروف والزّمان والمكان" [3]، وهذا يُوحي بأنّ الخطاب بدوره يمثّل مجموعة من الملفوظات الّتي تدلّ على معنًى وجيه

---

[1] - المرجع السّابق، ص16.

[2] - قدور عمران، البعد التّداوليّ الحجاجيّ، في الخطاب القرآنيّ الموجّه إلى بني إسرائيل، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2012م، ص15.

[3] - ذهبيّة حمو الحاج، لسانيات التّلفّظ- وتداوليّة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دار الأمل للطّباعة، ص14.

يصبو إلى تحقيق فعل إنجازيّ مُعيّن، لأنّ التّداوليّة تجاوزت ما سبقها من النّظريات في تحليل الخطاب ودراسته،؛ إذْ أنّها تركّز على سيرورة التّواصل بين الأطراف المتحاورة والمقام التّواصليّ، وبذلك فهي تهتمّ بالملفوظ في سياق التّلفّظ، فيكون استعمال اللّغة في عمليّة التّواصل هو الهدف الأسمى لها.

التّداوليّة لم تكتف بعلاقة اللّفظ ومدلوله، وهذه النّظريّة تُحيد عمّا أقرّه " دي سوسير" في طرحه لثنائيّة (الدّال والمدلول). بل تعدّاه إلى علاقة اللّغة بالمتكلّم وفق سياق تخاطبيّ مُحدّد، لتحقيق قوّة الفعل في عمليّة التّواصل، والذي يخضع بدوره إلى تحقيق مدلول مُعيّن للمخاطَب. فقد يتحقّق فهم أيّ ملفوظ ليس بالرّجوع إلى القاموس بشرح معناه، وإنّما يستوجب ذلك فهم الكلام عن طريق تأويله، وهذا لا يتمّ إلاّ وفق إحالته على السّياق الّذي ورَدَ فيه، فيمكّن كلّ ذلك تفاعل المتلقّي، وبالتّالي يتحقّق الفعل الكلاميّ بواسطة عمليّة التّواصل ، وكلّ هذا يتحقّق بقدر ما تكنّه اللّغة من إيحاءات ذات معانٍ دالّة.

فالعلاقة بين التّلفّظ والفعل الكلاميّ علاقة جدّ وطيدة؛ إذ لا يُمكن أن يحدث فعل إنجازيّ في عمليّة التّواصل دون سابق عمليّة التّلفّظ به، وكلّ فعل كلاميّ يستلزم بالضّرورة ملفوظا سبقه يُوحي بمعنًى دلاليّ يؤهّله إلى إنجاز فعل ما.

فالتّلفّظ الّذي يُوحي ويدلّ على الكلام، والملفوظ يصدق على كلّ ما صدر من المتكلّم من كلام، وهذا المعنى في النّظريّة التّداوليّة هو نقطة مهمّة في دراسة اللّغة، خاصّة من جانب الاستعمال والتّواصل في مقام معيّن، والّذي يُؤدّي إلى حُدوث فعل التّأثير في المتلقّي. وبحسب رأي "" جيفري ليتش" : يمكن أن يُحيل إلى إنتاج فعل كلاميّ، ولا يُحيل إلى فعل كلاميّ ذاته (آخر). مثلا العبارة: من فضلك هل يمكنك أن تكون هادئا؟، إذا تكلّم بها احد النّاس بهدوء ولطف رافعا بها نبرة صوته، فإنّه من المُمكن أن توصف بجملة خبريّة أو طلب سؤال" [1]. ومن هنا تظهر علاقة التّلفّظ بالنّبرة الصّوتيّة الّتي تصدر من المتكلّم، والّتي قد يتوقّف عليها نوع فعل مُنجز ما دون غيره من الأفعال الأخرى.

---

[1] - جيفري ليتش، مبادئ التّداوليّة، ترجمة عبد القادر قنيني، الدّار البيضاء، المغرب، ص25.

ويرى بعض الدّارسين أنّ "كلّ التّلفّظات والجمل هي في نهاية الأمر أفعال، حتّى التّقرير والوصف والإخبار أفعالٌ. مثلما في ذلك، مثل: الأمر، والاعتذار والتّسميّة، والمنح والمنع، ومن المقولات المؤسّسة للنّظريّة كذلك تصنيف " أوستن" Austin، جوانب التّلفّظ أو الجملة إلى ثلاثة هي:

1- الصّيغة: ظاهرة التّلفّظ أو الجملة، أو نطقها أو كتابتها.

2- المعنى المقصود: ما يريد المتكلّم أو الكاتب أن ينقل إلى المتلقّي.

3- التّأثير: ردُّ فعل المتلقّي، وصول الرّسالة من عدمة" [1].

التّداوليّة تعتمد التّلفّظ كعمليّة أساسيّة في دراسة الكلام وفق مسار التّداول بين أطراف الحوار، والملفوظ يُحقّق أفعالا إنجازيّة ، ويتعلّق إنجاز أيّ فعل في المجال اللّغويّ بضرورة سبق واستحضار التّلفّظ به؛ أيْ بتحقيق وظيفة الكلام. وبفضل التّلفّظ الّذي يُعتبر أساس التّداول ووسيلة للإفصاح عن الكلام يتحقّق الفعل عن القول المُراد إنجازه في سياق تواصليّ مُعيّن.

[1] - بهاء الدّين محمّد مزيد، تبسيط التّداوليّة، ص51.

السّياق، المقام التّواصليّ :

التّداوليّة نظريّة لغويّة حديثة استطاعت أن تأخذ مكانتها في الدّرس اللّسانيّ الحديث لقدرتها على فرض مزاياها على المستوى اللّغوي الّذي كان مُنحصرا لعقود من الزّمن على الجانب الشّكليّ للّغة إلى دراستها من حيث الاستعمال والتّواصل.

ومن الأسباب الّتي ساعدت على ظهورها كمنهج لغوي مُستحدث، أُعترف به في السّاحة العلميّة وأصبحت ذات طابع مُستقلّ، وكيان مُنفصل عن باقي العلوم الأخرى، وحتى عن باقي المناهج اللّسانيّة ، لكونها أخذت الصّدارة في دراسة اللّغة من جانب وظيفيّ لم يسبق لها وأنْ مرّت على مسار عهده،أوّلا: بفضل الدّارسين اللّغويين الّذين أظهروا في أبحاثهم المتقصّية والمُستفيضة تلك المُفارقة الموجودة بين التّداوليّة وما سبقها من النّظريات اللّسانيّة، وثانيًا: تكمن هذه المُفارقة في أنّ هذه النّظريّة جاءت بالبديل المُناسب لمعالجة اللّغة ودراستها قيد الاستعمال؛ أيْ في التّداول الحواريّ التّواصلي بين الأفراد، وهذا في أبسط صورة لها، بالإضافة إلى جانبها الإبداعيّ الّذي يُجسّده فنّ الخطاب أو النصّ. فكانت هذه الدّراسة تتمّ بواسطة مجموع الآليات الّتي أقرّها علماء اللّسانيات الحديثة، والّتي كانت عونا للمنهج التّداولي أثناء دراسة اللّغة في الاستعمال، هذه الآليات اللّغويّة وضّحت هدفها، ويتمثّل في أنّ: اللّغة لها وظيفة تواصليّة لا نستطيع أن نستوعب مقصديّة مدلولاتها الّتي تُحقّق الأفعال المُنجزة إلاّ في ظلّ توفّر " السّياق"، أو "المقام التّواصليّ" اللّغويّ والاجتماعيّ. هذا السّياق الّذي أُهمل في الدّراسات اللّسانيّة السّابقة برزت أهمّيته في الدّراسة التّداوليّة، فأصبح اللّبنة الأوّليّة، والحجر الأساس في دراسة اللغة أثناء الاستعمال والتّواصل.

كان أقدم تعريف " للتّداوليّة" هو: "تعريف "موريس" سنة(1937م) . حين اعتبرها أنّها: تُعالج العلاقة بين العلامات ومُستخدميها "[1]، ومستعملي هذه العلامات، هما : المتكلّم الّذي صدر منه الملفوظ، والمتلقّي. ويُعتبر كلّ منهما مُهمّا في العمليّة التّواصليّة. وهما عنصران

[1] - آن روبول، جاك موشلر، التّداوليّة اليوم علم جديد للتّواصل، ص29.

أساسيان في السّياق اللّغويّ. و "السّياق Lecentexte: هو مجموعة المعطيات الّتي يشترك فيها كلّ من المخاطب والمتلقّي، إلى جانب المعلومات المشتركة بينهما، وما يربطهما من تجارب وثقافة " [1]، وهي نقاط مشتركة مهمّة بين عناصر التّخاطب والحوار، والّتي تساهم في إنتاج الخطاب، ومن النّاحيّة اللّغويّة فإنّ " السّياق لا يشمُل من الموقف إلاّ تلك العناصر الّتي تحدّد بنية النصّ، وتؤدّي إلى تفسيره، وبهذا تصبح " التّداوليّة" : العلم الّذي يُعنى بالعلاقة بين بنية النصّ وعناصر الموقف التّواصليّ المرتبطة به بشكل منظّم، ممّا يطلق عليه سياق النصّ " [2]. وقد أجمع زعماء النّظريّة التّداوليّة أنّ السّياق يتمثّل في الظّروف الخارجيّة (المقام التّواصليّ)، والّذي يتكوّن من المرسِل والمرسَل إليه، بالإضافة إلى مكان التّلفّظ وزمانه، وما يُحيط به من عوامل اجتماعيّة وثقافيّة. وبهذه العوامل فالسّياق: هو " الآليّة الّتي يُنظّمُ من خلالها المتكلّمون ما يريدون قوله وفقا لهويّة الّذي يتكلّمون إليه، وأين، ومتى، وتحت أيّ ظروف " [3]. فالمتكلّم عند إنتاج ملفوظه يضع في الحسبان حدود السّامع الاجتماعيّة والثّقافيّة والمعرفيّة. وكيف يُمكن له أن يفهم ما يُقال، سواء بالفهم المباشر أو بتأويله ليصل إلى المعنى المُراد من طرف المخاطَب. لذلك فإنّ عمليّة صنع المعنى هنا مشتركة بين الأطراف المتحاورة، والمتمثّلة في المتكلّم والمخاطب.

ولهذا فالسّياق: هو "مجموع التّجارب الماديّة والمجتمعيّة لتلفّظ ما، وما يُحيط بها من معارف ممّا يتقاسمه كلّ من المتكلّم والمخاطب، والّتي تُسهم في تأويل ما يقصده المتكلّم بأيّ تلفّظ لعبارة ما " [4] ، وهو مجموع العناصر المكوّنة للمقام التّواصليّ الّذي يتمّ فيه الكلام بين أطراف الحوار التّداوليّ، أو الخطاب الذي يُساهم بشكل جليّ في بعث الجانب الوظيفيّ للّغة إلّي يمكّن من انبثاق وتحقيق الفعل الإنجازي، وهذا ما يصبو إليه المنهج التّداولي.

---

[1] - ذهبيّة حمو الحاج، لسانيات التّلفّظ، وتداوليّة الخطاب، ص15.

[2] - صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، ص21.

[3] - جورج يول، التّداوليّة، ص19.

[4] - جيفري ليتش، مبادئ التّداوليّة، ص24.

السّياق آليّة من آليات التّداوليّة، وتكمن مرجعيّته في أنّه واكب حضوره كأحد العناصر المهمّة في التّنظير التّداوليّ؛ إذْ لا يمكن دراسة اللّغة وفق الاستعمال والتّواصل دون الاستعانة بالظّروف الخارجيّة، والمتمثّلة في السّياق الّذي اصطلح عليه بعض الدّارسين أمثال " محمّد نظيف" الّذي يُقرّ بتعدّد السّياق وأدرجه في ثلاثة أنواع:

* السّياق المرجعي:الّذي تُحدّد من خلاله العلامات قضايا الواقع حتّى في جوانبها الإدراكيّة.

* السّياق المقاميّ: الّذي يُحدّد البواعث الاجتماعيّة المُؤطّرة للاستعمال الحواريّ، وهو سياق خارج لسانيّ، تُساهم فيه أطراف الحوار مُساهمة توازي المناسبات الاجتماعيّة والثّقافيّة والسياسيّة للقول الحواريّ.

* السّياق التّفاعليّ: الّذي يُسجّل العلاقة الّتي تجمع أطراف الحوار أثناء تفعيل التّبادل، وهي تُبيّن استجابة ممثّلي الخطاب لمقتضيات الحوار من مشاركة واستدراك في الرّأي، وتبادل المواقع الحواريّة، والمساهمة في إيصال الحوار إلى آفاق معرفيّة وثقافيّة مقبولة من كلّ أطرافه " [1].

بالإضافة إلى هذه الأنواع من السّياقات الّتي تُوجِدُ المعنى، وتُحقّق الخطاب التّواصليّ بجميع معطياته التّبليغيّة والتّأثيريّة، نجد سياقات أخرى أقّرها بعض الدّارسين للّغة، وللخطاب التّواصلي الّذي يصدر من متكلّم إلى متلقٍ، ويكون فحوى مضمونه يدلّ على معنًى معيّن ومُوح بمدلول تأثيريّ، يكون الهدف منه استجابة المتلقّي وتفعيل إنجاز الفعل في سياق تواصلي، " كسياق القرائن: وهذا ما يُسمّى بنحو النصّ، والسّياق الوجوديّ: وجود الشّخصيات، وكذلك موقعهم الزّمانيّ والمكانيّ، والسّياق المقامي، وسياق الفعل، والسّياق النّفسي: الّذي يُبيّن أنّ المقاصد والرّغبات حالات ذهنيّة...، وهذه الأنواع من السّياقات متداخلة ومترابطة، فلا يستغني أيّ منها عن الأنواع الأخرى " [2]. وكلّها تندرج ضمن سياق محوريّ بكلّ ما يحتويه من عناصر تواصلية، يعكس لنا الجانب الوظيفي

---

[1] - محمّد نظيف، الحوار وخصائص التّفاعل التّواصليّ، دراسات تطبيقيّة في اللّسانيات التّداوليّة، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، 2010م، ص41،40.

[2] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليّة، ص42-43.

للخطاب، والّذي تتعالق فيه عناصر المقام الحواري في سيرورة التّواصل، فينجرّ عن ذلك كلام يُوحي بمدى نجاح الخطاب في تحقيق الوظيفة العمليّة والّتي تتمثّل في التّأثير في المتلقّي وتحقيق الفعل الإنجازيّ المرجو منه.

ذلك أنّ السّياق هو المقام التّواصليّ الّذي يتفاعل فيه أطراف الحوار بواسطة ملفوظات معيّنة تُمكّنهم من الوصول إلى الفعل الكلاميّ المُراد إنجازه. وهذه الملفوظات تُشكّل مجرًى من الأحداث بين المتكلّم والمتلقّي في زمان ومكان معيّنين وواضحين. وبالتّالي فالخاصيّة الّتي تُميّز السّياق هي تلك " الصّفة أو الميزة " الديناميكيّة" المحرّكة. فليس السّياق مجرّد حالة لفظ، وإنّما هو على الأقلّ متواليّة من أحوال اللّفظ. وفضلا عن ذلك لا تظلّ المواقف متماثلة في الزّمان، وإنّما تتغيّر. وعلى ذلك فكلّ سياق هو عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث، وقد يكون اتّجاه الأحداث هذا حسب نظريّة الأحداث دالا على حالة ابتدائيّة، وأحوال وُسطى، وحالة نهائيّة " [1]. هذه الأحداث والأقوال تشكّل خطابا وكلّ خطاب له بداية بداية ونهاية، وبالتّالي فهو واضح وكامل من ناحيّة المعنى واللّفظ، يعكس رؤية المتكلّم الّذي يُحاول ترجمتها عن طريق ملفوظات موحية بمدلولات ضمنيّة يستطيع أن يفكّها المتلقّي، ليتسنّى له أن يفهمها، أو يؤوّلها ليُحسن استيعابها ضمن سياق تواصليّ، ويترجم معانيها إلى فعل. وكلّ كلام ناقص غير مكتمل لا يُفهم معناه. فالسّياق حسب تصنيف " فان دايك" ، أنّه مُتغيّر بتغيّر العناصر المكوّنة له، والّتي يوضّحها المُخطّط التّالي:

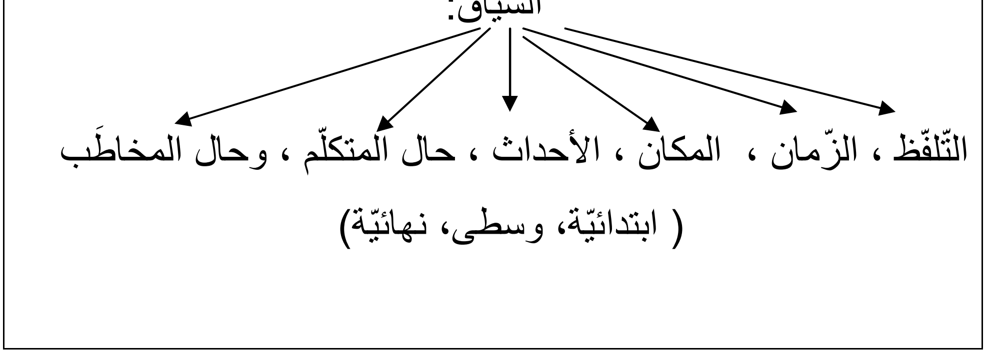

[1] - فان دايك، النصّ والسّياق، استقصاء البحث في الخطاب التّداوليّ، ص329.

عناصر السّياق:

ومن أهمّ العناصر الّتي تُشكّل سياق الخطاب / النصّ: هي:

المتكلّم والمخاطَب، والحضور (المستمعون الآخرون)، والموضوع والمقام، زمان الحدث التّواصليّ ومكانه ، والقناة (كيف يتمّ التّواصل: كلام ، كتابة ...) ، والأحداث والغرض (المقصديّة). تلك العناصر السّياقيّة حسب تصنيف " هايمس" " [1]. ولكن ليس بالضرورة الاحتفاظ وتوفر كلّ تلك العناصر. ومن ثمّ- حسب رأي: "" براون" و" يول" (1983م). يمكن الاكتفاء بالعناصر التّالية: المتكلّم والمخاطب والرّسالة والزّمان والمكان. وكلّما توفّر المتلقّي على معلومات من هذه المكوّنات تكون أمامه خطوط قويّة لفهم الرّسالة، وتأويلها أي وضعها في سياق مُعيّن من أجل أن يكون لها معنًى: على محلّل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السّياق الّذي يَرِدُ فيه جزء من الخطاب، إذْ هناك بعض الحدود اللّغويّة الّتي تتطلّب معلومات سياقيّة أثناء التّأويل. ومن هذه الحدود والمعطيات الإشاريّة، مثل: هنا- الآن- أنا- هذا- ذاك، من أجل تأويل هذه العناصر حين تَرد في خطاب ما، من الضّروري أن نعرف (على الأقلّ) من هو المتكلّم ومن هو المستمع، وزمان ومكان إنتاج الخطاب " [2]. هذا هو المبدأ العامّ الّذي يُحدّد أهميّة السّياق ودوره في فهم وتأويل خطاب معيّن. فكثير ما يكون المتلقّي أمام خطاب بسيط ولكنّ يتضمّن قرائن لغويّة تجعله غير مفهوم، أو يشوبه نوع من الغموض بالنّسبة للمتلقّي، وبالتّالي حضور السّياق والعوامل الخارجيّة هي الّتي تساعد وتساهم في الفهم أو التّأويل. وعلى هذا فإنّ للسّياق دورا كبيرا وفعّالا في العمليّة التّبليغيّة، وما تتضمّنه من عناصر مشاركة – المتكلّم والمخاطّب- بلغة التّواصل بينهما، وأهمّ التّصوّرات الذّهنيّة الّتي تُحقّق فهم الخطاب والإلمام بمعانيه ومدلولاته. لتفعيل الجانب الوظيفيّ فيه وهو الهدف الّذي يتطلّع إليه المتكلّم؛ أي المُرسِل.

---

[1] - محمّد خطابي، لسانيات النصّ، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، ط01، 1991م، ص53.

[2] - المرجع نفسه، ص297.

أ/ المُرسِلُ:

هم المتكلّم، وهو محور العمليّة التّواصليّة في إنتاج الخطاب، ولكي يُعبّر عن مقاصده، فهو يختار ملفوظات وعلامات مناسبة لتحقيق ما يصبو إليه، سعيا منه إلى التّعبير عمّا يشعر به، ويرغب في إيصال ما يريده من معانٍ يسعى إلى تفعيل إنجاز الفعل من خلالها، في سياق صحيح يجري فيه التّواصل بكلّ أبعاده وعناصره المؤثّرة. فالمُرسِل:هو " الذّات المحوريّة في إنتاج الخطاب، لأنّه هو الّذي يتلفّظ به من أجل التّعبير عن مقاصد مُعيّنة، وبغرض تحقيق هدفه فيه...، بتوظيف كفاءته للنّجاح في نقل أفكاره " [1]. ويتمّ ذلك بواسطة لغة مشتركة وواضحة بين الأطراف المتحاورة، هذه اللّغة يستطيع أن يستوعبها الطّرف المُقابل للعمليّة التّواصليّة، على أن يكون هذا الخطاب مُحكم البناء بجميع أنساقه وتراكيبه اللّغويّة، ومعناه الّذي يكون نابعا عن إدراك ووعي من طرف المتكلّم في إنتاج خطابه والّذي يتطلّع به إلى الاستجابة وفعل إنجازيّ من الطّرف المقابل. فالسّياق هو الّذي "يُوظّف اللّغة بمستوياتها المتمايزة، بتفعيلها في نسيج خطابه، ذلك التّفعيل الّذي ينوّع طاقتها الكامنة. ويدرك ذلك بإنتاجه الخطاب " [2]. وكلّما كان الخطاب واضحا ومنسجما، وفي متناول المتلقّي معنًى ودلالة، جازت له بذلك عمليّة التّأويل ليستطيع إنجاز الفعل المطلوب منه. ولا يكون المرسِل " ناطقا حقيقيّا إلاّ إذا تكلّم لسانا طبيعيّا معيّنا ، وفصّل تفصيلا كافيا صيغه الصّرفيّة، وقواعده النّحويّة، وأوجه دلالات ألفاظه وأساليبه في التّعبير والتّبليغ " [3]. فلا يُمكن أن يستجيب المتلقّي (السّامع) لكلامٍ لا يصل إلى مرحلة استيعابه، أو لا يمكنه إدراك فحواه ومضمونه ودلالته، وبذلك سوف تفشل العمليّة التّواصليّة بين المرسِل والمرسَل إليه.

---

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، ص45.

[2] - المرجع نفسه، ص46.

[3] - طه عبد الرّحمن، في أصول الحوار، وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب، ط02، 2000م، ص37.

فالمرسِل النّاجح هو الّذي يستطيع أن يتبع استراتيجية معيّنة في كلامه تمرّ "بثلاث مراحل:

* إدراك السّياق الّذي يجري فيه التّواصل بكلّ أبعاده المؤثّرة.

* تحديد العلاقة بين السّياق، والعلامة المستعملة؛ ليتمّ اختيار الاستراتيجيّة الخطابيّة الملائمة.

* التّلفّظ بالخطاب "[1].

وبهذا فإنّ نجاح العمليّة التّواصليّة يتوقّف على المتكّلم الذي يأمل بأن يكون كلامه ملائما للمقام لتّواصليّ، حتّى يتسنّى للمتلقّي أن يفهم كُنهه ومضمونه، لهذا فالمرسل يضع بعين الاعتبار أمرا مهمّا وهو أن يكون كلامه في مستوى القبول والفهم بالنّسبة للمخاطب.

ب/- <u>المرسل إليه</u>:

وهو المخاطَب الّذي يُعتبر الطّرف الثّاني في عمليّة التّواصل، وهو محور العمليّة التّواصليّة، بناءً على أنّ المرسل بالضّرورة يعتمد على وجود وحضور متلقٍ للخطاب لإنتاج رد فعل يتمثّل في تحقيق فعل ما. وبالتّالي فللمخاطب دور وظيفيّ في الحوار التّداوليّ، ذلك أنّ المتكلّم يفرض معطيات من الواقع الاجتماعيّ أو الفكريّ والثّقافيّ، قد يستجيب لها المرسل إليه؛ أي يؤوّلها بحسب فهمه لها. وهذا يعتمد على ما يتوفّر للمتكلّم من أساليب لغويّة تُساهم في فهم المتلقّي وفق سياق تواصليّ محدّد.

المتكلّم يجب أن يضع في الحسبان درجة ورتبة السّامع، وهذا يفيد فيما مدى استطاعته وسهولة تعامله مع الطّرف الآخر، وهذا يُجبره على اختيار الألفاظ المناسبة، والّتي يفرضها عليه الوسط الاجتماعيّ، والغرض منها تحقيق الفهم والاستجابة من طرف المتلقّي الذّي يُعدّ عنصرا مهمّا في المقام التّواصليّ، وإذا كان الخطاب موجّها إلى متلقٍ في مرتبة أقلّ، ذلك أنّ المتكّلم يتّسم بسلطة أعلى. فاختيار العلامات اللّغويّة المناسبة تكون من نصيب المتكلّم بالدّرجة الأولى، بأساليب : النّهي ، الأمر، التّحذير... ، وهذه الأساليب تفرضها السّلطة لاجتماعيّة، " فالعلاقات الرّسميّة تدخل فيها صيغ التّبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنّا،

---

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، ص63.

ومقاما من المتكلّم، وهي تشتمل الألقاب أيضا "[1]. وفي حالة كان الخطاب صادرا من طرفين - مرسِل ومرسَل إليه - في درجة واحدة من بساطة التّواصل؛ أي دون ألقاب تُذكر، أو شعور بالفروقات الاجتماعيّة، وذلك أنّ " الاستعمال غير الرّسميّ منفكٌّ من القيود جميعًا، وينعكس هذا في استعمال بعض الضّمائر الدّالة على المفرد المخاطب، والتّحيات الّتي تتدرّج من الرّسميّة إلى الحميميّة "[2]. وعادة المتكلّم يُلقي خطابه لمتلقٍّ معلوم، أو بالأحرى يعرف ما يجول في ذهنه، فيختار العلامات المناسبة لقول خطابه الّذي يُبدي فيه هدفا يرغب من خلاله تحقيق فعل كلامي معيّن.

وبهذا تظهر قيمة " الخطاب" في التّداوليّة في حال تحقيق استجابة المتلقّي وإنجازه للفعل في ظروف سياقيّة تواصليّة بين الأطراف المتحاورة، والّتي يحتويها ويُدعّمها المكان والزّمان، وهما عنصران مرجعيان لمعرفة دلالة الكلام في إطار التّداول.

ج/- <u>المكان والزّمان</u>:

من أهمّ عناصر السّياق، ذلك أنّ هذه العناصر تدلّ عليها الملفوظات اللّغويّة الّتي بدورها تعكس دلالات ضمن تراكيب وانساق خطاب مُعيّن ليسهُل تحديد معناها وتوجّهاتها التّواصليّة. تلك الملفوظات الّتي تصدر من المتكلّم تُساعد على فهم المعنى المقصود. فما يُقال في مكان ما، قد لا يُقال في مكان آخر، " فلكلّ مقام مقال".

كما تساهم هذه العناصر في تشكيل الخطاب وتوضيح معناه، حتّى يتسنّى له أن يكون مقبولا لدى المتلقّي، ويستطيع أن يؤثّر فيه فيستجيب له ويحقق الفعل المطلوب منه.والزّمان والمكان " سياقات تتجلّى مرجعيتها انطلاقا من خطاب المتكلّم...، و" الزّمن" يتجلّى في اللّغة عن طريق قرائن بجوار الأفعال في بدايتها(أحرف المضارعة)، أو في نهايتها (الضّمائر الّتي تلحق بالفعل الماضيّ)، أو عن طريق الظّروف (الآن- اليوم- غدا- أمس)، أمّا "زمن الخطاب" : هو زمن الحديث في الحاضر الّذي يُشكّل مرجعيّته...،أمّا" المكان"،

---

[1] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص26.

[2] - المرجع نفسه، ص26.

فدلالته المرجعيّة لا تتجلّى إلاّ من خلال تلك النّقطة في الفضاء الّذي يتحقّق فيه الكلام " [1]، فيتحقّق فيها الخطاب، بالإضافة إلى زمن بدايته وزمن التّلفّظ به.

وإنّ تنوّع هذه الأسماء (ما تدلّ على الماضي، أو الحاضر...)، واختلافهما يستلزم ذلك تنوّع الخطاب واختلافه وفق مقام تواصليّ معيّن. واختلاف هذا السّياق يؤدّي بالضّرورة إلى تنوّع واختلاف وتباين الأفعال الإنجازيّة. وبهذا تظلّ هذه العلامات اللّغويّة المُتلفّظ بها من طرف المتكلّم إلى السّامع، مُهمّة في تشكيل " الرّسالة " في عمليّة التّواصل التّداولي.

د/- الرّسالة:

هي ذلك الخطاب الّذي يحمل في طيّاته معانٍ ودلالات تعكسها ملفوظات ساهمت في البوح بالأفكار والمشاعر الّتي تتوارى خلف الذّهن والعقل. فيُطلِق سراحها ذلك التّلفّظ الّذي ما برح أن وجد ضالّته التّخاطبيّة، فيظهر على شكل ملفوظات تشكّل خطابا مُعبّرا ومُوحيا بمعان ودلالات عميقة تخرج إلى سياق التّواصل فيستقبلها المتلقّي مُبديا ردود أفعال وأقوال تشكّل بدورها خطابا جديدا آخر له تأثير عميق في نفسيّة مستقبِله. مثلا في خطاب "الإمتاع والمؤانسة" يتمّ ذلك عبر قناة المشافهة والكلام بين الوزير في سياق التّواصل معه، بالإضافة إلى القناة الكتابيّة الّتي انتهجها وسطّرها المبدع للوسيط بينهما، وهو الغائب عن مقام المجلس، وهو " أبو الوفاء المهندس" [2].

الخطاب الصّادر من المتكلّم الّذي يطّلع إلى أنْ تصل رسالته إلى المخاطَب مُستوفيّة جميع شروط اللّغة الطّبيعيّة. ذلك أنّه أحاط بجميع الأدوات اللّغويّة، وقام بتشكيلها وبنائها بناءً مُحكمًا لكي يستطيع التّأثير في السّامع. وهنا لا بُدّ من وجود عناصر مُشتركة بين المتكلّم والسّامع في العمليّة التّخاطبيّة التّواصليّة، والّتي تتمثّل في المعرفة المُشتركة بينهما.

---

[1] - قدور عمران، البعد التّداوليّ والحجاجيّ، في الخطاب القرآنيّ الموجّه إلى بني إسرائيل، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2012م، 12.

[2] - أُنظر: أبو حيّان التّوحيديّ، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد جاد، دار الغدّ الجديد، ط01- 2009م- ص30.

هذه المعرفة " تُشكّل أساسا ينطلق منه المرسِل في إنتاج خطابه، والمتلقّي في الوصول إلى غاية المرسِل، وما تحمله التّراكيب من أقوال مُضمرة تقترن بسياق الخطاب. فيُعبّر المرسِل عن غاياته ومقاصده بغير ما تُوحي به الكلمات " [1]. وهذا يتمثّل في دور المتلقّي، وما يمتلكه من نباهة وذكاء حتى يستطيع فهم ما يقصده المرسِل وما يعنيه، وبالتّالي يفهم مقصديّة رسالته، وعندئذ بإمكانه الردّ عليها. وفي الوقت نفسه تقتضي من المتكلّم القدرة على انتقاء ما يُفهم به سامعه ويؤثّر فيه أو يُقنعه.

ومن منطلق فهم الخطاب، وما مدى تمكّننا من الردّ عليه في العمليّة التّواصليّة في المنهج التّداوليّ يجب أن تتوفر مجموعة من الآليات، ركز عليها معظم الدارسين المعاصرين ومن بينها القصديّة، ومبدأ التّعاون، ومبدأ الملاءمة، والإحالة والإشاريات ومتضمّنات القول والاستلزام الحواريّ، وسوف نتطرّق إلى القصديّة كخاصيّة ذهنيّة يصبو المتكلّم من خلالها إلى تحقيق فعل مُعيّن بذاته، يكون السّامع الطّرف الفعّال في تحقيقه، وبالتّالي وصول الخطاب الصّادر من المتكلّم إلى تحقيق الوظيفة التّواصليّة ضمن إطار تداول الكلام وتفاعل أطراف الحوار فيه.

---

[1] - أحمد فهد صالح شاهين، النّظريّة التّداوليّة، وأثرها في الدّراسات النّحويّة المُعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2015م، ص 19.

آليات تحليل الخطاب:

1- القصديّة:

إنّ النّظريّة التّداوليّة قد تجاوزت دراسة اللّغة في ذاتها؛ أي لم يعد الاهتمام منصبّا على دراسة اللّغة في ذاتها ولذاتها. بل تجاوزت ذلك إلى دراسة اللّغة من جهة الاستعمال والتّواصل. وأصبح بالوقائع الخارجيّة والمتمثّلة في السّياق وما يتضمّنه من عناصر مشكّلة له تُساهم في توضيح محتواه ومعانيه. كما تُساهم في بيان مقصديّة الكلام الّذي قد لا يتحقّق وضوحه إلاّ بتلك العناصر الّتي تُساهم في تحقيق إنجاز الأفعال المناسبة. بدءًا من عنصر"التّلفّظ" الّذي يصدر من المتكلّم، وتكون " غايته ومراده هو الوظيفة، الغاية، أو قصد المتكلّم بتلفّظه " [1]. وهذا لا يتحقّق إلاّ عن طريق إدراك الذّهن لمعنًى معيّن، محاولة منه إيجاد المعنى المقصود، وهذا ما يعكسه مصطلح القصديّة في التّنظير النّقديّ التّداوليّ. فالقصديّة عند " سيرل" " صفة أساسيّة كامنة في أعماق العقل " [2]؛ كما ينظر إليها أنّها " صفة لكلّ أفعال الكلام " [3] ؛ أي القدرة على معرفة ما يقصده المتكلّم. وفق شروط معيّنة يجب أن يتّصف بها المتلقّي والّتي تكمن في الإدراك الذّهنيّ والنّباهة، والتّجربة. ناهيك عن معطيات اللّغة المشتركة بين أطراف الحوار.

لقد اهتمّت اللّسانيات التّداوليّة بالتّلفّظ – الكلام- الصّادر من المتكلّم، كما اهتمت بطرفي الحوار(المرسِل والمرسَل إليه)، هذا التّواصل بين هذه العناصر يتولّد عنه ملفوظات قد يصعُب تأويلها من طرف السّامع. لأنّ معانيها غير باديّة للذّهن. بل تختفي خلف الخطاب وتشكيله اللّغوي. ولهذا قد يكون هذا الكلام مجموعة من المقاصد الضّمنيّة الّتي تحمل في طياتها دلالات مقصديّة على المتلقّي أن يكشف سرّها بآليّة التّأويل .

---

[1] - جيفري ليتش، مبادئ التّداوليّة، ص24.

[2] - جون سيرل، القصديّة، ترجمة أحمد الأنصاريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 2009م، ص50.

[3] - المرجع نفسه، ص227.

والتأويل خاصيّة انتهجتها التّداوليّة ضمن إطار تحليل الخطاب، كعمليّة ذهنيّة يستعين بها المتلقّي لاستيعاب مضامين الكلام ويكشف مقصديّتها لكي تتحقّق العمليّة الوظيفيّة للكلام وتفعيل إنجاز الفعل المراد. ولهذا "فالتّأويل يتمّ عن طريق نظام اِستنباطيّ تكون مقدّماته مكوّنة من جهة من الصّورة المنطقيّة للقول، ومن جهة ثانيّة من السّياق " [1]. لذا من وسائل فهم متضمّنات القول هو اللّجوء إلى تأويلها وفكّ المعنى الضّمنيّ فيها من خلال عناصر السّياق الّذي وردت فيه.

وعلى هذا فالتّداوليّة تتعامل مع " الخطاب الإبداعيّ باعتباره مقصديّة سياقيّة ينبغي استحضارها بُغية تأويلها تأويلا صحيحا وسليما " [2]. والخطاب الأدبيّ مجالا رَحبا للتّأويل، نظرا لما يتضمّنه من بلاغة، وجماليّة الإبداع. فقد لا توحي ألفاظه بمعانٍ مباشرة، بل تتعدّاها إلى دلالات يصعُب فكّ مقاصدها إلاّ لمن كانت له تلك القدرة والوعي بالجانب البلاغيّ الّذي يحتوي الخطاب ويشكّله.

ومن أهمّ جوانب دراسة الاتّصال اللّغويّ جانب المعنى، والّذي يتّضح بين المتكلّم والمتلقّي في حال كان المقصد واضحا، ومُدرَكا من طرف المتلقّي، أمّا في حال إخفاء المقاصد، فإنّ المعنى يصعُبُ فهمه واستيعابه من طرف المتلقّي، وقد يعتري خطابا ما غموض في معانيه، وبالتّالي يُحيلنا إلى عدم فهم " مقصديّته" . فالجمل الغامضة مضلّلة للمعنى. وإن توفّرت على سياق أو وردت فيه، ويستخدم " مصطلح القصد" farce" في البرغماتيّة (التّداوليّة) لتشير إلى "القصد" من وراء رسالة المتكلّم، وهو مصطلح قدّمه " أوستين" كمكوّن ثانٍ للمعنى الّذي يقصده المتكلّم. مثل: هل هذه سيّارتك؟ . إنّ اسم الإشارة يدلّ على وحدة مفردة وهي(سيّارتك، وضمير(ك) يشير إليك، على الرّغم أنّك لا تصادف مشكلة في فهم المعنى المنطوق(المستوى الأوّل للمعنى الذّي يقصده المتكلّم)، فإنّك لا تفهم بُعد " القصد" من وراء هذا السّؤال. هل يُعبّر المتكلّم عن إعجاب، أم انّه يُعبّر عن ازدراء؟، أهي شكوى من أنّ سيّارتك تُعيق الطّريق؟ هل يطلب المتكلّم أن توصله إلى المدينة؟ ، وهذه

[1] - نادية رمضان النّجار، الاتّجاه التّداوليّ والوظيفيّ في الدّرس اللّغويّ، ص124.

[2] - جميل حمداوي، التّداوليات وتحليل الخطاب، مكتبة المثقّف، ط01، 2015م، ص35.

كلّها عن " المقاصد" البرغماتيّة (التّداوليّة) الّتي قد يتضمّنها المنطوق نفسه " [1]. وللمقام التّواصليّ دور كبير في كشف معنى ما يتمّ التّلفّظ به من طرف المتكلّم. أمّا القصد من كلامه فيقع على عاتق المخاطَب، وبالتّالي فالتّداوليّة تبحث في كيفيّة اكتشاف المتلقّي لمقاصد المتكلّم.

التّداوليّة اهتمت بدراسة الخطاب ضمن أسسها وآلياتها اللّغويّة الّتي حاصرته من جميع الجوانب اللّغويّة، وحرصها على كشف واستنباط مقصديّة المتكلّم/ الكاتب، ونعتبره من أولوياتها التّنظيريّة. ذلك أنّ كلّ كلام (تلفّظ ما) يعتريه غموض لا محالة، أو على الأقلّ في جزء منه، خاصّة وأنّ "المتكلّم كثير ما يعني أكثر ممّا تقوله كلماته " [2]. وتقرّ النّظريّة التّداوليّة أن كلّ خطاب مهما كان حجمه فإنّه تتوارى خلف كلماته وجمله معانٍ ودلالات لم يتم البوح والتّصريح بها، وعلى القارئ (المخاطَب) أن يفكّ رموزها مُجبرا لا مخيّرا، ليكشف مقصديّة الخطاب المطروح. ومن منظور"جورج يول" يرى أنّ: " التّنظير التّداوليّ ضمن دراسة الخطاب أكثر تخصّصا حيث يميل إلى التّركيز خصوصا على مميّزات ما لم يتم قوله، وما لم يكتب (بالرغم من إيصاله) ضمن الخطاب المراد تحليله، ولكي ننجز تداوليّة خطاب معيّن علينا تخطّي الاهتمامات الاجتماعية للتّفاعل وتحليل المحادثة، والنّظر خلف الأشكال والبُنى الواردة في النصّ، والتّركيز حثيثا على مفاهيم نفسيّة مثل المعرفة الخلفيّة والمعتقدات، والتّطلعات. ففي تداوليّة الخطاب نكون مجبرين لا مخيّرين على استطلاع ما في ذهن المتكلّم أو الكاتب " [3]. خاصّة إذا انطوى الكلام على معنى ضمنيّ، يستوجب معرفة مقصديّته من طرف السّامع.

والتّداولية تولي أهميّة كبيرة لنظريّة القصديّة، والقصد من الكلام، لأنّها تُوجّه ذهن المخاطب إلى فكّ الغموض الّذي تحتويه ملفوظاته، لأنّ قصديّة ما يكنّه العقل من اتّجاهات

---

[1] - جيني توماس، مدخل إلى البرغماتيّة " التّداوليّة" ، ترجمة نازك إبراهيم عبد الفتّاح، دار الزّهراء، الرّياض، ط01، 2010م، ص36-37.

[2] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص12.

[3] - جورج يول ، التّداوليّة، ص 128.

وفِكر تختلف عمّا تكنّه وتخفيه النّفس من مشاعر وأحاسيس. وقد ذكر "سيرل" ماهيّة القصديّة، وبيّن أنّ " القصد" نوع من أنواعها بقوله: "القصديّة صفة للحالات العقليّة...، وحين يكون لدي قصد مُعيّن يجب أن يكون قصدا لفعل شيء ما...، فتعني "القصديّة" التّوجّه، ويعني " القصد": قصد عمل شيء مُعيّن، ومجرّد نوع من أنواع القصديّة أو إحدى صورها...، فالمعتقدات والرّغبات حالات قصديّة، ولكنّها لا تقصد شيئا " [1]. ولهذا كلّه فإنّ سيرل يركّز على أنّ " معظم المقاصد الإنسانيّة لغويّا " [2]، لغرض إنجاز فعلٍ ما، وأنّ الحالات القصديّة إذا كانت لا تترجم إلى فعل ما، كالرّغبات فإنّها تعدّ مجرّد حالات لا تقصد شيئا، لذا فالمقاصد إذا كانت مصاحبة لحدوث فعل شيء ما، فهي تعكس مقصديّة معيّنة في ذهن المتكلّم. ولكن الصّعوبة تكمن في عمليّة " التّأويل" . وكيف نؤوّل القوم لنصل إلى معناه المقصود؟ هذه العمليّة تعدّ أداة مهمّة في نظريّة القصديّة ومرتبطة بها.

والقصديّة تعمل على تحرير معاني الملفوظات الّتي تشكّل القول / الخطاب بكلّ تراكيبها وأنساقها ضمن سياق تواصليّ واضح ومستوفٍ للعناصر والشّروط المطلوبة. وإذا كان كلام المتكلّم مفهوما وصريحا، فإنّ المتلقّي لا يجد صعوبة في فهم مقصديّته. وبهذا يتحقّق بين الأطراف المتحاورة مبدأ التّعاون.

---

[1] - جون سيرل، القصديّة ، ص21-24.

[2] - المرجع نفسه، ص204.

2- <u>مبدأ التّعاون</u>:

إنّ التّداول الكلاميّ بين متكلّم وسامع/ متلقٍ، يرتكز على مجموع الملفوظات الّتي تُوحي بمعانٍ تعبيريّة تصدر من " المرسِل" إلى " المرسَل إليه" في سياق محدّد، وظروف اجتماعيّة واضحة بالنّسبة لكليهما. ويتوقّف هذا الكلام المستمر والمتواصل بينهما على مدى تفاعلهما في الحوار. وهذا التّفاعل يشكّل التّعاون المستمرّ بينهما. وهذا ما يُطلق عليه " مبدأ التّعاون" الّذي اعتمدته النّظريّة التّداوليّة الّتي " تُلحّ على الدّور الّذي يقوم به المتخاطبون في العالم الاجتماعيّ، فهؤلاء لا يتفاعلون فيما بينهم بواسطة اللّغة فحسب ، بل إنهم يقبلون ذلك التّفاعل، ويتعاونون عليه...، ويتّبعون عددا مُعيّنا من القواعد الضّمنيّة اللّازمة لاستكمال التّواصل، والمبدأ الأساسيّ، وهو مبدأ التّعاون "[1]، هذا المبدأ الّذي انبثق من عمق الفلسفة التّحليليّة، والّذي يعرّفه " "بول غرايس" على النّحو الآتي: أن تجعل مساهمتك في المحادثة كما هو مرجو منك من حيث اختيار التّوقيت المُناسب، وأن تكون تلك المساهمات متماشيّة مع الهدف والتّوجّه المسلّم بهما التّبادل الخطابيّ الّذي تقع ضمنه "[2] .وكلّما كانت المحادثة بين المتكلّم والسّامع مناسبة للمقام التّواصليّ، فإنّها تحقّق الهدف الّذي يصبو إليه الكلام، وهذا كلّه نتيجة لتحقيق " مبدأ التّعاون". وكلّما كان التّعاون موظّفا في سيرورة السّياق بجميع عناصره التّواصليّة، فإنّنا نتطلّع إلى التّحقيق الفعليّ لمجرى الكلام، ويتمثّل في إنجاز الأفعال.

يعدّ " مبدأ التّعاون" آلية من آليات المنهج التّداوليّ الّذي يحرص على علاقة الانسجام والتّواصل اللّغويّ بين الأطراف المتحاورة، لكي ينتج عن ذلك خطابا ملائما وواضحا يحقّق العمليّة الوظيفيّة للكلام النّاتج بينهما. وكلّما كانت هذه الأطراف في تواصل مقاميّ واضح،

---

[1] - فيليب بلا نشيه، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر حباشة، دار الحوار، سوريا، ط01، 2007م، ص84.

[2] - ج- ب، براون، وج، يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمّد لطفي الزليطني، منير التريكي، دار النّشر العلميّ،1997م، ص40.

يبعث على مدى قدرة هؤلاء على تحقيق الانسجام الفعليّ بينهم، على اعتبار أنّهم عناصر متعاونة لهدف مشترك، ولهذا فمبدأ التّعاون هو " مجموع القواعد الّتي يخضع لها المتحاورون ليحقّق التّواصل بينهم، وليصلوا إلى فائدة مشتركة تتطوّر بقدر ما يُساهم كلّ طرف مساهمة فعّالة في الحوار، وبما يراه مُناسبا لمقام القول "[1]. فالمرسِل يعبّر عن قصده من الكلام الملفوظ ضمن توفّر عناصر السّياق. مع ضرورة اكتساب " المرسل إليه" القدرة والوعي الذّهنيّ على تأويل وفهم المقصود من الكلام. وكلّما تحقّق هذا التّواصل الفعليّ بين هاته الأطراف كان لمبدأ التّعاون المساهمة الكبرى فيه، أو لها يَدٌ في ذلك.

المتكلّم والمتلقّي في العمليّة التّواصليّة الحواريّة يعملان على أن يكون كلٌّ منهما متّفقا ومتعاونًا مع الآخر في المحادثة المتبادلة بينهما، لذا يُعدّ " مبدأ التّعاون" في الحوار، ركيزة أساسيّة من الرّكائز الّتي تقوم عليها التّداوليّة ضمن إطار استعمال اللغة في المقام التّواصليّ، لذا حُدّدت للسيّاق مجموعة من القوانين لتحقيق خطاب تّواصليّ ذي وظيفة تأثيريّة بواسطة هذه " القواعد المتواضع عليها، والّتي يستند إليها هذا مبدأ التّعاون، هي:

من حيث الكمّ: أن تجعل مُساهمتك إخباريّة بالقدر المطلوب (حسب ما تُمليه الحاجة في تلك المحادثة القائمة) ولا تُقدّم معلومات أكثر ممّا يلزم.

من حيث الكيف: ألاّ تقول ما تعتقد أنّه خطأ، ولا تتحدّث عن شيء لا تملك بشأنه حُججا كافيّة.

من حيث العلاقة: أن تتحدّث عمّا هو مناسب للموضوع.

من حيث الأسلوب: أن تكون واضحًا، وتجنّب الغموض في التّعبير(ابتعد عن ازدواجيّة المعنى)، وتكلّم بإيجاز (ابتعد عن الحشو)، وأن تكون مُنظّما "[2]. هذه مجموع القوانين الّتي تُحيل إلى أنّ المحادثة الّتي يُراد بها تحقيق الفائدة والنّفع والتّأثير في المتلقّي، يجب أن يَعتمد هؤلاء ذلك المحتوى المُتضمّن لتلك القواعد. والعمل بها في السّياق التّداوليّ الحواريّ.

---

[1] - محمود عكاشة، البرغماتيّة اللّسانيّة (التّداوليّة)، " دراسة المفاهيم والنّشأة والمبادئ"، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط01، 2013م، ص90.

[2] - ج، ب، براون، وج، يول، تحليل الخطاب ، ص40.

والحوار الّذي يكون بين بني البشر على ضوابط، وتحكمه قواعد يُدركها ويعي مضمونها كلّ من المخاطب والمتكلّم. يكون لها وقع في النّفس، ويستوعبها الذّهن، فينجرّ عن ذلك تحقيقها والعمل بها في التّعامل الطّبيعيّ فيما بينهم. "مثل: [1]

أ/- أين مفاتيح السيّارة.

ب/- على المائدة.

* لقد أجاب " السّامع " إجابة واضحة، تدلّ على (الطّريقة).

* وكانت الإجابة صادقة وواضحة، تدلّ على (الكيف).

* استخدم ما قلّ ودلّ، إجابة واضحة تدلّ على (الكمّ).

* أجاب إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال المتكلّم (المناسبة).

ومن خلال ماهية "مبدأ التّعاون" كعنصر هامّ من عناصر اللّسانيات التّداوليّة، وبالإضافة إلى مجموع الفروع المكوّنة له، أستشفّ وأستنتج أنّه:

مبدأ تبعثه للوجود، وتفعّل وظيفته التّواصليّة مجموعة من الآليات الّتي يستوجب توفّرها بين أطراف الحوار، في العمليّة التّداوليّة الحواريّة، هي:

أ/- التّلفّظ: وتتمثّل في جميع الملفوظات الّتي تصدر من طرفي الحوار، لتحيلنا إلى تشكيل وإنجاز أفعال محدّدة.

ب/- مبدأ التّواصل: هو ذلك التّبادل الكلاميّ بين المتكلّم الّذي ينتج ملفوظا مُوجّها إلى المتلقّي، في ظروف سياقيّة معيّنة.

ج/- خاصيّة الحوار: تتمّ بين عنصرين على الأقلّ " مرسل ومرسل إليه" بواسطة رسالة ضمنيّة أو صريحة.

د/- خاصيّة التّفاعل: يتحقّق التّفاعل بين أطراف الحوار وفق ملفوظات محدّدة. هذا التّفاعل يفعّله الخطاب الصّادر من المرسِل إلى المتلقّي، ودور هذا الأخير في الاستجابة لذلك بهدف إنجاز الفعل.

---

[1] - أُنظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص35.

ومن خلال هذا كلّه، يعتبر " مبدأ التّعاون": شرطا أساسيّا لفهم القول وإنجازه. فمن الاستحالة بمكان أن نحقّق فعلا إنجازيّا بطرف واحد من الحوار؛ إذْ لا كلام مفيدٌ إلاّ بين اثنين. وكلّما توفّر التّناوب والتّداول في الكلام، وتحقّق التّعاون بين تلك الأطراف المتحاورة، كان التّواصل فعّالاً ومفيدا. وهذا كلّه يُحيلنا إلى إنجاز الفعل المرجو، والّذي يُحقّقه الكلام الملائم والمناسب للمقام من خلال " مبدأ الملاءمة" .

مبدأ الملاءمة:

أفكارنا لا تتحمّل الصّمت، فالبوح شرعيّة مُطلقة يمتلكها الإنسان كرؤية تعبّر عنه، وعن واقعه من خلال التّواصل الاجتماعيّ لديه، وأينما نكون نستطيع أن نعبّر للآخرين عمّا في أنفسنا من هواجس بواسطة آليّة التّواصل الّتي تُعتبر ضرورة حتميّة في حياتنا.

عمليّة التّواصل تبدأ من نقطة التّلفّظ مع الآخر في المقام التّواصليّ، وبالكلام نتواصل مع الآخرين، لكن هذا التّواصل يفرض علينا شروطا حتّى يكون في متناول الفهم واستيعاب المخاطب.

ومن بين تلك الشّروط أن يكون الكلام مناسبا وملائما للمقام وللمخاطب في السّياق، والّذي لا يعلو مستواه عن ذهن وفكر المتلقّي حتّى يجدر به فهمه. هذه التّقنيّة المتمثّلة في " مبدأ الملاءمة" اهتمّت بها الفلسفة التّحليليّة، وجعلت منها: نظريّة قائمة بذاتها، تنتمي إلى المنهج التّداوليّ، لأنّها تمسّ فرع التّواصل في الاستعمال اللّغويّ. "وهي نظريّة أسّسها كلّ من (دان سبيربر) والعالمة اللّغويّة (ديدري ولسون)، وتأتي أهميّة هذه النّظريّة أنّها تُمثّل مُقتربا جديدا ليس للتّواصل فحَسْب، وإنّما لعمليّة الإدراك المعرفيّ عُموما " [1].وتعدّ "نظريّة الملاءمة"، نظريّة تداوليّة "معرفيّة لها أساسها في التّأمّل الشّامل لدور المناسبة في الإدراك المعرفيّ والتّواصل " [2]. فمبدأ المناسبة أو الملاءمة (*) تتحقّق بقدر ما كان الكلام ملائما للمقام، وأقرب إلى ذهن المخاطَب.

وإذا كانت المحادثة بين أطراف الحوار واضحة ومُناسبة للسّياق التّواصليّ، كان لها الدّور في تحقيق العمليّة الوظيفيّة للكلام والتّأثير في السّامع، وجعله يستوعب مضمون الخطاب الّذي بدوره له صِلة بالمقام التّداوليّ.

---

[1] - دان سبيربر، ديدري ولسون، نظريّة الصّلة أو المناسبة في التّواصل والإدراك، ترجمة:إبراهيم عبد الله الخليفة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط01، 2016م، ص05.

[2] - المرجع نفسه، ص02.

(*) معظم الباحثين يضعون مصطلح" الملاءمة " موازيا لمصطلح" المناسبة" أو "الإفادة". أمثال: مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، ص49. وعائشة هديم نظريّة الملاءمة في التّواصل، ص57.

كلّما كان الخطاب مُناسبا، كان أقرب إلى الفهم. ويحقّق استجابة من طرف المتلقّي. ونظرا إلى أنّه ليس بالضّرورة أن يكون الكلام مباشرا. بل قد يحتاج إلى عمليّة التّأويل. لأنّ من جماليّة الخطاب وتميّزه أن يخضع لعمليّة التّأويل من طرف المخاطَب، لذا " فمبدأ المناسبة : ليس مبدأ معياريّا يفرض على القائل أن يتلفّظ بأقوال مناسبة، إنّه مبدأ تأويل يستعمله المخاطَب بغير وعي إبّان عمليّة التّأويل " [1]. وتنتهي عمليّة التّأويل عند بلوغ الهدف المنشود، وكلّما كانت المعلومات واضحة وصادقة في السّياق التّواصليّ، وتوصلنا إلى نتائج، فإنّنا نحكم على القول بأنّه مناسب وملائم للمقام الّذي ورد فيه.

فالخطاب بجميع معطياته وتراكيبه وأنساقه، يخضع للُغة مُوحية ومعبّرة وواضحة تبعث الأفكار والأقوال إلى النّور. وبالمقابل نضع بعين الاعتبار ذلك " المخاطب" الّذي يفرض علينا أن نحترم مبدأ الملاءمة. هذا المبدأ الّذي يُحتّم على المتكلّم أن يراعي طريقة جعل ملفوظاته قدر المستطاع ملائمة للمقام التّواصليّ الّذي بدوره يفرض مبدأ التّعاون بجميع مكوّناته على الأطراف المشاركة في السّياق. ويرى مُؤسّسا نظريّة الملاءمة كعلاقة في السّياق التّواصليّ، أنّها قد تُعوّض "مبدأ التّعاون" بجميع قواعده. إذ " ذهب كل من "سبيربر" و "ولسون"، أنّه لا ضرورة لقواعد " غرايس" الأربع (قاعدة النّوع وقاعدة الكمّ وقاعدة الأسلوب وقاعدة الصّلة أو المناسبة)، فالصّلة وحدها تكفي لتفسير التّواصل، وهي تُعوِّض عن جميع القواعد الأخرى. لقد استبدل قاعدة المناسبة بـ (مبدأ المناسبة) " [2]. على أساس أنّ "مبدأ المناسبة" يستطيع أن يُعوّض ويشمل قواعد مبدأ التّعاون. "بشرط أكثر دقّة يكون فيها مفهوم"المناسبة" مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمفاهيم والمقاصد الإخباريّة والتّواصليّة " [3]؛ إذ لا يخلو كلام من مقصد، ولا خطاب من هدف ومعنًى يريد ويصبو قائله إلى أن يُحقّق استجابة من طرف المتلقّي وكذلك التأثير فيه.

---

[1] - آن روبول، جاك مو شلار، التّداوليّة اليوم علم جديد للتّواصل/ ترجمة: سيف الدّين دغفوس المنظّمة العربيّة للتّرجمة/ بيروت ، ط01، 2003م، ص76.

[2] - دان سبيربر، ديدري ولسون، نظريّة الصّلة أو المناسبة، ص02.

[3] - آن روبول، جاك موشلار، التّداوليّة اليوم علمٌ جديد للتّواصل، ص82.

الملاءمة نظريّة لسانيّة أخذت مكانتها ضمن النّظريّة التّداوليّة، ودعّمتها؛ إذ كلّما كان الكلام ملائما لسيرورة التّواصل، كان التّأثير في المخاطَب عنوانا بارزا في العمليّة التّواصليّة، فيتحقّق بذلك فعل الإنجاز، لذا فالملاءمة نهج لبلوغ الهدف المنشود.
وهي على بساطتها تعكس مطلبا تواصليّا يتمثّل في مناسبة المقال للمقام التّواصليّ الّذي يدور فيه الكلام. وكلّما كان الكلام ملائما تحقّقت سلاسة الاستيعاب للمخاطَب في إطار الاستعانة ب " مبدأ الإحالة ".

الإحالـــة:

التّداوليّة منهج لغوي تجاوز قضيّة اللّفظ والمعنى/ الدّال والمدلول، ليهتمّ بالوظيفة التّواصليّة للخطاب والكلام، وعلاقته بالسّياق. وبالعلاقة الموجودة بين المتكلّم والمتلقّي ضمن سياق تواصليّ وظيفيّ وعمليّ مُعيّن.

كما اهتمّت بدراسة التّلفّظ في عمليّة الحوار التّواصليّ الّذي ينتج عنه ملفوظ ذو دلالة ومقصديّة معيّنة في إطار تعاونيّ حواريّ يكون الخطاب فيه بجميع معطياته اللّغويّة، ومرجعيّة المعنى، يُحيل إلى معانٍ نصيّة ترجع إلى خاصيّة اصطلح عليها علماء اللّغة ب "الإحالة المرجعيّة" وهي " ليست شيئا يقوم به تعبير ما، ولكنّها شيء يُمكن أن يُحيل عليه شخص ما باستعماله تعبيرا مُعيّنا "[1]. على اعتبار أنّ ملفوظات المتكلّم تحمل في طيّاتها تعابير لها وظيفة إحاليّة، بإمكان المتلقّي اللّجوء إلى عمليّة الإحالة لاستنباط محتواها ومعانيها.

فالإحالة تعدّ آليّة من آليات النّظريّة التّداوليّة الّتي طبّقتها على النصّ، وتُعرّف الإحالة أنّها "فعل تداوليّ تعاونيّ بين المتكلّم والمخاطَب في بنية تواصليّة معيّنة. أمّا أن تكون فعلا تداوليّا فهي ترتبط بموقف تواصليّ معيّن؛ أيْ أنّها ترتبط بمخزون المخاطَب كما يتصوّره المتكلّم أثناء التّخاطب. أمّا كونها عمليّة تعاونيّة (مبدأ التّعاون)، لأنّها تستهدف تمكين المخاطب من التّعرّف على الذّات المقصودة "[2]. وهذا عن طريق سياق تواصليّ، بالإضافة إلى أهمّ المعلومات الّتي يقدّمها المتكلّم، ويدعم بها المخاطَب. مع أنّ النّظريات الشّكليّة أقصتها من الدّراسة، لذا فالنّظريّة التّداوليّة قد اهتمّت "بالمرجع والإحالة الّتي تمّ إقصاؤها من " فرديناند دي سوسير" الّذي حصر العلامة في الدّال والمدلول، ومن ثمّ ترفض المقاربة التّداوليّة في مجال الأدب والنّقد والتّركيز على البنيات الشّكليّة والجماليّة، دون مساءلة أفعال الكلام والمقصديّة الوظيفيّة ، والسّياق التّواصليّ ، والوظيفة المقاميّة والمقاليّة

---

[1] - ج، ب، براون، وج، يول، تحليل الخطاب، ص36.

[2] - أحمد المتوكّل، قضايا اللّغة العربيّة في اللّسانيات الوظيفيّة، بنية الخطاب من الجملة إلى النصّ، ص137،137.

" [1]، واهتمامها بالمقال(النصّ) من النّاحية الدّاخليّة والخارجيّة؛ أي الظّواهر الأدبيّة المتمثّلة في المقاربة

التّداوليّة، والّتي يُقصد بها تلك النّظريّة " الّتي تدرس الظّواهر الأدبيّة والثّقافيّة والفنيّة، والجماليّة في ضوء التّداوليات اللّسانيّة " [2]. إنّها تدرس النصّ بكلّ معطياته اللّغويّة، بالإضافة إلى جانب المعنى الّذي يُحيل بدوره إلى مرجعيّة تكمن في داخل النصّ، في إطار المعنى المرتبط بمعنًى سابق أو لاحق. وكذلك لما يُحيل إليه النصّ أو الخطاب من معانٍ تعود مرجعيّتها إلى نصوص أخرى أو معانٍ خارجيّة. وهذا ما تركّز عليه آليّة "الإحالة":

" وهو أنّ العناصر المُحِيلة كيفما كان نوعها لا تكفي بذاتها من حيث التّأويل، إذ لا بُدّ من العودة إلى ما تُشير إليه من أجل تأويلها. وتتوفّر في كلّ لغة طبيعيّة على عناصر تملك خاصيّة الإحالة، وهي حسب الباحثين: الضّمائر، وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة. وتعتبر الإحالة علاقة دلاليّة، ومن ثمّ لا تخضع لقيود نحويّة، إلاّ أنّها تخضع لقيد دلاليّ، وهو وجود تطابق الخصائص الدّلاليّة بين العنصر المُحِيل والمحَال إليه " [3]. وهذه العناصر الإحاليّة بدورها تشكّل اتّساق النصّ وانسجامه بجميع عناصره، وهذا ما يبيّن أنّ " الإحالة" أداة من أدوات الاتّساق الّتي تربط بين شيئين، أو بين الأقوال والأشكال اللّسانيّة الّتي تكوّن الخطاب بعلاقة معنويّة أو دلاليّة الّتي يهدف إليها الخطاب. "هذه الأشكال اللّسانيّة عبارة عن تعابير مُحيلة تتألّف من أسماء الأعلام أو أسماء الجنس النّكرة والمعرفة، أو الإشاريات. واختيار أحد التّعابير يعتمد على تسليم المتكلّم بوجود معرفة سابقة لدى السّامع" [4]، لذلك يؤكّد "جورج يول" " أنّ الإحالة ترتبط جليّا بأهداف المتكلّم (مثلا تعريف شيء ما)، وبمعتقداته المتكلّم (أي هل يتوقّع من المستمع معرفة ذلك الشّيء بالتّحديد؟) في استعمال اللّغة " [5]. لذا

---

[1] - جميل حمداوي، التّداوليات وتحليل الخطاب، مكتبة المثقّف، ط01، 2015م، ص09.

[2] - المرجع نفسه، ص04.

[3] - محمّد خطابي، لسانيات النصّ، "مدخل إلى انسجام الخطاب"، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء، ط01، 1991م، ص16،17.

[4] - جواد ختام، التّداوليّة، أصولها واتّجاهاتها، دار الكنوز المعرفيّة، عمان، ط01، 2016م، ص85.

[5] - جورج يول، التّداوليّة- ترجمة قصي العتابيّ، ص40.

كانت خاصيّة الإحالة طريق لاكتشاف السّامع ما يشير إليه عنصر ما، وما يدلّ عليه من معنى دلاليّ له مقصد معيّن من طرف المتكلّم.

فالإحالة هي كلّ ما يُحيل إليه الخطاب من معانٍ ودلالات عميقة ومُوحية، تجعل منه كُلاًّ متماسكا بجميع عناصره الّتي تشكّله. ونطلق تسميّة العناصر " الإحاليّة" "على قسم من الألفاظ الّتي لا تملك دلالة مستقلّة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب. فشرط وجودها هو النصّ، وهي تقوم على مبدأ التّماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما، وبين ماهو مذكور بعد ذلك في مقام آخر...،إذن فهي مزدوجة الدّور في اللّغة: أ/- تُشير وتعين المُشار إليه في المقام الإشاري.

ب/- تُعوّض المشار إليه، فتُقبل عليه،وترتبط به، وفهمها رهين استحضار ذلك المشار إليه استحضار جهد، أو إدراك حسّيّ أو غيره. أمّا بعضها الآخر فيكتفي بوظيفة التّعويض، مثل الأسماء الموصولة " [1]. وكلّها عناصر تشترك في انسجام النصّ واتّساقه. " ويُقصد عادة بالاتّساق ذلك التّماسك الشّديد بين الأجزاء المشكّلة لنصّ/ خطاب ما، ويهتمّ فيه بالوسائل اللّغويّة (الشّكليّة) الّتي تصل بين العناصر المكوّنة للخطاب. أمّا الانسجام فهو أعمّ من الاتّساق وهو مجموع العلاقات الدّلاليّة الّتي تسهم في انسجام النصّ منها الإحالة و التّطابق بين الاسم والضّمير الّذي يُحيل إليه... " [2]. وبهذا فإحالة بعض العناصر الإشاريّة الّتي تُشكّل اتّساق النصّ، إلى مدلولات قبليّة أو بعديّة، فإنّها بهذا تكون قد حقّقت انسجام النص، وبهذا كلّه فالانسجام يُشكّله المتلقّي، وذلك من خلال المعنى الدّلالي الّذي تدلّ عليه تلك الكلمات المُحِيلة المستشفّة والمستنتجة من طرفه.

وإذا كان المعنى يُحيلنا إلى معانٍ ودلالات تخصّ عُمق النّص ولُبّه، فتعدّ "إحالة نصيّة، لها دور فنيّ في اتّساق النصّ وانسجامه، هذا النّوع من الإحالة يتفرّع عنها نوعان يندرجان ضمن هذه الخاصيّة، وهما: ما يدلّ على إحالة إلى سابق أو إلى لاحق. أمّا إذا كانت تدلّ

---

[1] - الأزهر الزنّاد، نسيج النصّ، بحث فيما يكون به الملفوظ نصّا، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، ط01، 1993م، ص18.

[2] - أُنظر: محمّد خطابي، لسانيات النصّ، ص 05و35.

على معانٍ خارج النصّ وترتبط بمرجعيات سياقيّة فهي إحالة مقاميّة "[1]. وكلّ هذا يساهم في فهم النصّ واستيعاب معانيه، فالإحالة تحدّد مرجعيّة للمعنى بواسطة ضمير الإحالة، أو اسم الإشارة، وما يحيل إليه.

نحو: جاء محمّد وهو يستبشر خيرا، فالضّمير(هو) يعود على اسم سابق يشير إليه، وهو ما يسمّى بالإحالة القبليّة، هذه الإشارة أُزيل عنها الإبهام لأنّها تجسّد معنًى سابق. ولذلك "فالإحالة لها أنواع، وهي:

*1/ إحالة داخل النصّ، أو داخل اللّغة: وهي إحالة على العناصر اللّغويّة الواردة في الملفوظ، سابقة كانت أو لاحقة، فهي إحالة نصيّة، وهي بدورها تنقسم إلى قسمين:

أ- إحالة على السّابق أو الإحالة بالعودة: وهي تعود على مُفسّر سبق التّلفّظ به، وتشتمل الإحالة بالعودة على نوع آخر من الإحالة، ويتمثّل في تكرار اللّفظ، أو عدد من الألفاظ في بداية كلّ جملة من جمل النصّ قصد التّأكيد، وهو الإحالة التّكراريّة، وتمثّل الإحالة بالعودة أكثر أنواع الإحالة دورانا في الكلام.؟

ب- إحالة على لاحق: وهي تعود على عنصر إشاريّ مذكور بعدها في النصّ، ولاحق عليها، من ذلك ضمير الشّأن في العربيّة، أو غيره من الأساليب.

*2/ إحالة على ماهو خارج اللّغة: وهي إحالة عنصر لغويّ إحالي على عنصر إشاريّ، غير لغويّ موجود في المقام الخارجيّ. كأن يُحيل ضمير المتكلّم المفرد على ذات صاحبه المتكلّم، حيث يرتبط عنصر لغوي إحالي بعنصر إشاري غير لغوي هو ذات المتكلّم.

*3/ إحالة نصيّة: وهي إحالة عنصر معجمي على مقطع من الملفوظ أو النصّ، وتُؤدّيها ألفاظ من قبيل " قصّة"، "خبر"، "رأي"، "مثل" "[2]. وكلّما تفرّعت هذه الإحالات فإنّها تقع على عاتق المتلقّي لكي يتسنّى له إدراك ما تعنيه تلك العلامات والإشاريات من معانٍ سواء كانت خارج النصّ أو داخله. وكذلك قد تكون الإحالة على سياق خارجيّ يستعيد من خلاله المتكلّم مقاما معيّنا بجميع تفاصيله، ويوظّفه ضمن سياق مباشر بينه وبين السّامع في إطار الحكي أو القص أو غيره.

---

[1] - أُنظر: محمّد خطابي، لسانيات النصّ، ص 17.

[2] - الأزهر الزناد، نسيج النصّ، ص118.

وبهذا كلّه يُمكن توضيح كلّ ذلك بالمخطّط التّالي [1]:

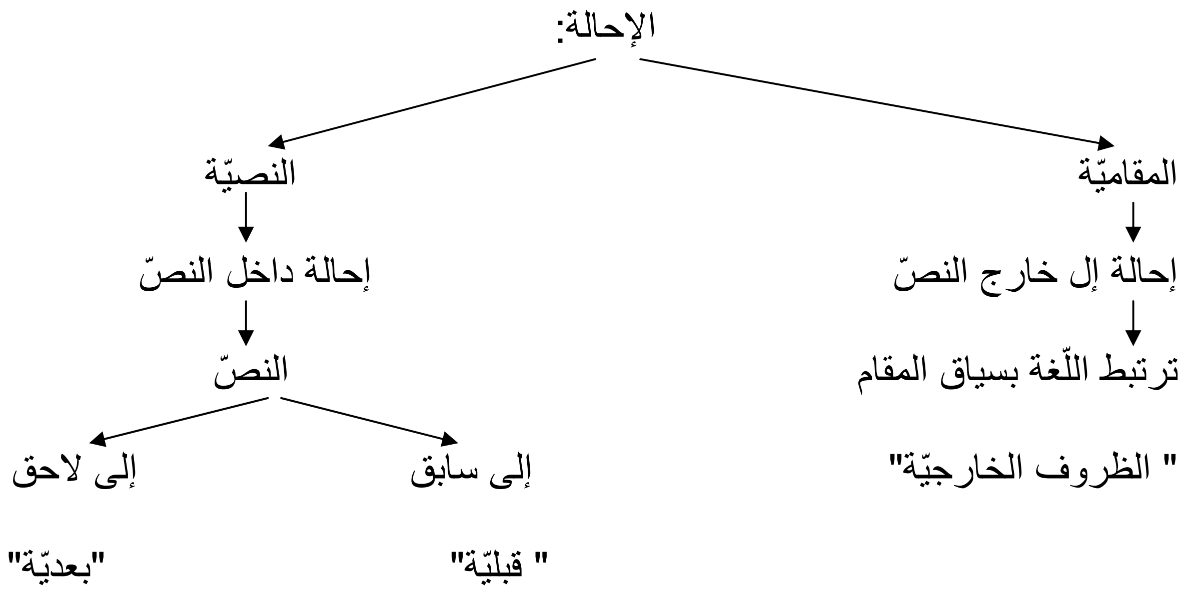

فمجموع العناصر والرّوابط الإحاليّة لها دور هامّ في تشكيل الخطاب / النصّ واتّساقه، على اعتبار أنّها عناصر دلاليّة تُوحي بمعانٍ قد يُشار إليها ضمنيّا داخل النصّ، أو بمرجعيّة تكون خارج النصّ وعبر سياقات إحاليّة. وهذا كلّه بواسطة مجموع العناصر الّتي تدلّ على هذه المعاني، والّتي تساهم بدورها في اتّساق النصّ وانسجامه. وهو ما يطلق عليه باسم الإشاريات.

[1] - محمّد خطابي، لسانيات النصّ، ص 17.

الإشاريات:

تعتمد الكلمات والتّعبيرات والمعاني في أيّ لغة اعتمادًا كليًّا على السّياق، ولا نستطيع أن نعزلها عنه، وباللّغة تتعدّد دلالات الخطاب حسب تعدّد سياقات التّلفّظ، وبالتّالي كلّ خطاب لا تلازمه دلالة مستقرّة دائما. فكلّما تغيّر سياق التّلفّظ، تغيّر معه معنى اللّفظ. فإن قرأت مثلا جملة منفصلة عن سياقها مثل: " سيقوم هذا بعمل ما، ويكون موضعه مناسبا هنا"، تكون العبارة غير واضحة التّركيب والمعنى؛ لأنّها تحتوي على عناصر لغويّة الّتي لا يمكن تفسيرها، ومعرفة معناها إلاّ في إطار السّياق التّواصلي الّذي قِيلت فيه. بل العبارة يكتنفها نوع من الغموض لأنّ عناصرها تفتقر إلى ما تُشير إليه، "ولكي يكون معناها مفهوما فلا بُدّ من معرفة ما يُشير إليه بتحديد زمانه بالقياس إلى زمان المتكلّم. ومثل هذه العناصر الإشاريّة"deictics" أو"الإشاريات" اختصارا...، وكان بيرس peirce أوّل واضع له " [1]. لأنّها مقترنة بأسماء تشير إلى موضوع ما، والّتي تتمثّل فيما يُشير إلي: ذات، أو موقع، أو زمن الإشارة...، وتعدّ الإشاريات هي " الرّوابط الدّاخليّة الّتي تربط بين وحدات النصّ، وتُحقّق تماسكه، والرّوابط الّتي تربطه بعلمه الخارجيّ " [2]. وإحالة هذه الرّوابط والعناصر الدّاخليّة إلى معانٍ معيّنة تجدّد بحسب السّياق الخارجيّ، والخطاب الّذي وردت فيه، والمعنى الّذي دلّت عليه.

ومع أنّنا نجد بعض الملفوظات تتكرّر في النّظام التّواصليّ، وهذا الاستعمال المتكرّر لبعض الكلمات مثل:"هذا"، "ذلك"، للإشارة إلى أشياء ضمن سياق تواصليّ مُعيّن، تسمّى " الإشاريات" ، أو " " التّأشير" deixis، وهو: مصطلح تقني يُستعمل لوصف إحدى أهمّ الأشياء الّتي نقوم بها في أثناء الكلام، والتّأشير يعني الإشارة من خلال اللّغة، ويُطلق على أيّ صيغة لغويّة تستعمل للقيام بهذه الإشارة، مصطلح " التّعبير التّأشيريّ deictic expression، وتسمّى أيضا: الإشاريات Indexicals، وتستعمل للإشارة إلى الأشخاصمن خلال: التّأشير الشّخصيّ ("أنا"، "أنت")، أو إلى المكان من خلال التّأشير المكانيّ ("هنا"،

[1] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص16.

[2] - محمود عكاشة، البرغماتيّة اللّسانيّة (التّداوليّة)، ص74.

"هناك")، أو إلى الزّمان من خلال التّأشير الزّمانيّ ("الآن"، " آنذاك")، وتعتمد جميع هذه التّعابير في تفسيرها على متكلّم ومستمع يتشاركان في السّياق ذاته " [1]. هذه المشاركة والتّعاون بين الأطراف المتحاورة يشكّل خطابات لغويّة تتضمّن معانٍ ودلالات ترتبط مع بعضها البعض بواسطة مجموع العناصر الإشاريّة الّتي تشكّلها، والّتي تبعث معناها الدّلاليّ ككلّ متماسك " آليّة الإحالة". هذه الخاصيّة تبيّن ما مدى ترابط معاني الخطاب ترابطا مُحكما ودالاًّ. وبالرّغم من أنّ هذه الإشاريات ليس لها معنًى خارج السّياق، وكذلك خارج الأنساق والتّراكيب اللّغويّة، وإنْ كان معنًى محدودا، لكنّه يتنوّع بتنوّع السّياقات، أو نستطيع أن نقول إنّ معناها لا يرتبط بمدلول ثابت. ولكنّه يظهر معناه كملفوظ في سياق تواصليّ معيّن. فتظهر فعاليتها ودلالاتها اللّغويّة والإيحائيّة والجماليّة في الكلام، أو في العبارات والجمل. لأنّها " إشاريات نصيّة تنظيميّة تُحيل إلى أجزاء في النصّ أو الخطاب، وتسعى إلى تنظيمه، وتحقيق السّبك والحبك فيه " [2]. هذه الإشاريات مثل: أسماء الإشارة، والضّمائر، والعلامات اللّغويّة، لا نستطيع أن نحدّد مرجعيّتها الدّلاليّة بإحالتها لسابق الكلام أو بلاحقه، إلاّ في سياق الخطاب، أو في سياق تداول الكلام. لأنّها لا تظهر معانيها بشكل جليّ إلاّ في سياق تواصليّ معيّن.

وبما أنّها تهتمّ بجانب السّياق، أو بالأحرى لا تفهم إلاّ من خلاله، فإنّها تنتسب بالتّبنّي إلى المنهج التّداوليّ، خاصّة وأنّها تهتمّ بالعلاقة بين التّراكيب اللّغويّة والسّياق، أو بالكلام والسّياق الّذي يُستخدم فيه. لذا تعتبر الإشاريات تنظيرا ومفهوما لسانيّا حديثًا، ساهم في تحليل الخطاب وبيان عناصره الجماليّة، ومعانيه البيانيّة، وهذا عن طريق تلك الإشاريات وما تتضمّنه من معان مختصرة وصغيرة، والّتي لها مدلولات عميقة وكبيرة. ولهذا كلّه فالخطاب بكلّ معطياته الدّلاليّة لا يخلو من هذه العناصر الّتي تربط بين التّراكيب اللّغويّة والدّلاليّة فتجنّبه التّكرار، وتبعث فيه خاصيّة ما قلّ ودلّ.

لقد اهتمّت التّداوليّة بالعناصر الإشاريّة الّتي تكشف الإحالة المرجعيّة بشكل كبير في تحديد معناها، وبالتّالي إزالة الغموض عن سلسلة المعاني الّتي يتضمّنها الخطاب. ومع أنّ

---

[1] - جورج يُول، التّداوليّة، ص27.

[2] - بهاء الدّين محمّد مزيد، تبسيط التّداوليّة، ص71.

هذه " الإشاريات" الّتي تندرج ضمن التّنظير التّداولي اللّساني الحديث، ليست مستحدثة أو مستجدّة في حقل الدّراسات اللّغويّة. فقد تطّرق إليها علماء اللّغة القدامى، وأسهبوا في بيان أنواعها وخصائصها، وعلاقاتها في التّراكيب والأنساق اللّغويّة من جهتي الشّكل والمعنى في الخطاب/ النصّ. كما تناولها أيضا علماء اللّغة والفلاسفة المحدثين، محاولين كشف أبعادها الدّلاليّة في خضمّ استعمال الكلام ضمن العمليّة التّواصليّة، فركّزوا على جانب مهمّ لدراستها ويتمثّل في: أنّها ترتبط بعلاقة المرجعيّة الدّلاليّة بآليّة مهمّة تتجسّد في الإحالة؛ أي التّركيز على مرجعيّة وما يُحيل إليه المعنى وفق السّياق التّواصلي والظّروف الخارجيّة.

الإشاريات تظلّ جملة من العناصر اللّغويّة والوحدات التّركيبيّة الّتي تُبرز معنى الكلام ودلالته وفق سياق إنتاج الملفوظ من طرف المتكلّم إلى مخاطَب ما، في ظروف زمانيّة ومكانيّة معيّنة. هذه العناصر الخارجيّة تعبّر عنها إشاريات تختصّ بها، وتعكس المعنى المخصّص لها، بشرط أن تكون هذه العناصر الإشاريّة لها صِلة بموضوع الكلام المُتلفّظ به في العمليّة التّواصليّة والحواريّة؛ لأنّنا نعجز أن نُحدّد معناها وهي خارج السّياق.

وأغلب الباحثين قسّم الإشاريات إلى أنواع : إشاريات شخصيّة، و إشاريات زمانيّة، و إشاريات مكانيّة، و إشاريات اجتماعيّة، وإشاريات خطابيّة أو نصيّة.

1/ الإشاريات الشّخصيّة: هي ضمائر الحاضر، والمقصود بها الضّمائر الشّخصيّة الدّالة على المتكلّم وحده مثل: "أنا"، أو المتكلّم ومعه غيره، مثل:"نحن"، والضّمائر الدّالة على المخاطب مفردا أو معنًى أو جمعا مذكّرا أو مؤنّثا، مثل: " أنتَ"، " أنتِ"، "أنتما"، "أنتم"، أنتنّ". وضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشاريّة، لأنّ مرجعها يعتمد اعتمادا تامّا على السّياق الّذي تستخدم فيه " [1]. خاصّة وأنّ كلّا من " المتكلّم" و" المخاطب" معروفان لأنّهما ضمن عناصر السّياق، وأنّ الذّات المُتلفّظة للكلام تدلّ على المرسِل في المقام التّواصليّ، وهي محور التّلفّظ في الخطاب التّداوليّ.

[1] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص18.

2/ الإشاريات الزّمانيّة: يشغُلُ الزّمن حيّزا كبيرا ومُهمّا عند التّطرّق إلى كشف عناصر السّياق، وإلى دراسة الإشاريات الّتي تعكسها الملفوظات والظّروف الّتي تعبّر عنها، وتعكس مدلولاتها في إطار سياقٍ تواصليّ معيّن. هذه الإشاريات عبارة عن أدوات تبعث وتعكس زمن أحداث الخطاب، أو زمن التّلفّظ في الاستعمال، وهي كلمات تدلّ على زمان يُحدّده السّياق " بالقياس إلى زمان التّكلّم ، فزمان التّكلّم هو مركز الإشارة الزّمانيّة في الكلام " [1]، فمن الضّروريّ معرفة زمان التّكلّم، على اعتبار أنّه مركز الإشارة، لكي تتّضح الأمور أكثر للسّامع/ المتلقّي، فإذا قلت: سأعود بعد ساعة. فزمن الفعل لم يحدث قبل التّلفّظ بالعبارة، وبالتّالي ينفي أن يحدث اللّقاء قبل هذا الزّمن الخارجيّ الّذي يُحدّده السّياق. وزمن العودة (الرّجوع) لم يُعلم بعدُ. لأنّه سوف يحدث في المستقبل.

ولذلك يلزمنا معرفة لحظة التّلفّظ بالكلام؛ لكي نبني على منوالها زمن اللّحظة، وزمن الرّجوع، ومن أجل " تحديد مرجع الأدوات الإشاريّة الزّمانيّة، وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا، يلزم المرسل إليه أن يدرك لحظة التّلفّظ، فيتّخذها مرجعا يُحيل عليه، ويؤوّل مكوّنات التّلفّظ اللّغويّة بناءً على معرفتها " [2]. وهذه المدلولات والمعاني لا تظهر معانيها إلاّ في سياق زمنيّ معيّن. يكون فيه زمن التّكلّم نقطة ومركز بداية معرفة زمن الرّجوع، وهذا يتحقّق عن طريق فهم السّياق الّذي تَرِدُ فيه، أو تستخدم فيه هذه الإشاريات.

الزّمن يُمثّل عنصرا هامّا للّغة، ولا يخلو التّواصل اللّغويّ من حُضوره ووجوده كعامل مهمّ في فهم واستيعاب مضمون وظروف التّخاطب. وهو "نوعان: زمن نحويّ، وزمن كونيّ خارجيّ. والنّحويّ زمن الجملة، والكونيّ الخارجيّ الّذي يُمثّل العالم الخارجيّ مثل: الظّروف وأسماء الوقت والزّمن الّذي يكون تقديرها في العالم الخارجيّ " [3]. لذلك فإنّ معرفة الزّمن النّحويّ في الجملة يُحيلنا إلى معرفة الظّروف الزّمانيّة الّتي يتضمّنها الخطاب، والّتي تؤدّي إلى حصول فعل ما. فالمتكلّم لا تخلو ملفوظاته من عناصر إشاريّة دالّة على زمان معيّن. وما على المتلقّي إلاّ أن يحدّد مرجعيّتها وفق ما دلّت عليه هذه

---

[1] - السّابق ذكره، ص19.

[2] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ،استراتيجيات الخطاب، ص83.

[3] - محمود عكاشة، البرغماتيّة اللّسانيّة (التّداوليّة)، ص85.

العناصر وساهمت في توضيح الكلام الّذي باستطاعته تأويله بناءً على ما حدّدته هذه الكلمات الّتي تساهم بدورها في الفهم والإنجاز الفعليّ المقصود.

3/ الإشاريات المكانيّة: هي عناصر تُشير إلى الأماكن الّتي يتشكّل فيها الخطاب من طرف المرسل والمرسل إليه، هذه الأماكن عبارة عن ملفوظات تعتمد في استعمالها لمعرفة مكان المتكلّم وزمان تلفّظه، بشرط وجود عناصر مكانيّة تشير إليها. وأهمّ هذه الإشاريات المكانيّة: قريب- بعيد- فوق – تحت- هنا- هناك- هذا- ذاك ...، مع الاعتماد على السّياق الماديّ الّذي قيلت فيه، " فكلمة: (إلى هذا المكان، ومن ذاك المكان) يشمل ظرف المكان على معنى يُعبّر عن اتّجاه الحركة نحو المتكلّم، أو بعيدا عنه، وتمتلك بعض أفعل الحركة مثل (يذهب، يأتي)، معنى تأشيريّا عند استعمالها للإشارة إلى اتّجاه الحركة نحو المتكلّم "[1].الإشاريات المكانيّة لا تحمل دلالتها في ذاتها، بل إنّ معناها يتحدّد بسياق التّلفّظ، وذلك أنّ المرجعيّة المكانيّة ترتكز على موقع المتكلّمين، وكذلك على مكان تداول الخطاب. إذا قلت: " يقع المسجد على يميني"، فهذا يدلّ على أنّ ظرف المكان لا يمكن معرفته أو تحديد وجوده إلاّ في علاقته بمكان التّلفّظ، ولذا للإشاريات المكانيّة أهميّة كبرى في تحديد مواقع ومواطن الأشياء.

4/ ومن الإشاريات الأكثر تداولا واستعمالا في الخطاب ، هي: " أسماء الإشارة"،مثل: هنا،ذاك: للقريب، هنالك وذالك: للبعيد، والبعد قد يكون مكانيّا أو زمانيّا أو شعوريّا. وهذه الأسماء باعتبار ها وحدات لغويّة تظهر دلالتها جليًّا ضمن السّياق اللّغويّ بواسطة الإحالة؛ أي ما تُحيل إليه من معانٍ تكتشف بواسطة مرجعيّة إحاليّة من خلال التّراكيب اللّغويّة. والنّظريّة التّداوليّة استطاعت أن تُزيل الإبهام والغموض عن هذه الإشاريات لمجرّد أن وضعتها في إطار سياقي محدّد بآليّة الإحالة النّصيّة والسّياقيّة. فاستطاعت أن تكشف بذلك معانيها ومقاصدها الدّلاليّة داخل الأنساق اللّغويّة الّتي تشكلّ الخطاب والكلام وفق الاستعمال والتّواصل.

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص32.

اللّسانيات التّداوليّة أظهرت مهمّة مقاصد تلك الإشاريات، على أنّ "استخدامها يظلّ رهينا لمقاصد المتكلّم، وسياق الكلام. ومن ثمّ فإنّ أسماء الإشارة لا تُحيل بذاتها بقدر ما تعتمد اعتمادا كليّا على غيرها للانتقال من حالة الإبهام إلى حالة التّعيين والتّحديد "[1]، ذلك أنّها لا تعني شيئا في ذاتها ، كلفظ مفرد، بل يظهر معناها فقط حين تكون في سياق الكلام ومقامه، وأين يقف المتكلّم، وإلى ماذا يُشير إليه. ولذا فإنّ " الكلمات بذاتها لا تشير إلى أيّ شيء، فالنّاس هم الّذين يشيرون "[2]. وهم من يُحدّد المشار إليه في مكان وزمان السّياق التّواصليّ.

التّعابير الإشاريّة الّتي تصدر من السّياق التّواصليّ، تهدف إلى تحقيق الفعل. ذلك بأنّ "الإشارة: Reference، فعل يستعمل فيه المتكلّم أو الكاتب صيغا لغويّة لتمكين مستمع، أو قارئ تحديد شيء ما...، وأنّ الصّيغ اللّغويّة هذه هي تعابير الإشارة، وهي متنوّعة، قد تكون أسماء علم، مثل: شكسبير، أو عبارات اسميّة مثل: الكاتب، المغني، الجزيرة، أو نكرة مثل: " رجل"، " امرأة"، الضّمائر:هو، هي، هم "[3] .

5/ الإشاريات الاجتماعيّة: هي تلك الّتي تستخدم في مجال التّعامل الاجتماعيّ، والّتي يفرضها التّواصل بين أطراف الحوار في الكلام، وفي تعاون كلّ من المتكلّم والمتلقّي، وفق النّظام الاجتماعيّ السّائد. كلّ ذلك بواسطة كلمات إشاريّة تنمّ عن العلاقات الاجتماعيّة بين مُستعملي اللّغة الطّبيعيّة في التّواصل والاستعمال.

هذا التّعامل الاجتماعيّ يفرض نفسه من خلال العلاقات الّتي تربط بين المتكلّمين في عمليّة التّواصل، حيث يضع الأفراد فروقات للمكانة الاجتماعيّة بينهم، فتعكسها الملفوظات المستعملة سواء للإشارة إلى وصف، أو الإشارة إلى المكانة الاجتماعيّة الّتي يتبوّؤها كلّ طرف منهم. و " هي ألفاظ تشير إلى العلاقة الاجتماعيّة بين المتكلّمين والمخاطبين من

---

[1] - جواد ختام، التّداوليّة، أصولها واتّجاهاتها، دار كنوز المعرفة ، عمان، ط01، 2016م، ص 82.

[2] - جورج يول، التّداوليّة، ص39.

[3] - المرجع نفسه، ص39.

حيث هي علاقة رسميّة، أو علاقة مودّة، والعلاقة الرّسميّة يدخل فيها صيغ التّبجيل في مخاطبة من هم أكبر منّا سنّا ومقاما من المتكلّم، أو مراعاة للمسافة الاجتماعيّة بينهما. وهي تشمل أيضا الألقاب: فخامة الرّئيس، فضيلة الشّيخ..." [1]. هذه الألفاظ تؤدّي معنًى معيّنا داخل الخطاب بمعيّة سياق تواصليّ معلوم. فتضع المُشار إليه في مكانة اجتماعيّة معيّنة.

وبما أنّ عناصر المجتمع يتشاركون في لغة وثقافة معيّنة. فإنّ استعمال هذه الإشاريات يُزيح الغموض بمجرّد الإفصاح عنها من طرف المتكلّم أو السّامع، لأنّهما أساس العمليّة التّواصليّة، تجمعهما قواسم وروابط مشتركة، ولهذا تعدّ الإشاريات بعدا اجتماعيّا تظهر من خلاله قوّة المشاركة والتّعاون، الّتي بدورها تعكس جانب التّأثير بين أطراف التّداول الحواري ضمن الاستعمال اللّغويّ بينهم والّذي يُنتِجُ بدوره خطابا أو نصّا مُعيّنا .

6/ إشاريات خطابيّة أو نصيّة: يُعدّ الخطاب تشكيلا لغويّا في إطار عمليّة استعمال اللّغة في مقام تواصليّ محدّد، وهو كلٌّ متماسك الأنساق والتّراكيب الّغويّة بمعانٍ ودلالات تشكّلها سلسلة من الملفوظات والجمل المتتالية والّتي تعكس معناها.

فالخطاب بجميع مكوّناته اللّغويّة وعناصره الّتي تربط معانيه بمرجعيّة إحاليّة بواسطة مجموع الإشاريات الّتي تحتويه وتتضمّنه. يكون واضحا ومفهوم المعالم بواسطة تلك العناصر الإشاريّة الّتي تشّكله وتجمع معانيه سواء على المستوى الدّاخلي أو الخارجي للنصّ؛ أي أنّ هذه العناصر قد تُشير داخل محتواه إلى شيء خارج كيانه فيمكّننا من معرفة مضمونه ويوضّح معناه. إذ قد يُحيلنا معنًى ما (كقصّة فرعيّة) إلى خارج الخطاب/ النصّ، أو خارج التّشكيل اللّغوي إلاّ بواسطة إشارة تكون موضوعة وموجودة في النصّ تدلّ عليها. فيشار إليها بأحد عناصر الإشارة في الخطاب، " فالإشاريات الخطابيّة لا تحيل إلى ذات المرجع، بل تخلق المرجع، فإذا كنت تروي قصّة ثمّ ذكّرتك بقصّة أخرى...، فتشير إليها وتقول:" هذه قصّة أخرى"، فالإشارة هنا إلى مرجع جديد " [2]. يتمثّل في مرجع جديد

[1] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص25.

[2] - المرجع نفسه، ص24.

خارج نطاق الخطاب. وقد تمّ الإشارة إليه. هذه الإشاريات لا يحيل معناها إلى داخل السّياق اللّغويّ الخاصّ بالخطاب. بل يتعدّاه إلى سياق خارجيّ، قد يعتمد على معارف المتلقّي وثقافته، ومدى سعّة ذاكرته لاستحضار الخطاب الغائب عن طريق الإحالة إليه بواسطة أحد الإشاريات الدّالّة عليه. .

ولهذا فالإشاريات تعدّ عناصر مهمّة في تشكيل الخطاب، كما لها دور جليّ في اختصار المعاني الّتي على المتلقّي كشف سرّها من خلال مرجعيّة قد تكون خارج النصّ فيتطلّب منه الأمر استحضار خاصيّة الإحالة المطلوبة لكشف ما ينبغي معرفته وكشف معالمه داخل الخطاب. ولا نستطيع تحديد مرجعيّتها إلاّ في سياق الخطاب المتداول بالتّواصل. والّذي يُظهر معناها بشكل واضح لأنّها تجسّد الفعل المنجز.

هذه التّعابير التّأشيريّة الّتي تمثّلها أسماء الإشارة غالبا، اهتمّت بها التّداوليّة، واستطاعت أن تأخذ مكانتها في الدّرس اللّغويّ المعاصر، وفي تحليل الخطاب، فتفسّر مدلولاتها وفق سياق تواصليّ بكلّ عناصره ومكوّناته، فيظهر بذلك مقصديّة المتكلّم، ويعبّر عن مرجعيّة دلاليّة يكتنفها الخطاب. هذه التّعابير تختصر دائما أكثر بكثير ممّا يُقال، فتكوّن لذاتها دلالات ومعاني نستطيع أن نكتشفها بواسطة الإحالة المرجعيّة، لأنّها تكون معانٍ ضمنيّة، أو ما يُطلق عليه بمتضمّنات القول.

مُتضمّنات القول:

الخطاب الأدبيّ هو مجموعة من الجمل والملفوظات اللّغويّة الّتي تحتوي على الكثير من المقاصد، أو مقصديّة الكلام المباشرة أو الضّمنيّة الّتي يُعبّر عنها المتكلّم أو السّامع، فالمتكلّم يعبّر عن مقاصد قد تكون ضمنيّة في طيّات الكلام، فما على المتلقّي ألاّ أن يتعرّف عليها من خلال قدراته الذّهنيّة بناءً على تأويلها وفكّ رموزها، لأنّها تحمل في طيّاتها دلالات مقصديّة معيّنة غير مصرّح بها في الكلام، والقصد كخاصيّة معنويّة موجودة بقوة في التّواصل الحواريّ، فالنّاس يقولون كلاما غير مصرّحين به، وينتقون كلماتٍ يقصدون بها معانٍ مغايرة تماما وغير مباشرة، إذن فهم يخفون ما يعنون، وهذا ما نستطيع أن نطلق عليه اسم: " متضمّنات القول"، هذه الآليّة هي: " إجراء تداوليّ يتعلّق برصد جملة من الظّواهر المتعلّقة بجوانب ضمنيّة وخفيّة، وقوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامّة كسياق الحال وغيره " [1]. وقد تتعّدد المعاني الضّمنيّة بتعدّد السّياقات الّتي تساهم في فهم الدلالات اللّسانيّة/ الكلام، وما يُشير إليه من معنًى.

التّداوليّة تُولي اهتماما كبيرا للكلام إذا كان غير مباشر، والّذي يصدر من متكلّم متمكّن في استعمال أنساق اللّغة لدرجة يوحي بكلمات، أو ينتقي كلمات هو لا يعنيها، لأنها تتوارى خلفها معانٍ كثيرة لا مجال للبوح بها.لكنّه ينتظر من السّامع أن يفك سراحها، وذلك عن طريق التأويل للوصول إلى المعنى المقصود، وليس كلّ ما نقوله نقصده.

هذه المعاني المضمرة خلف الملفوظات، وخلف شكل وأنساق وتراكيب اللّغة هي الّتي تصدّرت مجال الدّراسة والبحث في النّظريّة التّداوليّة، والّتي بدورها تولي نفس الاهتمام لتأويل الملفوظات من قبل المستمع/ المتلقّي. مع انّه توجد مواقف للمتكلّم تمنعه من التّصريح بالكلام كلّه، كالعادات والمعتقدات وجانب الأخلاق...، فيلجأ السّامع إلى عمليّة التّأويل الّذي " يتمّ عن طريق نظام استنباطيّ تكون مقدّماته مكوّنة من جهة من الصّورة المنطقيّة للقول، ومن جهة ثانية من السّياق " [2]. هذه العمليّة بدورها تعتبر جزءًا مهمّا في

---

[1] - قدور عمران، البعد التّداوليّ والحجاجيّ، ص63.

[2] - نادية رمضان النّجار، الاتّجاه التّداوليّ والوظيفيّ في الدّرس اللّغويّ، ص63.

السّياق التّواصليّ التّفاعليّ، فيساهم من خلال ذلك في توضيح وكشف "متضمّنات القول" في العمليّة الحواريّة. و "" التّضمين" من الآليات التّداوليّة المساهمة في التّفاعل الحواري، وخاصيته إمّا أن يكون معجميّا مستقرأ بواسطة وحدة معجميّة خاصّة. أو حواريّا متعلّقا بنسق التّلميح أو الإيحاء " [1]، هذا الأخير يستوجبه التّأويل، وهذه الجوانب الخفيّة الّتي تغمُرُ الكلام الّذي يوحي بمعانٍ عميقة، هي خاصيّة ركّزت عليها البلاغة القديمة، واصطلحت عليها اسم الكناية؛ وهي مصدر الفعل " كَنَوْتُ وكنيْتُ" ، بمعنى تركت التّصريح به.

الكلام المضمر يلعب دورا أساسيّا في المحادثة الحواريّة، ذلك أنّ المتكلّم عادة لا يكون دائما صريحا، بل قد يُخفي شيئا من كلامه عن قصدٍ، ويريد من الطّرف الآخر أن يفهم مقصديّته، إنّه من أنصار فِئة: " ما قلّ ودلّ"، وهنا يُبرز ويظهر دور المتلقّي في فهم واستيعاب ما يُكنّه ، وما يحتويه الكلام من المعاني الخفيّة. لذا "لاحظ "غرايس"، أنّ بعض الأقوال تُبلّغ أكثر ممّا تدلّ عليه الكلمات الّتي تتشكّل منها الجمل...، فكلّ قول يُثير جزئيّا أقوالا أخرى ، يضمّها أو يخلقها بوعي أو بدونه، داخل نظام دائريّ ، حيث الكلّ مُتماسكٌ "[2]. هذا النّظام الخارجيّ يتمثّل في المبدأ الحواري التّداوليّ الّذي يتجسّد بين الأطراف المشاركة. هذا المبدأ يُعدّ نواة المركز في " التّضمين"، أو" التّضمينات"، وتعتبر

" كلّ فرضيّة نستخلصها من قول لم يقع إبلاغها إبلاغا صريحا فرضيّة ضمنيّة " [3]. فيجعل المتفاعلين يتّبعون بعض القواعد الإيحائيّة، والتّأويليّة والاستلزاميّة، لفهم متضمّنات القول في عمليّة التّواصل اللّغويّ.

إنّ معرفة الكلام المتضمّن في الأقوال، يتمّ بواسطة السّياق الّذي ورد فيه، فالسّياق يوضّح عامله، ويُساهم في إبراز ما يعنيه المتكلّم من معان وما يقصده من أفعال، وهذا ما يُركّز عليه "سيرل" ، بالإضافة إلى أنّ عنده الفروق بين الأعمال المتضمّنة في القول لا

---

[1] - محمّد نظيف، الحوار وخصائص التّفاعل التّواصليّ، دراسة تطبيقيّة في اللّسانيات التّداوليّة، ص45.

[2] - عبد السّلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، مقاربة تداوليّة معرفيّة لآليات التّواصل والحجاج، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، 2012م، ص47.

[3] - جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعيّ، للتّداوليّة، ص126.

تكون بطريقة واحدة " فقد ترتكز على عوامل متنوّعة من قبيل الهدف من العمل، والعلاقة بين المتكلّم والسّامع، والفرق في المحتوى القضويّ، والعلاقة بين المحتوى القضويّ للعمل ومقاصد المتكلّم، والحالات النّفسيّة المُعبّر عنها، والعلاقة بين العبارة المستعملة والسّياق الّذي تظهر فيه "[1]. على أساس أنّه أخضع معرفة وكشف المعنى المتضمّن لمجموعة من الشّروط الّتي يجب مراعاتها، والّتي تجتمع جميعها في معرفة السّياق التّداولي الّذي وردت فيه، وتعاون طرفي الحوار ضمن إطار التّواصل.

إنّ تحقيق مبدأ التّعاون بين أطراف الحوار، قد يُسهّل عمليّة التّواصل، وذلك من خلال ما يصدر من المتكلّم من تعابير لها مقاصد مناسبة يستطيع المتلقّي استيعابها. وبالتّالي " حين توافق حالة نفسيّة ما أو شعور أو اعتقاد أو قصد ... عملاً متضمّنا في القول، فإنّ تحقيق هذا العمل يستلزم تلقائيّا التّعبير عن تلك الحالة "[2]. فمتضمّنات القول تعابير عندما تصدر من المتكلّم تُصاحبها مجموعة من المعاني الّتي تساهم في تسهيل عمليّة فهم المتضمّن من الكلام، وتحقيق الاستجابة من طرف المتلقّي.

هذه الأقوال الّتي تتعدّى المعنى المباشر إلى معنًى خفي، قد تظهر حقيقتها في سياق التّلفّظ أثناء عمليّة التّواصل التّداوليّ بواسطة التّأويل الّذي يُظهره ويعتمده المتلقّي. ذلك أنّ المتكلّمين عادة يخفون المعاني خلف الكلمات، على اعتبار أنّه ليس كلّ ما يُقال فإنّنا نعنيه ونقصده. و "يستعمل " غرايس" مصطلح المعنى الضّمنيّ للحديث عمّا يُمكن أن يتضمّنه أو يُوحي به أو يعنيه متكلّم ما فوق ما يُصرّح به ظاهر كلامه "[3]. لذا فكلّ قول لا يظهر صريحا ومباشرا في المحادثة، فهذا يعني أنّه ضمنيّ، لا يبدو واضحا في الكلام لكنّه متضمّن فيه.

---

[1] - جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، دار سيناترا، تونس، ط02، 2010م، ص73.

[2] - المرجع نفسه، ص73.

[3] ج،ب، براون، وج، يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمّد لطفي الزليطنيّ، ص39.

نحو: سأل أحد الطّلاب زميله، بمجرّد خروجهما من قاعة المحاضرة، فقال له: ما رأيك بكلام الأستاذ؟، فردّ عليه قائلا: الكلامُ كلامٌ.

ظاهريّا يبدو أنّ الجواب فاقدٌ للقيمة التّواصليّة، فيظهر أنّ كلام المُجيب لم يبدِ أيّ تقييم للمحاضرة. لكنْ إذا أمعنّا النّظر للجواب من زاويّة أخرى؛ أي في السّياق الّذي وردت فيه، قد يتراءى لنا أنّ مضمون الجواب يحتمل معنًى ضمنيّا، على نحو: الطّالبُ طالبٌ/ الأكلُ أكلٌ.

<u>أوّلاً</u>: قد يُفهم أنّ كلام الأستاذ أثناء إلقائه للمحاضرة، كأيّ كلام آخر؛ أيْ سِيّان مع غيره.

<u>ثانيا</u>: قد يُفهم منه أنّه كلام مميّز لدرجة أنّه الأفضل على الإطلاق، لذا فالسّياق الخارجيّ هو الّذي يحكم ويُحدّد ويُساهم بشكل جليّ في إظهار " متضمّنات القول". أي أنّ هذا المعنى الضّمنيّ لا يفسّره التّركيب. بل يوضّحه ضمنيّا السّياق الخارجيّ الّذي ورد فيه. وهذا قد يظهر بكلّ بساطة على ملامح ومُحيّا المُجيب، أي أثناء التّعامل المباشر مع الآخرين. لذا فبعض الكلام ضمن التّواصل المباشر بين المتكلّم والسّامع قد تظهر معانيه واضحة من خلال ما يُبديه المتكلّم من إشارات باليد أو غيرها، أو تظهر من خلال بعض التّعابير على محيّاه.

التّداوليّة تدرس متضمّنات القول، والمقاصد الخفيّة للكلام، وانّ هذه الدّراسة ليست مجرّد تطبيق للّغة وفهم معانيها من النّواحي التّالية: الأنساق التّركيبيّة، أو الصّوتيّة، أو الدّلاليّة، وإنّما تبحث في ماهيّة الكلام في العمليّة التّواصليّة، وفق المقام التّواصليّ الّذي تكون فيه، والّذي يكشف عن دلالاتها الضّمنيّة في القول. لذا " فالتّضمين مثال حيٌّ ونابض للأكثر الّذي يتمّ إيصاله دون قوله "[1]. فالكلمات تسع كلّ المضامين، والأقوال تحتوي المعاني الضّمنيّة، والمتكلّمون يخفون المعاني أكثر ممّا يصرّحون بها ضمن سيرورة الحوار في المقام التّواصليّ.

لذا فالتّداوليّة تهتمّ بدراسة اللّغة والكلام في الاستعمال المقامي الخارجيّ، وفي التّواصل الاجتماعي، وأثناء ممارسة الكلام، وإنّ التّفاعل مع الآخرين في الحوار تكون مضامين المعلومات مخزّنة في الذّاكرة لدى الأفراد. ولهذا يسهُل عليهم استنتاج هذه الأقوال والأفعال

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص79.

الضّمنيّة عن طريق الإحالة والتّضمين، والتّأويل بواسطة " عمليات ذهنيّة استدلاليّة تشغل كلّ الإمكانات الّتي يتوفّر عليها الذّهن البشريّ، من ذاكرة وهواجس نفسيّة، وعلاقات اجتماعيّة "[1]. هذه العمليات الذّهنيّة تستوقف فكر المتلقّي لحظة استقباله الكلام، فيستعين بعمليّة التّأويل، ويوظّفها في المحادثة ليكشف المعاني المتضمّنة في الكلام. لذا فالمنهج التّداوليّ لا يهتمّ بأنساق العبارات اللّغويّة، أو القواعد الّتي تخضع لها. بل يهتمّ بـ: دراسة الكلام في الاستعمال والتّواصل، وما يحتويه الخطاب من أقوال مُضمرة متضمّنة، لا يمكننا تحقيقها في الواقع كأفعال منجزة، إلاّ عن طريق معرفة مقصديّة معانيها.

وبما أنّ " التّضمين" يتمّ إيصاله بالملفوظات، على المتلقّي إزاحة الغموض عنها بإظهارها والكشف عنها بواسطة المقام التّواصلي الّذي وردت فيه، وبالتّالي " فالتّضمين" رَهين السّياق التّواصليّ، لا يمكن قوله والتّصريح به، بل يتمّ إيصاله عن طريق الكلام. وقبل التّلفّظ بالأقوال يُوجد " الافتراض المُسبق".

---

[1] - عبد السّلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص50.

الافتراض المُسبق:

كلّ تواصل لسانيّ يتطلّب طرفين مشاركين في الحوار، المتكلّم والسّامع، والمحادثة تفاعلٌ يلزمه طرفان، يكون التّلفّظ بينهما وفق معطيات معرفيّة واجتماعيّة تسمح لهما بالتّواصل الّذي ينمّ عن التّفاهم والتّوافق بينهما. هذا الاتّفاق يكون بالدّرجة الأولى بلغة طبيعيّة مشتركة، تولّد خطابا مهما كانت نوعيّة أنساقه وتراكيبه ومعانيه، فإنّ دور المتلقّي هو بذل كلّ الجهد الذّهني لاستيعابه، وتحقيق الفعل المُراد إنجازه من هذا التّواصل. وذلك عن طريق إمّا بإحالته لمعانٍ سابقة أو لاحقة لفهمه، أو تأويله وفق المقام التّواصلي الّذي يكون فيه. فتقع عليه مسؤوليّة التّحليل باستخدام فكره. " فالمتكلّمون غالبا ما يعنون بكلامهم أكثر ممّا يفصحون عنه ويقولونه "[1]، والمتكلّم يتلفّظ بكلام قد يُخفي وراءه معانٍ كثيرة لا يُفصح عنها ولا يصرّح بها، مع أنّه يعنيها في السّياق اللّغويّ؛ لأنّ الكلام قد يكون قليلا لكنّ معانيه كثيرة. ودور المتلقّي هو فهم متضمّنات القول، على اعتبار أنّه يُفترض به أنّه مُدرك لبعض المعلومات، بحكم أنّه توجد معارف مشتركة بينهما، توحي بوجود علاقات اجتماعيّة معروفة، " والمعرفة المشتركة هي الأرضيّة الّتي يعتمد عليها طرفا الخطاب في إنجاز التّواصل؛ إذْ ينطلق المرسِل من عناصرها السّياقيّة في أنتاج خطابه، كما يعوّل عليها المرسل إليه في تأويله، وذلك حتّى يتمكّن من الإفهام والفهم "[2]. وإنّ هذه المعلومات والمعارف يعلمها الطّرفان، أو يفترض أنّها واضحة بينهما مُسبقا، وهذا ما يطلق عليه بمصطلح: " الافتراض المُسبق"؛ أي ما يُفترض معرفته قبل النّطق بالنّسبة للمتكلّم، وما يُفترض أن يعرفه المتلقّي، إذا كان فعلا على عِلم به. ويعرفه مسبقا بواسطة المعارف الثّقافيّة والعلاقات الاجتماعيّة الّتي تجمع بين المتكلّمين في مقام تواصليّ محدّد المعالم والعناصر المحيطة به. مُستعينا " بالافتراض المسبق"؛ أي ما يمكن أن يُفترض بهم معرفته

---

[1] - جيوفري ليتش، مبادئ التّداوليّة، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، 2013م، ص19.

[2] - أحمد فهد صالح شاهين، النّظريّة التّداوليّة وأثرها في الدّراسات النّحويّة المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2015م، ص20.

مُسبقا أو سابقا. وقد عرّفه " جورج يول"، على أنّه " شيء يفترضه المتكلّم يسبق التّفوّه بالكلام، أي أنّ الافتراض المُسبق موجود عند المتكلّمين، وليس في الجمل "[1]، فهو لا يظهر كصيغة لغويّة، لكن يوجد جزء من الصّيغة الملفوظة يدلّ عليه، وما على المتلقّي إلاّ أن يعرف ما يمكن افتراضه قبل الكلام، بمجرّد معرفة كلام المتكلّم، وبالتّالي يعرف ما هو الأمر المفترض ـ مسبقا ـ من المتكلّم قبل النّطق بالكلام؛ أي يُفترض وجوده في ذهن المتكلّم والمتلقّي، ذلك أنّ التّواصل اللّغويّ بين أطراف الحوار في غالب الأحيان لا يُصرّح به بواسطة الكلمات، لأنّ جُلّه ضمنيٌّ يُفهم من السّياق الخارجيّ، وبعضه يُعرف مُسبقا لأنّ نقطة انطلاقه الأولى الذّهنُ.

الافتراض المُسبق: هو كُلّ ما يجب أن يكون معلوما في ذهن المتكلّم قبل التّلفّظ بالكلام، في سياق التّواصل اللّغويّ، وما يُستوجب أن يفترضه المتلقّي حين استقباله للخطاب- الرّسالة- ، لكي يستطيع أن يستوعب مضمونه. فيستطيع بذلك أن يقوم بالفعل المُرَاد إنجازه.

ولهذا تُعدّ العلاقة بين طرفي الخطاب (المرسِل والمرسَل إليه)، من أهمّ عناصر السّياق، ناهيك عن فحوى الخطاب، وما يتضمّنه من علامات لغويّة مُوحية ومحدّدة لإيصال الفكرة إلى المتلقّي، فيتحقّق التّواصل. لأنّ " كلّ تواصل لسانيّ ينطلق الشّركاء من معطيات وافتراضات معترف بها، ومتّفق عليها بينهم. تشكّل هذه الافتراضات الخلفيّة التّواصليّة الضّروريّة لتحقيق النّجاح في عمليّة التّواصل، وهي محتواة ضمن السّياقات والبُنى التّركيبيّة العامّة "[2]. والمرسل، المتكلّم عند التّلفّظ يجب أن يضع بعين الاعتبار الخلفيّة المعرفيّة لدى السّامع، وما يمتلكه من معارف ومعطيات تُمكّنه من استقبال واستيعاب ما قاله المتكلّم، وما صدر عنه من ملفوظات دالّة، وما تحمله الرّسالة من دلالات يُفترض أن يعرفها من خلال السّياق التّداوليّ. على اعتبار أنّ كلا الطّرفين لهما خلفيّة مسبقة بمعطيات الكلام وفهمه.

الافتراض المسبق هو ما يُفترض أن يعرفه المتكلّمون قبل النّطق بالكلام، وبخاصّة من طرف المتكلّم بالتحديد ، لأنّه العنصر الأساسيّ في المقام التّواصليّ . نظرا لكون كلّ إنسان

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ترجمة قصي العتابيّ، ص51.

[2] - مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب، ص42.

مزوّد بمجموعة من المعارف الثّقافيّة، وأبسط من ذلك معاملاته وعلاقاته الاجتماعيّة الّتي تفرض عليه بالضّرورة التّعامل مع أبناء مجتمعه، وهذا التّعامل يولّد بدوره معارف جديدة حتّى وإن كانت بسيطة فهي تستطيع أن تؤهّله إلى أنْ يتواصل مع غيره في سياق تواصليّ خارجيّ معيّن. فيفهم ما يُقال له، أو ما يُفترض به فهمه من الكلام بواسطة ما يفترضه مسبقا في ذهنه بما يسمّى "الافتراض المسبق"،والّذي يعتبر أنّه مجموعة من " المعطيات والافتراحات السّابقة الّتي تُفهم من سياق الكلام، أو يتضمّنها التّركيب، وتمثّل الخلفيّة المعرفيّة لأطراف الحوار "[1]. هذه المعلومات المعرفيّة السّابقة لدى المتكلّمين مجبرون على استحضارها لفهم مضمون الكلام المطروح، فهي تجسّد ما كان يُفترضُ بهم معرفته حتّى يتسنّى لهم التّجاوب فيما بينهم في المقام التّداوليّ، و " يُعامل الافتراض المسبق في العديد من المناقشات حوله كمفهوم على أنّه علاقة بين افتراضين. مثل:

أ- ثوب عائشة جميل.

ب- عائشة لديها ثوب.

فإنّ: ثوب عائشة جميل، <u>يفترض مسبقا أنّ</u> :عائشة لها ثوب.

فكلّ من الجملتين(أ)و(ب) يتضمّنان خلفيّة افتراض مسبق، فالجملة (أ) يفترض مسبقا الجملة (ب). وحتّى وإن كانت الجملة(أ)منفيّة، فإنّ الافتراض المسبق لا يتغيّر، وهو: عائشة لها ثوب؛ وتعني من حيث الأساس أنّ الافتراض المسبق لمقولة ما سيبقى ثابتا (أي صحيحا) حتّى عند نفي تلك المقولة "[2]. وهذا ما يعنيه الافتراض بالثّبات عند النّفيّ، وطالما كان هذا الافتراض المسبق موجودا في الذّهن، فإنّه يسبق الكلام، ويستطيع أن يستشّفه المتلقّي إلاّ من خلال تلك المعارف المشتركة بين طرفي الحوار أثناء تداول الكلام.

إنّ نجاح كلّ عمليّة تواصليّة تتوقّف على مدى استيعاب وفهم الكلام من طرف المتلقّي، حتّى يتسنّى له القيام بفعل الكلام بنجاح. فمتى كانت افتراضاته المسبقة صادرة عن وعي ودِراية كان إنجازه للفعل صحيحا.

---

[1] - محمود عكاشة، البرغماتيّة اللّسانيّة (التّداوليّة)، ص75.

[2] - أُنظر:جورج يول، التّداوليّة- ترجمة قصي العتابيّ، ص52-53.

كأن يوجّه المتكلّم كلامه إلى السّامع، ويقول له: - أرجو أن تبتعد عن الخطأ.

- أرجو أن تبتعد عن أيّ خطأ.

باستعمال " الـ" التّعريف في الجملة الأولى: فإنّها تتضمّن افتراضا مسبقا، يدلّ على أنّه ارتكب خطأ ما. أمّا في الجملة الثّانية: فالمفترض مسبقا أنّه لم يرتكب أيّ خطأ. وبالتّالي فالأنساق اللّغويّة قد يكون لها دور في كشف ومعرفة الافتراض الّذي يسبق القول، وهذا من خلال مُعطى السّياق اللّغوي، ناهيك عن المقام الخارجي والّذي يُمثّله ويجسّده ذلك التّداول الكلامي ضمن سيرورة عمليّة التّوصل.

والافتراض المُسبق آلية تداوليّة، تُعرف من خلال التّواصل الحواريّ، وهذه الافتراضات موجودة في ذهن كلّ من المتكلّم والمتلقّي. ذلك أنّ هذا التّواصل لا يصرِّح فيه المتكلّم بواسطة الكلمات، لأنّه مُتضمّن في كلامه، ونقطة انطلاقة الأولى هي الذّهن، لذا فالافتراض المسبق " لا يكمنُ في كلمة أو عبارة، فالمتكلّمون فقط هم أصحاب الافتراضات المسبقة "[1]. ويظهر هذا من خلال ذلك التّواصل التّداوليّ، فإنَّ المتكلّم لا يذكر بعض المعلومات كون المتلقّي يعرفها لأسباب معينة؛ نفس المشترك اللّغوي والثّقافيّ، أو يشتركان في العلاقات الاجتماعيّة، فيعينها ذلك الفضاء الذّهني المشترك، وبالتّالي يمكن إيصالها دون قولها. لذا تعتبر هذه المعطيات و المعلومات جزء من إيصال ذلك الافتراض الّذي يسبق الكلام. ولهذا كلّه أصبح الافتراض افتراضات، ولكلّ سياق لغويّ دلاله معيّنة توحي بافتراض مسبق محدّد، لذا فلافتراض المسبق أنواع.

---

[1] - السّابق ذكره، ص61.

أنواع الافتراض المسبق:

الافتراض المسبق هو معنًى قائم بذاته. يتشكّل في ذهن كلّ من المتكلّم والسّامع، ويصدر منهما من خلال مرجعيّة محدّدة تتمثّل في أهمّ المعلومات والمعارف والتّجارب والتّوجّهات والمعطيات المكتسبة في حياتهما الاجتماعيّة والثّقافيّة، ويظهر ذلك من خلال التّعامل والتّواصل اللّغويّ بين المشاركين في الحوار. في المقام التّداولي الخارجي. أو من خلال الخطاب المنبعث من المتكلّم، والّذي يعكس جانب الإبداع لديه. " وقد ميّز بعض الباحثين بين نوعين من الافتراض السّابق: **المنطقيّ** أو **الدّلاليّ** و**التّداوليّ**، فالأوّل مشروط بالصّدق بين قضيّتين، فإذا كانت(أ) صادقة، كان من اللاّزم أن تكون (ب) صادقة. فإذا قلنا مثلا: المرأة الّتي تزوّجها زيد كانت أرملة. وكان هذا القول صادقا مطابقا للواقع. لزم أن يكون القول: زيد تزوّج أرملة صدقا. إذ أنّه مفترض سلفًا. وأمّا الافتراض التّداوليّ السّابق فلا دخل له بالصّدق والكذب، فالقضيّة الأساسيّة يمكن أن تنفى دون أن يؤثّر ذلك في الافتراض السّابق، فإذا قلت: سيارتي جديدة، ثم قلت: سيارتي ليست جديدة. فعلى الرّغم من التّناقض في القولين، فإنّ الافتراض السّابق: أنّ لك سيّارة "[1]. ففي نظر كل من المتكلّم والمتلقّي أنّه يُفترض مسبقا وجود سيارة بالواقع ، وهذا ما يُمكن لنا أن نُطلق عليه:"بالإثبات عند النّفي".

ولقد تطرّق " جورج يول" إلى آليّة: " الافتراض المسبق"، وطرحها بامتياز سواء من حيث الماهيّة – نظريّة وتطبيقا -، أو من حيث تعدّد أنواعها وفقا لتعدّد سياقاتها. إذْ " ربط الافتراض المسبق باستعمال عدد كبير من الكلمات والعبارات و البُنى، واعتبر هذه الصّيغ اللّغويّة على أنّها مؤشّرات لافتراضات مسبقة كامنة:potential، والّتي يمكنها أن تُصبح افتراضات مسبقة واقعيّة فقط عند وجودها في سياقات مع المتكلّمين "[2]. فتتنوّع بتنوّع السّياق في المقام التّواصليّ، ولذا صنّف الافتراض المسبق إلى " ستّة أنواع، وهي:

أ- **الافتراض المسبق الوجوديّ**:existential presupposition، عند استعمال المتكلّم لمجموع التّعابير الواردة في الجملة، يُفترض به أن يلتزم بوجود الكيانات المسمّاة؛ أي أنّ

[1] - أُنظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص28.

[2] - جورج يول، التّداوليّة، ترجمة قصي العتابيّ، ص54.

كلّ ما قاله أو ذكره من مسمّيات، فهي يُفترض وجودها في الواقع حقيقةً.

ب- **الافتراض المسبق الواقعيّ**: factive، الّذي تُحدّده بعض الأفعال مثل:" يعلم"، يمكن معاملة المعلومة الافتراضيّة المسبقة الّتي تلي فعلاً، مثل: "يعلم"، على أنّها حقيقة صحيحة وواقعيّة. مثل: يعلم لجميع أنّ خالد ناجح - الافتراض المسبق(خالد ناجح).

ج- **الافتراض المسبق المعجمي**:lexical ، في هذا الافتراض: يُفسّر استعمال صيغة بمعناها المؤكّد عادة بالافتراض المسبق، أنّ معنًى (غير مؤكّد) قد تمّ فهمه. فكلّما ذكرت أنّ شخصا " تمكّن" من إنجاز شيء ما، يُصبح المعنى المؤكّد أنّ ذلك الشّخص " نجح" بطريقة ما. وعند قولك " لم يتمكّن" من إنجاز شيء ما، يكون المعنى المؤكّد أنّ ذلك الشّخص " لم ينجح". ولكن في كلتا الحالتين هناك الافتراض المسبق (غير المؤكّد)، أنّ ذلك الشّخص "حاول" القيام بذلك الشّيء. لذا تُفسّر " تمكّن" عادة على أنّها تؤكّد " نجح"، وتفرض مسبقا "حاول".

وبهذا ففي حالة الافتراض المسبق المعجمي، يُؤخذ استعمال المتكلّم لتعبير معيّن على أنّه يُفترض مسبقا مفهوما آخر (غير مذكور).

بينما في حالة الافتراض المسبق الواقعيّ، يؤخذ استعمال تعبير معيّن على أنّه يفترض مسبقا صحّة المعلومة (مذكور) في الجملة.

د- **الافتراضات المسبقة البنيويّة**: structural، هي تلك التّراكيب الّتي يستعملها المتكلّمون على أنّها مفترضة مسبقا أنّها صحيحة، ولذلك يقبلها المستمعون على أنّها صحيحة.

يتمّ تفسير بنية السّؤال الاستفهاميّ، على أساس أنّ الافتراض المسبق الّذي يلي أداة الاستفهام "متى"و"أين" معروفة الحال، مثل: متى انصرف؟ (الافتراض المسبق:انصرف، يُلازم سؤالا من مثل: (متى انصرف؟).

هذه الافتراضات المسبقة البنيويّة، طريقة بارعة في جعل المعلومة الّتي يعتقدها المتكلّم هي نفسها الّتي يتوجّب على المستمع تصديقها.

ه- **الافتراض المسبق غير الواقعيّ**: non- factive، وهو الافتراض المسبق الّذي تُفترض عدم صحّته. باستعمال الأفعال: يحكم، يتصوّر، يتظاهر، وافتراضاتها المسبقة غير صحيحة.مثل: حلمت أنّني ثريّ. الافتراض المسبق (لست ثريّا).

و- **افتراض مُسبق مناقض للواقع**: counter- factual، بمعنى أنّ الّذي يُفترض مسبقا ليس غير صحيح فحسب، وإنّما هو عكس ماهو صحيح، أو " مناقض للحقائق". مثل:

* لو كنت صديقي لساعدتني. الافتراض المسبق (لست صديقي) " [1].

وبهذا كلّه يظلّ الافتراض المسبق خاصيّة ذهنيّة، تسبق النّطق بالكلام؛ أيْ أنّها موجودة عند المتكلّمين لا في الكلام. هذه الآليّة يتمكّن من ممارستها المتكلّمون في حواراتهم السّياقيّة التّواصليّة. إذ يتعيّن على المتكلّم أن يُبدي ما يريد قوله، وفق ما افترضه مُسبقا قبل نطقه للملفوظات الّتي يرسلها على شكل كلام أو خطاب للمتلقّي، على هذا الأخير أن يعي ما قِيل له، بتوظيفه لافتراض مسبق محدّد، يستطيع أن يُسقطه على الأقوال الّتي طرحت ضمن المقام التّواصليّ، بواسطة تلك المعارف المشتركة بينهما، والّتي تُساهم في معرفة ما يُفترض به مسبقا حصوله. لذا فالافتراض المسبق لا يكمن في السّياق اللّغويّ، بل يكون في أذهان المتخاطبين في المحادثة، لهذا فالمتكلّمون هم أصحاب الافتراضات المسبقة. وعندما يتلفّظ هؤلاء المتكلّمون في سياق تواصليّ خارجيّ، فإنّ أقوالهم تحوي وتتضمّن " الاستلزام الحواريّ" كنتيجة حتميّة منطقيّة لِما قِيْل.

---

[1] - السّابق ذكره، ص55،56.

الاستلزام الحواريّ:

النّظريّة التّداوليّة اهتمّت بدراسة الخطاب وما تتضمّنه البُنى والتّراكيب من معانٍ ضمنيّة لا يُفصح عنها المتكلّمون عادةً، إلاّ إذا لجا المخاطَبون إلى تفسيرها وفكّ رموزها ودلالاتها بواسطة ما يُحيله المعنى داخل النصّ أو عبر سياقات خارجيّة، وما يحمله من معانٍ ضمنيّة. لأنّ المتكلّمين هم من يُوصل المعنى عبر متضمّنات القول، وعلى المستمع أن يُحدّد المعنى المُوصل له من خلال الكلام والعبارات، بطريقة الاستلزام الّذي يُعدّ كنتيجة منطقيّة حاصلة لما قيل. وذلك عن طريق تقصّي دلالاتها ومقاصدها في عوالم السّياق التّواصليّ الخارجيّ الّذي يُساهم بشكل كبير في إزالة الغموض عن المعاني الضّمنيّة في خِضمّ الكلام أو الجملة التّعبيريّة.

اللّسانيات التّداوليّة تركّز على إزالة الإبهام والغموض من الكلام، وكذلك تهتمّ ببيان مقصديته، لأنّه ليس كلّ ما يُقال يُفهم بسهولة، وما تُخفيه الكلمات عادة أكثر ممّا تُفصح عنه. والمتلقّي طرفٌ فعّال في العمليّة التّواصليّة؛ إذ تقع على عاتقه مسؤوليّة فهم العلامات والرّموز اللّغويّة في المقام التّواصليّ، ومعرفة القصد منها. وبيان معانيها بواسطة ما يفترض مسبقا من معلومات سبقتها في ذهن المتكلّم، ويأتي دور المتلقّي لمعرفة مدلولاتها من خلال السّياق الّذي وردت فيه. و اكتشافها من خلال الكلام الصّادر من المتكلّم لأنّها تظهر في مضامين كلامه؛ أي وجودها كنتيجة لما ذُكر وقِيل. فيتمّ استحضارها من خلال التراكيب والبنيات اللّغويّة، مع أنّها غير مذكورة بصريح العبارة ضمن السّياق اللّغويّ، لكنّنا نفهمها ونستشفّها منه، ومن المقام الحواريّ التّداوليّ. وهذا ما أُصطلح عليه بـ " الاستلزام الحواريّ"، وقد عرّفه "جورج يول"، بأنّه: "شيءٌ ينبع منطقيّا ممّا قِيل في الكلام، أي أنّ الجمل هي الّتي تحوي الاستلزام وليس المتكلّمون " [1]. فما على المتلقّي إلاّ أن يعرف معنى كلام المتكلّم، فيستنتج بالضّرورة النتيجة المنطقيّة الحاصلة من خلال تقنيّة الاستلزام. وهو مُلزم بمعرفتها لكشف كُنه الكلام.

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص51.

و مع ذلك " لا يُعتبر الاستلزام عموما مفهوما تداوليّا (أي مرتبطا بمعنى المتكلّم)، ولكن بدلاً من ذلك يُمكن اعتباره مفهوما منطقيّا بحتًا "[1]؛ لأنّه يُعدّ نتيجة مُستلزمة لما قيل من كلام في المقام التّداولي والتّواصل الحواريّ.

لا أحد يجهل أنّ الاستلزام مصطلح علميّ رياضيّ، انبثق من الفلسفة والمنطق، ويندرج ضمن علم الرّياضيات والحساب. لكنّ اللّسانيات الحديثة لجأت إلى الاستعانة به ومحاولة إعطائه مساحة ضمن دراسة علم اللّغة والكلام. وخاصّة منها التّداوليّة كمنهج لغوي، وعلم تنظيري حديث، قامت بالاستعانة بهذه الآليّة الّتي تدخل ضمن إطار العمليّة الذّهنية والتّفكير، وأقحمتها لتستعين بها، وقامت بعمليّة إسقاط هذه الخاصيّة على الكلام الحواريّ، وكان هدفها الأسمى هو: صياغة معنًى جديد كنتيجة حتميّة لمعنى سابق في الكلام. وبذلك يُعدّ " الاستلزام الحواري" من أهمّ المبادئ البرغماتيّة اللّسانيّة، والّتي تركّز على مدى عمق المعاني الخفيّة في الكلام الصّادر من المتكلّم في سياق حواري تداولي، وعلى المتلقّي استنباط تلك المعاني، كدلالات ضمنيّة متمركزة في سيرورة التّراكيب والأنساق اللّغويّة. فتظهر تلك المعاني بطريقة استلزاميّة كنتيجة حتميّة منطقيّة حاصلة بناءً على الكلام الّذي تمّ تأكيده من طرف المتكلّم.

هذه المعاني بمجرّد ما ينطقها المتكلّم، تجوب داخل ذهن المتلقّي، فيحاول أن يختار منها ماهو مناسب، وما يَصدُق عليه القول، أو ما قيل.بواسطة عمليّة الاستلزام، لكي يستطيع أن يحررّ معنًى مناسبا يكون هو المقصود في الكلام. مثل:

* هل خالد في البيت.

* شاهدت سيّارته عند بائع الخضار.

الجواب يدلّ على معنيين، معنى صريح مفاده: أنّ سيارة خالد عند بائع الخضار. أمّا المعنى الثّاني الّذي يُدرك بالاستلزام، والمستشفّ من هذا الحوار هو : أنّ خالدا ليس في البيت. على اعتبار أنّ سيارته بعيدة عن مقر بيته. وبالتّالي فهو بعيد عنه...، هذه الاستلزامات

---

[1] - المرجع السّابق، ص62.

المتعدّدة قد تتراءى للمتلقّي لمجرّد أن تفكيره في ما يمكن استلزامه من هذا الحوار، مركّزا على الكلام المتلفّظ به من طرف المتكلّم ، دون النّظر إلى مدى صدق قوله أو عدمه ، و "تتبع هذه الاستلزامات من الجملة بغض النّظر عن صحّة اعتقادات المتكلّم أو بطلانها، ويتمّ إيصالها دُون ذكرها في القول " [1]؛ أي بمعنى أنّ المتلقّي يركّز على السّياق اللّغويّ، ويحاول أن يستخرج منه ذلك الاستلزام الحواري الّذي قد توحي به الملفوظات، و ماهو الاستلزام الطّليعي المناسب لذلك السّياق.

يعدّ " الاستلزام الحواريّ" من أهمّ العناصر الأساسيّة في المنهج التّداولي، والّتي تفعّل جوانبه التّطبيقية من خلال الملفوظات الّتي تصدر من المتكلّم في السّياق الحواري التواصلي، و يُطلق عليه"غرايس" بالاستلزام المحادثي، و " للمحادثة منطقها. إذ تتحكّم فيها قوانين وقواعد تنظّمها وتوجّه إلى ما تستلزمه من دلالة " [2]. فهو ينظر إلى أنّ الكلام يحكمه بعض القوانين المنطقيّة الّتي تُوحي بمعان يستوعبها ذهن المتلقّي، وبدورها تؤدّي إلى وجوب التّعرّف عليها كنتائج منطقيّة نحصّلها عن طريق آليّة الاستلزام. وفي نظر غرايس " يجب أن يكون الاستلزام المحادثي ممّا نستطيع التّوصّل إليه، لأنّه حتّى إن تمكنّا فعليّا من فهم هذا الاستلزام حدسيّا- ما لم تقم مقام الحدس حجّة ثابتة- فإنّ هذا الاستلزام لا يجوز اعتباره (إن وُجد أصلا) استلزاما محادثيّا، ولكي يكشف المخاطب وجود هذا الاستلزام المحادثيّ المحدّد فعليه الاعتماد على المعطيات التّاليّة:

- معنى الكلمات المستعملة، وبيان حقيقة ما تُحيل عليها.
- السّياق اللّغويّ للقول، وملابساته غير اللّغويّة.
- معطيات أخرى متّصلة بالمعارف المحصّلة سلفا " [3].

---

[1] - السّابق ذكره ، ص52.

[2] - أُنظر: بول غرايس، مقال: المنطق والمحادثة، عن: عزّ الدّين مجدوب، إطلالات على النّظريات اللّسانيّة والدّلاليّة في النّصف الثّانيّ من القرن العشرين، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين، المجمع التّونسي للعلوم، تونس، ج2، 2012م، ص612.

[3] -المرجع نفسه، ص625.

وكلّها شروط يجب أن يَعِيها المتلقّي، من ناحيّة ما تتضمّنه الكلمات من معاني خفيّة ضمن المقام الحواريّ الّذي وردت فيه، لكي يستطيع أن يستنتج النّتيجة المنطقيّة الحاصلة من الملفوظ في إطار سياق تواصليّ معلوم.

المتكلّم قد يقصد بكلامه أكثر ممّا يقوله، وما يتمّ تبليغه للسّامع إلاّ شيئا يسيرا ممّا قد يقصده ويَعنيه. لذا كان الاستلزام الحواري آليّة تداوليّة ساهمت في دراسة الكلام والخطاب أثناء التّواصل والاستعمال في السّياق الحواري التّداولي.

ولهذا كلّه يُعدّ " الاستلزام الحواريّ" آليّة من آليات إنتاج الخطاب، وبما أنّ التّخاطب يستوجب مشاركة بين طرفين على الأقلّ بلغة هدفها الأسمى التّبليغ والتّأثير في المخاطب، فإنّ الاستلزام يُتيح للمتلقّي أن يبدي تأويلا دلاليّا ينمّ على فهمه واستيعابه لمتضمّنات القول. فيتسنّى له بذلك معرفة مقصديّته واستنتاج النّتيجة المستقاة من الكلام الوارد في السّياق التّواصليّ. هذا الاستلزام الحواري المُستمدّ من الفلسفة التحليلية، اعتمد كتقنية منطقيّة في النّظريّة التّداوليّة، لِما له علاقة في دراسة الكلام أثناء التّواصل. إذ من الممكن أن يُؤدّي كلام إلى كلام آخر، على المتلقّي إدراكه ومعرفته من خلال التّواصل الحواريّ التّداوليّ. بمعني أنّ "الاستلزام" : هو تلك النّتيجة المنطقيّة المُستنبطة من كلام سَبَق وأن أكّده المتكلم. فعلى المتلقّي بدوره إلاّ أن يعي أنّه يوجد معنًى مؤكد يؤدّي إلى معنًى بعده يكون نتيجة ضرورية له. لذا " فالاستلزام هو شيء ينبع بالضّرورة ممّا يتمّ تأكيده. باعتباره نتيجة منطقية ضروريّة لما قِيل، وهو ببساطة أقوى من الافتراض المسبق " [1] .وإذا كان"الافتراض المسبق"عمليّة ذهنيّة تسبق النّطق في الكلام؛ أي تركّز على المتكلّم لا على الكلام، فإنّ " الاستلزام الحواريّ" نستشفّه من خلال التّراكيب والبُنى اللّغويّة في مقام معيّن. وبالتّالي فعمليّة "الاستلزام" تركّز على الكلام لا على المتكلّمين في السّياق التّواصلي التّداوليّ.

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص60.

أفعـــال الكـــلام:

التّواصل هو ذلك التّفاعل الّذي يتمّ بين المتكلّمين، وفق عمليّة التّخاطب في سياق لغويّ معيّن، ولا تقتصر اللّغة على توصيل المعانيّ والمعلومات فقط، بقدر ما تتعدّى ذلك إلى تحديد تلك العلامات بين المتخاطبين ومُحاولة استيعاب مقصديّتها الدّلاليّة، وهذا ما تهتمّ به الدّراسة التّداوليّة، وتحثُّ عليه، على أساس أنّ اللّغة لم يعد يُنظر إليها من جهة أنّها أقوال فقط ، بل من جهة ثانيّة تتمثّل في كونها تُحقّق أفعالا. وذلك بِحُكم كون الملفوظ في حدّ ذاته فعل ناتج عن تلفّظ؛ أي أنّه فعل كلاميّ يتحقّق وفق ذلك التّفاعل الحاصل بين أطراف الحوار. والّذي تجسّده تلك المحادثة الّتي يتبادل فيها المتكلّمون الأدوار، بحيث يتعاون هؤلاء لتحقيق استراتيجيّة تضامنيّة، ينتُجُ عنها تحقيق خطاب ملائم للسّياق التّواصليّ بين المتكلّم والمخاطَب. وهذا التّداول الكلاميّ ينبثق عنه فعل الكلام، والّذي يُعتبر مظهرا أساسيّا في عمليّة التّواصل التّداوليّ.

التّداوليّة تتعامل مع دلاله اللّفظ وفق الاستخدام اللّغويّ أثناء التّواصل الّذي يتمّ بين طرفي الحوار، سواء على مستوى التّخاطب اليوميّ الّذي تفرضه عمليّة التّواصل الاجتماعيّة، أو على مستوى أرقى من ذلك، يكون فيه حضور عناصر التّواصل في الخطاب الأدبيّ على أعلى مستوًى. والّذي يُوحي بملفوظات سواء على المستوى الصّريح أو الضّمنيّ، وغالبا ما تكون فيه متضمّنات القول بادية على كلماته ولغته، بحكم أنّه خطاب أدبيّ ينطوي على بلاغة فنيّة وبيانيّة، توحي بدلالات عميقة يصعُب تحديد معانيها على مستوى سطح الكلمات في الأنساق والتّراكيب اللّغويّة. بداية من معانيها الضّمنيّة الّتي يُحّددها السّياق التّواصليّ، وبإمكاننا إزاحة الغموض عنها وفق افتراضات مسبقة يتنبّأ بها المتلقّي، أو عن طريق تأويلها لتحديد كُنه معناها، وبالتّالي استمرار التّواصل وفق مقام معيّن.

إنّ التّواصل بين المتكلّمين، وهم يُباشرون أدوارهم الاجتماعيّة، ينتج عنه مواقف كلاميّة تتوفّر على مجموعة من العناصر الّتي لها وظيفتها التّواصليّة ، بداية من المتكلّم الّذي يعتبر

محور العمليّة التّواصليّة وعنصرا مهمّا في بنية المحادثة أثناء التّواصل، والمخاطب الّذي يسعى بدوره إلى فهم الغرض الّذي يرمي إليه المتكلّم في السّياق الموقفي، أو التّداوليّ ليُحقّق الغاية المنشودة من هذا التّواصل، وهي التّأثير في المتلقّي، وحمله على القيام بالفعل الإنجازيّ، والأفعال تُنجز عبر الملفوظات، وما تحمله من قوّة الفعل، هذه العناصر السّياقيّة تؤدّي إلى الفعل الكلاميّ. وهذه المواقف الكلاميّة كلّها تعكسها الأفعال الصّحيحة.

لا تقتصر اللّغة على الجانب التّعبيريّ فقط، بقدر ما تتعدّاه إلى تلك الوظيفة الفعليّة المتمثّلة في إنجاز الفعل، والمتكلّمون عندما يتلفّظون بكلمات، فإنّهم بذلك يُنجزون أفعالا، "و إنّ قولنا شيئا ما يعني أنّنا قد تصرّفنا أو فعلنا شيئا ما "[1]. هذه الأفعال تحدّدها عناصر السّياق جميعًا، ضمن مقصديّة يهدف من خلالها المتكلّم إلى القيام بفعل ما، يُفترض مُسبقا أنّ أداءه يبدأ انطلاقا من فعل القول. هذا الأخير ينجُمُ عنه فعل الإنجاز، ولهذا فالأفعال الّتي تتطلّب تحقيق فعل إنجازيّ يُطلق عليها: "أفعال الكلام".

هذه الأفعال تعتبر إحدى أهمّ مفاهيم المنهج التّداوليّ، وأحد أسسه المهمّة في تحليل الخطاب وبيان الوظيفة الفعليّة للكلام، في ظروف سياقيّة بدءًا من الشّخصيات وفق الحوار التّواصلي. والّذي يولّد بدوره مواقف كلاميّة تعكسها تلك الأفعال التّأثيريّة، هذه الأفعال لها علاقة وطيدة بقصديّة المتكلّم، والّذي يرمي من خلالها إلى إنجاز فعل مطلوب بذاته.

ومادام الفعل الإنجازيّ يرتبط بقصد المتكلّم، فتقع مسؤوليّة فهم المستوى الكلاميّ على عاتق المتلقّي الّذي يسعى بدوره إلى استيعاب الكلام وفهمه وإنجاز الفعل المطلوب منه. فيكون بذلك قد تحقّق الفعل، والّذي هو نقطة المركز في " نظريّة الفعل الكلاميّ"، والّتي تُعدّ من ضمن النّظريات اللّسانيّة المستحدثة الّتي لها أهميّة في دراسة وتحليل الخطاب. ويُعدّ "أوستين" مؤسّس هذه النّظريّة وواضع للمصطلح الّذي يُعرف به الآن في الفلسفة اللّسانيّة المعاصر. بقوله: " إنّ فعل" التّكلّم بشيء ما " بالمعنى الواسع لهذا المركّب ، إنّما أسميه بل أمنحه هذا اللّقب، وهو (إنجاز فعل الكلام). ومن هذا السّياق فإنّ دراسة العبارات

---

[1] - أوستين، نظريّة أفعال الكلام العامّة، "كيف ننجز الأشياء بالأفعال"، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشّرق، 1991م، ص115.

المُتلفّظ بها في الحقيقة، ولنفس السّبب دراسة أفعال الكلام " [1].وهذه النّظريّة تعدّ من أهمّ مجالات وفروع الدّرس اللّغوي التّداوليّ.

هذا التّنظير الّذي يخصّ جانب الفعل، والّتي تبدأ نقطة انطلاقه بدءًا من الحدث الكلاميّ الّذي يؤديّ إلى إنجاز الفعل المطلوب من خلال عمليّة التّلفّظ الّتي يقوم بها أطراف الحوار ضمن سياق تداوليّ مُستوف كلّ عناصره، ومكوّناته التّواصليّة.

إنّ دراسة "أفعال الكلام" ضمن إطار التّخاطب التّحادثيّ، هي بؤرة وأساس المنهج التّداوليّ، لأنّه يدرس اللّغة وفق الاستعمال، والّتي تُؤدّي بدورها جانبا نفعيّا تواصليّا اجتماعيّا، ويتمّثل في الفعل الإنجازيّ الّذي يجب أن يصدر من المتلقّي، والّذي كان مبعثه الجانب التّأثيريّ من طرف المتكلّم. وكذلك يهتم هذا المنهج بجانب الحدث الكلاميّ وفق الوظيفة اللّغويّة، أو وظيفة الملفوظات الّتي توحي بمقصديّة معيّنة في مقام تواصليّ تداوليّ، والّذي ينتج عنه فعل الإنجاز. لكون أنّه " عندما ننجزُ فعلَ كلام ما، فنحن بالضّرورة نستعمل الكلام " [2]. وهذا التّنظير في مجال أفعال الكلام يعتبر في حدِّ ذاته تصوّرا جديدا للظّاهرة اللّغويّة، والّتي بَدَتْ معالم وظيفتها التّأثيريّة من خلال التّداول الكلاميّ، والّذي بدوره يهدف إلى مقصديّة المتكلّم، وكيف يُمكن للمتلقّي معرفة واكتشاف تلك المقاصد؛ أي تقع على عاتقه معنى وقصديّة تلك الأقوال بتحديد قيمتها الدّلاليّة، وفهم مضامينها ضمن الأنساق والتّراكيب اللّغويّة، وفق سياق تواصليّ محدّد.

التّداوليّة غيّرت مجرى تاريخ اللّسانيات الّغوّية، فحذفت فصولا، وأضافت فصولا، تتمثّل في دراسة اللّغة في سياق تواصليّ معيّن. هذا السّياق يُجبر الكلمات ويفعّلها لتحقّق إنجاز الأفعال، لذا فالأفعال الكلاميّة تُنجز عبر الملفوظات وفق مقام تواصلي معيّن.

---

[1] - السّابق ذكره ، ص116.

[2] - نفسه، ص120.

نظريّة أفعال الكلام:

إنّ علاقة الإنسان باللّغة هي علاقة جدّ وطيدة يفرضها ذلك التّواصل والتّفاعل الاجتماعيّ، فهو لا يستغني في تعامله مع المحيطين به إلا باستعمال اللّغة. وكلّ كلام ملفوظ يجب أن يحيطه سياق خارجيّ يحكمه ويوضّح معالمه الخطابيّة بواسطة عناصر ومكوّناته التّواصليّة. هذه المفاهيم كانت غائبة عن فلسفة اللّسانيات اللّغويّة البنيويّة، وإنّ عُزوف هذه المناهج الشّكليّة عن دراسة العناصر السّياقيّة ضمن المقام التّواصلي. جعل اللّغة تتوقّف عند التّركيب اللّغوي ومعناه الّدلاليّ البحت؛ أي دراسة البُنى اللّغويّة بعيدا عن سياق الاستعمال والتّواصل. وجعلها تستغيث حين وُضعت بعض مواضيعها الّتي لم تُعالج على حافة طاولة الدّراسة اللّغويّة، فسقطت بعض خصائصها ومكوّناتها من الدّراسة، فأهملت ووضعت في "سلّة المهملات"، وعُرفت التّداوليّة بأنّها " سلّة مهملات اللّسانيات"، والّتي تدلّ على أنّه تقع على عاتق التّداوليّة حلّ مثل هذه القضايا الّتي لم تُعالج من طرف اللّسانيات الحديثة. هذه القضايا ضُيّق عليها الحصار، باعتبار أنها أُهمِلت من جانب الدّارسة في المنهج البنيويّ، والّذي تزعّمه " دي سوسير". لكن سُرعان ما حمل لِواء إغاثتها فلسفة التّنظير النّقدي الحديث المتمثّلة في المنهج التّداوليّ الّذي استطاع أن يُخرج هذه المكوّنات الأساسيّة المتعلّقة بجانب استعمال اللّغة ضمن مقام التّواصل، من "سّلة المهملات". لقد أُهملت هذه الجوانب السّياقيّة من التّنظير البنيويّ، واحتضنها التّنظير النّقديّ التّداوليّ، وبادر إلى دراستها، والتّوغّل في عُمق دلالتها، ووظيفتها التّواصليّة. وفي مقدّمتها: الاستعمال والأداء والإنجاز للملفوظات الّتي تصدر من المتكلّم في سياقات تواصليّة تنمّ عن قوّتها في تحقيق الاستيعاب للمتلقّي، والفهم لديه، لكي يستطيع أن يقوم بالفعل المطلوب إنجازه، ومن هنا جاء مفهوم الأفعال الكلاميّة "الإنجازيّة".

فالفعل: هو كلّ ما يستطيع أن يقوم به المتكلّمون في ظروف سياقيّة حواريّة صحيحة. بواسطة الكلام الّذي يصدر من المواقف الكلاميّة، والّتي تعكسها الأفعال المنجزة. ويذكر أوستين : " مفهوم الفعل، وهو مفهوم متشعّب وغامض، ونحن نتصوّر الفعل على أنّه

حدث ماديّ فيزيائيّ نقوم بإنجازه " [1]. على اعتبار أنّ إنجاز الأفعال تسبقها بالضّرورة إنجاز فعل القول.

أمّا **"الإنجاز"** : هو كلّ فعل يُنجز في سياق تواصليّ مُعيّن ، بواسطة ملفوظات تسبقه، بدءًا من عمليّة التّلفّظ. وتُنجز الأفعال عبر الملفوظات. و "الفعل هو كلّ حدث حاصل بواسطة الكائن الإنسانيّ " [2]، وبهذا فهو يربط بين الفعل الإنجازيّ وبعلاقته مع مفهوم الحدث. وكلّ كلمة ينتج عنها فعل، فهي تُغيّر الواقع، وكلّ فعل يتجاوزه الزّمن، فقد يُغيّر التّاريخ.

لقد تطرّق أوستين إلى أنّ تحقيق الفعل يكون بحسب قوّته، وما يستلزم ذلك من تأثير في المتلقّي، وبعث الاستجابة فيه، فيتحقّق من خلال ذلك كلّه الفعل المُراد، لذا فهو يربط بين الفعل المُنجز وقوّة فعل الكلام، بقوله: "الإنجاز الكلاميّ هو في حدّ ذاته إنجاز قوّة فعل الكلام " [3]. كما يعدّ أيضا رائد هذا الاعتقاد المتمثّل في أنّ الأفعال الكلاميّة يُطلق عليها أفعالا إنجازيّة، هذه الأفعال في سياقاتها المختلفة تستطيع بدورها أن تغيّر جانبا من واقعنا، فقد تصدر جملة من المتكلّم لا تتجاوز حدود لحظة قولها. وقد يتلفّظ المتكلّم بكلمات قد تتعدى وتتجاوز حدود تلفّظها إلى الإنجاز الفعليّ المُراد تحقيقه من طرف المتكلّم.

الفعلُ أفعالٌ عند أوستين، فهو يفرّق بين ضروب متنوّعة من الأفعال، ويحصرها في ثلاثة أنواع: " الفعل الصّوتيّ، والفعل الكلاميّ، والفعل الخطابيّ، أمّا الفعل الصّوتيّ: فهو مجرّد فعل التّلفّظ لبعض الأصوات المقروعة المحمولة في الهواء. وأمّا الفعل الكلاميّ، وهو النّطق ببعض الألفاظ والكلمات؛ أي إحداث أصوات على أنحاء مخصوصة، متّصلة على نحو ما بمعجم معيّن، ومرتبطة به وخاضعة لنظامه. أمّا الفعل الخطابيّ فهو طريق تأديّة الإنجاز، وكيفيّته باستعمال تلك الألفاظ، مقرونة إلى حدّ ما، وبمعنى ما " [4] . هذه الأفعال إذا تواجدت جميعها ضمن سياق تواصليّ، فإنّها تحقيق قوّة فعل الكلام.

---

[1] - المرجع السّابق، ص127.

[2] - فان دايك، النصّ والسّياق، ص291.

[3] - أوستين، نظريّة أفعال الكلام العّامة، ترجمة عبد القادر قنيني، ص119.

[4] - المرجع نفسه، ص116.

هذه الأفعال الإنجازيّة كانت هي التّوجّه الرّئيسيّ الّذي قامت به التّداوليّة، وهو انصرافها لدراسة وتحليل العبارات والأقوال اللّغويّة من خلال الوقائع الإجرائيّة الملموسة؛ أي من خلال استعمال اللّغة في مقام التّواصل الحواريّ، ممّا جعلها تضطرّ إلى دراسة ومعرفة متضمّنات القول في سياق تواصليّ معيّن، والّذي يُساعد على إزالة الغموض بشكل مستمرّ في خطاباتنا اليوميّة، والّتي تكتنفها مجموع القضايا، وظروف اجتماعيّة نُعبّر عنها بواسطة أقوالنا والّتي نترجمها إلى أفعال منجزة.

إنّ وظيفة اللّغة ليست دائما تصف الكلام وصفا يكون إمّا صادقا، أو كاذبا، بل يؤدّي فعلا معيّنا، بوصفها أفعال كلاميّة، مردُّها للمتكلّمين، بدءًا من العمليّة الذّهنيّة الحاصلة، والّتي تنعكس على الملفوظات الصّادرة من المتكلّمين، والّتي بدورها توحي إلى مقصديّة معيّنة، الهدف منها تحقيق الفعل المرجو إنجازه.

فنظريّة أفعال الكلام هي " نظريّة تدرس الأفعال الّتي تعبّر عن فعل، ولا نحكم عليها بصدق أو كذب، وقد لا تصف شيئا من واقع العالم الخارجيّ "[1]. ويمكننا تحقيق أفعال من خلال ألفاظ معيّنة، تهدف إلى إنجازها في ظروف اجتماعيّة خاصّة، لذا فالفعل الكلاميّ يتمّ تحقيقه وفق أبعاده الإنجازيّة، أو وفق قوّة فعل الكلام الّذي من غاياته التّأثير في المتلقّي من خلال تصحيح فكرة، أو توجيهه إلى سلوك ما، فيتحقّق الإنجاز الفعليّ فعلا.

الأفعال الكلاميّة هي في الأصل عبارة عن أقوال تصدر من طرف المتكلّم إلى المتلقّي، هذه الأقوال تُغيرّ من الواقع أو لا تغيّره، فإذا غيّرت واقعا معيّنا فهي تسمّى أفعالا إنجازيّة، وإذا كانت أقرب إلى الوصف لا تغيّره إنجازيّا، فهي مجرّد إخبار، أو تعبير عمّا يجيش من شعور داخل الأنفس، سواء كانت أقوالا أو خطابا لغويّا، مع أنّ " النّاس عند التّعبير عن أنفسهم، فإنّهم لا يُنشئون ألفاظا تحوي بُنًى نحويّة وكلمات فقط، وإنّما ينجزون أفعلا عبر هذه الألفاظ، وتُعرف الأفعال المنجزة من خلال الألفاظ عموما ب: "أفعال الكلام"، speech acts ، تساعد الظّروف المحيطة باللّفظ أحيانا كلاً من المتكلّم والمستمع في هذه العمليّة، تسمّى هذه الظّروف مقام الكلام speech event، وتحدّد طبيعة مقام الكلام تفسير اللّفظ

[1] - محمود عكاشة، البرغماتيّة اللّسانيّة (التّداوليّة)، ص26.

على أنّه إنجاز لفعل كلاميّ معيّن " [1]. فقد يُفهم لفظ في مقام ما على أنّه تذمّر، وفي ظروف سياقيّة أخرى قد يكون إطراء وتقبّلا، نحو: " شعورنا بمشروب بارد جدّا في فصل الشّتاء"، وبمجرّد تغيير الظّروف المحيطة إلى فصل حرارة يشعرنا ذلك بالتّقبل والإعجاب.

إنّ اختلاف نوع فعل الكلام، يرجع إلى اختلاف مقام التّواصل، وإلى قوّة اللّفظ الوظيفيّة، ومدى تأثيرها في الطّرف الآخر. لذا فالخطاب ليس مجرّد تبادل الأخبار والأقوال، بقدر ماهو عبارة عن أفعال إنجاز. وقد توصّل "أوستن" إلى تقسيم الفعل الكلاميّ إلى ثلاثة أفعال :" فعل الكلام، وقوّة فعل الكلام، ولازم فعل الكلام .

أ - فعل الكلام: وهو النّطق بالألفاظ من حيث أنّها منتميّة إلى معجم معيّن.

ب- قوّة فعل الكلام: إنّه فعل مُؤدّى مُنجز. يسبقه بذلك فعل الكلام.

ج- لازم فعل الكلام: هو ما ترتّب عن الكلام وما لزم عنه، كأن نقول شيئا ما قد يترتّب عليه أحيانا أو في العادة حدوث بعض الآثار على المخاطب وأفكاره وتصرّفاته، كما يستلزم ذلك لوازم ونتائج تؤثّر على المتكلّم. واجتماع كلّ تلك الأمور تدلّ أنّ المتكلّم قد أنجز شيئا ما، أو فعلا ما " [2]. وإنجاز الفعل في حدّ ذاته يُنبئ على حصول فعل التّأثير في المتلقّي ومدى تحقيق تلك الملفوظات لوقع في نفسه.

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص82.

[2] - أُنظر: أوستين، نظريّة أفعال الكلام العامّة، ترجمة عبد القادر قنيني، ص121-122.

تصنيف الأفعال الإنجازيّة:

إنّ المهمّة الرّئيسيّة للتّداوليّة أن تحوّل هذه الأقوال إلى أفعال أدائيّة، يقوم بها أطراف الحوار في سياق مقاميّ معيّن. فبمجرّد " قولنا شيئا ما، فنحن نفعله "[1]. وتتمثّل قوّة هذه الأفعال في نجاحها، وهذا لا يتحقّق إلاّ بتعاون هذه الأطراف –مبدأ التّعاون- لتحقيق الفعل، وحصول الحدث كنتيجة له. وتتنوّع الأفعال الإنجازيّة بتنوّع الملفوظات والكلمات الرّاميّة إلى إنجاز فعل معيّن، ولقد ميّز "أوستين" بين "فعل القول"، و" قوّة فعل الكلام"، وما يترتّب عنه من فعل إنجازيّ مع مراعاة مقتضى الحال. وعلى هذا فقد صنّف الأفعال وفق خمسة أصناف، بقوله: " سأحاول أن أقدّم تصنيفا عامّا، على ما اقترحته من تصنيفات...، وهذه الأصناف من العبارات المتلفّظ بها، والمصنّفة تبعا لقوّة فعل الكلام، وهي:

أ- صنف الأحكام والقارات القضائيّة: وتكون ناتجة عن إصدار حكم يكون تقديريّا على صورة رأي أو تقييما.

ب- صنف الممارسة التّشريعيّة: فتعلّق بممارسة السّلطة والقانون والنّفوذ. وأمثلة ذلك إصدار الأوامر وإعطاء التّوجيهات القريبة من النّصح والتّحذير.

ج- صنف الوعديات: وهي تُلزم الإنسان أن يفعل شيئا ما. وقد يندرج في هذا الباب التّصريح والوعد، والمناصرة لرأي.

د- صنف السّلوكيات: وهي تندرج تحت باب السّلوك والأعراف. وأمثلتها الاعتذارات، والتّهاني، والقسم.

هـ- صنف المعروضات: تبيّن أنّ العبارات المتلفّظ بها تجري مجرى الاحتجاج والنّقاش، ويصلح هذا الصّنف لطريقة العرض. وأمثلة ذلك: أجيب، أحتجّ، أعارض، أوضّح وأفترض "[2]. وقد ذكر أنّ هذا التّصنيف ليس نهائيّا، فقد تنجرّ عنه تصنيفات أخرى، نظرا للعد الكبير لأفعال اللّغة ، بالإضافة إلى تنوّعها. ولكنّه يُبدي ثقة تامّة بتصريح منه مفاده " أنّ جميع

---

[1] - جيوفري ليتش، مبادئ التّداوليّة، ص235.

[2] - أوستن، نظريّة أفعال الكلام العامّة، ترجمة عبد القادر قنيني، ص174،175.

الوُجوه تتواجد في أصنافي هذه " [1]. ومع ذلك فقد قدّم " سيرل" تصنيفا بديلا للأفعال الإنجازيّة، وحصره في خمسة أبواب:

أ- التّأكيدات: Assertifs، وتظهر في حقيقة القضايا المُعبّر عنها من طرف المتكلّم ، "التّباهي، الشّكوى، تأكيدات، يلخّص...

ب- الأوامر: Airectifs، هي حصول المتكلّم بواسطتها- الأوامر- على قيام المستمع بشيء ما، مثل الأفعال: استعدى، سمح، نصح، طلب أمر.

ج- الالتزامات: Commissifs، هي الأفعال الإنجازيّة الّتي تكون فيها الوُجهة في جعل المتكلّم ينخرط في إنجاز فعل مستقبليّ، مثل:الوعد، الوصيّة.

د- التّصريحات: Expressifs، وتُعدّ وجهة الإنجاز تعبيرا عن الحالة السّلوكيّة المخصّصة ضمن شروط الإخلاص، وكمثال على الأفعال التّصريحيّة: شكر، هنّا، والاعتزاز، والمواساة، وتأسّف.

هـ- الإدلاءات: De'claration، تتمثّل في مطابقة محتواها القضويّ للعالم الخارجيّ، ومثال عن التّأكيدات : "أنت مجرم"، هو إدلاء لا يقبل المناقشة إذا صدر من جهة رسميّة، يُشير المثال إلى حالة تقاطع بين الإدلاءات والتّأكيدات" [2].

ومهما كانت نوعيّة الأفعال الكلاميّة، فإنّها تستوجب مُسبقا مقاما تواصليّا يستطيع أن يُحدّد فاعليّتها، وقوّة إنجازها، وذلك بتفاعل المشاركين في الحوار التّواصليّ، ومعرفة وتحديد مقصديّة الكلام الّذي بدوره يُحدّد لنا نوعيّة الفعل المُراد إنجازه، والّتي تعكسه متضمّنات القول. فتحدّد دلالات هذه الملفوظات لنعي ونفهم كيفيّة إنجاز أفعال معيّنة في إطار سياق تواصليّ محدّد.

ومتى تكون هذه الأفعال في إطار وسياق معيّن، ومرتبة الإنجاز من طرف المتلقّي، يجب أن تتوفّر على شروط معيّنة تُساهم في اعتبارها "أفعال إنجازيّة". وقد حدّد "فان دايك" "مجموعة من الشّروط لإنجاز الفعل، أهمّها:

- الأفعال يجب أن تكون واقعة من لدن الكائنات الإنسانيّة.

---

[1] - المرجع السّـابق،ص175.

[2] - فرنسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ترجمة سعيد علوش، ص66،67

- الأفعال الإنجازيّة تقتضي بعض العناصر الذّهنيّة، أو تستلزم على الأقلّ شرطا وأحوالا ذهنيّة سابقة.

- شرط توفّر القصد والإرادة، هو أن نسلّم بأنّ المقاصد تحدث في أحوال وقوع الفعل. وفي هذه الاحتمال يجب أن تكون المقاصد هي الأحداث الّتي تستلزم تغيير حالة ما.

- حال حصول الأفعال ونتائجها، أفعال إنجازيّة تقوم على حدوث الفعل، مع زيادة الحدث كنتيجة." حال فتح الباب، العنف..."

- حصول المُؤثّريّة والكمال " للأفعال الإنجازيّة": إذْ يتطابق الأثر النّهائيّ، أو النّتيجة النّهائيّة مع الغرض المنشود، ونعني: نيل الفعل المُراد " [1]. ويجب أن تتوفّر " الإرادة والأغراض والمقاصد والمعرفة. ومن خلال مجموعة المعرفة يجب أن تتحقّق ثلاث فئات: أوّلا معرفة العالم الّذي تُؤوّل فيه العبارة. ثانيّا: معرفة المقامات المتنوّعة للسّياق. ثالثا: معرفة اللّغة المستعملة. وكذلك معرفة أنساق أخرى لضروب الفعل المشترك الإنجاز" [2] ودون هذه المعرفة لا يعرف المشاركون حول ماذا يدور الكلام. كما "توجد صفتان، وهما من أهمّ الشّروط: هما صفة الصّدق وصفة الاعتقاد" [3]. وهذان الشّرطان ضروريان، لأنّ أفعال اللّغة ترتبط فقط بواسطة التّواضع، والاتّفاق، لا بواسطة قانون الجبر كغاية تأدية المعاني والدّلالات والمقاصد.

إنّ تصوّر اللّسانيات الحديثة للّغة كوسيلة للتّواصل، وأنّها كائن حيّ تصدر من حيّ، كذلك أنّها عنصر أساسيّ في حياة الإنسان، وأداة للتّواصل والتّعبير عن النّفس والمشاعر...، فإنّنا نجدها في التّنظير التّداوليّ لها تصوّر خاصّ، وبالتّحديد في أفعال الكلام، وما مدى قوّة هذه الأفعال في تحقيق الفعل الكلاميّ المرجو، لذا صنّف الباحثون الأفعال اللّغويّة لقوّة فعل الكلام . "في أربعة أفعال، وهي:

---

[1] - فان دايك، النصّ والسّياق، ص298.

[2] - المرجع نفسه، ص334.

[3] - نفسه، 343.

أ- الأفعال اللّغويّة التّقريريّة: (متكلّم- فعل لغوي...)، مثل: زعم، صدّق، أقرّ، أعلن، صرّح...، هذه الأفعال على خلاف سائر أصناف الكلام تفرض بوجه عامّ علاقة المساواة بين المتكلّم والمخاطب. وبعض أفعالها مثل: ادّعى، اعترض، يُمكن أن يطلق عليها لفظ الاحتجاجيّة، لأنّها تُلزم أحد المشتركين أن يُبرّر ويدافع.

ب- الأفعال اللّغويّة التّوجيهيّة: (متكلّم، فعل، مفعول، بأنّ...)، حيث يكون المتكلّم فاعلا، والمفعول مخاطبا، مثل: سأل، طلب، دعا إلى أمر، منع ...)، "أمنعك بأن...".

ج- الصّيغ الفعليّة الدّالّة على الإجابة: تقع في تركيب: (فعل، مفعول أو مصدر)، والأفعال: عرض، وعد ، أقسم، تطوّع." وعدتُك"، "وعدت أن تكون...".

د- الأفعال اللّغويّة الدّالة على المآسي والمدح: وتقع في تركيب: (متكلّم فعل، وحرف جرّ رابط للمفعول.) مثل: دافع، تأسّى، وحزن واعتذر وشكر." اعتذرت لك ..." [1].

ومن منطلق دراسة اللّغة في الاستعمال والتّواصل من طرف المتكلّمين في حواراتهم الّتي يندرج عنها تفاعل لغويّ يؤدّي إلى إنجاز فعليّ حاصل. هذه الأفعال الإنجازيّة تستطيع أن يغيّر أصحابها الواقع، أو أن تُحدث تغييرا في ذهن المتلقّي الّذي بدوره يستطيع أن يُحقّق هذه الأفعال بمرجعيّة الإحالة، أو فهمه واستيعابه لمتضمّنات القول، وقد يوظّف الاستلزام لتحقيق الفعل الإنجازيّ المطلوب.

خصائص الأفعال الكلاميّة:

الأفعال الكلاميّة عماد وأساس الدّراسة التّداوليّة، والّتي من أهدافها دراسة اللّغة وفق الاستعمال والتّواصل بهدف تحقيق نتيجة مفادها إنجاز الفعل والحدث، أي أنّها تقوم على خاصيّة إنجاز الأفعال في المقام التّواصليّ. ونظرا لأهمّيتها في الدّراسات اللّسانيّة ، فقد استحوذت على التّفكير النّقدي الحديث، فدُرِست من جميع جوانبها الدّلاليّة والتّأثيريّة، وخصائصها الإنجازيّة الّتي تُساهم في تفعيل الكلام، وبعثه لحصول الأفعال الّتي تُحدث تغييرا في الذّهن والواقع، ومن أهمّ خصائصها:

[1] - جيوفري ليتش، مبادئ التّداوليّة، ص268.

أنّها أفعال إنجازيّة تُحقّق أفعالا معيّنة، وفق سياق تواصليّ محدّد المعالم والظّروف. وأنّها أفعال تسبقها ملفوظات تدلّ عليها، بشرط يكتنفها بعض من المصداقيّة في الطّرح والمطلب. فيكون المتلقّي على استعداد لتنفيذها والمباشرة في تحقيق الفعل المراد إنجازه.

كما تعتبر أفعال أنجزت عن طريق اللّغة في سياق تواصليّ معيّن، بحيث يشترك أطراف الحوار في اللّغة نفسها، لكي يكون إنجاز الفعل موفّقا وضمن مسؤوليّة المتلقّي. كما يجب على السّامع فهم مقصديّة المتكلّم لكي يكون الإنجاز موفّقا وميسّرا. ويتم هذا التّحقّق عن طريق سياق تواصليّ واضح المعالم والعناصر المكوّنة له. فينتج عن كلّ ذلك فعل كلاميّ ملائم ومناسب للسّياق الّذي ورد فيه.

وتتمثّل قوّة الفعل المراد إنجازه، إلاّ من خلال قراءة ومعرفة السّياق الّذي ورد فيه، وكذلك عن طريق عمليات ذهنيّة تتعلّق بربط المعطيات الملفوظة لكي يتسنّى لنا الوقوف على دلالتها في المقام التّواصليّ. هذه المعطيات الّتي تُستمدّ عبر إنشاء التّلفّظ، والّتي تدلّ على فعل الكلام، في سياق تداوليّ تعاونيّ بين أطراف الحوار، ترقى إلى مرحلة الإنجاز، ويُعدّ فعلا منجزا عبر عمليّة التّلفّظ، ليتكوّن بدوره من ثلاثة أفعال: "الفعل التّعبيريّ: هو إنشاء تعبير لغويّ ذي معنًى، الّذي يعتبر فعل اللّفظ الأساس، والفعل الوظيفيّ: ويُنجز عبر قوّة اللّفظ التّواصليّة؛ أي نصُغ لفظا يؤدّي وظيفة نريد إتمامها، والفعل التّأثيريّ: ونقصد أن يكون للّفظ تأثير معيّن "[1]. وكلّما امتزجت هذه الأفعال، وحقّقت المُراد، وانبثقت عنها القوّة الوظيفيّة في سياق تداوليّ تواصليّ، كان الفعل الإنجازيّ ناجحًا. وبذلك فالفعل الكلاميّ أدّى المطلوب، ووصل إلى تحقيق مراده وهو الفعل الإنجازيّ.

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص82،83.

الفصل الثّانيّ:

- البنية السّرديّة في خطاب " الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيّان التّوحيديّ
1- البنية السّرديّة في " الإمتاع والمؤانسة "
* السّارد، الكاتب: أبو حيّان التّوحيديّ
* المُروى له، الوزير: أبو عبد الله العارض
* فضاء المكان " المجلس "
* الزّمان، " السّمر ليلا"
* الأحداث " الوقائع"
* الشّخصيات
2- السّياق في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ
- السّياق وتداوليّة الخطاب السّرديّ
أ- عناصر السّياق
ب- المؤشّرات السّياقيّة وأنواعها في الخطاب السّرديّ
- الإحالة السّياقيّة في بنية الخطاب السّرديّ
- الإشاريات الخطابيّة، وأبعادها التّداوليّة في سرد التّوحيديّ
- أنواع الإشاريات
* الإشاريات الشّخصيّة
* معاني الإشاريات الزّمانيّة
* معاني الإشاريات المكانيّة
* الإشاريات الاجتماعيّة
* الإشاريات الخطابيّة

الأدب فنّ التّعبير عن الحياة، والخطاب الأدبيّ إبداع فنيّ استثنائيّ عن باقي الخطابات الأخرى، لأنّه يزخر بمعطيات جماليّة بدءا من لغته وأسلوبه وكلماته ومعانيه الّتي تعكس الواقع بطريقة إبداعيّة تنمّ عن جمال التّأليف وروعة الخيال، والتّعبير التّصويريّ للأحداث بكلّ ما تحمله من معان، هذا الجانب الّذي يعكسه التّشكيل اللّغوي الإبداعيّ الفريد يتجسّد في "الخطاب السّردي"، بكلّ عناصره ومكوّناته وأحداثه الّتي تُستمدّ عادّة من الواقع. إذ لا توجد مفارقة كبيرة بين العالم المتخيّل والعالم الواقعيّ، هذا النّوع من الخطابات يظلّ صامدا عبر الأزمنة، لأنّه ينفذ عبر التّاريخ ليصل إلى الحاضر دون أن يعتريه أيّ تغيير، فيظلّ محافظا على جمال تأليفه الأخّاذ ، وما تحتويه تراكيبه ومعانيه المستمدّة من الحياة الثّقافيّة والاجتماعيّة في شكل خطاب جدير بالقراءة والاطّلاع والدّراسة.

في البدء كانت الحكاية وسرد القصّ مشافهة، خاصّة فيما يتعلّق بالحكايات الخرافيّة والتّخييليّة، وكانت تتداول مشافهة عبر راوٍ يرسلها للمتلقي، وظلّت على هذا المنوال حتّى نشوء فكرة الكتابة، فحُرّر السّرد من قيد المشافهة المنسيّة إلى الوثوب إلى مرحلة التّدوين ليدوّن اسمه في التّاريخ. لذا فبقاء تلك الخطابات السّرديّة على قيد الحياة، ووصولها إلى عصرنا دليل قاطع على ملامستها للحياة الطّبيعيّة، وعلى أهمّيتها وقيمتها الإبداعيّة.

يعتبر السّرد هو كلّ ما يصدر من السّارد" الرّاوي" من أحداث متواليّة تشكّلها اللّغة على شكل خطاب يميّزه محتواه وعناصره الرّئيسيّة من شخصيات وزمان ومكان الوقائع، ناهيك عن الأحداث الّتي ترتبط مع بعضها بواسطة أنساق وتراكيب ودلالات لغويّة تيسّر البوح عن المشاعر والمعارف، وعن الواقع الاجتماعيّ. لذا فالسّرد "مصدر من مصادر المعرفة، والكشف عن الحقيقة ، بما يوفّره من إمكانيات استخلاص أحكام وأفكار وبنائها انطلاقا من تجاربنا ومشاهداتنا " [1]. فالسّرد إبداع ووسيلة تعبير عن الذّات، وما تكنّه من تجارب والأحداث بمحاولة استعادة الماضي أو تمثيلا له.

---

[1] - إبراهيم صحراوي،السّرد العربيّ القديم، الأنواع والوظائف والبنيات، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط01، 2008م، ص21.

السّرد لا يقتصر على المجال الأدبيّ فقط، بل قد يشكّله التّواصل اللّغويّ، ويظهر في تبادل الكلام، لأنّ الإنسان بدوره يحتاج إلى التّواصل بالكلام والتّبليغ والحكي، وسرد ما مرّ عليه من وقائع إثر تعاملاته الطّبيعيّة مع بني جنسه.

الخطاب السّرديّ هو ذلك الإبداع الّذي ينتج بواسطة النّظام اللّغويّ بجميع جوانبه البلاغيّة والدّلاليّة الهادفة، وبعناصره المشكّلة له مع سيرورة الأحداث، مع الأخذ بعين الاعتبار القارئ المتلقي لهذا الفنّ، وإنّ " معنى السّرد أو دلالته تنبثق من التّفاعل بين عالم النصّ، وعالم القارئ، فعالم النصّ، لأنّه ليس بالشّيء المغلق، بل هو مشروع كون جديد، منفصل من الكون الّذي نعيش فيه، إنّه عالم ضمني يحتوي على الأفعال والشّخصيات، وأحداث القصّة المرويّة، وبالنّتيجة، ينتمي القارئ دفعة واحدة إلى أفق تجربة العمل في الخيال، وإلى فعله أو فعلها الواقعيّ "[1]؛ أيْ انّه يعكس ما في الواقع، ويعبّر عنه.

السّرد أداة للتّعبير عن الواقع تجاه شيء ما، قد يكون في الماضي، بصياغة الموجودات الكونيّة بطريقة فنيّة على شكل خطاب، لذا كان الخطاب السّرديّ دائما هو تعبير عن الواقع بأسلوب جميل، لأنّ هدفه إحداث تغيير في معرفة القارئ/ المخاطب، وتغيير نظرته وتوجّهاته وأفكاره، باعتبار أنّه فنّ هدفه التّبليغ والتّأثير في القارئ و " السّرد لا يجد معناه إلاّ بحصول نوع من التّأثير في مَن وقع التّوجُّه إليه أو إليهم بذلك السّرد الّذي يعدّ بدوره حركة باتّجاه نقطة (معيّنة). منها فقط يكون للسّرد جاذبيّة إلى درجه أنّه لا يمكن له أن "يبدأ" قبل أن يكون قد بلغها "[2]؛ أي له بداية ونهاية تتخلّلها أحداثا متسلسلة تصبو إلى تحقيق غاية ما وِفق مسار قصصيّ معيّن.

لقد خضع الخطاب السّرديّ في العصر الحديث إلى الدّراسة والتّحليل وفق علم قائم بذاته هو "علم السّرد"أو السّرديّة، والّتي تعني "استنباط القواعد الدّاخليّة للأجناس الأدبيّة، واستخراج

---

[1] - بول ريكور، الوجود والزّمان والسّرد، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، ط01، 1999م، ص46.

[2] - جون ميشل آدم، السّرد، ترجمة أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت لبنان، ط01، 2015م، ص21،22.

النُّظم الّتي تحكمها، وتوجّه أبنيتها، وتحدّد خصائصها وسماتها " [1]. وهي تبحث في مكوّنات البنية السّرديّة للخطاب من راوٍ ومَروِي ومُروَى له. ذلك أنّ " الإرسال السّرديّ داخل النّصوص لا بدّ أن يتمّ بين " الرّاوي" باعتباره قطب الإرسال و" المروى له" بوصفه قطب التّلقي. فالمادّة السّرديّة إنّما هي مداولة قِوامها الإرسال و التّلقي " [2]. لذا تتشكّل البنية السّرديّة للخطاب من تضافر ثلاث مكوّنات هي: الرّاوي و المَروِيّ والمُروَى له.

الرّاوي: لقد اهتم الدّارسون في عمليّة السّرد الإخباري بوظيفة الرّاوي المتكلّم الّذي له دور أساسيّ في سرد الأحداث وفق ما يراه في العالم الخارجيّ، فيقوم بتركيبه و تشكله وفق أفكاره ورُؤاه إلى عمل إبداعي ينبض بالدّلالات والمعاني، فيخلق بذلك خطابا سرديّا تتزاحم فيه الشّخوص والأحداث بما يُناسب تخيّلاته، فيكشف ما يرغب في إيصاله إلى المتلقي. فيكون هو المؤلّف المبدع الحقيقيّ للخطاب السّرديّ، لأنّ هدفه التّأثير في المتلقيّ، وله السّلطة في ذلك. كما يهدف إلى إيصال فكره للمتلقي بواسطة لغة تعبّر عن أفكاره ومعانيها، لتولّد بذلك عملا إبداعيّا تتراكم فيه رُؤاه للكون والحياة. و بهذا فهو ذلك " الشّخص الّذي يروي الحكاية أو يخبرنا عنها سواء كانت حقيقيّة أو خياليّة، ولا يشترط أن يكون الرّاوي اسما معيّنا، فقد يكتفي أن يتقنّع بصوت أو يستعين بضمير ما بوصفه مُنتجا للمرويّ " [3]. فالرّاوي مبدع لأنّه يخلق فنّا إبداعيّا يوحي بجانب إمتاعيّ في نفس المتلقّي، ويفرض وجوده عليه بالإعجاب بمحتواه، كما يبعث فيه التّأثير والتّلقّي، لذا كان للرّاوي دور مهمّ في عمليّة التّبليغ في الخطاب السّرديّ.

---

[1] - تزفيطان طودوروف، الشّعريّة- ترجمة شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، المغرب، ط02، 1990م، ص23.

[2] - عبد الله إبراهيم، موسوعة السّرد العربيّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط01، 2005م، ص11.

[3] - عبد الله إبراهيم- السّرديّة العربيّة، بحث في البنية السّرديّة للموروث الحكائيّ العربيّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط02،2000م، ص19.

كما يُعتبر السّارد الفاعل في كلّ عمليّة بناء، وقد يكون " راويا خفيّا تماما يقدّم الأحداث بأقل وساطة ممكنة من جانبه " [1]، فيتوارى بذلك خلف إبداعه الّذي تشكّله معانيه وتراكيبه ليُلقي به ضمن دائرة القراءة، وهذا ما يطلق عليه بالمروي.

المروي: هو كلّ ما يصدر من الرّاوي من خطاب منتظم ليشكّل مجموعة من الأحداث تقترن بأشخاص، و يؤطّرها فضاءً من الزّمان و المكان، و قد جرى التّفريق بين مستويين من المروي.

أوّلهما: متواليّة الأحداث المرويّة: بما تتضمّنه من استرجاعات واستباقات وحدث،وما اصطلح الشّكلانيوت الرّوس على هذا المسمّى ب "المَبْنَى".

ثانيهما: الاحتمال المنطقيّ لنظام الأحداث: وقد اصطلحوا عليه: المتن.

إنّ **المبنى:** يُحيل على النّظام الّذي يتّخذه ظهور الأحداث في سياق البنيّة السّردية، أمّا **المتن:** فيُحيل على المادّة الخامّ الّتي تشكّل جوهر الأحداث في سياقها التّاريخيّ. و اتّسع المجال حول المبنى والمتن بوصفهما وجهي المروي المتلازمين " [2].

المُروَى له : هو ذلك المتلقّي الّذي يتلقّى ما يُرسل إليه، سواء كان اسما معيّنا ضمن البنيّة السّرديّة، أو كان مجهولا. و المروى له: "هو شخص يوجّه إليه الرّاوي خطابه لأنّ عمليّة التّأليف أو الصّناعة لا تكتمل في النصّ وحده، بل لدى القارئ، وبعبارة أدقّ إنّ معنى السّرد أو دلالته تنبثق من تفاعل بين عالم النصّ وعالم القارئ " [3]. على أساس أنّ النصّ يُماثل الواقع ويترجمه إلى عالم التّخييل، لكنّه يدلّ عليه لا محالة.

تلك المكوّنات الأساسيّة في الخطاب السّرديّ والّتي تساهم في استيعاب هيكل الخطاب، وتكمن أهميّتها في وجودها وعلاقتها ببعضها، إذ أنّ كلّ مكوّن لا أهمية له ولا معنًى بذاته، إلاّ بوجود باقي العناصر الّتي تشكّل البنيّة السّرديّة للخطاب. بالإضافة إلى عنصريّ المكان والزّمان، ففضاء المكان يُفهم من خلال هذا التّصوّر على أنّه الحيّز المكانيّ في الرّواية أو

---

[1] - جيرالد برنس، قاموس السّرديات، ترجمة السيّد إمام، ميريت للنّشر والمعلومات، القاهرة، ط01، 2003م، ص40.

[2] - عبد الله إبراهيم، السّرديّة العربيّة، ص20.

[3] - بول ريكور، الوجود والزّمان والسّرد، ص46.

في الحكي عامّة...، " ولا يُقصد به طبعا المكان الّذي تشغُلُه الأحرف الطّباعيّة الّتي كتبت بها الرّواية، ولكن ذلك المكان الّذي تصوّره قصّتُها المتخيّلة " [1]. وبذلك يجعل الخطاب السّردي ذا مظهر مماثل لمظهر الحقيقة، أمّا الفضاء الزّمانيّ: فهو ذلك الحيّز الّذي يدخل في سيرورة وتعاقب الزّمن في حياة الخطاب الفنيّ الإبداعي، والقصصيّ منه. ويعتقد "النّقاد الرّوائيون المعاصرون بوجود ثلاثة أضرب من "الزّمن" تلتبس بالحدث السّرديّ و تلازمه ملازمة مُطلقة:

أ - زمن الحكاية أو الزّمن المحكي.

ب - زمن الكتابة: ويتّصل به زمن السّرد، مثل سرد حكاية ما.يرى طودوروف: بأنّ هذا الزّمن مرتبط بصيرورة التّلفّظ القائم داخل النصّ.

ج – زمن القراءة : وهو الزّمن الّذي يصاحب القارئ وهو يقرأ العمل السّرديّ " [2].

وإنّ الزّمن يخضع ويتغيّر بحسب تتابع الأحداث، ولكن قد يقطع الرّاوي السّرد ليعود إلى وقائع تأتي سابقة في ترتيبه أي " استباق الأحداث في السّرد بحيث يتعرّف القارئ إلى وقائع قبل أوان حدوثها الطّبيعيّ في زمن القصّة، فإنّ المفارقة إمّا أن تكون استرجاعًا لأحداث ماضيّة، أو تكون استباقًا لأحداث لاحقة " [3]. وهي مجموعة من الأحداث المتتاليّة الّتي تتخلّل القصّة، إذ يُبادر الرّاوي إلى التّوقّف عن السّرد محاولة منه السّفر مع القارئ بالزّمن الماضي، وذلك بالرّجوع به إلى أحداث ولّت ومضت محاولة منه توظيف الاسترجاع، والهدف من هذه العودة إضافة التّشويق للمتلقيّ والاستحواذ على إعجابه، كما أنّه قد يستبق أحداثا قادمة لم تقع بعد، رغبةً منه في تسارع تنامي السّرد، والانتقال بالمُروَى له إلى مرحلة التّشويق الّتي يفضّلها القارئ. وبهذا فكلا الآليتين تُساهم في انبثاق الأحداث

---

[1] - حميد لحمدانيّ، بنية النصّ السّرديّ، من منظور النّقد الأدبيّ، المركز الثّقافيّ العربيّ للنّشر، الدّار البيضاء، ط03، 2000م، ص54.

[2] - عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرّواية، بحث في تقنيات السّرد، عالم المعرفة، الكويت، 1998م، ص179.

[3] - حميد لحمدانيّ، بنية النصّ السّرديّ، ص74.

الجديدة وتناميها في السّرد القصصيّ.ناهيك عن جانب الإبداع الفنيّ الّذي يأسر ذهن القارئ ويُمتّعه. ويبثّ فيه القيم الإنسانيّة الفاضلة.

لقد اهتمّت السّرديّة الحديثة بجميع هذه العناصر، وساهم في بناء أُسُسها وإظهار أهمّيتها في الدّراسة السّرديّة للوصول إلى أبعاد الخطاب السّردي. ويزخر موروثنا السّردي بالأخبار والقصص والحكايات الّتي انبثقت عن الثّقافة العربيّة، ومن مختلف المجالس والمناظرات، والأخبار الخاصة بالشّعوب والأمم. وفي خضمّ هذا كلّه يكون فيها الرّاوي هو المبدع، يفرض رأيه وفكره، فيحرّك الأحداث والمواقف والشّخصيات حسب إرادته. فيضبط تصرّفاتهم و أقوالهم وأفكارهم وفق ما يراه ويؤمن به ويعتقده من مبادئ وقيم أراد بثّها في طيّات قصّه. كما نجد ذلك عند الكثيرين من المبدعين في التّاريخ العربيّ الّذين بقيت إبداعاتهم الفنيّة يزخر بها الحاضر أكثر من الماضي قراءةً ودراسةً، بحكم أنّها فنون نثريّة لم يزل إبداعها وإمتاعها وجمال تأليفها قائما حتى وقتنا هذا. هؤلاء الّذين انتهجوا مجال الحكي والقصّ في إبداعاتهم، وحرصوا على أن يكون هذا السّرد فريدا من نوعه، مُغايرا لمن جاء قبلهم ومن أتى بعدهم. ومن بين هؤلاء: أبي العلاء المعريّ في "رسالة الغفران"، **وأبي حياة التّوحيديّ** في: " الإمتاع و المؤانسة ".

البنية السّرديّة في خطاب " الإمتاع والمؤانسة":

السّرد هو تلك الخاصيّة الّتي تُميّز وتَطغى على كلّ خطاب أدبيّ يكون من معطياته وخصائصه ذِكر توالي الأحداث من طرف راوٍ ضليع في سردها ومُتلقٍ مُتذوّق لها. وتشكّل هذه الأحداث المتتابعة زمنيًّا ومكانيّا خطابا سرديّا بكلّ ما يحمله من مكوّنات وعناصر تشكّل بنيته السّرديّة كالزّمان والمكان والشّخصيات والحبكة...، هذا الكلّ المُتكامل يولّد ويُشكّل قصّة أو حكاية. ونصّ " الإمتاع والمؤانسة " يتضمّن بين طيّاته جانبا سرديّا يتمثّل في أنّه ذلك الخطاب الّذي يروِي لنا بعض مجالس العلم، والجوانب الثقافيّة والاجتماعيّة... في عصر ازدهار الحكم العباسي، والّذي نشأت فيه ثورة الكتابة، وبراعة التأليف الأدبيّ غير المسبوق بجميع فنونه الشّعريّة والنّثريّة. هذه الخطابات جاء جانبها النّثريّ في شكل أقوال وأخبار وأحاديث غايتها سرد مُجريات حدوثها في مقام تواصليّ يحكُمه زمان معيّن، وشخصيات تُستوحى منها مواضيع وأحاديث الرّوح والعقل والنّفس و جانب النّقد و الشّعر والنّحو والمنطق والبلاغة....

"الإمتاع و المؤانسة" : "كتاب يضمّ مسامرات أربعين ليلة قضاها التّوحيدي في منادمة " الوزير" أبي عبد الله العارض"، وهو ثلاثة أجزاء تضمّ أضواءً كاشفة عن عصر وصلت فيه العلوم إلى أوج التّطوّر والازدهار. وحياة الأمراء في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجريّ، وما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال وخصومة و شراب " [1]. إنّه العصر الّذي بَدَت فيه تظهر ملامح الفنون الأدبيّة الّذي استطاع أن يظهر فيها الجانب السّرديّ كفن مُستحدث استوفى جميع عناصره الفنيّة كما في إبداع التّوحيديّ، مُبديا بذلك الجانب القصصيّ الأخّاذ الّذي يشعر فيه القارئ بمتعة جمال نسج وحَبْك الأحداث والمواقف، ناهيك عن روعة المضمون الفكريّ والفلسفيّ الّذي يتخلّل طيّات صفحاته، ويشمل جميع جوانب الحياة الثّقافيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة...، كلّ ذلك بأسلوب بلاغيّ راقٍ تعكسه كلماته الموحية الّتي تنمّ عن إبداع صانعها.

[1] - أبو حيّان التّوحيديّ، " الإمتاع والمؤانسة"، تحقيق أحمد جاد- دار الغد الجديد، القاهرة، ط01، 2009م، ص05.

تكمن روعة الكتاب وجماله في قراءة تفاصيل المحتوى الحواري الّذي دار بين أبي حيّان التّوحيدي و الوزير بصيغة : قال- قلت- سألني، فأجبته...؛ إذْ كلّ ليلة يطرح فيها الوزير موضوعا على شكل سؤال ليستثير من خلاله فكر التّوحيديّ الّذي يظهر أنّه السّادر والمفكّر الّذي يعرف كلّ شيء، ومطّلع على كلّ علوم عصره. فهو راوٍ مُطلق المعرفة والعلم، كونه أنّه مُستعدّ للإجابة على كلّ الأسئلة، و على كلّ قضيّة أو مُساءلة تُطرح عليه، أو تُثار في المجلس للنّقاش. ثمّ تُطرح عليه قضيّة إلاّ وأجاب عنها، وأسهب في تفصيلها، كأنّه عليم بها. ويظهر كلّ ذلك من خلال سيرورة ليالي السّمر والأنس.

لقد قُورن المُؤَلّف بكتاب: "ألف ليلة وليلة "، و ما يتضمّنه من ليال يكتنفها الطّرب والغناء واللّهو، "فإذا كان هذا الكتاب قد وُفّق في تصوير الحياة الشّعبيّة في ملاهيها وفتنتها عشقها. فإن " الإمتاع و المؤانسة" قد وُفق في تصوير الحياة العقليّة عند خاصة المجتمع من مفكرين وفلاسفة و أدباء وأمراء " [1]. ناهيك عن كونه أنّه خطاب يجمع بين المُتعة والإبداع الفنيّ، وبين روعة الخيال ورهبة المقام في نعيم قصر الوزير، فكان فيه تداول الكلام ببلاغة وإحكام، وتفصيل المواقف وانسجام الأقوال. وهو بذلك خطاب فنيّ بلاغيّ ينطوي على مساحة جماليّة إبداعيّة واسعة تفوق الوعيّ والإدراك معاً.

إنّه خطاب فنيّ يزخر بعناصر جماليّة وإبداعيّة تبعث على المتعة والفائدة، وتكشف لنا جوانب معرفيّة متعدّدة توحي بما هو موجود منها في عصره وعصور سبقته، منها الفلسفيّة والدّينيّة والعلميّة والأدبيّة والثّقافيّة والفكريّة واللّغوية والبلاغيّة...، فهو تقاطع خطابات فنيّة وجماليّة متعدّدة تفوق الوصف والخيال.

نصّ" الإمتاع والمؤانسة" خطاب سرديّ، وهو رسالة موجّهة من متكلّم إلى متلقٍ، يُحدّدها مقام السّمر الّذي يجمع أطراف الحوار، وهو مقام تواصليّ يجمع بين متكلّم هو "أبو حيّان التّوحيديّ" الّذي يصبو إلى تحقيق غاية التّأثير في المخاطَب " أبي عبد الله العارض"، مُحاولة منه تغيير فكره وتوجّهاته، ومحاولة توجيهه للقيم والفِكر الّتي يتضمّنها، ويحتويها كُنه الخطاب الّذي يقوم على المعرفة، والتّنوّع. بين كونه خطابا معرفيّا يتّسم بالمعرفة، ومن

---

[1] ـ المصدر السّابق، ص06.

جهة ثانيّة يعتبر إبداعا بلاغيّا يتجلّى بيانه في محتوى لغته ومعانيه الّتي تظهر ضمن سياق التّواصل بين أطراف الحوار، كما يعدّ خطابا سرديّا مكّننا من إدراك قوّة فعل الكلام الّتي استطاعت أن تنتج ضروب المعرفة بالتّداول والحوار في سرديّة التّوحيديّ.

كما يظهر عليه أنّه نصّ أدبيّ نظرا للمعارف والفنون المتنوّعة الّتي يحتويها وتشغل حيّزا واسعا ضمن طياته، من أخبار وأخلاق وخطابات نقديّة وعلميّة وفلسفيّة، وحوارات فكريّة أُستمدّت من مناطقة وفلاسفة عصر اليونان ...، وعلى هذا كلّه يصعُب تصنيفه، وتحديد نمطيّة تشكيل محتواه بمضامينه البلاغيّة ورؤاه وتوجّهاته وخطابات الحكي والقصّ فيه، لكن الجانب الّذي نراه مختلفا أنّ خطاب" الإمتاع والمؤانسة"جعلنا ننظر إلى السّرد من زاوية مختلفة، ومُغايرة تماما لرؤية الخطابات السّرديّة ذات التّشكيل القصصيّ المعهود؛ إذ أنّه لا يُركّز على تسلسل الأحداث، ومعطيات السّرد برمّتها..، بقدر ما يُركّز على استحضار المعرفة وبثّها بتقنيّة تداول الأقوال في المقام التّواصليّ المكانيّ وفق زمان محدّد، ألا وهو السّمر اللّيليّ. وبهذا اندمجت المعرفة بالتّواصل والتّداول بين عناصر الحوار.

السّرد في الخطاب الإبداعيّ " التّوحيديّ" يشكّله ذلك التّتابع الزّمنيّ الّذي يعكسه السّمر في ليالي الأنس، والسّمر عنده: تداول حواريّ وتوجيه معرفي، ويظهر فيه التّوحيديّ ساردا فعّالا ومؤثّرا في المتلقي ضمن سياق سرديّ منظّم زمنيّا في أربعين ليلة غايته إنجاح فعل السّرد التّواصليّ الثّقافيّ؛ لأنّ السّرد لدى التّوحيديّ محور تداول الأقوال، ويبنى على العنصر المعرفيّ، وليس على جانب توالي الأحداث بحدّ ذاتها. وبالتّالي فهو سخّر كلّ معلوماته وخبراته واطّلاعه على علوم عصره وأخبار مجتمعه و شعوب سبقته للتّأثير في المتلقّي وبثّ روح الاعتدال فيه، والتّزوّد بالمعرفة لديه.وذلك بذكره للأخبار والنّوادر والحكايات على لسان شخصيات مختلفة تصنع الحكي بطريقة قصصيّة وأدبيّة وبلاغيّة، وفق أسلوب أدبيّ مُحكم النّسيج والصّناعة.

كلّ هذه السُّبل ساهمت في تفعيل التّوجّه الذّهنيّ لدى التّوحيديّ، والّذي أساسه الدّفاع عن قيم نبيلة كالرّحمة والعدالة، والوفاء، والاعتدال وتوجيه الحاكم إلى الصّلاح مع رعيّته الّتي قد يصدر منها تعارض أو رفض أو تذمّر من الوضع الاجتماعيّ ، فترفع له كلّ تلك

الانشغالات للنّظر فيها وإلى أوضاعهم وانشغالاتهم بهدف رفع الظّلم عنهم بعزّه ورجاء رحمته. فيُبدي بذلك الوزير اعترافه بالحقّ على اعتبار أنّ الاعتراف بالحقّ فضيلة، وما صدر من الرّعيّة " أمَا كان عليه أن يعلم أنّ الرّعيّة مُصيبة في دعواها الّتي بها استطالت. بلى والله الحق ّ مُعترف به وإن شغب المُشاغب وأعنت المعنت " [1]. فيقوم بسرد ما يجتلي ويدور في ذلك العصر من معارف وعلوم، موظّفا في ذلك المرجعيّة الّتي ترتبط بسرد الأخبار، والحقائق التّاريخيّة، والأوضاع الاجتماعيّة والثّقافيّة السّائدة في المجتمع العبّاسيّ.

تظهر خاصيّة السّرد عند التّوحيديّ بدءًا من اللّيلة الأولى، والّتي تُعتبر نقطة انطلاق المسامرات، وبداية زِحام اللّيالي على مدار أربعين ليلةً دون انقطاع، فيستهّل بالأولى بقوله: " وصلت أيّها الشّيخ* - أطال الله حياتك- أوّل ليلة في مجلس الوزير- أعزّ الله نصره- وشدّ بالعصمة والتّوفيق أزره، فأمرني بالجلوس" [2]. فاللّيلة الأولى تستحوذ على عناصر الخطاب السّرديّ، وتكشف أطراف التّواصل فيه، وفق شروط تداوليّة اقتضتها عناصر التّواصل الخاصّة بالمقام ألا وهو: " المجلس"، و"بالزّمان"، ويتمثّل في " اللّيل". وشخصيّة الرّاوي أبو حيّان التّوحيديّ، وهو يسرد أحداث وصوله إلى دار الوزير أبي عبد الله العارض، ليبعث بهذه الرّسالة إلى المتلقّي الغائب "أبي الوفاء المهندس". هذه العناصر اشتركت جميعها لتُكوّن لنا خطابا سرديّا بانت معالمه بدءًا من مطلعه.

كما يظهر لنا شغف الوزير، وحبّه للأنس والاستماع والاستمتاع بالحديث والمعرفة، وطلب صدق القول، والإفصاح عن الجواب المُبين والواضح والمفيد، بقوله وهو يُخاطب أبا حيّان: " ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتّأنيس، ولأتعّرف منك أشياء كثيرة مختلفة تردّد في نفسي على مرّ الزّمان، لا أُحصيها لك في هذا الوقت، لكنّي أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض. فأجبني عن ذلك كلّه باسترسال،وسكون

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص381.

* - يعني بالشّيخ أبا الوفاء المهندس، أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة،ولد سنة 328ه بمدينة بُوْزجَان بخرسان.

[2] - الإمتاع والمؤانسة،الجزء الأوّل، ص30.

بال. بملء فيك، وجمّ خاطرك، وحاضر علمك...، وأجزم إذا قلت، وبالغ إذا وصفت، وأصدق إذا أسندت " [1]. لقد أظهر الوزير مطلبه ورغبته في التّواصل المعرفيّ ، والاستمتاع بالحديث، وقد تملّكته الثّقة بنفسه، وبقدراته المعرفيّة الّتي تجعل منه شخصا باستطاعته طرح مواضيع للنّقاش والحوار في كلّ مجلس قادم. وفي نفس الوقت إنّه على دراية بأنّ شخصيّة التّوحيديّ المطلوبة للتّواصل والحوار معه، على قدر من العلم والمعرفة، فيقول له " وكُنْ على بصيرة أنّي سأستدلّ ممّا أسمعه منك في جوابك عمّا أسألك عنه على صدقك وخلافه " [2]. لذا وضع شروطا تمكّنه من تحفيزه وحمله على الكلام والتّواصل معه وفقها. فلا يجب أن يَحيد عنها، وذلك من أجل نجاح واستمرار هذه المسامرات الّتي تتلاحم وتترابط في مضمونها المعرفي والتّواصلي، لتكّون بذلك خطابا سرديّا لا يخلو من شروط تداوليّة ترتبط بعناصر المقام والزّمان.

لذا يتميّز السّرد عند التّوحيديّ بالوظيفة التّداوليّة، لأنّه يوجّه كلامه إلى مخاطب محدّد بهدف توجيهه وترسيخ قيم أخلاقيّة معيّنة تجسّدت كلّها في خطاب سرديّ تواصليّ يتضمّن مجموع الأخبار والحكايات والأمثال والحكم، بواسطة المكوّنات السّرديّة والأنماط المختلفة الّتي يتضمّنها الخطاب مثل: الحوار والوصف والإخبار والحجاج، كلّ هذه الأنماط يُمارسها المتكلّم في خطابه السّرديّ بهدف تحقيق غرضه التّواصليّ، والتّبليغ المعرفيّ الّذي يُجسّد بدوره الوظيفة التّواصليّة التّداوليّة.

الإمتاع والمؤانسة خطاب تضمّن مجموعة من المجالس على مدار أربعين ليلة، وكلّ مجلس يضطلع فيه الوزير إلى ترقّب اللّحظة الحاسمة للقاء المفكّر والأديب التّوحيديّ في بيت الوزير من خلال زمان ليل السّمر، ويكون مطلع بداية كلّ ليلة بدءًا من سؤال يقترحه الوزير، ويوجّهه للمتلقّي للإجابة عنه، وتفصيل جوانبه وأصوله المعرفيّة حتى نهاية اللّيلة السّمريّة، "ففي اللّيلة الأولى، قال:أوّل ما أسألك عنه هو حديث "أبي سليمان"المنطقيّ كيف كان كلامه فينا...، وقال في ليلة أخرى: كيف رضاك عن أبي الوفاء؟ " [3].

---

[1] - المصدر السّابق، ص30.

[2] - نفسه، ص31.

[3] - نفسه، ص51.

وقال في ليلة أخرى:" ألا تتمّ ما كنّا قد بدأنا. قلت: بلى. " [1]

فبنية السّؤال تسكن قلب كلّ ليلة، وقد تتحقّق الإجابة عنه بصورة ضمنيّة أو صريحة، لأنّ المبدع يحاول بكلّ طاقته أن يُجيب، أو يقرّب الإجابة على اعتبار أنّ جلّ مضامين الاستفهام الواردة في اللّيالي، تندرج ضمن محاولة إثبات حقيقة معيّنة وتأكيدها، أو نفي أمر ما.

هذا التّواصل الحواري الّذي تَمثّل في ثنائيّة "السّؤال والجواب" يقوم على تقديم معرفة تحمل في طيّاتها نوعا من المصداقيّة في الطّرح الفكريّ، الهدف منه تزويد المتلقّي بمختلف معارف عصره، وتحقيق غاية معرفيّة عن طريق تنوّع تلك الخطابات، وما تحمله من قيم تُحقّق التأثير في السّامع في إطار سياق التّواصل التّداوليّ .

فالاستفهام في سرديّة التّوحيديّ يشكّل المعرفة، أنّه سؤال يُثير في المبدع الإحساس بالمسؤوليّة لأنّه في مقام يستدعي منه استحضار كلّ ما تكنّه ذاكرته من معارف لتزويد السّامع بالإجابة الشّافيّة. وسنحاول أن نتأمّل خصائص وطبيعة هذه الأسئلة، وما الغرض الّذي تهدف إليه؟، ومنها: "ثم حضرت ليلة أخرى: فأوّل ما فاتح به المجلس أن قال: أتفضّل العرب على العجم أم العجم على العرب؟ " [2]

"ما الفرق بين الحادث والمُحدَث والحديث؟ فكان من الجواب... " [3]

إنّها أسئلة تتضمّن مواضيع مثيرة للجدل، وتنطوي على مضامين معرفيّة، يكون الجواب في معظم المجالس حاسما كتفضيله العرب على العجم لمجموعة من المعطيات الوجيهة الّتي طرحاه المبدع وأقنع بها السّامع، فتلك المضامين تحتوي على جوانب نفعيّة ووظيفة إخباريّة غايتها الشّرح والتّحليل والإقناع الّذي يتّسم بتوفير كلّ وسائل الحجاج لبعث الاستجابة لدى المتلقّي والتّأثير فيه.

وقد يترك السّائل مجال الحريّة في الحديث للمبدع لكي يزوّده بالمعلومات والمعارف، فيستكنّ إلى السّماع والتّركيز، فيدفع ذلك بالمتكلّم إلى توظيف معارفه ومعلوماته، واستخدام

---

[1] - السّابق ذكره، ص61.

[2] - نفسه، ص64.

[3] - نفسه، ص34.

كلّ طاقته لإقناع السّائل وتزويده بما لا يعلم. " وعدت ليلة أخرى فقال: فاتحة الحديث معك، فهات ما عندك. " [1]

" فلمّا حضرت ليلة أخرى قال: هات". [2]

فيوحي هذا المجال من الحريّة في الطّرح والكلام، على الثّقة الّتي يُكنّها الوزير للمبدع على اعتبار أنّه خبير وعارف بعلوم عصره فلا يصعب عليه عويص، ولا يوقفه أمر الخوض في مجالات المعرفة المتنوّعة التي استقاها من عصره، وعصور سبقته. وكذلك يظهر على هذا التّواصل تحقيق جانب التّعاون المتبادل بين الطّرفين، على افتراض أنّ المبدع لا يُخفي حقيقة أفكاره عن السّامع ، بل ينثرها جميعا لتأكيد صدقه ومصداقية قوله. وبالتّالي البوح بكلّ المعلومات والمعارف الملائمة للمقام،والّتي تيسّر استمرار تحقيق الفائدة للمتلقّي وإمتاعه.

هذا التّنوّع من الأسئلة يساهم في استمرار الحوار التّداوليّ، كما يؤكّد تنوّع الخطابات السّرديّة، وهذا ما برع فيه التّوحيديّ دون غيره، وذلك حين ربط الحوار بالبلاغة وأكّد بها مجموعة من الوظائف الحجاجيّة والإقناعيّة سعيا منه إلى التّغيير في المتلقّي، وكذلك ربط السّرد بالمعرفة الّتي جعلها تستحضر جوانب ومواضيع الفلسفة والمنطق والشعر والنّثر والتّخييل، كلّها صبّت في سرديّة الكاتب الّتي اتّسمت بالإبداع والإمتاع في آنٍ واحد. وبذلك فقد صنع بالتّواصل الحواريّ صرحا معرفيّا بحجم معارف العصر، ورُؤاه الّتي حملت مجموعة من القيم والمعاني الّتي سعى من خلالها المبدع إلى تحقيق غرض تعليميّ و توجيهيّ من خلال الخطاب السّرديّ.

الخطاب السّرديّ أساسه الحوار، على افتراض أنّه بُني على ثنائيّة "السّؤال فالجواب"، هذا الجواب نشأ وترعرع في المجلس بين السّائل " الوزير" والمُجيب" التّوحيديّ"، وعلى هذا الأساس "فالإمتاع والمؤانسة" هو جواب لمجموعة من الأسئلة، نتج عن إثرها تحقيق الغاية الّتي يصبو إليها كلّ من المتكلّم والسّامع. فمهما كانت طبيعة الأسئلة فإنّها استطاعت

---

[1] - السّابق، ص113.

[2] - نفسه، ص150.

أن تصنع خطابات متنوّعة علميّة وثقافيّة وفلسفيّة، تنطوي على الحدث ومواقف وأخبار، عن طريق ذلك التّواصل الحواريّ المنظّم وفق وحدة زمنيّة تكررّت على امتداد أربعين ليلة، والّتي ساهمت في استمرار صيرورة السّرد، وتتابع وترتيب مواضيعه الّتي كشفت عن خطّة سرديّة متّبعة، بواسطة تلك البلاغة أضفت جانبا جماليّا على الخطاب، وزادت من مقاصده التّواصليّة نواحٍ جماليّة أكّدت أنّ للبيان سحرا، ولقوّة فعل الكلام تأثيرا.

فخطاب التّوحيديّ هو إبداع سرديّ معرفيّ يتضمّن ربوع الثّقافة العربيّة والأجنبيّة بكلّ تفاصيلها وتجلّياتها الفكريّة، فما من موضوع فكريّ أو فلسفيّ أو لغويّ أو بلاغيّ...، إلاّ وطرحه الوزير في المقام التّواصليّ رغبة منه في التّزوّد بالمعرفة، وحبّ الاستطلاع على الفِكر البشريّ حديثه وقديمه، فأدّى ذلك إلى تنوّع مضامين الخطابات الّتي فعّلها وبثّها للوجود هو ذلك التّواصل المُسطّر مسبقا، والّذي يدلّ على إصرار المبدع لأجل تحقيق وظيفة معرفيّة غرضها تعليم وإفادة السّامع. ويظهر ذلك في بداية كلّ ليلة، كما في اللّيلة السّابعة عشر: "فلمّا عُدت إلى المجلس. قال: ما تحفظُ من تِفْعال وتَفْعال. فقد اشتبها؟ وفزعت إلى ابن العميد، فلم يكن عنده مُقنع، وألقيت على " مَسْكويه" فلم يكن فيها مطلع، وهذا دليل على دُثُور الأدب...، فقلت: قال " شيخنا أبو سعيد السّيرافيّ الإمام- نضّر الله وجهه- : المصادرُ كلّها على تَفعالٍ بفتح التّاء، وإنّما تجيء تِفعالٌ في الأسماء، وليس بالكثير. قال: وذكر بعض أهل اللّغة منها ستّة عشر اسما لا يوجد غيرها. قال: هاتها "[1]، يبدو أنّ السّامع شغوف بالمثاقفة، ومتطلّع إلى التّزوّد بالمعرفة والإحاطة بكلّ دروبها ومحتوياتها، وهذا الجانب في الحوار التّداوليّ يُحفّز المتكلّم على فعل الكلام، ويعمل جاهدا لاستمراره وإنجاحه ضمن سياق التّواصل. وبذلك فهو يفعّل مبدأ التّعاون الّذي ينجم عنه التّوافق وقوّة فعل الإنجاز، هذا في حدّ ذاته يحدث التّأثير في نفسيّة السّامع ويحقق الاستجابة فيه، وذلك بإبداء انطباعاته حول ما ذُكِر وما طُرح من معارف من طرف المتكلّم.

فالسّرد في " الإمتاع والمؤانسة" يعني تداول معرفة، وسرد تجارب حياة، فهي لا تقتصر على تجارب شخصيّة للرّاوي فقط، بل تتعدّاه لذكر معارف عصره الزّاهر، وواقعه

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّاني، ص178.

الاجتماعيّ بكلّ تناقضاته وصراعاته السّياسيّة والاجتماعيّة، ناهيك عن معارف عصور غابرة سبقته كالعصر اليونانيّ الّذي راجت فيه مختلف العلوم وخاصّة الفلسفيّة منها بشكل غير مسبوق. كلّ هذا الخضمّ المعرفي لدى الرّاوي، يعكسه ذلك السؤال الصّادر من الوزير، وما يشعر به وما ينتابُه من هواجس، وخاصّة بعض الجوانب الّتي تخصّ العامّة وأحاديثهم، وكيف كانت آراؤهم اتّجاهه. فما كان على الرّاوي إلاّ أن يقوم بسرد كلّ ذلك، ليُبيّن أوضاع العصر وما تعتريه من محن وظروف الحياة. فقال: "غلا السّعر، وأخيفت السّبل، وكثر الإرجاف، وساءت الظّنون، وضجّت العّامة، والتمس الرّأي، وانقطع الأمل، ونبح كلبٌ كلِب من كلّ زاوية، وزأر كلّ أسد من كلّ أجمة، وضجّ كلّ ثعلبٍ من كلّ تلعة "[1]. فهو بذلك يصوّر الحياة الاجتماعيّة الصّعبة الّتي يعيشها المجتمع، وما آلت إليه العامّة، فتغيّرت أخلاقهم، ويبدو ذلك من خلال ذكره لتلك التّمثيلات والتّشبيهات المجازيّة الدّالة على تغيير أخلاق المجتمع بسبب صعوبة وضعهم الاجتماعيّ وعيشهم المرير.

واستمرّ التّوحيديّ يخُوض في هذا المعنى ويفصّل في ذكر الأمثلة والشّواهد بإسهاب وإطناب، وغزارة علمٍ بسرد آراء العلماء في هذا الباب، جعل من المتلقّي يشعر بالرّضا والاقتناع، بقوله: " فقد بلغتُ في المؤانسة غاية الإمتاع "[2]، بإبداء شعور الاستحسان ومُتعة الحديث.

ومثلما تنوّعت الخطابات، كانت النّهايات ممتعة ومتنوّعة، وأحدثت فارقا زمنيّا بين ليلة وأخرى، صنع من خلالها المبدع بنية سرديّة محكمة المعالم، بعناصر مقام المجلس من مكان وزمان وشخصيات، كما استطاع من خلالها نقل الأخبار والمعارف، وتصوير الحياة العباسيّة في أزهى عصورها. هذه النّهاية أطلق عليها اسم" المُلحة"، وكانت بمثابة توقّف للحكي للرّجوع من جديد، فشكّلت بدورها تباعدا بين المواضيع السّرديّة، ومنحت عناصر الحوار فرصة الرّاحة لاستعادة النّشاط من جديد، والخوض فيما هو أمتع وأفيد للمتلقّي.

تنتهي معظم اللّيالي بمحلة الوداع، وهي صيغة أفرزتها بلاغة وبيان القول ومتعة الحديث، إذ تنوّعت مواضيعها، وخصّت جوانب متعدّد كالأدب والمعرفة والشّعر و حتّى

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص385.

[2] - نفسه، الجزء الثّانيّ، ص193.

التّرفيه، وذلك لغرض التأثير فيه، وهذا كلّه عن طريق أحالته لسياقات خارجيّة سواء كانت مواعظ أو قصص أو نوادر...، فكان السّامع ضمن هذا التّواصل يُبدي رضاه وسعادته بسماعها، لأنّها أحدثت وقعا على نفسه، ومكّنته من التّزوّد بما لا يعلم. بدليل أنّه متعاون مع المتكلّم، وله نفس درجة الوعي الفكريّ والثّقافيّ في عصره، لكنّه ليس بدرجة المبدع.
لذا يظهر أنّ الوزير مُطّلعا وقارئا للأدب وفصول علم اللّغة، لكن تتملّكه مَلكة التّزوّد بمختلف العلوم، وشغُوف بمعرفة أسرارها وميزاتها ومختلف تفاصيلها، حتّى إذا قاربت اللّيلة على الانتهاء، باشر إلى طلب الاستئذان بعبارة تُكرّر في خواتم مُعظم وجلّ اللّياليّ ، وهي: "هات"مُلحةَ الوداعِ"حتّى نفترق عنها، ثمّ نأخذ ليلةً أخرى في شجون الحديث " [1].
فيقوم الرّاوي بسرد خاتمة المجلس من لدن إبداعه، فتتنوّع بحسب محتوى مقام وسياق المحادثة في تلك اللّيلة، فتكون على شكل أبيات شعريّة موحية، أو خطابات إبداعيّة تنمّ عن براعة الرّاوي، فتلقى صدًى وقبولا من طرف المتلقيّ فيُعجب بها. "قال: هذا في الحُسنِ نهاية، وقد اكتهل اللّيلُ، وهذا يحتاج إلى بدْء زمان، وتفريغ قلبٍ، وإصغاءٍ جديدٍ. هاتِ خاتمة المجلس. قلت له: قرأنا يوم الجمعة على "أبي عبيد الله المرزباني" " لعبد الله بن مصعب[من الوافر]:

إذا استمتعتُ منك بلحظ طرفي		حَيِي نصفي ومات عليك نصفي
تلذَّذُ مقلتـــي ويذوب جسمـــي		وعيشـــي منك مقرون بحتفـــي
فلـــو أبصرتنـــي واللّيلُ داجٍ		وخدّي قد توسَّـطَ بطن كفّـــي
ودمعـــي يستهلّ من المآقـــي		إذًا لـــرأيتَ ما بِي فوق وَصفـي
وانصرفتُ." [2]

وهكذا يتمّ الانصراف في انتظار ليلة أخرى قادمة لتحقيق ما يجول من هواجس وخواطر بذهن الوزير، واستمتاع هذا الأخير بما يصدر من المتكلّم من خطابات تُنبئ بحُسن خاتمة المجلس، وفي نفس الوقت فهي تُحدث نوعا من التّرقّب والوَلَه الشّديد لتجديد عهد الوصال

[1] - المؤانسة والإبداع، الجزء الأوّل، ص36.
[2] - المصدر نفسه،ص43-44.

بينهما في وقت قادم، بسبب ما تبعثه من فرح في نفسيّة المتلقي، وتنتهي على غرارها كلام السّارد ، في ليلة السّمر عبر مقام مجلس الوزير.

وبهذا كلّه تكمن متعة "ملحة الوداع" في أنّها متنوّعة، وكذلك تحدث فعل التّأثّر لدى السّامع، بدليل أنّه متمسّك بها، ويطلبها في نهاية كلّ ليلة ليستمتع بمضامينها، لأنّها تشكلّ فارقا زمنيّا وجماليّا، أضفى على البنية السّرديّة وظيفة جماليّة تبعث التّشويق والمتعة. لأنّه كلّما كان الكلام ملائما للمقام بعث في النّفس التّأثير والقبول.

خطاب التّوحيديّ يتمتّع ببنيه سرديّة محكمة من خلال بداية السّرد عبر التّواصل الحواريّ ونهايته عبر ملحة الوداع الّتي تشكل عنده مكوّنا أساسيّا في السّرد، لكونها تحقّق عدّة وظائف، معرفيّة، وبلاغيّة، وظيفة جماليّة إمتاعيّة. ترفّه عن المتلقّي وتزيح الرّتابة والملل منه. كتلك المقالات المُضحكة في شكل نُكت يستلذّ سماعها، فتُحدث تفاعلا بين طرفي الحوار، هذا التّوافق والتّعاون والانسجام بينهما يبعث بدوره على البهجة والسّعادة كتلك الّتي يعكسها الضّحك الصّادر من الوزير حين يتكلم الرّاوي، " قلت: حدّثنا ابن يوسف الكاتب الرّاويّة. قال: رأيت جحظة قد دعا بنّاءً ليبني له حائطا فحضر، فلمّا أمسى اقتضى البنّاء الأجرة، فتماكسا وذلك أنّ الرّجل طلب عشرين درهمًا، فقال جحظة: إنّما عملت يا هذا نصف يوم وتطلب عشرين درهمًا؟ قال: أنت لا تدري، أنّي قد بنيت لك حائطًا يبقى مائة سنة، فبينما هما كذلك وجب الحائط وسقط. فقال جحظة: هذا عملك الحَسَن؟ قال: فأردتَ أن يبقى ألف سنة؟ قال: لا، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك. فضحك- أضحك الله سنّه "[1]. هذه " المُلحة" تشكّل جانبا مهمّا في السّرد من جانب أنّها تختم نهاية سرد اللّيلة الواحدة، كنهاية للقصّة أو للمحادثة. فتُحدث هذه الخاتمة في نفس المخاطَب رد فعل إنجازي يتمثّل في حدوث الطّمأنينة والرّضا، والتّأثير لِيضطلع بوظيفة الحكي، ويتسنّى له التّفكير في موضوع جديد في المجلس القادم.

لقد تمكّن السّرد في أخذ مساحة واسعة في خطاب التّوحيديّ، وذلك لإحاطته بكلّ المعارف وعلوم عصره بواسطة انتهاج آلية تداول الكلام بين طرفي الحوار، وإنْ غلبت

---

[1] - المصدر السّابق، ص36.

صفة الكلام أكثر للرّاوي "التّوحيدي". فإنّ ذلك كونه عالِم بكلّ ضروب المعرفة والقول، ناهيك عن مدى اهتمام المتلقيّ في حواره مع المبدع بالجانب المعرفي، وبهذا فهو يؤسّس تفاعلا تواصليّا بينهما، رغبة منه في تحقيق المُتعة الأدبيّة والبلاغيّة، وهو المتطلّع إلى المعرفة المطلقة، والمشارك بصفته ساردا وعنصرا فعّالا في سيرورة الخطاب. فهو بذلك لا يخلو من المعرفة والحكمة، كما في قوله: " ثمّ ناولني رقعة بخطِّهِ فيها مطالب نفيسةٌ تأتي على علمٍ عظيم. وقال: باحث عنها أبا سليمان، وأبا الخير، ومن تعلم أنّ مجاراته فائدة من عالم كبير، ومُتعلّم صغير. فقد يوجد عند الفقير بعض ما لا يوجد عند الغنيّ، ولا تحقر أحدا فاه بكلمة من العلم، أو أطاف بجانبٍ من الحكمة، أو حكم بحال من الفضل، فالنّفوس معادن، وحصّل ذلك كلّه وحرّره في شيء وجئني به "[1]. نلتمس في قول الوزير سعة فكره ومداركه العقليّة، ودرايته بأخلاق النّفس وتهذيبها. ومساهمته في الكلام جعل منه طرفا فعّالا في إثراء السّرد، وإعطائه أبعادًا معرفيّة، شكّلت مضامينه السّرديّة، والّتي تبعث على شغف طلب المعرفة وحبّ الاطّلاع والتّعلّم. هذا التّعاون الحواري بين الطّرفين كوّن لنا بنية سرديّة مكتملة المعالم، ببداية تمثّلت في سؤال امتحاني للمبدع، يعقبها حديث مطول تجسّد في الجواب المقنع والوافي، ونهاية محفّزة للّقاء القادم. فهذا الكلام في إطار التّواصل التّداوليّ يمرّ على ثلاثة أفعال: فعل الكلام المتلفّظ به من طرف السّائل، والفعل المتضمّن في القول، ويتمثّل في سرد المبدع والّذي بدوره يصبوا إلى التّأثير في السّامع، وبالتّالي تحقيق فعل الإنجاز لديه.

فخطاب التّوحيديّ خطاب يتمتّع ببنية سرديّة تلتحم فيها الوظيفة الجماليّة بالوظيفة التّبليغيّة التداوليّة، ولا يبدو أنّ الرّاوي يجهل فنّ القصّ، ولا يظهر كلامه على أنّه مجرّد إخبار، بل هو راوٍ يسرد أحيانا، وأحيانا أخرى تصدر منه خطابات متنوّعة مُحاولا من خلالها التّأثير في المتلقي ومحاولة إقناعه، وذلك عن طريق تزويده بالشّعر والحكم والأمثال والنّوادر وغيرها، والعمل على طرحها وتوضيحها ضمن الحوار التّداوليّ بواسطة مجموع

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص395.

الأنماط والآليات النصيّة كالوصف، والتّحليل، والشّرح، والتّفسير، و الحجاج، كلّها معالم ومفاتيح وطرق تُساعد على استيعاب المتلقّي وتحقيق عنصري الاستجابة والتّأثير فيه. لأنّ لتصحيح بعض القيم في ذهنه وتزويده بأخرى، بواسطة سرد المواقف والأخبار...، والسّرد عند التّوحيديّ " تداول وتوجيه ومعرفه"، يتواصل فيها الحوار على مدار ليالي السّمر والأنس، ومُتعة القول الّتي تُستجدُّ بكلّ جديد، و "لكلّ جديد لذّةٌ " [1]. ولكلّ مُميّز من القول صدًى وبقاء.

فالسّارد يُؤسّس نهجا تداوليّا يبعث على مدّ جُسور التّواصل والمتعة والفائدة بين طرفي الحوار. لتحقيق فعل الكلام والتّأثير في المخاطب، ليكشف بذلك عن حقائق معرفيّة إنسانيّة، من الضّرورة الحتميّة أن تتحلّى بها النّفس البشريّة لتصل إلى الكمال المعرفيّ بواسطة القيم الأخلاقيّة الّتي بدورها تلامس التّعاملات الحياتيّة في جميع مجالاتها، مكوّنا بذلك خطابا سرديّا تظهر ملامح بنيته من خلال عناصره السّرديّة المُشكّلة له بدءًا من الشّخصيات، وهما المتكلّم الرّاوي : أبو حيّان التّوحيديّ، والمخاطب الّذي هو يمثّل دور المتلقّي: أبو عبد الله العارض.

[1] - السّابق، الجزء الثّانيّ ، ص194.

السّارد، الكاتب: أبو حيّان التّوحيديّ:

أبو حيّان التّوحيديّ([1]) أحد مفكريّ وأعلام القرن الرّابع الهجريّ، وشخصيّة بارزه تميّزت باستيعاب معارف عصره وعصور سبقته. فكان " مُتفنّنا في جميع العلوم من النّحو واللّغة والشّعر والأدب والفقه، والكلام على رأي المعتزلة...، فهو شيخ في الصوّفيّة، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقّق الكلام، ومُتكلّم المُحقّقين، إمام البُلغاء...، لا نظير له في الذّكاء والفطنة واسع الدّراية والرّواية " [2]. يكشف ذلك عن اطّلاعه بأوضاع الحياة الفكريّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة في عصره. بالإضافة إلى شدّة نبوغه العقليّ والفكريّ جعل منه شخصيّة استثنائيّة في مجال الأدب والبلاغة. إنّك أمام موسوعة معرفيّة تتجسّد في شخص التّوحيديّ والّذي صبّ مُحتواها في خطابه السّرديّ " الإمتاع والمؤانسة". وطرحها بآليّة بلاغيّة يسّرت البوح والانطلاق في عالم المعرفة المُستوحى من قديم الزّمان وواقعه، ومُختلف العصور وحاضرها.

يظهر أنّ أبا حيّان سارد يعرف كلّ شيء، وراوٍ مُطلق المعرفة والعلم، كونه مُستعدّ لأنْ يُجيب على كلّ الأسئلة الّتي تصدر من الوزير، أو بالأحرى على كلّ قضيّة يطرحها مهما كان نوع محتواها وبأيّ مجال كان. أو أيّ مسألة تُثار في النّقاش، وما من قضيّة إلاّ وأجاب عنها، إمّا بنفسه أو بالاعتماد على رواةٍ عصره وغيرهم ممّن يحفظ عنهم أقوالهم وعلمهم بذلك. كما يبدو أنّه يترك حرّية اختيار الأسئلة للوزير الّذي يُحاول أن يُعبّر عن مكنوناته، وذلك بفتح مجال النّقاش في موضوع ما رغبة منه في حبّه الشّديد للمعرفة، وشغفه بمختلف علوم عصره. فأثرى بذلك التّواصل التّداوليّ وتنامي السّرد واتّساع مضامينه الّتي شملت بدورها مختلف جوانب الحياة الطّبيعيّة.

---

[1] - هو علي بن محمّد بن العبّاس التّوحيديّ البغداديّ، وُلد ببغداد سنة 310ه ، وتوفي في شيراز سنة 414ه . (أُنظر الإمتاع والمؤانسة، ص09.)

[2] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل ، ص10

لقد حاول من خلال سرده أن يُعطي ويُوجّه رسالة أدبيّة فنيّة تنمّ على قدراته المعرفيّة المُسبقة، وعلى أنّه شخصيّة مُطّلعة على قضايا الدّين وأخبار المجتمع، وقضايا الفكر والفلسفة. فهو بهذا يُمارس السّرد بوعي شديد وثقة زائدة تظهر لديه وهو يجول في غياهب المعرفة بجميع دروبها، تاركا الحريّة للشّخصيات الأخرى في قول ما تريد.

من خلال ليالي السّمر الأربعين، يظهر التّوحيديّ بأنّه عالم بكلّ شيء، مُلمّ بأمور الحياة، والثّقافة والعلم، مُبديا قدرته الفائقة في استحضار النّصوص الشّرعيّة، من آيات قرآنيّة وأحاديث نبويّة شريفة، وأقوال وأشعار وحِكم، كلّها مُستوحاة من ذاكرة قويّة زاخرة بالكمّ الهائل من العلوم والمعارف الّتي اخترقت أزمنة غابرة، عَبَرت وولّت، فسعت إلى إحداث تأثير تواصليّ في نفس المتلقّي، واستعبدت مضجعه بتواصل حضوره المُستمرّ في ليالي السّمر.

إنّها شخصيّة تسعى إلى الاستحواذ على إعجاب المتلقّي عن طريق استحضار قصص لها علاقة بالجانب الأخلاقيّ أو السّياسيّ أو جانب الدّين، لغرض التّأثير فيه، وامتلاك إعجابه بدءًا من اللّيلة الأولى، بقوله: "أيّها الوزير، قد خالطت العلماء، وخدمت الكُبراء، وتصفّحت أحوال النّاس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم" [1]. ومن هنا يُعلن التّوحيديّ بنفسه عن قدرته ومعارفه من خلال مجالسته للكبراء، وعيشه مع مختلف طبقات مجتمعه، وله اطّلاع بأحوالهم ومعيشتهم وأخلاقهم. فيسرد له في اللّيلة الثّانيّة صفات ومميّزات علماء عصره، وعن مذاهبهم وما مدى اتّساع علمهم في البلاغة وفنون القول، بدءًا من شخصيّة أبي سليمان، " وعرّفني محلّه من محلّ أصحابنا " ابن زرعة" و" ابن الخمّار" و" ابن السّمح" و" القومسي" و" مسكويه" و" نظيف" و" يحي بن عدي" و "عيسى بن علي". فقلت: أمّا شيخنا " أبو سليمان" فإنّه أدقّهم نظرًا، وأصفاهم فكرا، وأظفرهم بالدّرر" [2]. واسترسل في ذكر هؤلاء، وكلّ شخصيّة يذكر جانب الأخلاق فيها وخصالها ومميزاتها، ومجال تخصصها العلميّ بإطناب مُحكم البناء ، دالٍ على مدى علمهم ودرايتهم بشؤون

---

[1] - السّابق ذكره ، ص32

[2] - نفسه، ص38.

الحياة الإنسانيّة، مركّزا بشكل كبير على شخصيّة " أبي سليمان المنطقي "[1]؛ لأنّه يظهر في مُعظم اللّيالي بالاعتماد على آرائه، وسرد أقواله، والاستدلال بها عند الحاجة إليها سواء عند توظيفه جانب الإقناع أو التّفسير، لتكون حجّة عند ذكر تفاصيل المعارف المختلفة في طيّات خطابه وفي سرد قصصه، بقوله: "... وهذه قصّة من القصص"[2]. هذا السّرد المتواصل عبر رحلة حياة وأخلاق هؤلاء العلماء، أظهر جانب الاستحسان والرّضا من طرف الوزير، فيُعجب بذلك، ويبدي شعوره حيال ذلك بقوله: " ما قصّرت في وصف هذه الطّائفة، وتقريب البغية الّتي كانت داخلة في نفسي منهم "[3]. والعجيب في الأمر أنّ ذْكر هذه الشّخصيات، وسرد حقيقة معارفهم، ومجال براعتهم ، يُنبئ بامتلاكه لذاكرة قويّة تكاد تَسَعُ كلّ قول، وكل فكر بطريقة إبداعيّة تسبق الحدود الزّمنيّة عبر العصور، وذلك بذكره لمجموع الفلاسفة وأدباء ورجال الدّين، واستحضار أقوالهم وخطاباتهم في مجال المعرفة المختلفة. كلّ ذلك نُسج بآليّة لغويّة بلاغيّة، وقدرة فائقة على التّفنّن اللّغويّ التّصويريّ، وبراعة في توصيل تلك المعارف والّتي لا تصدر إلاّ من التّوحيديّ. فأمتع بأسلوبه وأعطى جانبا جماليّا طغى على السّرد، وسيطر على جلّ مواضيعه، كما فرض نفسه على المتلقيّ، فكوّن لديه شعور الإحساس بالجمال البلاغيّ وروعة وتنوّع المَنحى المعرفيّ، هذا الّذي نستتشفّه من خلال الجانب التّواصليّ التّداوليّ والّذي بثّ بدوره في نفسيّة المُخاطَب الإمتاع والشّعور بالأنس، والتّأثّر بإبداء الاستحسان والرّضا.

تلك هي استراتيجيّة التّأثير الّتي تبّناها التّوحيديّ، وصبّ مُحتواها في خطابه السّرديّ، بطريقة لغويّة بلاغيّة، ألا وهي لغة الفكر والمعرفة، فجعل من تقنيّة السّرد وسيلة للتّأثير وتغيير إيديولوجيّة المخاطَب وبعض مقاصد التّفكير لديه، والعمل بالجانب الأخلاقيّ فيها.

---

[1] - أبو سليمان المنطقي: هو محمّد بن طاهر بن بهرام السجستانيّ، أكبر علماء بغداد في المنطق والحكمة والفلسفة. توفي في أواخر القرن الرّابع الهجريّ.(عن الإمتاع والمؤانسة- اعتنى به وعلّق عليه: محمّد الفاضلي، دار الجيل ، بيروت، ط01، 2009م، ص27).

[2] - الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد جاد، ص38.

[3] - المصدر نفسه، ص41.

يبدو الرّاوي بمظهر المُثقّف والحكيم، والّذي اتّخذ صفة العارف المتمكّن من ربوع علوم عصره، وصاحب ثقافة لا متناهيّة بإجماع كلّ من "الوزير"و"أبي الوفاء المهندس"، هذا الأخير توسّط وسطّر له اللّقاء مع الوزير، بشرط أن يصل إليه كلّ ما جرى، أو قِيل في المجلس حين يكون معه، وأثناء التّواصل بينهما. "أنّك تخلو بالوزير- أدام الله أيّامه- ليالي متتابعة ومختلفة، فتحدّثه بما تحبّ وتريد، وتُلقي إليه بما تشاء وتختار، وتكتب إليه الرّقعة بعد الرّقعة" [1]. وحصول هذا الاتّفاق بعد التّفاوض على شروط التّواصل بين الرّاوي والمُرْوى له، يُتيح بذلك ويمنح حريّة ومساحة أكبر للتّوحيديّ للتّطرّق إلى جميع ما يُلامس العقل البشري من مجالات معرفيّة متنوّعة لامست الجوانب الاجتماعيّة والأخلاقيّة على الخصوص، وصبّها كلّها في مسامراته اللّيليّة؛ إذْ يَعكِف على ذكر وقول ما يريده، وما بدا له صائبا وملائما للمقام التّواصليّ، مُعبّرا بذلك عن خلجات النّفس وهواجسها، وكلّ ما كان أقرب له من إرادته، فيبسُط رغبته واستحسانه للأمر المطلوب منه، فيُؤلّف كتابه بناءً على رغبة صديقه " أبي الوفاء المهندس"، فيرد عليه ويقول له: " هذا وأنا أفعل ما طلبتني به من سرد جميع ذلك، إلاّ أنّ الخوض فيه على البديهة في هذه السّاعة يشقّ ويصعب بعقب ما جرى من التّفاوض، فإن أذنت جمعتُه في رسالة تشتمل على الدّقيق والجليل، والحلو والمرّ، والمحبوب والمكروه، فكان من جوابك لي: اِفعلْ. ونِعم ما قلت، وهو أحبُّ إليَّ وأقربُ إلى إرادتي " [2]. بهذا التّفاوض تمّ الوصل إلى اتّفاق بينهما، وانبرى التّوحيديّ يسعى إلى بذل كلّ الجهد للوفاء بوعده لأبي الوفاء. وخاصّة عند شعوره بمدى المسؤوليّة المُلقاة على عاتقه، مع أنّه أهلا لذاك. ويظهر ذلك في قدرته على الوصول إلى ذروة سَرد المعرفة وعلوم العصر في ليالي السّمر في قصر الوزير، والإحساس بمشاعر الرّهبة الّتي تكتنف وتعمّ المقام التّواصليّ، بوجود شخصيّة بارزة في مجلس تتجاوز فيه كلّ عناصر الحضور وهي السّلطة المتمثّلة في شخصيّة: "أبي عبد الله العارض".

---

[1] - المصدر السّابق ، ص20.

[2] - نفسه، ص22.

المُروى له، الوزير: أبو عبد الله العارض([1]):

شخصيّة قويّة مسيطرة على المقام التّواصلي بينه وبين أبي حيّان التّوحيديّ، لها سلطة القرار بحكم أنّه استحوذ على جُلّ مواضيع اللّيالي باقتراحه للمواضيع المُراد مناقشتها وطرحها على طاولة الحوار التّداوليّ بينهما.وهو بهذا كّله يحاول الهيمنة على مجريات السّرد لإخضاع شخصيّة الرّاوي للشّروط المُتّفق عليها آنفا، وذلك باقتراح عناوين ومواضيع الحوار في ليالي السّمر بسؤالٍ، ويختم نهاية السّرد بـ: " مُلحة الوداع"، أو بفعل الإعجاب وتحقيق مُتعة الأنس والمعرفة لديه. " ثمّ حضرت ليلة أخرى: فأوّل ما فاتح به المجلس أن قال: أتفضّل العرب على العجم، أم العجم على العرب؟ " [2]. لكنّه بادر في الإجابة بالاستناد إلى رأي " ابن المقفّع"، واستدلّ بذكر كلامه، وهو تفضيل العرب عن العجم، مع انّه فارسيّ الأصل. فيذكر على إثر ذلك صفات كلّ الأجناس والشّعوب المُحيطة بالعرب بجميع تفاصيل مميّزاتها وأخلاقها، وما تجود به قريحتها من فنون الكلام و القيم النّبيلة الّتي يتحلّى بها العرب عن غيرهم من الأجناس الأخرى، وأسهب بذكر ذلك، فكان لِسردُ تفاصيل وتاريخ هذه الشّعوب والأمم من الرّوم والعرب وفارس والهند...، وقعًا على نفسيّة السّائل، حيثُ أبدى إعجابه به واستحسانه له، فقال: "ما أحسن ما قال " ابن المقفّع" ! وما أحسن ما قصصته، وما أتيت به " [3]. هذا الإعجاب الشّديد بسرد الرّاوي ترك في نفسيّة الوزير انطباعا جميلا يخلو من الرّيبة والشكّ، يمكّنه ذلك الشّعور من الاستسلام لكلام المتكلّم بأن يقول ما يشاء؛ أيْ منحه حريّة التّصرّف في القول. ويظهر ذلك في اللّيلة التّاسعة، يقول الرّاوي: "وعُدت في ليلة أخرى، فقال: فاتحة الحديث معك. فهاتِ ما عندك "[4] . وبهذا تظهر رغبة الوزير من خلال هذا التّواصل هي تحقيق الإفادة من المبدع ،

---

[1] - رجّح محقّقا النّشرة الأولى من الكتاب الأستاذان: أحمد أمين وأحمد الزين أن يكون " أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان"، وكان وزيرا لصمصام الدولة بن عضد الدولة من372ه إلى 375ه ، والعارض لقب له.(عن الإمتاع والمؤانسة- اعتنى به وعلّق عليه: محمّد الفاضلي، ص11).

[2] - الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد جاد، الجزء الأوّل، ص64.

[3] - المصدر نفسه- ص65.

[4] - نفسه- ص113.

وهو بذلك يُساهم في تواصل السّرد، هذا التّواصل يخضع لخطّة مُحكمة تتمثّل في تحديده لموضوعات السّرد، وطرحها ومُحاولة بناء تنامي السّمر من خلالها، لإدراك مبتغاه. هذه المشاركة جعلت من الوزير يحذُو حَذْوَ المتلقيّ الاستثنائيّ، لأنّه لا يُعتبر متلقٍ ومستمع عاديّ، بل موجّه لمسار المحادثة، وله القدرة على تنويع المواضيع وإثرائها. بالإضافة إلى أنّه متلقٍ مباشر في مقام التّواصل في ليل السّمر الّذي ينبعث من خلاله عبق شَذَرات وحصيلة الفكر الإنسانيّ والبلاغة العربيّة. كما أنّ له قدرة معرفيّة تتجاوز كلّ الاستيعاب، فتمكّنه من فهم وإدراك الحديث والكلام عن البلاغة والفكر، ناهيك عن إعجابه وشغفه بما تجود به قريحة التّوحيديّ.

في حين أنّ أبا حيّان يعلم بمقام ومنزلة وسلطة الوزير، والتمس فيه روح المعرفة، وحبّ الاستطلاع، ورغبته في التّزوّد بمعارف وعلوم عصره، فهو أمام شخصيّة مميّزة، بل يكفي أنّه طالب معرفة وعلم. إذ يطلب منه الرّخصة للسّماح له بالكلام دون تكلّف في بداية مقام المجلس، "قلت: يُؤذنُ لي في كاف المُخاطبة ، وتاء المواجهة، حتّى أتخلّص من مواجهة الكناية، ومُضايقة التّقريض، وأركب جَدَدَ القول من غير تقيّة، ولا تحاشٍ ولا محاباة ولا انحياش. قال: لك ذلك فأنت المأذون فيه، وكذلك غيرك، وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة؟ إنّ الله تعالى- على علوّ شأنه، وبسطه ملكه، وقدرته على جميع خلقه- يواجه بالتّاء والكاف، ولو كان في الكناية بالهاء رفعةً وجلالةً وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحقّ بذلك ومقدّما فيه " [1]. وبالرّغم من المكانة الّتي تتمتّع بها السّلطة، إلاّ أنّ المتكلّم يطلب الاستئذان لكي يُخاطب الوزير بالضّمير. فكان له ما طلب، ومردّ ذلك هو غزالة الحواجز والفواصل بين طرفي الحوار، والكلام بحريّة وانطلاق كشرط وضعه التّوحيديّ، رغبةً منه في تفعيل المحادثة، ومثلُ هذا الاتّفاق في المقام التّواصليّ والتّداولي سوف يحقّق مساحة وحريّة أكبر لتسهيل عمليّة الحوار بينهما.

وما يسترعي الانتباه هو ذلك الجانب الثّقافيّ الّذي تتميّز به شخصيّة التّوحيديّ الباعث على استمرار وتنامي السّرد، والحديث من منطلق الخبرة والمعرفة حتّى يتراءى للقارئ أنّه

---

[1] - المصدر السّابق ، ص31.

شخصيّة متمكّنة، وتحرص على المسارعة في خلق الحكي وإثرائه بالجانب البلاغي والتّخييليّ، وفق تواصل وتحرّر لا مُتناهٍ وخالٍ من كلّ قيود التّكلّف والتّصنّع، فيُضفي ذلك جماليّة الحضور على كلّ المواضيع الّتي تحمل عُمق الفكر، وتقاطع الثّقافات المتعدّدة في ذهن المتكلّم، والّتي تتجسّد في عوالم السّرد المتضمّن للثقافة المتنوّعة الجوانب الفنيّة والإبداعيّة، وبلاغة التّأليف. فتبعث ي نفسيّة المُتلقّي حبّ المعرفة ووَلَهِ التّعلم، فما كان ردّ فعله إلاّ أن " قال: ما أحلى هذا الحديث! هاتِ ما بعده " [1]. هذا الإعجاب الشّديد ينمّ على مدى التّوافق بين الطّرفين لأنّهما توحّدهما المعرف بكلّ تفاصيلها وأنواعها. فكلا الطّرفين يتمتّعان بمعرفة وفكر يُمكّن من وجود تواصل متكافئ بينهما، يبعث على الانسجام والتّوافق الّذي كان أحد العناصر المهمّة في سيرورة المحادثة واستمرار الحوار التّواصليّ بذِكر خصال المُخاطَب، إذْ ينبري التّوحيديّ بوصف الوزير فقال عنه: " أحقُّ من دُعِيَ لَهُ، وأشْرَفُ منْ بُهيَ به، وأكملُ من شُوهدَ في عَصْرِهِ " [2]. هذا الانسجام والتّواصل الفريد من نوعه، كشف عن العلاقة الوطيدة الّتي تكون في مقام السّمر وِفق الحوار السّرديّ، وكذلك نَجَمَ عنه التّأثّر والتّأثير في المخاطب وهو الوزير الّذي ما لبث أن أصبح بدوره عنصرا فعّالا في الخطاب السّرديّ. وهو ذلك الطّالب المًستزيد والمُحبّ للمزيد من المعرفة، كما جاء على لسان المتكلّم، ف " قلت: إنْ كان هذا كافيا فإنّ ذلك أفضل. فقال: إنّ فيما مرّ لكفاية، وما يزيد على الكفاية. ولكنّ الزّيادة من العلم داعيةٌ إلى الزّيادة من العمل، والزّيادة من العمل جالبة الانتفاع بالعلم،والانتفاع بالعلم دليلٌ على سعادة الإنسان، وسعادة الإنسان مقسومة على اقتباس العلم والتماس العمل " [3]. فالعمل نِتاج العلم، وطلب العلم فضيلة.

ومع أنّ السّلطة تحتاج إلى المعرفة، لكن سُرعان ما يروم ويرغب الوزير أُنْسَ السّمر، ومُتعة الحديث، ويظهر في نهاية اللّيالي كما في اللّيلة " السّابعة والثّلاثين"، مُخوّلا لنفسه أن يكون السّارد بدل من أن يكون طرفا متلقّيا؛ فيتبادلان الأدوار ويصبح الرّاوي في مقام

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّاني، ص230.

[2] - السّابق،الجزء الثّالث ، ص424.

[3] - نفسه، ص384.

المُروَى له. ويبدأ في استعراض مقاله باتّخاذه زمام الكلام، باستعماله للإطناب وسيلة لعرض خطابه عن صفات الإنسان، وأخلاقه وأحاديث الشّجعان...، ساردا ذلك بكلّ دراية وحكمة ومعرفة بأصول البلاغة والبيان العربيّ، والاسترسال في ذْكر الصّفات والأضداد الّتي تتّضح بها المعاني، ومعالم الكلِم. " وقال الوزير ليلة: ما أحوج الجبان إلى أن يسمع حديث الشّجعان...، وقال: وكان "عيسى بن زرعة" سرد عليّ سنة سبعين، أشياء في الخلق وذلك أنّه ذكر العقل والحمق، والعلم والجهل، والقناعة والشّره، والرّحمة والقسوة...، وينبغي أن تزور " عيسى" وتذكر له هذه الجملة، وتبعثه على إعادة حدودها، وإشباع القول فيها " [1]. واستمرّ في الحديث عن مجموع الأخلاق الّتي يجب أن يتّصف بها كلّ عاقل، واخذ يخوض في إعطاء تعاريف لها، بالاستعانة بما يحفظه من أقوال غيره من علماء عصره ممّن سمع عنهم أو قرأ لهم.

لقد ساهم الوزير في عملية التّواصل الحواريّ التّداولي بكلّ ثقة، فأثرى السّرد بمعرفته، وهذا يدلّ على أنّه قارئ مطّلع على مختلف علوم عصره بوعي ودراية مُحكمة. ومن خلال هذا التّمكّن الّذي يستحوذ عليه ويمتلكه الوزير، نرى نتيجة حاصلة أنّ السّائل اقترب من منزلة المسؤول. وإلاّ من أين يأتي بذلك الطّرح والخطاب المتضمّن صيغة السؤال؟ ألا يعرف كُنهه؟ أو على الأقلّ اليَسير عنه؟ ومن أين له بتلك المواضيع المطروحة الّتي اتّخذتها ليالي السّمر وسيلة لاستمرار العقل الإنسانيّ في التّفكير والتّدبّر في شؤون حياة الخلق، وما أبدعه الخالق- سبحانه وتعالى- والولوج إلى سَبْر عمق الشّريعة وعلاقتها بالفلسفة، وعلاقة المنطق بالنّحو. وإرادة الإنسان بين الجبر والاختيار. ومراتب فنون النّثر وأنواعه، وصناعة النّظم وصنوفه. كلّها مواضيع حدّ هامّة طُرحت في المجلس الموقّر، واستوحى وُجودها من العصر العباسيّ، ومن أغوار عصور سبقته. وكلّها أسئلة لم تأت جزافا ولا من العدم ، بل تمثّلت في أقوال سماعيّة تعلّمها عن غيره. وكلّ هذا الخضمّ المعرفيّ أُستجمع في سرديّـة التّوحيديّ. بعد أنْ لامست الفيض البلاغي المتدفّق لديه، فأسهب في شرحها وتحليلها مُستدلاّ بأقاويل الرّواة وحِكم الفلاسفة.

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث ، ص410

وجملة القول، فالخطاب السّرديّ أنتجه راوٍ متفهّم، وعارف ومزوّد بإمكانيات معرفيّة أهّلته للتّأثير على المتلقّي، وحمله على الاستجابة لمضمون خطابه. فالخطاب المعرفيّ تمكّن منه طرفان، متلقٍّ يتمتّع بسلطة وثقافة أهّلته من أن تكون له قدرة على طرح السّؤال، وسرد بعض الأقوال، ومتحكّم بسياق الحوار بعنصريه المكانيّ والزّمانيّ. وبين مُرسل متكلّم مُنتج للخطاب، يتمتّع بثقافة موسوعيّة تجعله يُجيب على السّؤال مهما كانت طبيعته ونوعه ومجاله الفكريّ والفلسفيّ أو الأدبيّ البلاغيّ...، لِيُحقّق الخطاب السّرديّ المنشود في مقام تواصليّ تداوليّ تلتحم فيه عناصر المكان والزّمان للوصول إلى هدف أسمى ألا وهو المعرفة.

فضاء المكان " المجلس" :

يُمثّل المكان في " الإمتاع والمؤانسة" عنصرا هامّا في تشكيل السّرد، والإقرار بمحتواه المعرفي الّذي فعّل التّواصل بين طرفي الحوار. فكان هذا المكان منبعا للفكر التّوحيديّ، بدءًا من اللّيلة الأولى؛ إذْ جاء على لسان الرّاوي: "وصلتُ أيّها الشّيخ – أطال الله حياتك - أوّل ليلة إلى مجلس الوزير- أعزّ الله نصره، وشدّ بالعصمة والتّوفيق أزره- فأمرني بالجلوس "[1]. لقد حُدّد المكان ألا وهو دار الوزير، وعلى الرّغم من أنّه حيّز مكانيّ لا تظهر معالمه في السّرد القصصّي، وفي الحوار التّداولي عند التّوحيديّ، إلاّ أنّه تبدو له خصوصيّة ليس كباقي الأمكنة، فالمقام الحواريّ يحتضن جليسين مميّزين، إنّه المفكّر الفيلسوف "التّوحيديّ"، والحاكم " الوزير" في قصره. إنّه مقام يبعث في النّفس الرّغبة والرّهبة والإلهام، أمّا الرّغبة فتنحصر في كسب رضا الوزير، واستمالة شخصه واستعطافه لكي يرضى عليه فيجُود بما لديه. ورهبة المكان الّذي لا يمكن تصوّره إلاّ من جانب أنّه مميّز بالنّسبة لشخصيّة بارزة، بحكم أنّ له سلطة الحكم في عصر الازدهار والرّفاهيّة المطلقة على الأقلّ بالنسبة لمستوى الحكام فيه دون باقي الرّعيّة. ناهيك عن جانب الإلهام الّذي يُساور الرّاوي ويجبره على أن يكون محلّ اعتراف وثقة، وعاملا مُؤثّرا في الطّرف المقابل في الحوار التّواصلي المعرفي.

المكان غير مُدرك بصريّا، وغير محدّد جغرافيا، وغير معيّن في سيرورة السّرد من طرف السّارد. لكن قد نتصوّره من خلال الشّخصيّة البارزة فيه ألا وهو الوزير، وكذلك من خلال عناصر السّكينة والهدوء؛ إذْ لا يكون الإبداع إلاّ أثناء الرّاحة والاطمئنان. والأنس الّذي يشعر به كلّ من طرفي الحوار، وخاصّة لدى المتلقي. وذلك من خلال المعارف الّتي سردها التّوحيديّ، ومنحها تصوّرا قصصيّا وسرديّا وحواريّا يجمع فيه معطياتها الفكريّة والفلسفيّة والبلاغيّة ... ، بالإضافة إلى أسماء الأمكنة الّتي تضمّنها السّرد القصصيّ،

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل ، ص30.

والأخبار على طول ليالي السّمر. بتعاقبها واستمرارها على طول أربعين ليلة، فأدّى امتزاج المكان بالزّمان وتلاحُمهما هذا أعطى ديناميكيّة فعّلت تواصل السّرد القصصيّ وحفّزت استمراره.

وصحيح أنّ السّمر ليلا مصدر إلهام، وله بواعث فنيّة جماليّة من هدوء وسكينة أكثر من المكان، لكن هذا الأخير لا يخلو من السِّحر، والإحساس بالهدوء الّذي يُعدّ مصدر إلهام وباعث على الإبداع والبوح عن هواجس ومشاعر الذّات، واعتبره الرّاوي مدخلا رئيسيّا للسّرد تتفاعل فيه عناصر الحوار القائمة على التّواصل، فهو مُحفّز للشّخصيات فيفسح المجال أمامها لرصد معارف العصر وأخباره.

إنّ جمال المكان ينبع من اشتياق الوزير لمحادثة التّوحيديّ العالم الفذّ الضّليع بمعرفة واستيعاب علوم عصره في مجلس السّمر ليلا، وِفق الدّواعي النّفسيّة والاجتماعيّة، واستجابة لدوافع حبّ المعرفة وشغفها، والكشف عن جمال البلاغة وأسرارها، والحديث المعرفي المنبعث من السّرد والقصّ والمواعظ والحِكم، والأخلاق السّاميّة النّبيلة المُراد ذكرها، والحرص على التّفصيل في فروعها الدّينيّة والإنسانيّة، والرّغبة بالعمل بها، وتحقيق قوّة الفعل الإنجازيّ من خلالها.

إنّ سرد التّوحيديّ يستوعبه ويحتويه المكان المُجسد في مقام التّواصل بين الأطراف المتحاورة، كما أنّ رحلة المكان في دُروب الفنّ السّرديّ بَادية معالمها في تتابع اللّيالي واستمرارها، وكذلك ضمن أحداث القصص والسّرد لديه في كلّ ليلة؛ إذ لا تخلو المقام التّواصلي من إحالة بعض السّياقات الخارجيّة ضمن المقام المباشر بينه وبين الوزير. هذه الإحالات تنطوي على ذكر بعض الشّخصيات، وما برعت فيه من علوم، بذكر الأماكن الّتي عرفهم فيها، والمجالس الّتي اجتمعوا فيها لمجادلة ومناظرة غيرهم، كتلك " المناظرة الّتي جرت في مجلس الوزير" أبي الفتح الفضل بن الفرات" بين أبي سعيد السّيرافيّ" و"متى"واختصرتها..." [1].إذْ يتحرّك السّرد وِفق أحداث ماضيّة، وأمكنة مُحدّدة يُشير إليها

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل ، ص88.

السّارد في قصّه. ويذكر في حديثه عن" أبي سليمان". فيقول: "والله أيّها الوزير، ما أعرف ببغداد- وهي الرّقعة الفسيحة الجامعة، والعرصة* العريضة الغاصّة- إنسانًا أشكر لك، وأحسن ثناءً عليك، واذهب في طريق العبوديّة معك، منه " [1]. فكلّ تلك الأمكنة الّتي تجُوبُ وتتخلل ثنايا السّرد عند الرّاوي في ليالي السّمر تبعثُ على فهم سيرورة الأحداث والمواقف في القصّ. لغرض استيعاب المتلقيّ، بحكم أنّه لا يوجد حوار تداوليّ إلاّ بوجود المكان؛ أي الواقع الطّبيعيّ.

فالمكان في " الإمتاع والمؤانسة" يحتلّ مساحة في سرد التّوحيديّ، وحاضر بشكل واقعيّ في أذهان الشّخصيات، فلا يُمكن تصوّر قصّ دون مراعاة ذِكر المكان. إذ يتّحد مع الزّمان في اللّيالي فيكون عنوان اللّيلة القادمة في بعضها مذكورا في نهاية السّابقة. "قال: إنّ اللّيل قد ولّى، والنّعاس قد طرق العين عابثاً، والرّأي أنْ نستجمّ لننشط، ونستريح لنتعب، وإذا حضرت في اللّيلة القابلة أخذنا في حديث الخلق والخلق- إن شاء الله- وأنا أزوّدك هذا الإعلام ليكون باعثاً لك على أخذ العتاد بعد اختماره في صدرك، وتحيل الحال به عند خوضك وفيضك، ولا تجبن جبن الضّعفاء، ولكن قُلْ واتّسع مُجاهرا بما عندك، مُنفقًا ممّا معك " [2]. وبهذا الخطاب الّذي صدر من طرف الوزير يُوحي برغبته واشتياقه للّقاء، وفي نفس الوقت يبدي له فيه بتصريح عمّا يريده منه أن يحضّره للّقاء والسّمر الموالي، لكي يكون الرّاوي على استعداد للمحادثة، وإعطاء ما يكّنه من حديث حول موضوع الخلق، بحكم أنّه يفكّر فيه مُسبقا فاختمر في صدره، ويُلمّ بجوانبه ومعطياته ليُلقيه بكلّ جدارة وتمكّن في المجلس القادم.

وبهذا الاستعداد تتهيّأ نفس الرّاوي، ليُثبت حضوره ويخوض في موضوع جديد ومُقترح من طرف المُخاطَب الحريص على الإقبال للتّزوّد بالمعرفة، ومعرفة فروعها ومجالاتها الواسعة، فهو لا يوفّر أيّ وقت إلاّ ويريد أن يستفيد من التّوحيديّ، ويتعلّم منه. لذا فهو يختار مسبقا في بعض اللّيالي عنوانا جديدًا، يكون المدخل الرّئيسيّ للمجلس القادم – كما في

---

[1]-الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل ، ص 37.
* العَرْصة: كلّ موضع واسع لا بناء فيه.

[2] - المصدر السّابق ،ص112.

نهاية اللّيلة الخامسة والعشرين- يقول الرّاوي: " و"ابن المراغي" يقول كثيرا- وهو شيخ من جلّة العلماء، وله سهم وافٍ في زمرة البلغاء-: ما أحسن معونة الكلمات القصار، المشتملة على الحكم الكبار، لمن كانت بلاغته في صناعته بالقلم واللّسان...، فقال الوزير: قدّم هذا الباب، إذا شئت، وانصرفت " [1]. وفي اللّيلة المواليّة مباشرة أوّل ما طرحه الوزير في المجلس هو سؤال عن طريق الإحالة إلى ما ذُكر في نهاية اللّيلة السّابقة من كلام لم يتسنّى له أخذ كفايته فيه من العلم والإفادة. "فقال: وما أمثلة الكلمات القصار الّتي أومأ إليها ذلك الشّيخ " [2]. فتفعيل مبدأ التّعاون بينهما يبعث على استمرار وظيفة التّواصل، وتحقيق الوظيفة المعرفيّة، والتّأثيريّة في السّامع.

ومن جهة أخرى فإنّ التلاحم بين الخطابات في المحادثات، يُوحي بجماليّة السّرد القصصيّ الّذي لا يمكن أن يخلوا من جانب عامل الزّمن الّذي ساهم في استيعاب السّياق التّواصلي، واستمرار الحوار التّداولي عبر أزمنة اللّيالي.

---

[1] - السّابق، الجزء الثّانيّ ، ص284.

[2] - نفسه، 285.

الزّمان، السّمر ليلا:

الزّمان خاصيّة وعنصر مهمّ في فنّ السّرد، وهو الوعاء الّذي يحتويه ويوضّح معالم الأحداث والقصص والأخبار الّتي تتضمّنها طياته. والسّرد عند التّوحيديّ له بداية ونهاية تجلّت في مجموع المسامرات بداية من اللّيلة الأولى إلى غاية اللّيلة الأربعين. وكلّ ليلة يتحقّق فيها زمن السّرد، والمتمثّل في المحادثة ليلا، سواء عن طريق الحوار المتبادل بين الطّرفين، أو عن طريق القصّ والخطابات الصّادرة من طرف الرّاوي، وكلّها تنطوي ضمن السّمر الّذي يُعتبر شرطا زمنيّا ليسرد فيه الرّاوي الأخبار والمعارف. وعلى هذا الأساس فالسّمر عند المبدع التّوحيديّ هو طرح المعرفة والشّعور بالأنس والمتعة.

تلك المشاهد التّصويريّة والفنيّة الّتي تمكّن المُبدع من خَلقها والولوج إلى عُمق مضمونها الفكري بآليّة بلاغيّة، وصياغة لغوّية بيانيّة فنيّة، كان القصد منها استمالة المتلقّي وجعله يرغب في المتابعة والاستمرار في التّواصل معه، خاصّة وأنّه كان ضليعا باللّغة. وكذلك مجموع تلك الموضوعات المقترحة والخطابات السّرديّة والحواريّة بمعيّة المتلقي المبدع الثّاني سواء من حيث اختيار موضوعات النّقاش والّتي برع في اختياره لها، أو من حيث جانب الإبداع لديه، ومشاركته في مختلف الخطابات المطروحة على طاولة السّمر اللّيليّ، فما يلبث إلاّ أن يُدلي برأيه كلّما سمح المقام ذلك. كلّ هذا الصّرح المعرفي تجلّى وظهر عبر زمن مكرّر هو اللّيل، وهذا الأخير يبقى مصدر إلهام أثناء الشّعور بصفاء الذّهن في لحظة يكون الإبداع فيها مُتاحا للعقل والفكر أكثر من أيّ وقت آخر. فاللّيل في خطاب التّوحيديّ هو زمن معروف ومُحدّد وواقعي وليس خياليّ، والسّمر ليلا تتمحور فيه إبداعات الرّاوي فتجري فيه أحداث السّرد، وهو يُجيدُ الإجابة الحاضرة على أسئلة الوزير بكلّ حزم وصرامة ودراية معرفيّة غير محدودة.

اللّيل يحتوي التّواصل بين أطراف الحوار، وهو عنصر زمنيّ اقتضته مسامرات التّوحيديّ مع الوزير بعيدا عن ضجيج الحياة الطّبيعيّة. يطغى عليه جمال المنظر ليلا بهدوئه وسكونه، ومشاعر الأنس ومُتعة الحديث في مقام الوزير، فتنبثق منه تلك المعارف

من الرّاوي الّذي لم يترك قضيّة من قضايا الإنسان إلاّ وتطرّق إلى جانب منها باسترسال سرديّ، وحديث مُستوحى من مفكّري عصره، يخصّ جوانب الحياة الواقعيّة والرّوحيّة الدّينيّة والثّقافيّة.

عنصر الزّمن في " الإمتاع والمؤانسة " يختصر العصور بالحديث عن ما مضى ، وما كان لدى الإنسان من معارف وفِكر. وهو عنصر هامّ يُدِيْرُ ويُشكّل مجرى أحداث السّرد. يظهر عنصر الزّمن بدءًا من اللّيلة الأولى من خلال كلام الرّاوي: " وصلتُ أيّها الشّيخُ- أطال الله حياتك- أوّل ليلة إلى مجلس الوزير...، لذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتّأنيس، ولأتعرّف منك أشياء كثيرة مختلفة تُرَدّدُ في نفسي على مرّ الزّمان. لا أُحصيها لك في هذا الوقت، ولكنّي أنثرها في المجلس بعد المجلس "[1]. وهو بهذا الحديث يُظهر لنا زمن اِنطلاق السّرد وفق تتابع اللّيالي، وكلّ ليلة بزمن معيّن لها بدايتها ونهايتها، فيُعبّر على غرارها عمّا يجول في نفسه من هواجس وتساؤلات ينثرها في كلّ مجلس عبر زمن اللّيالي ووفق شروط تواصليّة تداوليّة سطّرها المتكلّم، وخضع لها المتلقّي بصيغة سؤال فجواب. يتعقّبه إبداء رأي أو استحسان فكرة، أو الشّعور بهاجس الشكّ أو النّقد و التّفسير من طرف المتلقّي، ومحاولة إبداء الإعجاب والوله الشديد لكلّ ما يحكم به الرّاوي أو يصرّح به.

الزّمان في الخطاب السّرديّ من حيث جانب الشّكل ثابت في اللّيالي الأربعين، لكنّه يتجدّد بتجدّد زمنها، وبتجدّد عهد الوصال بين طرفي الحوار ضمن مقام السّلطة الّتي بدورها تعكس معطيات الرّفاهيّة والأنس، ومشاعر الحبّ للمعرفة باكتساب معالمها وفروعها العقليّة والبلاغيّة، والتّزوّد بالحديث الممتع والعذب.

أمّا من حيث المحتوى، فالزّمن مُمتدّ عبر العصور، عصرُ الزّمن الجميل وهو الحاضر، والمتمثّل في زمن العصر العباسيّ برُقيّه وازدهاره، وزمان عصور سبقته بفلسفتها وفكرها العقلي، كحضارة اليونان، وزمن السّرد في المجلس، والّذي يحدّده زمن اللّيل. فيساهم مع عناصر السّياق الأخرى في توضيح معالم السّرد، وفهم مضامينه المعرفيّة الّتي عبارة عن

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل ، ص30.

حقائق عرضها السّارد بكلّ صدق وأمانة، وهذه الخاصّية بدورها تحقق "مبدأ التّعاون" بينهما، لأنّه كلّما كان الحديث صادقا ومُسترسلا وواضحا بمعالم زمنيّة معيّنة ومحدّدة، كان أقرب إلى الاستيعاب والفهم والتّصديق.

ناهيك عن الزّمن المذكور ضمن طيّات فعل القول، والّذي يتخللّ الأخبار والقصص الّتي يعتمدها الرّاوي في سياق حديثه مع الوزير. وهي بدورها تتّخذ الزّمن كمرجعية للإحالة على سياقات خارجيّة ليسقطها ضمن نظام حديثه مع المتلقّي، سواء القصد من وراء كلامه الإقناع أو الوصف، أو لتقريب الفكرة و الجواب الكافي للسّؤال المطروح.

فتتلاقى تلك الأزمنة ويُحاكي فكرها وفلسفتها مجلس الوزير بواسطة ذلك الرّاوي المُميّز الّذي يسع ذهنه وعقله كلّ تلك المعارف الّتي استطاع أن يسردها للمخاطَب ليأنس، ويستمتع بها طيلة فترة السّمر اللّيليّ.

إنّ توالي اللّيالي وتسلسلها يُوحي بالاستمراريّة؛ أيْ استمرار السّرد المعرفيّ، والشّوق للحديث في مواضيع تأسر العقل والقلب معا.إنّه زمن يُلخّص في ليلة واحدة أزمانا ماضيّة تبدو معالمها داخل المحادثة والقصص المرويّة في السّمر اللّيليّ الباعثة على ماضي الشّعوب وحضارتها وعلومها وثقافتها.

فالمحادثة بين الرّاوي والمتلقيّ في المقام التّواصلي التّداولي تنحصر في زمن السّمر وهو الزّمن الواقعيّ الّذي استطاع الوزير أن يوظّفه لصالحه ولحسابه الخاص؛ إذْ يبدأ السّرد فيه ويُنهيه، وذلك عندما يأخذ الكلمة ويختار موضوع النّقاش، فيُعلن بذلك بَدْء الحوار بينهما. لكنّ الزّمان داخل السّرد أو المُتضمّن فيه فلا سلطة للوزير عليه. نظرا لكونه من اختصاص الرّاوي الّذي يقوم بسرده كما وُجد بماضيه، إنّه يتعلّق بزمن الأحداث الماضيّة، وشخصياتها مثل: سقراط وأفلاطون والجاحظ وغيرهم.

فزمان اللّيالي مُرتّب بترتيب سرد الموضوعات على مدار أربعين ليلة بكلّ معطياتها السّرديّة والمعارف الإنسانيّة الّتي تتخلّل ثنايا الخطاب برمّته. ثمّ يأتي زمن نهاية كلّ ليلة والّتي جسّدت في " مُلحة الوداع". وعلى إثرها يتمّ انصراف الرّاوي، فيتوقّف زمن اللّيلة الواحدة في الخطاب السّرديّ. وينصرف كلاهما غلى غاياته وحياته الطّبيعيّة، لكن يظلّ فكر المتلقّي متواصلا انتظارا للقاء آخر بكلّ شوق ولهفة، للاستمتاع بمُتعة السّمر القادم.

هذا التّجدّد الزّمني المتمثّل في اللّيالي في خطاب التّوحيديّ يبعث في نفس المتلقّي تجدّد حياة وفكر، إنّه يتعايش مع الوضع بكلّ أريحيّة وتطلّع للمُفيد، والمتمثّل في الجانب المعرفي الخصب الّذي شمل مختلف علوم عصره، كأنّه أراد أن يجمع في ذهنه كلّ هذا الخضمّ المعرفي ليجمع سلطتين سلطة القرار والحكم السّياسي، وسلطة العلم الّتي تُعتبر في رأيه هي الأقوى بدليل أنّه كلّف نفسه باستدعاء التّوحيديّ، وانعقاد مجلس استطاع أن يُسطّره على نظام زمن اللّيل دون المساس بزمن النّهار، لأنّه يخضع فيه للاهتمام بالرّعيّة وسلطة الحكم.

لذا كان هذا التّجديد الزّمني هو وسيلة لغاية أكبر، وهي إعادة النّظر في تشكيل موضوعات جديدة، وكذلك إعادة النّشاط وطاقة الذّهن والعقل معا. فكان لهذا التّغيير دور في تمكين المبدع للخوض في الحديث والإجادة في الطّرح، لذا كان هذا التّجدّد الزّمني المتمثّل في اللّيالي يتضمّنه تحرّرٌ معرفيّ، يلزم الرّاوي للتّحضير أكثر في اللّقاء القادم، ويُجبره على العطاء خاصّة إذا أُتيحت الفرصة للمبدع بأن يقول ما يشاء، بصيغه تصدر من المتلقي عندما يسمح له بأخذ الكلمة المفتاحيّة للحديث عمّا يريد قوله، فيقول: " وعُدت ليلة أخرى فقال: فاتحة الحديث معك، فهات ما عندك "[1]. وبالتّالي فالزّمان عند التّوحيديّ له ارتباط وثيق بالجانب المعرفيّ، ولهذا منح خطابه بعدا سرديّا ليكون أكثر قراءة وإقبالا من طرف " أبي الوفاء المهندس"، والنّفس الإنسانيّة تستهويها موضوعات وأخبار القصّ والسّرد والإخبار أكثر من غيرها. لما لها من طابع خياليّ وفنيّ وبلاغي جميل يمسّ شعور وإحساس المتذوّق لها، فيأسره ويُسيطر على مشاعره.

وهكذا يظلّ الزّمان في الخطاب السّرديّ " لأبي حيّان" عنصرا مميّزا ومنظّما للخطابات والموضوعات المطروحة في اللّيالي، ومُستوعبا لكلّ المعارف والأخبار الصّادرة من أطراف الحوار. وبهذا فهو يُسهم بشكل كبير في سرد المعرفة ضمن سياق تواصلي يبعث التّشويق في ذهن القارئ، ويجعل منه طالبا للاستفادة أكثر من المعارف كلّما مرّ به الزّمن، مع الإطّلاع إلى الزّمن القادم، والمتمثّل في اللّيلة الموالية. وكل هذا مرهون بوجود مقام

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل ، ص113.

التّـواصل الّذي شكّل لنا حوارا تداوليّـا أعطى بُعدا وظيفيّـا يتمثّل في الإمتـاع والتّـزوّد بالمعرفة، وبالتّالي التّأثير في المتلقي وتغيير نظرته للحياة والواقع. وهذا في حدّ ذاته يحقّق جانبا عمليّا يتمثّل في قوّة الفعل الكلامي الّذي بدوره يحقّق الفعل الإنجازيّ، وهذا ما استطاع أن يبلغه السّارد إلى حدّ بعيد. ضمن ما بدر من استجابة وتأثير من طرف المتلقّي.

إنّ خطاب " الإمتاع والمؤانسة " خطاب سرديّ تظهر ملامح بنيته السّرديّة في تشكيل العناصر المكوّنة له ضمن سياق ومقام تواصليّ مُعيّن، تُسيطر عليه كلّ من شخصيّة الرّاوي الّذي أبدى تفوّقه وتمكّنه العلمي في جميع جوانب الحياة، فأثرى خطابه المعرفيّ بوجهات النّظر الخاصّة به، وسرد علوم غيره لتمكين المتلقّي من إدراكها بآلية الشّرح والتّحليل والتّفصيل بين ثنايا معانيها. أمّا سيطرة المُروَى له فتتمثّل في الجانب الإبداعيّ لديه وخبرته في اختيار الموضوعات الّتي شكّلت مختلف الأحداث والوقائع داخل النصّ بطابعها المتنوّع ثقافيّة واجتماعيّة وسياسيّة وفلسفيّة وبلاغيّة، ضمن زمان محدّد المعالم مضبوط التّوقيت في ليالي السّمر الأربعين.

الأحداث " الوقائع":

إنّ أبرز ما يحمله خطاب" الإمتاع والمؤانسة" للتّوحيدي، هي تنامي واستمرار تلك الأحداث والوقائع الّتي استطاعت أن تُشكّله، وتجعل منه خطابا سرديّا حجاجيّا، بواسطة ذلك التّواصل الحواريّ بين المبدع والمتلقّي ، تلك الأحداث تخلّلت طيّات المحادثة بينهما، واستطاعت أن تستهوي المتلقّي، وتجعل التّواصل بينه وبين المبدع سلسا ومتواصلا.

يتميّز نص "الإمتاع والمؤانسة" بأنّه مجالا رَحبًا للأحداث والوقائع، بحكم تنوّع موضوعاته ضمن سياق تواصلي معلوم، وبلغة كانت سمات البلاغة فيها هي الغالبة والمسيطرة على اعتبار أنّه يصنّف ضمن النّصوص الأدبيّة الّتي استطاعت بدورها أن تمزج الحوار بالسّرد، والحجاج بالمعرفة، نظرا لإحاطة المبدع بجميع الأحداث والمعارف والعلوم في عصره ضمن مقام تواصلي بعثته للوجود ليالي السّمر، ووفق زمن متتابع ومتوالٍ في فضاء المكان لدى قصر الوزير.

تلك العناصر السّردية خلقت حركة الفعل والحدث، واستطاعت أن تجمع متعة الحديث من خلال ذلك الحوار التّواصلي بينهما، بسرد المبدع لأحداث خارجيّة عن طريق سياقات إحاليّة مُرتبطة بمقصديّة السّارد؛ والّتي لجأ إليها لإقناع الوزير وتغيير نظرته تجاه قيم الحياة ومجالاتها، وإجباره على الامتثال لهذه لقيم الإنسانية الدّاعيّة للرّحمة والخُلُق الفضيل. والتّمكّن من تزويده بما يصبو إليه من تطلّعات فكريّة وثقافيّة وتوسيع مداركه العقليّة. ومن جهة ثانيّة وهي بثّ جانب التّأثير فيه، وتحقيق فعل الكلام في إطار سياق تواصليّ، أثبت فيه التّوحيديّ أنّ صُنع المعرفة بالسّرد و التّخييل ضمن التّداول الحواريّ هي أكثر بوحًا وإمتاعًا وتشويقا.

لقد طغى على خطاب التّوحيديّ تلك القصص السّرديّة الّتي تحتوي على أحداث ووقائع جرت في الماضي؛ أي خارج المجلس، وهي قصص متنوّعة تخصّ جانب الحياة العبّاسيّة وما تتضمّنه من ثقافة وعلوم كان الجدل والاختلاف في معظمها سائدا بين علماء العصر ضمن مجالسهم الأدبيّة، ومؤلّفاتهم العلميّة، أكثر من الاتّفاق حولها.

هذا الخضمّ الهائل من المعارف قصد من خلاله التّوحيديّ مُحاولة تزويد الوزير بها وإقناعه ببعض ما يشوب جوانبها من تشكيك وجدال، وذلك عن طريق الإجابة عن سؤاله في معظم اللّيالي، كما في قوله في اللّيلة التّاسعة: " فاتحة الحديث معك، فهات ما عندك "[1]، على اعتبار أنّ الرّاوي يُجيب ويسرد بما لديه من أقوال وأحداث لتحقيق رغبة الوزير، ومنحه الأنس والمتعة. فيبدأ في الكلام عمّا يراه مناسبا للمقام التّواصلي، سواء بذكر أحداث واقعيّة أو خياليّة بالتّفصيل والتّمثيل بهدف الإقناع، تنمّ على معرفة واسعة بشخصيات عصره وما تتميّز به كلّ منها. وتدلّ على ذاكره قويّة لدى المتكلّم والّتي استوعبت الكثير من علوم وأحداث العصر، فساهم كلّ هذا الخضمّ المعرفيّ في إثراء ذهن المتلقّي وتغيير نظرته للحياة.

لذا فإنّ تنوّع السّرد بين ماهو معرفيّ وفلسفي وقصصّي، وما يخص جانب الأديان والنّوادر، كان السبب في تنوّع المواضيع المطروحة الّتي أجبرت المبدع على ذكر شخصيات عديدة ومتنوّعة في مختلف المجالات والمعارف والعلوم، وسرد أقوالهم ومجال تخصّصهم في الحياة، منهم الفلاسفة والعلماء والمفكّرين والفقهاء، وروّاد البلاغة والبيان.

[1] - المصدر السّابق ، ص113.

الشّخصيات:

إنّ السّارد في خطاب " الإمتاع والمؤانسة"يصبو إلى تمثيل شخصيّة المطّلع على علوم ومعارف عصره، لذا نجده حريصا كلّ الحرص على رواية الأخبار والوقائع والأحداث، ضمن مصداقيّة معيّنة تتمثّل في تقريب الحقيقة للمتلقّي، وإضفاء مصداقيّة الحقيقة على أقواله في المحادثة بينهما، ليشعره بمدى التزامه بالأمانة العلميّة في نقل الأحداث دون زيفٍ، أو إخلال بالحقيقة. وجعله يقتنع بأقواله. وذلك عن طريق ذكر الزّمان والمكان اللّذين يبعثان روح المتعة، وجانب التّنظيم في سرد الحقائق، ناهيك عن الشّخصيات المرتبطة بالسّرد والّتي لها علاقة وطيدة بالأحداث، ليكون الحكي أكثر صدقا في إنتاج الخطاب التّواصليّ بينهما.

يكشف لنا الخطاب عدّة شخصيات داخل السّرد تُؤدّي الجانب الوظيفيّ الّذي يعكسه جانب الفعل الّتي تؤدّيه وتقوم به. ويستعين الرّاوي باستحضارها بين طيّات سياق حديثه لغرض الاستشهاد بأقوالها، وتفعيل ما تكنّه تلك الشخصيات من معارف وفِكر، منها شخصيّة الوسيط، وهو "أبو الوفاء المهندس"، وباقي الشّخصيات الأخرى من فلاسفة و مناطقة وعلماء، والّتي تضمّنها السّرد القصصي الصّادر من المبدع إلى المتلقّي. ضمن تلك الأخبار والرّوايات والأحداث، وكلّها تعكس تجارب الرّاويّ من جهة، ومن جهة ثانيّة تبيّن مدى اطّلاعه وقراءته معارف العصر وعلومه.

لقد كوّنت عدّة شخصيات البنية السّرديّة في خطاب أبي حيّان، فظهر صيتها على مستوى النصّ، وجعلت منه صرحا محكم البنيّة والمعنى، وكانت لها أبعداها ووظائفها الأدائيّة ضمنه. بدءًا الشّخصيات الرئيسيّة تتمثّل في طرفي الحوار، وهما: المبدع التّوحيديّ الّذي يرغب في لقاء الوزير للخوض في تجربة بناء المعرفة عن طريق السّرد الّذي يقوم على الحوار التّداوليّ في مجلس السّمر اللّيليّ. بالإضافة إلى غرضه المتضمّن في سبب وجوده معه، ولقائه وهو نيل رضاه وبالتّالي الاستفادة الماديّة منه.

أمّا شخصيّة الوزير" أبو عبد الله العارض"، فقد ساهمت في السّرد بإثراء الموضوعات المتنوّعة على شكل استفهام حقيقيّ موجّه إلى الرّاوي يتضمّن بين ثناياه معان ضمنيّة قصد

الوصول إليها لأجل العلم بها والاستفادة منها. ولهذا فكلاهما يستفيد من الأخر، وقد قام كلّ منهما بتفعيل الحكي واستمرار المحادثة ضمن السّياق التّواصليّ الحواريّ بينهما. إذن فهما يمارسان وظيفة التّواصل لبناء موسوعة سرديّة معرفيّة كان لصاحب القرار الإبداعي فيها هو التّوحيديّ.

اللّقاء بين التّوحيديّ والوزير كان للوسيط "أبي الوفاء المهندس" الدّور الفعّال في وجوده على أرض الواقع؛ أي حصول التّواصل بينهما في بيت الوزير؛ إذ عمل على عقد الوساطة بينهما، وذلك للرّغبة الملحّة لدى الوزير في ذلك. ويُصرّح "أبو الوفاء المهندس" بالأسباب والدّواعي التيّ جعلته يتوسّط بينهما، بقوله " إنّك تعلم يا أبا حيّان أنّك انكفأت* بالريّ إلى بغداد عابسا على "ابن عبّاد" مغيظا منه، لما نالك من الحرمان المرّ، وقلت: أن أرعى حقّك القديم...، و أوصلك إلى الأستاذ "أبي عبد الله العارض" وأخطب لك قبولا منه...، نعم ورتّبت ذلك كلّه، وبما أنّك تخلو بالوزير ليال متتابعة ومختلفة، وتحدّثه بما تحبّ وتريد، وتلقي إليه ما تشاء وتختار...، إلاّ أن تُطلعني طلع جميع ما تحاورتما وتجاذبتما الحديث عليه، حتّى كأنّي كنت شاهدا معكما أو متوسّطا بينكما " [1]. فهو بذلك أراد أن يُحقّق وظيفتين، الأولى تتمثّل في تسطير التّواصل بينهما لكي يستفيد الرّاوي من خلالها بما يجود به "أبو عبد الله العارض" من عطاء قد يغيّر من حياته، والوظيفة الثّانيّة: كتابة كلّ ما يدور بينهما من أقوال وإرسالها له، وبذلك يُحقّق رغبة الوسيط ويرضخ لمتطلّباته.

وما بين الطّلب والخضوع له، والرّغبة في الإبداع ولقاء السّلطة وتحقيق حلم الرّاوي، ينشأ خطاب" الإمتاع والمؤانسة " ليحقّق المعرفة بواسطة السّرد، واستمرار التّواصل بواسطة " قوّة الفعل الكلامي". وهذا عن طريق صنع نصّ سرديّ بوجود المكان والزّمان، وشخصيات أخرى أدّت أدوارها بشكل متفاوت في العطاء والّذي يتحكّم في ذكره والاستدلال به هو المبدع ؛ أي كلّما احتاج الأمر ذلك في المقام التّواصليّ.

---

[1] ـ أُنظر: " الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيّان التّوحيديّ ، ص19-20

* انكفأت: مِلت.

وعلى رأس هؤلاء العالم" أبو سليمان المنطقي" الّتي استشهد السّارد بأقواله، فاجتاحت معظم مواضيع المعرفة المطروحة، وكان علمه وفكره حاضرا في المجلس، بصيغة: " قال أبو سليمان المنطقي...، فقلت: إنّ أبا سليمان يقول:..." [1]، فما من قضيّة طُرحت سواء كانت عقليّة أو بلاغيّة أو دينيّة أو فلسفيّة، إلا وأُدلِي برأيه فيها من طرف السّارد، لأنّه يعتبره معلّمه وشيخه الّذي يفضّله عن غيره، بتدوين اعترافه: " إنّ شيخنا "أبا سليمان" غزير البحر، لا يُغلق عليه في الأمور الرّوحانيّة والأنباء الإلهيّة والأسرار الغيبيّة، وهو طويل الفكرة ..." [2]. أمّا باقي الشّخصيات الثانويّة مثل " ابن زرعة، والخمار، ومسكويه والقومسي ويحي بن عدي ونظيف ...، وهم علماء برعوا في مجال التّرجمة والبلاغة وحُسن التأليف والكتابة" [3]. وعلى الرّغم من أنّها أصوات شاركت في بناء السّرد المعرفيّ. لكنّ مساهمتهم في الخطاب لا تضاهي صوت المعرفة لأبي سليمان الّذي له وقعٌ وتأثير في نفسيّة المبدع كونه الأفضل بالنّسبة له. بسبب آرائه السّديدة وعلمه الغزير.

بالإضافة إلى بعض الشّخصيات الأدبيّة الّتي أثرت السّرد بثقافة معرفيّة عن أخذت حيّزا زمنيّا كبيرا لشخصيّة "ابن المقفّع" في اللّيلة السّادسة بذكره لصفات الأمم والشّعوب، وما يميّز بعضها عن البعض. فوظّف الرّاوي آراءه ،لكونه ضليع بمعرفة تاريخ الشّعوب وحضارتها. لكي يستشهد بها من خلال سؤال الوزير حول: أفضليّة العرب عن العجم، وباقي الأمم الأخرى. كما ذكر السّارد أقوال بعض فلاسفة اليونان: أفلاطون وسقراط[4]، وخصّص اللّيلة الأخيرة للحديث عن الشّاعرين: أبي تمّام والبحتري [5] ،وبيان الفروقات الإبداعيّة في النّظم لكليهما.

وبهذا لقد أسّس التّوحيديّ خطابا ببنية سرديّة استوفت عناصرها من الزّمان والمكان والعديد من الشّخصيات في سياق تواصليّ اقتضته المحادثة من خلال السّؤال المطروح،

---

1 - الإمتاع والمؤانسة ، الجزء الثّانيّ، ص189.

2 - المصدر نفسه، ص193.

3 - أُنظر: المصدر نفسه، " الجزء الأوّل" ، ص38-39.

4 - نفسه، الجزء الثّاني، ص203.

5 - نفسه، الجزء الثّالث، ص449.

فكانت هاته الشّخصيات عناصر بارزة في مجال إبداعها، وجعل منها أصواتا لعرض ونقل المعرفة والبلاغة وعلوم العصر.كلّ هذا الخضمّ المعرفيّ المتنوّع المواضيع والأخبار والأحداث، وكلّ هذه الخطابات المتنوّعة تجسّدت في مدوّنة التّوحيديّ ، جمعت علوم العصر، وصنّفت ضمن الموسوعية، نظرا لاحتوائها على عدّة مجالات فلسفيّة فكريّة وثقافيّة وسياسيّة وبلاغيّة وأحداث تاريخيّة، كلّها أفصحت وباحت بمعارف العصر وعلومه، فاقت الوصف لغةً وبيانا، فسَمت كخطاب سردي معرفيّ حجاجيّ، بطابع تواصليّ حواريّ تداوليّ، جعل منها قيمة أدبيّة جماليّة إبداعيّة صنعت سردا معرفيّا، جسّد محتوًى له وظيفة تواصليّة معرفيّة .

كلّ هذه العناصر عمِلت على تكوين البنيّة السّردية بجميع معطياتها الفنيّة وجوانبها المعرفية. خاصّة وأنّ المبدع زاوج بين الحوار والسّرد، وبين المعرفة والإبداع الفنيّ ضمن سياق التّواصل التّداوليّ. وبين الإقناع وإبداء الرّأي بالحجّة والدّليل، واحترامه للرأي الصّائب. فحرّر المعرفة من قيود المؤلّفات الفلسفيّة والعلميّة الّتي انحصرت لدى المفكّرين والمناطقة، ومنحها فرصة الوجود، والانطلاق ضمن معالم الخطاب السّرديّ لديه بكلّ سياقاتها والأمكنة الدّاخليّة والخارجيّة لها، وزمان اللّيل الطّبيعيّ، بالإضافة إلى الأزمنة المذكورة في طيّات السّرد، والتّي كانت تتوارى خلف السّياقات الخارجيّة المتمثّلة في القصص والأحداث، والمعارف الفكريّة الّتي جسّدتها تلك المناظرات العلميّة المثيرة للجدل بين علماء العصر في مجال المنطق والعقل والدّين ...، فانبثقت وتولّدت عنها ثقافة معرفيّة واسعة استطاعت إلى حدّ بعيد تكوين البنية السّرديّة بجميع عناصرها التّواصليّة في خطاب التّوحيديّ، والّذي يعتبر فنّا أدبيّا سرديّا مغايرا تماما للخطابات السّرديّة المألوفة، لأنّه اعتمد السّرد في عرض المعرفة، والحوار في تحديد معالم علوم العصر، وبيان مجالاتها، وتكوين رأيه في طرحها بالحجّة والإقناع، وبذلك أن يُكوّن خطابا إبداعيّا عن طريق ذلك التّواصل الّذي جمع بين الطّرفين وكوّن لنا خطابا سرديّا معرفيّا من خلال المحادثة الّتي سطّرت مسبقا بينهما. والّتي حازت على درجة كافيّة من التّأثير في المتلقّي وجعله يروم اللّقاء المعرفيّ، ويغيّر من رأيه وفكره.

السّياق وتداوليّة الخطاب السّرديّ التّوحيديّ:

عناصر السّياق:

يُعدّ السّياق من أهمّ عناصر المنهج التّداولي، وأساس بناء التّصوّر التّواصليّ بين الأطراف المتحاورة بواسطة ملفوظات دالّة، ولغة مشتركة بينهم. و منهم من يعتبر أن التّداولية هي السّياق، كما جاء عل لسان " ماكس بليك، ففي نظره أنّه يُعاد تسمية التّداولية. أن تسمّى السّياقيّة " [1]، أي النّظريّة السّياقيّة، كما أنّ "فرنسواز أرمينكو" تطلق عليه "السّياق الموقفيّ أو التّداوليّ " [2]. كما يعدّ عاملا أساسيّا في تحديد معالم التّواصل وذلك من خلال مجموع المعطيات والظّروف، وعوامل وجوديّة تساهم في فهم الخطاب أو تأويله، هذه العناصر يتّضح ملمحُها بدءًا من وجود عنصري التّواصل: المتكلّم والمخاطب في ظلّ ما يحدث بينهما من كلام ينجم عنه إنجاز فعل، أو تحقيق غاية معيّنة. وهذا ما نجده بَاديا بشكل جَليّ للقارئ من خلال ما أقرّه وأخبرنا به التّوحيديّ في خطابه السّرديّ.

"الإمتاع والمؤانسة "خطاب سرديّ فنيّ يجمع بين السّرد والتّخييل، والمعرفة والإمتاع، والخطاب الحجاجيّ الّذي يدعّمه بالبلاغة والوصف. و رونق النّسج، وحُسن التّأليف. هذه الخطابات الجماليّة الإبداعيّة عبّر عنها الرّاوي في مجلس التّواصل وفق سياق حواريّ تداوليّ بين التّوحيديّ و الوزير.

هذا السّياق العام بَدَت بوادره برمّتها بداية من أوّل ليلة، بجميع معطياته التّواصليّة بين أطراف الحوار. في قوله: " وصلت أيّها الشيخ ـ أطال الله حياتك ـ أوّل ليلة إلى مجلس الوزير ـ أعزّ الله نصره ـ و شدّ بالعصمة و التّوفيق أزره ـ فأمرني بالجلوس...، ولطف كلامه الّذي ما تبدّل منذ كان، لا في الهزل، و لا في الجدّ: ثم قال بلسانه: قد سألت عنك مرّات شيخنا أبا الوفاء...، ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتّأنيس، ولأتعرّف منك أشياء كثيرة مختلفة تردّد في نفسي على مرّ الزّمان، لا أحصيها لك في هذا

---

[1] ـ فرنسواز أومينكو ، المقاربة التّداوليّة ، ترجمة سعيد علوش ، ص49.

[2] ـ المرجع نفسه، ص48.

الوقت، لكنّي أنثرها في المجلس بعد المجلس "[1].ومن هذا المنطلق وتظهر عناصر السّياق من خلال ما كتبه التّوحيديّ للشّيخ "أبي الوفاء المهندس"،و المتمثّلة في:

- الرّاوي (المتكلم)، أبو حيّان التّوحيديّ.
- المتلقي الوزير، أبو عبد الله العارض.
- العنصر و الوسيط الّذي كُتبت له الرّسالة هو: أبو الوفاء المهندس.
- المكان يتمثّل في "مجلس الوزير".
- الزّمان: ليلة السّمر.
- موضوع التّخاطب (الخطاب).

السّياقُ بانت معالمه أوّل ليلة في خطاب التّوحيديّ، فحُسِم بذلك أمر وجوده. فكلّ عناصره الّتي تشكّله، و تبعث فيه المحادثة والأنس من طرف العناصر المتحاورة في المجلس بناءً على طلب الوزير الّذي يضطلع بدوره إلى بثّ و نثر مواضيع النّقاش وفق ما يُناسب المقام التّواصلي في كلّ ليلة من ليالي السّمر بينه وبين ضيفه. والّذي يدرك و يعرف أنّه أمام شخصيّة فاقت حدود العلم والمعرفة في جميع مناحي الحياة بمختلف فروعها: الفكريّة و الفلسفيّة و الأدبيّة...، فبادر إلى وضع شروط على الرّاوي التّحلّي بها لمواصلة الحديث معه في باقي اللّيالي. وفي الوقت نفسه أراد التّوحيديّ أن يُزيل الحواجز بينه وبين الوزير لمخاطبته، والتّواصل معه. خاصّة وأنّ الطّرفين يفصل بينهما المركز الاجتماعي. قال: " يُؤذن لي في كاف المخاطبة*، و تاء المواجهة**، حتى أتخلّص من مزاحمة الكناية، و مضايقة التّعريض، و أركب جَدَدَ القول من غير تقيّة، و لا تحاشٍ و لا محاباة و لا انحياش*. قال: لك ذلك... "[2]. فهو بمجرّد ما لقي ولمس فيه حبّ المعرفة، والتزوّد بالعلم. استأذنه ليفسح المجال للكلام بينهما، و تزويده بفضاء لا محدود من العلامات اللّغوية الدّالة دون قيود. وعدم الشّعور بالفروقات الاجتماعيّة الّتي تفرض صيغ التّكلّف في الكلام.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة ، الجزء الأوّل ،ص31

*كأن تقول: سمعتكَ ورأيتك.** كأن تقول مخاطبا من تحدّثه:علمتَ وفعلتَ.

*** الحَيْشُ: الفَزَعُ، وتَحَيّشْتُ: فَزِعَتْ.

[2] - السّابق ذكره، اللّيلة الأولى، ص30.

وتُثقل كاهل المتكلّم، وتمنع إرادة المعنى المرجو والملائم لسياق التّواصل. وبالتّالي حصول الاتّفاق بينهما يوحي ويحقّق التّجاوب والاستمرار بعد ذلك. لأنّهما اتّفقا ووقّقا في وضع شروط التّواصل، ووُجُوب التقيّد بها.

يتحقّق التّواصل المقاميّ بداية من وجود عناصر مشتركة بين المتخاطبين، لكي تتم عناصر التّوافق والانسجام والاستجابة من طرف المتلقي. و سياق التّواصل في خطاب التّوحيديّ يجتمع فيه عناصر الحوار بدءاً من اللّغة المشتركة. و أيُّ لغة؟ إنّها لُغة البيان والبلاغة العربيّة بكلّ معطياتها الجماليّة الّتي استمدّت دلالتها من عمق فكر العصر و ثقافته الّتي تجلّت في ذهن التّوحيدي. و ميّزت أسلوبه في خطابه السّرديّ، وعكست ثقافته ومعرفته الواسعة بكلّ مجالات الحياة العقليّة والفلسفيّة، والّتي استطاع أن يستوعبها، ويستجيب لها المخاطَب؛ هذا يدلّ على أنّهما ينتميان إلى نفس الفضاء الثّقافيّ المعرفيّ الّذي ميّز القرن الرّابع الهجريّ. واختصّ به العصر الّذي عاشا فيه، واستمدّا منه تلك الخلفيّة الثّقافيّة و الفكريّة و الفلسفيّة السّائدة فيه.

الحوار دار بين المتكلّم والمخاطب في سياق تواصليّ لا يُستوعب الكلام فيه بمنأىً عن مقام الكلام الّذي لا يتوضّح إلّا بتوفّر عنصري المكان والزّمان أثناء إنتاج الخطاب. وتفهم خطوات الحوار وغايته المعرفيّة التّواصلية في سياق تداوليّ واضح.

المكان في خطاب "الإمتاع والمؤانسة " للتّوحيدي، هو المجلس في دار الوزير، مكانٌ يَبعثُ على متعة الأنس في سحر هدوء اللّيل الّذي يرخي سدوله للبوح بالحديث الشّهيّ، الباعث على الاستحسان والفائدة. كما جاء على لسان الوزير، " ورجعنا إلى الحديث فإنّه شهي، سِيما إذا كان من خطرات العقل، قد خدم بالصواب في نغمةٍ ناغمة، وحروف متقاومة، ولفظٍ عذب، ومأخذٍ سهل..."[1] ، فتكون له فائدة للذّهن والعقل.

أمّا الزّمان يكاد يكون موحّدًا، فقط يظهر في تعاقب وتوالي لياليه. بدءًا من اللّيلة الأولى، وهو نقطة بداية زمن الحدث، وفي كلّ ليالي السّمر بصيغة: (حضرت ليلة أخرى...، قال في ليلة أخرى...، ومرّ في عرض السّمر...)، هذه الصّيغ تظهر في مطلع السّرد في كلّ

[1] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص32.

ليلة. بانطلاق متعة الاستماع للحديث، والشّعور بحلاوته والإحساس بجماله، والّذي يتجلّى في بلاغة وبيان الرّاوي المستمدّة من فروع العلم والمعرفة في كلّ مجالات الحياة الإنسانيّة.

بالإضافة إلى وجود عناصر السّياق ـ الزّمان والمكان ـ ضمن ثنايا القصص الّتي كان يسردها التّوحيدي، و يوجّهها للوزير، وإلى تغيّر ظروف (زمانيّة ومكانيّة) مرجعيّة في الخطاب بحكم أنّ كلّ خطاب سرديّ تتخلّله معالم الزّمان والمكان، كعناصر فنيّة ضروريّة تضفي جمالاً أثناء الوصف، والتّخييل في القصّ والحكي. كما في قوله، وهو يسرد قصص الشّخصيات والأمم والشّعوب. بذكر المواطن والمواقع والأزمنة. فيقول: " والله أيّها الوزير، ما أعرف اليوم ببغداد، وهي الرّقعة الفسيحة الجامعة والعرصة* العريضة الغاصة...، وقد عمل رسالة في وصفك، وهي تصل إلى مجلسكم في غد أو بعده..." [1]" وقلت: إنّما كنا نلتقي على زنبرية ** باب الجسر بالعشايا...، كنت رأيته عند صاحبه بالرّي سنة تسع وستين وثلاثمائة وهو متوجّه إلى قابوس بجرجان..."[2]. فالزّمان والمكان وظيفة تواصليّة، ووظيفة جماليّة، تساهم في فهم السّرد واستيعاب الحوار التّداولي الّذي مردّه استجابة المتلقّي، فنتج عن ذلك فعل التّأثير لديه.

السّياق في "الإمتاع و المؤانسة " موحّد في كلّ اللّيالي، و هو تواصل مباشر يلتقي فيه زمن التّلاقي والمواجهة بين طرفي الحوار: "التّوحيدي" و" الوزير"، بزمن إنتاج الخطاب، لكنّ التّجدّد يعتري الخطاب السّرديّ كلّ ليلة؛ إذْ كلّ مجلس يُستجدُّ فيه موضوع جديدٌ يقترحه الوزير بصفته هو من يفتح باب الحديث، و هو من يختمه. وفق خُطّة تواصل معيّنة هو من سطّرها لتحقيق هدفه المعرفيّ. و يجب أن يكون الموضوع ملائما لرغبته، خاصّة وأنّه يساهم في استمرار الحديث و تناميه. فما على الرّاوي إلّا أن يخضع لهذه الخطة التواصلية المسطّرة، فيسترسل في الحديث بإطناب وتوسيع لمعاني الكلِم وفق

---

[1] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص37.

* العَرْصة: كلّ موضع واسع لا بناء فيه.

[2] ـ المصدر نفسه، ص51.

** زنبريّة:ضرب من السّفن ضخمة.

مجالات المعرفة بكلّ تفاصيلها وتوجّهاتها العلميّة والفلسفيّة...، بلغة ساحرة للحسّ والشّعور و العقل، تعكس قدرة التّوحيديّ على صياغة النّظم، و حُسن التّأليف بأسلوب إبداعيّ في إطار تواصليّ تداوليّ يُشعر المتلقي بالاقتناع، والتّشبّع المعرفيّ، فيطلب ختام ليل السمّر بطلب "مُلْحَة الوداع ".

وبهذا كلّه، فالتّوحيديّ يؤسّس مجالاً معرفيّا بلاغيًّا نستمده من ظروف التّواصل ومرجعيّة الأحداث والأقوال من خلال تعدّد السّياقات المستوحاة من قصص وكلام التّوحيديّ أثناء التّداول الخطابيّ بلغة الحوار و التّواصل بينه و بين الوزير.

المؤشّرات السّياقيّة و أنواعها في الخطاب السّرديّ:

إذا كانت التّداوليّة تقوم على السّياق بكلّ تفاصيله ومعطياته الماديّة والمعنوية، بداية من التّلفّظ بين أطراف الحوار ضمن عمليّة التّواصل إلى إنجاز الفعل، فإنّ الخطاب عند التّوحيدي في" الإبداع والمؤانسة" يحتوي على سياقات؛ انطلاقا من سياق على المستوى العام الّذي يظهر فيه الخطاب السّرديّ في حضور شخصيات الحوار المتمثّلة في المبدع والمتلقيّ، بالإضافة إلى الحيّز المكاني، وهو " المجلس "، والمحتوى الزّمني هو" اللّيل" يُظهر بدوره عدّة عناصر سياقيّة بدءًا من سياق وجوديّ، يتمثّل في حضور طرفي الحوار في المجلس. فليس كلّ سرد يَنطوي على وجود شخصيات حقيقيّة، فقد تكون تخييليّة. وعند التّوحيّدي ظهرت مؤشّرات السّياق في اللّيلة الأولى بكلام أدلى به الوزير بقوله: " فقد تاقت نفسي إلى **حضورك للمحادثة** والتّأنيس، ولأتعرّف منك أشياء كثيرة مختلفة تُردّد في نفسي على **مرّ الزّمان**، لا أُحصيها لك في هذا الوقت، لكنّي أنثرها في **المجلس** بعد المجلس، فاجبني عن ذلك كلّه باسترسال وهدوء بال..."[1]. يبدو أنّ عناصر السّياق بدت معالمها واضحة في بداية أوّل لقاء معهما، وهي عناصر وجوديّة حقيقيّة. لكنّه لم يكتف بذكر هذه العناصر بل باشر إلى وضع شروط للمحادثة، من استرسال القول، والصّق فيه، بما يحقق

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص30.

ذلك عنصر مبدأ التّعاون، وهو بذلك يضع اتّفاق مفاده أن يكون فعل الكلام مناسبا للمقام. كما يلزم ذلك قوّة الفعل الكلامي والّتي بدورها تحدث تفاعلا وتأثيرا في المتلقيّ.

وبعد التّلفّظ به يُحال إلى تدوينه، وكتابة محتواه، بطلب من المتلقّي الحاضر هو(الوزير)، والوسيط بينهما، وهو متلقٍ ثانٍ "أبو الوفاء المهندس". بالإضافة إلى سياقات أخرى، تطفُو وتتجلّى في الخطاب السّردي للمبدع في كلّ ما يصدر عنه من أخبار وقصص تتوالى عبر اللّيالي، هذه السّرديات المتنوّعة المرويّة. يتخلّلها عناصر مُغايرة لِما قِيل في سرد اللّيلة الماضيّة عن القادمة والآتية. و هذا ما سوف نطلّع عليه من خلال سرد التّوحيدي عبر مجالس الأنس والإمتاع في أحضان السّمر والإبداع. وعلى ذلك فهذه السّياقات متداخلة، ومترابطة تشكّل عنصرا جوهريّا في المنهج التّداوليّ.

اللّيلة الأولى:

" فقلت: أيّها الوزير، قد خالطت العلماء، وخدمت الكبراء، وتصفّحت أحوال النّاس في أقوالهم و أعمالهم و أخلاقهم، فما سمعت هذا المعنى من أحد على هذه السّياقة الحسنة والحجّة الشّافية، والبلاغ المبين، وقد قال بعض السّلف الصّالح: "ما تعاظم أحد على من دونه إلّا بقدر ما تصاغر لمن فوقه ". و التّصاغر دواء النفس، و سجية أهل البصيرة في الدّنيا والدّين...، قال: ورجعنا إلى الحديث فإنّه شهي، سيما إذا كان من خطرات العقل قد خدم بالصّواب في نغمة وحروف ولفظ عذب...، قلت: ولهذا قال خالد بن صفوان حين قيل له: أتملّ الحديث؟ قال: إنّما يمل العتيق، والحديث معشوق الحسِّ بمعونة العقل..." [1].

المؤشّرات السّياقيّة في اللّيلة الأولى تستوفي حضورها بكلّ عناصرها التّواصليّة، وتتمثّل أوّلا في شخصيّة التّوحيديّ الّذي يعدّ فاعلا حقيقيّا يأخذ بناصية الكلام بحضوره في المجلس، وهو يسرد تجربته العلميّة والثّقافيّة في مسار حياته الطّبيعيّة، وتعاملاته الاجتماعيّة. مُبديا إعجابه بمقال المتلقيّ، وقدرته في صياغة اللّفظ وتشكيل المعنى وفق سياق لغويّ بليغ البيان، والحجّة الشّافيّة.

---

[1] ـ المصدر السّابق، الجزء الأوّل، ص32-33.

المقام يبيّن العلاقة بين المرسِل و المرسَل إليه في لحظة التّواصل المباشر، مع مراعاة إسقاط تلك الفروقات الاجتماعيّة. و أنّ كليهما يجمعهما فضاءٌ معرفيٌّ ثقافيٌّ يتمثّل في رونق وحسن الكلام، أو بالأحرى التمكّن من التّعامل مع اللّغة بصياغة بلاغيّة ترقى إلى مستوى الإبداع و التّأليف.

الشّخصيّة المتحاورة هي"المتلقي"، وحُدّدت معالمها في سياق المقام بكلّ معطياتها وتوجّهاتها المعرفيّة وفق تداوليّة الحوار بينه وبين السّارد، والّتي تجاوزت ما كان يتصوّره، أو ما كان متوقّعا على غرار أنّه أمام شخصيّة حاكم ووزير، و ليس أمام شخصيّة عاديّة، لكن ظهر العكس من خلال التّعامل والتّواصل والحديث، و سياق المقام بمعيّة سياق المقال هو من حسم الأمر، وأظهر حقيقة المتلقيّ الّتي فعّلت عنصر التّأثير في المبدع. من ناحية جعلته يؤسس التّواصل معه بكلّ أمانة وحديث أساسه البوح بما لديه من معارف، وغايته بثّها في سيرورة زمن اللّيل دون قيود.

وبهذا كان استعداد التّوحيديّ باديا في سياق المقال بمرجعيّة إلى الزّمن الماضي؛ أنه عارف وعالم بعلماء عصره وأقوالهم، وأحوال النّاس وأخلاقهم، مستدلاً بسياق مرجعيّ يتمثّل في قول بعض السّلف الصّالح، لإحالة دلالة القول على شخصيّة المتلقيّ. بأنّ التّواضع من شيم أهل البصيرة، وهذه الأخلاق لا يتحلّى بها إلّا العظماء.

يتدخّل في بناء المقام مستويان من السّياق، سياق داخليّ وجوديّ، دعامته حضور مباشر للمبدع والمتلقّي في حيّز المكان المجلس. وسياق خارجيّ فعّلته تلك المرجعيّة، والّتي هي الاستعانة بخطابين كشاهد من طرف شخصين خارج النصِّ، للاستدلال بقولهما، لعرض التّأكيد والإثبات. هذه الازدواجيّة السّياقيّة خلقت نوعا من التّكامل، والتّنامي في السّرد لوضع أهداف وغايات حواريّة، وشروط تداوليّة بين طرفي الحوار للاستمرار معًا في اللّيالي الآتيّة. لأنّهما سوف يمرّان عبر جسور التّواصل بالحديث الّذي لا يُمَلُّ منه إذا كان من خطرات العقل، و لامسَ الحسّ، بلجوء المبدع إلى قول " خالد بن صفوان"، بالإحالة المرجعيّة، وسياق خارجيّ حواريّ لما سُئل عن معنى الحديث، فاستعان بهذا القول بغرض إقناع المتلقي.

هذا السّياق التّفاعليّ التّداوليّ بين طرفي الحوار، سُجّل لصالح المبدع لِيتسنّى له الاستمرار بنجاح في إبرام عقد التّواصل بينهما، و بدءِ الحديث الشّجي في مجال العلم والمعرفة بفروعها دون قيود. مراعاة للمقام الّذي حُسِمَ أمر تحديد معالمه بدءًا من اللّيلة الأولى، وبالإضافة إلى الزّمن الّذي يُعلن في بداية السّمر، ويمتدّ إلى نهاية الحديث. هذه العناصر جميعها سِيقت ضمن السّياق التّواصليّ الحواريّ الّذي صنع التّفاعل بين طرفي الحوار بإظهار الاهتمام و التأثّر من طرف المتلقّي.

اللّيلة الثّانيّة:

" ثم حضرت ليلة أخرى فقال: أوّل ما أسألك عنه " حديث أبي سليمان المنطقي " كيف كان كلامه فينا، وكيف كان رضاه عنّا ورجاؤه بنا، فقد بلغني أنّك جاره ومعاشره، ولصيقه و ملازمه، و قافي خطوه وأثره، وحافظ غاية خبره. فقلت: والله أيّها الوزير، ما أعرف اليوم ببغداد ـ إنسانا أشكر لك، وأحسن ثناءً عليك منه...، فقال: حدّثني عن درجته في العلم و الحكمة، وعرَّفني محلّه فيهما من محلّ أصحابنا: ابن زرعة، وابن الخمار، وابن السمح والقومسي ومسكويه ونظيف، ويحي بن عدي وعيسى بن علي، فقلت: وصف هؤلاء أمر متعذّر...، قلت: إذا قنع مني بهذا، فإنّي أخدم بما عندي، أمّا شيخنا أبو سليمان فإنّه أدقّهم نظرا، وأصفاهم فكرا، و أظفرهم بالدّرر..." [1].

تظهر جملة العناصر المكوّنة للموقف الكلاميّ بدءًا من شخصيّة التّوحيديّ والمتلقّي في مجلس جديد تقتضيه زمن نقطة بداية الحدث هي السّمر ليلا، ومتلقٍ حاضر بسؤال يستهل به مسار الحديث رغبة منه بمعرفة مكانته ومنزلته بالنسبة لشخصيّه العالم " أبي سليمان المنطقي "، وبأيِّ لغة يتكلم عنه؟ و ماذا يقول فيه؟ استفهام ضمني يتخلّله نوع من الفضول ودوافع نفسية، ومقاصد ورغبات تجول في ذهن المتكلّم، خاصّة وأنّ أبا سليمان أكبر شخصيّة حضيت باهتمام التّوحيديّ، واستشهد بأقواله في معظم ليالي السّمر، وفي جُلِّ مواضع الفكر والمعرفة الفلسفيّة والبلاغيّة، مُظهرا براعته في جميع مجالات الحياة.

---

[1] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص37-38.

والتّوحيدي على علم به، نظرا لكونه جالسه واستفاد من علومه ومعارفه. والوزير بدوره يعرف مدى قدرته العلميّة، و تحلّيه بالحكمة والعقل السّديد، لذا بادر إلى تخصيص مجلس سمر خاصّ به، راجيا أن يجد إجابة شافيّة ووافية من عليم يعرف العالِم، وعالم بأقواله بحكم الجيرة و التّواصل معه.

هذا السّياق التّداوليّ تقاسمه وشارك فيه طرفا الحوار: المبدع والمتلقّي، والّذي أخذ فيه السّياق المرجعي حصّة كبيرة في الخطاب بدءًا من الاستفهام الّذي يعدّ محركا وفاعلا لسيرورة الحديث من طرف السّارد الّذي قام باستحضار معلوماته الذّهنيّة من الزّمن الماضي. ليسرد ما قاله الرّجل بخصوص صفات وأخلاق الوزير بالمدح والثّناء عليه.

هذا السرد الفرعيّ والمتمثّل في جواب السّارد، تشابكت فيه أطراف الحوار و"السّياقات نقاط إحاليّة " [1]. فتضمّن الخطاب سياقات عديدة صيغت وتكونت عن طريق نقاط إحاليّة مرجعية تمثّلت في: الزّمن الحاضر، وهو زمن العصر العباسيّ، في مكان فوق الأرض يتمثّل في مدينة بغداد. والجواب جسّده الخطاب الّذي صدر من المتكلّم بلغة مسجوعة تبعث على التّركيز في الاستماع، فتُطرب لها النّفس والأذن جميعًا. خاصّة وأنّه في موضع مدح لشخصيّة الوزير. مكّنته من كتابة رسالة في وصف مزاياه. فتوالت الكلمات، وتوارت المعاني خلف الأضداد الّتي تتوضّح لدى المتلقّي بما اكتسبه من مرجعية ثقافيّة. لأنّ نجاح العمليّة التّواصليّة مرهون بمدى ملاءمة، ومناسبة تلك الملفوظات للمقام. فيذكر محاسن الرّجل بتشبيهه بشمس المعالي، ومحقق الأقوال والأفعال، وأعلى من أن يلحق به نظير...، هذا السّياق النّصيّ المتعلّق بالقرائن اللّغويّة ذات التّصوير البيانيّ، والوصف البديعيّ، أحرزت نقطة لصالح المبدع في إنجاز الفعل بواسطة الخطاب السّرديّ الّذي أدّى مهمّته في إزاحة المخاوف عن ذهن الوزير. وحصول الرّضا و الاستحسان لديه، و كلّ هذا خوّل له ذلك إلى طلب معرفة المزيد عن شخصيّة المادح له، ومعرفة درجة علمه و حكمته، و تسليط الضّوء على المفارقة بينه وبين علماء عصره.

---

[1] ـ فرنسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة ، ص37.

ثمّ أُسْتُؤنِف الحديث من جديد من طرف الرّاوي، بذكر صفاتهم وميزاتهم المعرفيّة والاجتماعيّة، والأخلاقيّة في سياق نصيّ بلاغيّ، وسياق أسلوب تأرجح بين مدح و ذمّ. و إبداء الفروق الفرديّة لديهم. وعلاقتهم بعصرهم وإيثارهم لدنياهم على آخرتهم.

ومن خلال هذا السّياق التّداوليّ المعرفيّ الّذي حَظي بمرجعيّة فكريّة، ومعرفيّة في الزّمن الماضي. كانت مقصديّة المبدع وأهدافه تحقيق وظيفتين أساسيّتين:

الأولى: تتمثّل في تلبية رغبة " الوزير" للتزوّد بمعارف وعلوم العصر، من منطلق هاجس نفسيّ، وباعث ذهنيّ، وعقل شغوف بحبّ المعرفة واستسقاء مواردها.

و الوظيفة الثّانيّة: تجلّت وبرزت في خطاب التّوحيديّ، والمتمثّل في أنّه خطاب حجاجيّ إقناعيّ، كان لبلاغة القول الدّور في الإفصاح عن ثقافة العصر، بمقصديّة مُلحّة يهدف من ورائها تزويد المتلقّي بمختلف المعارف والأخبار. مع تهذيب سلوكه و إصلاحه.

هذه البواعث الّتي زاحمت وشكّلت واحتوت السّرد عند التّوحيديّ في محور تواصله مع المتلقّي في سياق وجوديّ طبيعيّ، كان القصد منها تأليف الخطاب بمعية مرجعيّة الأحداث والأقوال الّتي صيغت بطريقة لغويّة أَضْفت عليه رونقا وجمالاً.

وقد أحدث هذا التّعاون التّداولي والتّواصل الحواريّ سياقا تفاعليًّا جسّده استجابة المتلقّي لمطامحه وتطلّعاته المعرفيّة التي تُعدُّ أساسا لمقتضى من مقتضيات المبدع السّرديّة.

هذه البواعث والدّافع جميعا سمحت بخلق وتفعيل وظائف تواصليّة إخباريّة وحجاجيّة إقناعيّة، كان القصد منها بعث الجانب المعرفيّ والثّقافيّ السّائد في ذلك العصر، والّذي لمع وبرع فيه التّوحيديّ في خطابه السّرديّ.

لقد ذكرت آنفا في دراسة البنيّة السّرديّة في خطاب التّوحيدي، أنّه أعطى للسّرد وجهة مغايرة تماما لما عهدناه في نمط السّرد في الخطاب بذكر توالي الأحداث و القصص... لكنّ التّوحيديّ لا يقتصر اهتمامه فقط على هذا الجانب السّرديّ، بقدر ما جعله وسيلة وهدفا لغاية أسمى هي بثّ المعرفة بجميع تفاصيلها واتّجاهاتها ودروبها. وهذه طريقة في السّرد نراها مُستجدة عند التّوحيديّ . ناهيك عن خاصيّة أخرى تفرّد بها الرّجل السّارد الفيلسوف.

ونجدها من خلال الغوص في مضامين تلك المعارف والعلوم الّتي عرضها التّوحيديّ ضمن طيّات السّرد، نستشف أن هذه المعارف تضطلع إلى عدة وظائف: الإخبار والسّرد من ناحية، ووصف و حجاج وإقناع من ناحية أخرى. و كلّ ذلك انبثق وتفجّر محتواه وجوهره وفق السّياق التّداوليّ، لتشكيل الخطاب السّرديّ التّوحيديّ.

اللّيلة الخامسة: مواصلة وصف العلماء:

" قال في ليلة أخرى: ألا تتمّ ما كُنَّا به بدأنا. قلت: بلى. فأمّا أبو إسحاق، فإنّه أحبّ النّاس للطّريقة المستقيمة...، معانيه فلسفيّة، وطباعه عراقيّة، وعادته محمودة...، قال: هل كان في زمان هؤلاء من يلحق بهم، و يدخل في زمرتهم؟ قلت: نعم...، قال: هذا قدر كافٍ إلى أن تبيضّ الرّسالة، هاتِ مُلحة الوداع. قلت: قال أبو العيناء: قال أبو دعلج: قال المهدي: بايع، قلتُ : أبايعكم علامَ؟ قال: على ما بويع رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يوم صِفّين. قال كريز أبو سيّار المسمعي: إنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ لم يدرك صفّين، إنّما كانت صفّين بين علي ومعاوية، فقال"دوست بن رباط الفقيمي أبو شعيب": قد علم الأميرُ هذا، ولكن أحَبّ التّسهيل على النّاس، وانصَرفت " [1].

يستمر التّواصل بين عناصر السّياق المقامي، والعهد مازال قائما بين المتخاطبين، مادام المتلقّي وفيًّا حريصًا على إتمام ما بدأ فيه في اللّيالي السّابقة أثناء وصف الشّخصيات، وذكر مناقبهم في مجال النّحو و البلاغة و الفلسفة. وطلب من السّارد في خاتمة المجلس كتابا عنهم ليستزيد وينتفع بعلمهم.

هذه الخاتمة تمثّلت في "ملحة الوداع"، والّتي تضمّنت سياقا خارجيّا تجسّد في مجلس ذُكر فيه الرّاوي عدّة شخصيات في مقام تواصليّ حواريّ حول قضيّة المبايعة، هذا القول يحمل معنى ضمنيّا كان القصد من وراءه هو: أنّ هؤلاء الّذين بايعوا كلّ من (علي أو معاويّة) كأنهما في منزلة تدل على التّفرّد والمثاليّة، ولا وجود لمن يضاهيهما، بدليل أن حربا نشبت بينهم بسبب ذلك التّعصّب.

---

[1] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص61.

و ذكر الرّسول صلى الله عليه وسلم- يقصد به معنى ضمنيّا، يتمثّل فيمن يبايع شخصا ويتّبع أفكاره ويضحّي لأجه كأنّه ممّن ينزل عليهم الوحي.فأراد بذلك الأمير أن يعلّمهم أنّ المبايعة تكون باتّخاذ الرّأي الصّائب واختيار الأفضل دون تعصب وعنف. وأسهّل عليكم مبايعتي.

ومثل هذه النهايات في مجالس السّمر، يهتمّ بشأنها المتلقّي لرّغبة ووَلَهه الشّديد بالتزوّد بالحديث الشيّق سيما إذا كان من خطرات العقل، ولامس الحسّ. وخاصّة إذا كان المرسِل له مهارة في توظيف لغة مفهومة، ووفق نسيج التّعبير والتّبليغ؛ لأنّه لا يمكن أن يستجيب المتلقّي لكلام لا يصل إدراكه، ووعيه ومرحلة استيعابه. فنجاح عمليّة التّواصل مرهون ب: استيعاب السّياق بكلّ عناصره وعوامله التّواصليّة. وفهم النصّ بقرائنه اللّغويّة. وهذا ما نلمسه في خطاب التّوحيديّ، استجابة المتلقّي، و حصول التّأثير من خلاله.

إنّ زمن نقطة انطلاق الحدث هو زمن ليلة أخرى. يتجلّى في عنصر التّلفّظ للانطلاق في إتمام الحديث واستمراره. ويتمثّل في وصف تلك الشّخصيات من طرف المبدع. مُبديا أصولهم المعرفيّة والأخلاقيّة في مقام تواصليّ، وهو معروف، ويتمثّل في الفضاء المكاني المعتاد عليه، ألا وهو مجلس السّمر في دار الوزير.

سياق المقام تظهر بوادره من خلال حديث الرّاوي، واسترساله في الوصف. بإعطاء البنية النّصيّة الخطابيّة خصوصية أدبية بلاغية تؤثر في المتلقّي، لدرجة تجعله يتجاوب مع سياق الخطاب، فيقتنع بما طرح وعرض عليه، فيطلب من المبدع أن يدوّن له كلّ ذلك في رسالة ليقرأها على رويّة، ويستمتع بها لاحقا. و بهذا يكون سياق المقال على مرحلتين:

- مرحلة إنتاج التّلفّظ بالخطاب شفويا من طرف الرّاوي، تقتضيه مرحلة ثانية، وهي تحرير خطاب كتابيّ بطلب من المتلقّي لفرط إعجابه بإبداعه.

فهذا السّياق التّداوليّ التّواصليّ بين الطّرفين فعّله سياق مرجعيّ بالعودة إلى الزّمن الماضي، و ذكر ما حضيت به هذه الشّخصيات من السّبق في فنون الكلام، مع وجود بعض المفارقة بنسب متفاوتة بينهم. مع مضامين مشتركة تجمع زمرتهم في كونهم علماء العصر بجدارة.

هذا السّياق الواقعيّ الوجوديّ بين المبدع والمتلقّي، يصل إلى حدّ القدر الكافي في هذه اللّيلة فيطلب " مُلحة الوداع " على غرار أنّ هذه الصّيغة يطرحها الوزير في النّهاية،

يكتنفها معنًى مضمرًا يوحي بوظيفة تواصليّة تعليميّة إمتاعيّة، تتمثّل في الخطاب الّذي يختم به المبدع المجلس. كما توحي بمعنى ضمنيّ غير مباشر، ليتهيّأ المبدع ويستعدّ للمغادرة على أنّ المجلس أشرف على نهايته، لانتظار اللّقاء من جديد. فيبادر المتكلّم إلى سرد قصّة عن المبايعة، وأنّ الرّسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ لم يدرك صفّين لأنّها كانت معركة بين علي ومعاوية. ثم يقوم الرّاوي بفعل الانصراف.

"ملحة الوداع": هي "خاتمة المجلس"، و تتكرّر في كلّ اللّيالي بثنائية السّؤال فالجواب يليها التّأثّر والإعجاب. ثم طلب ختام المقام بملحة الوداع، والّتي كانت تنتهي بحكمة، أو قصّة أو نادرة. يلجأ إليها الرّاوي لبعث الشّوق والوَلَه للحديث القادم. " قال: أحسنت في هذه الرّوايات على هذه التّوشيحات، فما كلّ أحد يسمح بهذا في مثل هذا المقام، وما كلّ أحد يأبه لهذا الفعل، هاتِ مُلحة الوداع حتّى نفترق عنها، ثمّ نأخذ ليلة أخرى في شجون الحديث"[1]. وتكرار صيغة " ملحة الوداع " في ليالي السّمر، تصنع سياقا فريدا من نوعه، يحيل في نفسيّة المتلقّي الشّعور برونق وجمال الإبداع الفنيّ، فينجم عنه فعل الضّحك والسّعادة أو التّعجب والإعجاب، كما في بقوله: " هذا كلامٌ عجيبٌ ما سمعت مثله على هذا الشّرح و التّفصّيل"[2]. فيؤدي ذلك التّرويح عن نفسيّة المتلقّي، و التأثّير فيه لدرجة انتظاره اللّقاء القادم، بقوله: " هذا في الحسن نهاية، وقد اكتهل اللّيل، وهذا يحتاج إلى بدء زمان، وتفريغ قلبٍ، وإصغاء جديد. هات خاتمة المجلس" [3]، والّتي غالبا لها وظيفة إقناع، وتأثير يهدف إليها الرّاوي في سياق مقاله، بحيث لا نجد فاصلا بينها و بين المقال. بل تظهر تماسكا ودلالة في السّياق النصّي، على الأقل من ناحيّة تحقيق متعة الأنس في السّياق التّواصليّ التّداوليّ بينهما. وما يرد بعدها، قد يُستوجب من المبدع استحضار خطابات من خارج النصّ، يتحقّق وجودها داخله بمرجعيّة الإحالة.

---

[1] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص36.

[2] ـ المصدر نفسه، ص193.

[3] ـ نفسه، ص43.

الإحالة السّياقيّة في بنية الخطاب السّرديّ:

إنّ الخطاب السّرديّ عند التّوحيديّ، يركّز على المحادثة بين المبدع والمتلقّي، في سياق تواصليّ تداولي دعّمته خطابات مرجعيّة، استعان بها الكاتب عن طريق " آلية الإحالة"، والتّي وظّفها ضمن سيرورة حواره، وهي " علاقة تقوم بين الخطاب، وما يُحيل عليه الخطاب، إنْ في الواقع أو في المتخيّل، في خطاب سابق/ لاحق" [1]. وتظهر أهميّة تلك السّياقات المرجعيّة الإحاليّة في الخطاب، وأثناء محور التّواصل بين الرّاوي والمخاطَب. إنّها تتلاءم جميعا، وتتضافر لصناعة الخطاب السّرديّ، وتثبيت الغاية المعرفيّة باعتبارها جوهر الخطاب، ومادّته الأوّليّة. فتبلغ مداها ومبتغاها التّواصليّ عن طريق مادّة الإبداع الأدبيّ، ألا وهي " اللّغة" الّتي وظّفها المبدع بطريقته الخاصّة، وبأسلوبه وبلاغته لإنتاج الخطاب. هذا الأخير صُبّ فيه نشاط الذّاكرة المُطّلعة على عوالم الواقع واللاّواقع، تمثّلت في خطابات التّخييل والتّصوير، وصيغت في المقام التّواصليّ عن طريق الإحالة السّياقيّة الّتي تنبع من رحم النصّ، وتستعين بإحالة مرجعيّة تُعبّر عنها اللّغة داخل النصّ، مقترنة بسياقه ودلالته اللّغويّة.

وخطاب التّوحيدي تضمّن إحالات مرجعيّة، تتمثّل في مجموع تلك النّصوص الّتي استطاع أن يُوظّفها ضمن إطار الخطاب السّرديّ لديه، فتنوّعت مصادرها ودلالاتها بتنوّع الموضوعات المُراد طرحها، لذا استعان بها في مراحل خطابه، وعبر مسار ليالي السمّر ومقام التّواصل. فقال:" في البحر حوتٌ يُقال له مُوفي، ضعيف الجيّد، قليل القوّة، إذا جاع خرج إلى الشّاطئ، فاستلقى على الرّمل، فأقام شوكة في رأسه...، وإذا ألقى الملاح صنارته ولقيت ذلك الحوت رمى مكانه بتلك الشّوكة الحادّة يد الملاّح فتخدّر ويطرح أداة صيده. وفي جلد هذا الحوت عجب، وهو أنّ الصّاعقة لا تدنو من جلده، والملاحون يغطّون سفنهم به عندما يتبيّنون الصّواعق ووقوع المطر...، فمن أخذ من جلدها وسمر به شراع السّفينة لم يخف على سفينته غرقًا " [2]، من خلال الحديث عن قصص مرجعيّة استقاها الرّاوي

[1] - أحمد المتوكّل، الخطاب وخصائص اللّغة العربيّة، ص73.

[2] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص135-136.

من معرفته لأنواع الحيوان وطبائعها وصفاتها فافرد لها ليلة في الحديث عن غرائب الحيوان وعجائبه، محاولة منه توظيفها عن طريق استحضار سياقاتها الخارجيّة لغرض تنامي السّرد، واستمرار المحادثة الّتي بينه وبين السّامع، والّذي يحكمه الحكي الممتع، والتّشويق للفت انتباه المتلقّي، وجعله يحرص على استمرار التّواصل بينهما. وتُعدّ هذه النّصوص مرجعية تكشف عن تنوّع الإحالات الّتي ينطوي عليها خطاب"الإمتاع والمؤانسة". كما تظهر سماته الجماليّة والأدبيّة من خلالها.

قصص يستعين بها الكاتب في المحادثة مع المتلقّي في مقام التّواصل التّداوليّ، لدعم المشترك الحواريّ المعرفيّ بينهما، زيادة على ذلك أنّ خطابه بُني على نمط السّرد المعرفي، فالقصّة على قدر بساطتها لكنّها أُستحضرت في ليله من ليالي السّمر، والّتي أخذ فيها الكلام عن الحيوان مبلغه واتّساعه في الوصف، بذكر مميّزات وخصائص وطباع وفطرة كلّ نوع من أنواعه، مُبديًا بذلك صورته الحقيقيّة للمتلقّي، على أنّه لا يوجد شيء في الحياة الإنسانيّة والطّبيعيّة إلا وبسطه على طاولة السّمر وأمام مرأى المتلقّي؛ إنّه يُبدي معرفته الواسعة في مجال العلوم والمعارف الثّقافيّة والعلميّة. إنّه موسوعة فاقت حدود الوصف والتّصوّر. وشخصيّة مُطّلعة على علوم العصر، وأسراره من الحِكَم وجوامع الكلِم، قال: " فكتبت إليه أشياء كنت أسمعها من أفواه أهل العلم والأدب على مرّ الأيّام في السّفر والحضر، وفيها قرعٌ للحسّ، وتنبيهٌ للعقل، وإمتاع للرّوح، ومعونة على استفادة اليقظة، وانتفاع في المقامات المختلفة، وتمثّلٌ للتّجارب المخلفة، وامتثال للأحوال المستأنفة. من ذلك:الحمد لله مفتاح المذاهب. القناعة عزّ المعسر، والصّدقة كنز الموسر...،" [1]،" ولمّا قرأته على الوزير. قال: ما علمت أنّ مثل هذا الحجم يحوي هذه الوصايا والملح، وهذه الكلمات الغرر، والله لكأنّها بستان في زمن الخريف. إذا فرغت فأضف لي جزءًا أو جزءين، فإنّ موقعها يحسن، وذكرها يجمل، وأثرها يبقى وفائدتها تروى"[2]. فمجموع هذه الحِكَم المستوحاة من تجارب الحياة، وخبرة الرّاوي، جرت ضمن سياقات خارجيّة، أراد

[1] - المصدر السّابق، الجزء الثّاني،ص222

[2] - نفسه، ص228.

المبدع أن يُحيلها على مقام التّواصل المباشر بينه وبين المتلقّي، ليوجّهه إلى العمل بها والاستفادة منها، هذه الإحالة المرجعيّة لها وظيفة تداوليّة، تمثّلت في أنّ هذه الحكم كان لها وَقعٌ في نفسيّة المخاطَب، وأحدثت فيه خاصيّة التّأثير، إذ لم يكتف الوزير بسماعها، بل باشر إلى طلب من الرّاوي كتابتها وتدوينها للاستفادة منها في المستقبل.

هذه مجموع الحِكم والوصايا، مكوّنات ساهمت في بناء معرفة التّوحيديّ، وجميعها مُستمدّة من واقع الحياة والمجتمع في عصره، مُحاولا صبّها في خطابه ضمن سياق التّواصل الحواري، والّذي اعتمده المبدع بواسطة مرجعيّة الإحالة ليُدعّم بها كلامه وحججه، وقصّه، أو لتأكيد أقواله. ناهيك عن جانب الإبداع لديه، والّذي يتمثّل في كونه أراد أن يُعطي للوزير فكرة عن شخصه، بأنّه متمكّن ومميّز ولا يُعجزه أيّ موضوع مهما كان نوعه، إلاّ وأتى به من ماضيه، وأحاله على مقام المجلس بجميع تفاصيله وميزاته.

هذه المواضيع تضمّنت خطابات مرجعيّة، استقاها المبدع من أفواه العلماء، والشّعراء والمفكّرين، وأحالها على النصّ لأغراض معرفيّة، لأنّه أراد أن يلقّنها للمخاطبّ ليعمل بها، وغايته توجيه وإرشاد، وجوانب نفسيّة بهدف القبول ونيل الرّضا والاستحسان منه. بدءًا من إيمانه بتلك الحِكم العقليّة ومحاولة التّأثير في المتلقّي، هذا العامل النّفسي، يُحيل إل فعل طلب تدوين تلك الحِكم، وتحقيق فعل التّأثّر الّذي يتجسّد في شدّة الإعجاب بما صدر من الرّاوي.

ولا شكّ أنّ رصد مثل هذه الدّلالات المرجعيّة بخاصيّة الإحالة في الخطاب ، محاولة منه الكشف عن براعته وقدرته الفائقة في الإلمام بالمعرفة والثّقافة، واعتقاده بأنّ العقل أساس الرّشاد والاستقامة. وبهذا فإحالة تلك القيم والحِكم في المحادثة دلالة قويّة على تجربة حياة وواقع، وعلم زاخر لدى المبدع، يدعو من خلالها المتلقّي إلى العمل بمحتواها الأخلاقيّ، ومضمونها التّعليميّ. سواء كانت نثرا أو شعرا.

الشّعرُ عند التّوحيديّ يُشكّل مادّة معرفيّة تخلّلت ثنايا وطيات الخطاب في دروب اللّيالي السّمر،وزاحمت خطاب النّثر،ويُقال: " ما أحسن هذه الرّسالة لو كان فيها بيتٌ من الشّعر،

ولا يُقال: ما أحسن هذا الشّعر لو كان فيه شيء من النّثر" [1]. فلا يقلّ حضوره في الخطاب السّرديّ عن باقي الخطابات الّتي سِيقَت عن طريق الإحالة المرجعيّة الّتي استدعاها المقام التّواصليّ المعرفيّ. واستعان بها للضّرورة من جانب الحجاج أو التّوجيه أو الإخبار. والشّعر فنّ أدبيّ يَرِدُ في كلام الرّاوي ليس اعتباطيّا، بقدر ما له وظيفة تواصليّة تداوليّة معرفيّة، ساهم بشكل جليّ في إنجاز الفعل، وفق التّأثير الحاصل لدى المتلقّي.

فهذا الفنّ ارتبط بجميع مقامات التّواصل بين طرفي الحوار، فلا ينبري المبدع عن الاستدلال والاستعانة به في المحادثة، ليطفو معناه ودلالته وجماله في الخطاب السّرديّ كحجّة فكريّة ولغويّة تدعم المحتوى الإبداعيّ للرّاوي. فهذه الحاجة الماسّة المتمثّلة في المعرفة والإقناع، تُحيل المبدع إلى اللّجوء للنّظم الشّعريّ لدعم السّياق النّصيّ في التّواصل التّداوليّ الحواريّ.

المبدع يَعْمدُ دائما إلى توظيف الإحالة المرجعيّة، لأجل تثمين كلامه وتأكيده، وهاهو يذكر بعض الحِكم في قول النّظم: " اليوم فعلٌ وغدًا ثوابٌ.

الخيـرُ مختـارٌ شهـيُّ المطلـبِ * والشـرّ محذور كريهُ مجتنـب

ربّ سكـوتٍ من كـلامٍ أبلـغ * وربّ قـول من عمـودٍ أدمـغ

من سلـم النّـاس على لسانـه * أصبح منصـورا على سلطانّـه

من القليـل يجمـع الكثيـر * وربّ صغيـر قـدره كبيـر

من بـاع ما يفنى بما بقى غنـم * وآثر الدّنيا على الأخـرى نـدم

قد يُحرم الرّاجي ويعطى القانط * ويبعد الأدنى ويدنـى الشّـاحط

من لك ينـلك البـرّ في حياتـه * لم تبـك عينـاك على وفاتـه

المـال ما تنفق لا ما تجمعـه * والزّرع ما تحصد لا ما تزرعه

يا ربّ هـزل كـان منه الجـدّ * وربّ مـزح كـان منه الحقد

البحر مستغنٍ عن الفرات.

فقال- أدام الله أيّامه- هذا فنّ موفر على الغاية " [2].

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص278.

[2] - المصدر نفسه، ص289.

ولا شكّ أنّ الاستعانة بمرجعيّة نصّ شعريّ يخدم التّواصل التّداولي بين طرفيّ الحوار، ويُدعّم حُججه الفكريّة وأغراضه الفنيّة والتّوجيهيّة، هو في حدّ ذاته هدفٌ يخدم أغراض الرّاوي في استمرار التّواصل بينه وبين الوزير، و يدلّ كذلك على براعته، والذّاكرة القويّة لديه. ساعدته في خَلقِ ذلك التّنوّع غير المسبوق في خطابه، فاستطاع أن يُثري عالم الأدب والفنّ النّثري برائعة سرديّة شملت جوانب إبداعيّة تمثّلت في تلك الخطابات المستوحاة من المرجعيّة الثقافيّة والعلميّة للعصر، فكوّنت بذلك زحامًا للخطابات بواسطة آلية الإحالة الّتي استقى مناهلها من سياقات خارجيّة، وصبّها في المحادثة، لتكوين خطاب إبداعيّ يهدف من خلاله إزاحة عنصر الملل من المتلقّي، وغرس شعور الاهتمام والافتنان بحبّ المعرفة لديه.

فالخطاب السّردي عند التّوحيديّ يُحيلنا إلى عصر الازدهار بكلّ تلك المعارف الّتي طبعت ذلك العصر، بواسطة مرجعيّة السّياق الّتي انتهجها المبدع، وأسّسها عن طريق خاصيّة الإحالة، مُستندا إلى بُنًى لغويّة ومعرفيّة موجودة مُسبقا في ذهنه، ومحاولة إحالتها على خطابه الّذي تعدّى مرحلة السّرد إلى مرحلة الحوار التّواصليّ المباشر بينه وبين المتلقّي.

تلك الرّوافد والسّياقات المعرفيّة المتنوّعة هي نقاط إحاليّة، كما جاء على لسان – "فرنسواز أرمينكو"- مرجعيّة ساهمت في إثراء وتوسيع فضاء السّرد والإبداع في كتابه، هذا الاستدعاء السّياقي الخارجيّ الّذي مارسه المبدع أثناء المحادثة مردّهُ إلى مدى استيعاب ذاكرته وذهنه لكل تلك المعارف. كما يُحيل ذلك إلى التّميّز المعرفيّ الّذي يَحْفلُ ويتمتّع به التّوحيديّ، وما مدى تأثير التّواصل الثّقافيّ على نفسيّة المتلقّي. ويظهر ذلك في علاقة التّوافق والانسجام بينهما، والّتي يخلقها الرّاوي ليرفع نسبة قبول السّامع من جهة، ومن جهة ثانيه تغيير رَتابة الحديث واللّجوء إلى الاستمتاع بالقصّ في الكلام، وهذا النّوع من المحادثة يستهوي المتلقّي ويُبعد عنه الملل، لذا انتهج الرّاوي الحكي بذكره لقصّة طريفة دفاعا عن الحبِّ، بقوله: " وعشق رجلٌ جارية روميّة، فكتب إليها يومًا: جعلت فداك، عندي اليوم أصحابي، وقد اشتهيت سكباجةً* [1] بَقرِيّة فأحبّ أن توجّهي إلينا بما يكفينا منها، ودستجةٌ**

---

[1] -*السكباجة: نوع من المرق يصنع من اللّحم.** الدستجة: إناء كبير مصنوع من الزّجاج.
عن الإمتاع والمؤانسة، اعتنى به وعلّق عليه محمّد الفاضليّ-دار الجيل،ط01،2009م، ص297.

من نبيذ لنتغذّى ونشرب على ذِكرك، فلمّا وصلت الرّقعة وُجّهت إليه بما طلب. ثمّ كتب إليها يوما آخر: فدتك نفسي، إخواني مجتمعون عندي، وقد اشتهيت رؤوسًا سمانا، فأحبّ أن توجّهي إلينا بما يكفينا، ومن النّبيذ بما يروينا. فكتبت الجارية عند ذلك: إنّي رأيْتُ الحُبّ يكون في القلب، وحبّك هذا ما تجاوز المعدة. وكتبت أسفل الرّقعة:

عذيري من حبيب جـــا * ءنـــا في زمـن الشـدّة

وكـــانَ الحبّ في القلبِ * فصـــــارَ في المعـده "[1]

إدراك الجارية لحقيقة العاشق، من خلال تكرار الطّلب، أوقعه ذلك في المَطبّ وكشف حقيقته. هذا التّكرار عبارة عن إحالة نصّية له وظيفة التّأثير، والإلحاح لاستمالة الطّرف الآخر وخضوعه لمطالبه.

يشير هذا المحتوى القصصيّ إلى غرائب وعجائب قصص العصر، كما يُبيّن خُلُق البُخل في سياق هزليّ، تمكّن من بثّ فعل الضّحك في نفسيّة المتلقّي، هذا الفعل يُعلنُ عن مدى التّفاعل والتّجاوب مع الرّاوي وتحقيق قوّة الفعل الكلامي، من خلال الجانب المتضمّن فيه والّذي يوحي في المقام بالتّرويح عن نفس السّامع وبثّ جانب الأنس والمتعة في مجلسه، وذلك باستحضار قصص ونوادر يرويها له عن طريق إحالة الذّهن إلى سياق خارجيّ مرجعي لسردها وحصول الفعل الإنجازيّ المتمثّل في النّشوة والفرح لدى المتلقّي في سياق التّواصل المباشر بينهما.

المبدع مجبرٌ لاستثمار معلوماته، ومعارفه في إطار التّواصل التّداوليّ، فيلجأ إلى السّياق المرجعيّ، والّذي يتمثّل في إحالة مقاميّة تُسهم في إنتاج الخطاب السّرديّ، ويحاول توظيفها كلّما احتاج المقام ذلك، عن طريق إحالة الذّهن والذّاكرة غلى الماضي، و" قال في ليلة أخرى: كنت أُحبّ أن أسمع كلاما في كُنه الاتّفاق وحقيقته، فإنّه ممّا يُحار العقل فيه..." [2]. هذا الطّلب يُحيل إلى عصف الذّهن من طرف الرّاوي، وتذكّر روايات وفِكَر فلاسفة اليونان، فأسهب بذكر كلّ تلك المعارف والآراء على لسان الرّواة، مُبديا بذلك مدى اهتمامه

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة،الجزء الثّالث، ص330.

[2] - المصدر نفسه،الجزء الثّاني، ص290.

وسعة ذاكرته واطّلاعه بعلوم غيره. هذه الحكايات والقصص عن هؤلاء جرت في زمن مُغاير عن التّواصل في المقام الوجودي المباشر بين طرفي التّخاطب المبدع والمتلقّي، لكنّها أُستدعيت لتكون شاهدا على براعة الرّاوي، سواء من ناحية رصده للمعارف وذكرها للسّامع بما يناسب المقام، أو من ناحية استخدام اللّغة وبراعته في تشكيلها وإضافة صبغة بلاغة القول والبيان فيها. وناحية تمكّن الطّرف المقابل في الحوار من إجادة الفهم والاستيعاب لها، لأنّه لا يقلّ منزلة في جانب الفكر والعقل عن الرّاوي، بدليل أنّه يستوعب ويناقش بنفس مستوى المبدع.

وكلّما وُجد اتّفاق معرفيّ، ومشاركة فكريّة وخلفيّة ثقافيّة بين طرفي الحوار، قلّ استخدام اللّغة في السّياق التّواصليّ. وبذلك قد يلجأ المتكلّم إلى الاستعانة ببعض الملفوظات والعلامات اللّغويّة الّتي بدورها تختصر الكلمات كتابيّا، فتجفّ الحروف شكليّا، وتعمق مدلولاتها ضمنيّا ودلالة ومعنًى، مثل: "هذا"، " ذلك"...، حتّى وإن كُرّرت في سياق النصّ، فإنّها ليست بالضّرورة تُوحي وتدلّ على نفس المعنى؛ إذْ قد تدلّ " بالإحالة" على معنًى سابق أو لاحق، أو خارجيّ مرجعي مقاميّ، وتسمّى هذه العلامات اللّغويّة الموحية بدلالات عميقة بـ: " الإشاريات"، وهي قرائن وعناصر لغويّة هامّة في الكلام، تدلّ على معانٍ أكثر بكثير ممّا يُقالُ.

الإشاريات وأبعادها التّداوليّة في سرد التّوحيديّ:

الإشاريات من ضمن العلامات والملفوظات اللّغويّة الّتي يبدو لنا أنّها مختصرة شكليّا، ولكنّها عميقة المدلول والمعنى ، نظرًا لما توحي به من معانٍ عميقة في سياق الكلام. هذه الأسماء هي جزءٌ من النّظام اللّغويّ، وهي روابط داخل النصّ تُساهم في ربط بُناه ووحداته، مُحقّقة بذلك اتّساق النصّ وانسجامه.

وتتّضح مدلولاتها من خلال السّياق اللّغويّ المقاميّ الّذي تَرِدُ فيه.لأنّها تضطلع إلى إعطاء دلالة داخل سياق النصّ من خلال التّعابير الّتي يتشارك فيها كلّ من المتكلّم والمخاطب ضمن سياق تواصليّ معيّن. و" تُستعمل التّعابير التّأشيريّة بشكل أساس ومتزايد في التّفاعل المنطوق وجهًا لوجه face-to- face، حيث يكون فهم لفظ، مثل : "سأضعُ هذَا هُنا"، يسيرًا جدّا على الحاضرين، ولكنّ الغائب قد يحتاج إلى ترجمة لفهمه " [1]، على أساس أنّها تعابير تختلف إحالتها بحسب ظروف استعمالها وتلفّظها في سياق معيّن. وما تُحيل إليه هذه الإشاريات هو الجانب الأكثر الّذي يُعنى به الدّرس التّداوليّ، لأنّها قد تدلّ على المتكلّم أو المخاطب...؛ أي تدلّ على غير معيّن إلاّ من خلال سياق المقام التّلفّظيّ بين أطراف الحوار. سواء عن طريق إحالة نصيّة، أو عن طريق إحالة مرجعيّة خارج سياق النصّ لكشف مدلولاتها ومعانيها. هذه " الإحالة" تُزيل الغموض عن سلسلة من المعني الّتي تعتري هذه العناصر الإشاريّة الجافّة شكلاً، وعميقة المعنى مضمونا. و" باعتبار صغر حجمها، وسعة مدى استعمالاتها الممكنة، فإنّ التّعابير التّأشيريّة تُوصل دائمًا أكثر بكثير ممّا يُقالُ " [2]. إذ لا يُمكن فهم كُنهها، وتفسير معانيها إلاّ من خلال سياق تداوليّ يحتويها.

خطاب "الإمتاع والمؤانسة" تبدو فيه العناصر الإشاريّة موجودة وواضحة في سياقه اللّغويّ، واستعان بها المبدع بشكل جليّ في أُطروحاته الفكريّة و التّبليغيّة في سياق المقام التّواصليّ. هذه العناصر تشير إلى معانٍ متنوّعة وجليّة في الخاطب السّرديّ، من ناحية وُرودها عن طريق روي السّــارد، ومن ناحيّة أخرى تظهر في ممارسة التّلفّظ وفــق

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص27.

[2] - المرجع نفسه، ص37.

الاستعمال اللّغويّ والمسار التّواصليّ التّداوليّ بين المبدع والمتلقّي. هذه الإشاريات تتمثّل في: الضّمائر (المتكلّم والمخاطب)، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وظروف الزّمان والمكان...، ومحاولة تصنيفها وفق التّصنيف المشهور لدى علماء اللّسانيات الحديثة، بـ: (الإشاريات الشّخصيّة ، والإشاريات الزّمانيّة والمكانيّة والاجتماعيّة والخطابيّة (النّصيّة)، مع مراعاة الإحالات الّتي تُحيل إليها كلّ تلك العناصر الإشاريّة، وهذا بدوره من اهتمامات تحليل الخطاب ضمن المنهج التّداوليّ.

أنواع الإشاريات:

الإشاريات الشّخصيّة:

إنّ ممارسة الكلام ضمن خطاب التّوحيديّ في إطار سرد الأقوال والأخبار وعلوم العصر بين المبدع والمتلقّي، يجعل من حضور " الأنا"؛ أي ضمير المتكلّم واردًا بكثافة، وفاعلا أساسيّا في كلّ ليالي السّمر. بحكم أنّ هذا التّواصل التّداوليّ يستحوذ عليه مقام المجلس، والرّاوي هو سيّد الموقف فيه.

بالإضافة إلى حضور ضمير المخاطَب الّذي يُشير إلى شخصيّة "الوزير". هذه الضّمائر تُعرف "بالإشاريات" في سياق الكلام، وهي أسماء تدلّ على مُعيّن، ولا يُحدّد معناها إلاّ بمعرفة ما تُشير إليه، وتدلّ عليه. هي أسماء اكتسحت مساحة واسعة ضمن الخطاب التّوحيديّ، ففي كلّ ليلة من ليالي السّمر يستهلّها الرّاوي بسؤال من طرف المخاطَب، فيبدي على غراره اهتماما بليغا بالجواب عليه، ويسايره لتحقيق رغباته الّتي تتمثّل في حُبّ المعرفة والتّطلّع إلى علوم العصر.

فحضور كلّ من ضمير المتكلّم وضمير المخاطَب، واللّذان يتجسّدان في ثنائيّة " السّؤال والجواب"، هذه الصّيغة اللّغويّة اكتسحت الخطاب السّرديّ التّوحيديّ، والّتي تظهر في مطلع كلّ ليلة. كالعبارات التّالية:

" وقال لي في ليلة أخرى...، قلت:..."

" ثمّ حضرت ليلةً أخرى، قال:...، فقلت:..."

" فكان من الجواب...

لقد تكرّرت هذه العبارات في مستهلّ كلّ ليلة، فتستمرّ وتظلّ مرتبطة ببداياتها، دلالة على انطلاق المحادثة، والّتي يتعقّبها الجواب من طرف الرّاوي. هذا المُنطلق السّرديّ وظّفه الرّاوي لانطلاق الحديث، وفرض وجوده على المتلقّي، وتحقيق غاياته.قال:<< ثمّ حضرت ليلة أخرى، فقال: أوّل ما أسألك عنه هو حديث " أبي سليمان" المنطقيّ، كيف كان كلامه فينا، وكيف كان رضاه عنّا ورجاؤه بنا، فقد بلغني أنّك جاره ومعاشره، ولصيقه وملازمه وقافي خطوه وأثره، وحافظ غاية خبره. فقلت: "ما أعرف اليوم ببغداد إنسانا أشكر

لك، وأحسن ثناءً عليك، وأذهب في طريق العبوديّة معك منه...، وقد عمِل رسالة في وصفك ذكر فيها: كرم أخلاقك، وعلوّ همّتك، وصدق حدسك، وصواب رأيك..." [1]. هذا الاستهلال المتكرّر بصيغة (ثمّ حضرتُ ليلة أخرى، فقال: ...، فقلت: ...)، وهي عبارة لفظيّة كلاميّة تعمّدها التّوحيديّ في السّرد لغرض معرفيّ حجاجيّ وتوجيهيّ، كما تُشير هذه العبارات إلى طبيعة السّرد عند الرّاوي، والّذي بدوره يرتبط بتتابع القصّ، وسرد أخبار العلماء والفلاسفة، ومسائل في الدّين والدّنيا...، بالإضافة إلى أنّ هذا التّكرار يبعث في النّفس جانبا تنظيميّا سطّره الكاتب في كلّ ليلة لغرض التّشويق، وفرض رغبة التّطلّع إلى الجديد بالنّسبة للقارئ، لأنّ التّوحيديّ يؤمن بأنّ «لكلّ جديد لذّة» [2].

هذا الصّيغة اللّغويّة الخطابيّة هي مؤشّر سرديّ يدلّ على بداية المحادثة، وفي نفس الوقت يعرّفنا بطرفيّ الحوار التّداوليّ، وهما ضمير المتكلّم وضمير المخاطَب، ويُعدّان قُطبَا العمليّة التّواصليّة في خطاب السّرد للتّوحيديّ.

فضمير المتكلّم يظلّ مُتّصلا بالفعل (حضرتُ، قلتُ)، وهو التّاء المتحرّكة، وهي ضمير يدلّ على من قام بالفعل أو اتّصف به، فعل الحضور وفعل القول. وهذا الضّمير يُحيل إلى السّارد المتكلّم، أي إحالة الخطاب إلى فاعله، هذا الفاعل الرّاوي يُشير إلى نفسه في الخطاب. ويقصد من خلال ذلك أنّ كلّ هذا الخضمّ الهائل من المعارف يصدر منه. وبطبيعة الحال كونه هو سارد الخطاب، وكون أنّ حضوره الشّخصيّ هو ذاته في الحوار التّواصليّ، يلزمه كلّ هذا، ويجبره أن يُشير إلى نفسه بضمير المتكلّم، مع وجود الطّرف المقابل في المقام الحواريّ، وهو المتلقّي الّذي ورد بصيغة جملة: (قال:...)، بفعل القول الّذي يُحيلنا إلى شخصيّة الوزير، وأشار إليه بالضّمير المستتر، وتقديره" هو". الّذي يحيل إلى المتلقّي، وهو عنصر غير لغويّ، أي خارج النصّ.

كما نجد ضمير المتكلّم (نا) الصّادر من الوزير مكرّرا بكثافة، والدّال على الجمع في قوله:(كيف كان كلامُه فينا، ...عنّا، ...بنا)، وهو ضمير متّصل يُشير إلى المتكلّم في سؤاله الموجّه للرّاوي. هذا الضّمير دالٌ على الجمع، فهو إذن يخاطب نفسه بصيغة الجماعة، قد

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص37.

[2] - المصدر نفسه، الجزء الثّاني، ص194.

ينمّ ذلك على انّه يُمارس نوعا من السّلطة، بحُكم أنّه وزير، أو كونه يتكلّم بإشراكه للآخرين، ويقصد السّلطة أو الدّولة بشكل عامّ. لذا أشار إلى فخامة شخصه بهذا الضّمير مُبديا هيبته في مقام مجلسه الموقّر.

فالإحالة الّتي تظهر في الإشاريات المتمثّلة في ضمائر المتكلّم: (تُ، هُوَ، نَا)، هي إحالة مقاميّة، تدلّ على ذات خارج النصّ تُحيل إلى شخصيات الحوار في السّياق التّداوليّ الحواريّ.

أمّا ضمير المخاطَب(أَنْتَ)، والّذي يُشير إلى المتلقّي، قد انزاح عن هذا النّمط، وتجسّد في ضمير "كاف الخطاب" (ك)، والّتي تدلّ وتشير في سياق النصّ إلى المتلقّي، بدءًا من اللّيلة الأولى، على اعتبار أنّ من شروط التّواصل بينهما إزالة الفروق الشّخصيّة، والحواجز الاجتماعيّة، وذلك بإبرام عقد المحادثة دون تكلّف ولا تصنّع. فذكر في قوله:

" قلت: يؤذنُ لي في كاف المخاطبة...، قال: لك ذلك " [1]. هذه الاتّفاقيّة المُبرمة بين الطّرفين، لاَحَت مَعالمُها مُنذ اللّيلة الأولى، إذ بواسطتها طُمست الألقابُ، وأُشير إلى المُرسَل إليه بحرف، وهو ضمير المخاطَب، فسمح ذلك باسترسال الحديث، لأنّ الهدف أسمى من ذلك بكثير، وهو بثّ فروع المعرفة في السّياق التّواصليّ بينهما.

إنّ الإشارة إلى ضمير المتكلّم من دواعي البنية السّرديّة، ومن ضرورياتها، لأنّها تعتمد على شخصيّة الرّاوي، والّذي بدوره يأخذ زمام الحكي وسرد الأخبار والقصص...، وهذا ما نستشفّه في سرديّة التّوحيديّ؛ إذ يضطلعُ إلى البوح والإفصاح عن قضايا العصر، واتّخاذها محور الحديث بينه وبين السّامع. بواسطة ضمير المتكلّم الّذي يصدر من ذات متكلّمة حاضرة في مقام التّواصل الوجوديّ، وبحضور المتلقّي كسامع، وكطرف مهمّ في الحوار الّذي يُبنى عليه السّرد لدى الكاتب.

ضمير المتكلّم من أوضح العناصر الإشاريّة الدّالّة على الشّخص المتحدّث، وتعتمد مرجعيّتها من خلال السّياق المباشر، فهي تُحيل إلى ذات هي: من قام بإنجاز الفعل،وبالتّالي فالمتكلّم يدلّ في كلامه على نفسه، ولهذا فالإحالة مقاميّة تشير إلى شخصيّة التّوحيديّ في

[1] - الإمتاع والمؤانسة، اللّيلة الأولى، ص31.

سياق جملة (قُلْتُ...)، وهي صيغة أحالت على وظيفتين: من جهة التّعبير والحكي الّذي يفرضه المقام التّواصليّ المباشر مع الوزير، ومن جهة ثانية أنّ الرّاوي مُطالبٌ بكتابة الخطاب، وسرد ما دار بينه وبين الوزير، من طرف العنصر الغائب، ألا وهو " أبو الوفاء المهندس". والّذي بدوره أقحمه في خطابه وأشار إليه في بداية أوّل ليلة وصوله وسمره مع الوزير.

إنّ تلك الإشاريات الشّخصيّة الّتي تُشير بالإحالة إلى وجود المرسِل والمرسَل إليه، اللّذان قادا مسار الحوار من بداية ليالي السّمر إلى نهايتها عن طريق ذلك التّواصل في مقام المجلس الّذي بُنيَ وأُسّس بناءً على أقوال السّرد، بالإضافة إلى تلك الإشاريات الّتي تتزاحم في الخطاب، وتتخلّل طيّات السّرد، إذ نجدها تشغُل حيّزا كبيرًا معظم الخطابات المتنوّعة الّتي اعتمدها الرّاوي والّتي نشأت من عُمق ذلك التّواصل التّداولي في المحادثات بين المبدع والمتلقّي والمتمثّلة في: القصص والحكايات، هذه الأخيرة اشتملت بدورها على إشاريات شخصيّة أحالت على أبطال القصّة في سياق النصّ. قال الرّاوي:

" قال: ابن عبّاد يوما: مَنْ في الدّار؟ فقيل له: أبو القاسم الكاتب، وابن ثابت.فعَمِل في الحال بيتين، وقال لإنسان بين يديه: إذا أذنت لهذين فادخُل بعدهما بساعة...، فدخل إلى المجلس ثمّ قال: يا مولانا، قد حضرني بيتان، فإذا أنت أذنت لي أنشدت، قال: أنت إنسان أخرق سخيف، لا تقول شيئًا فيه خير، اِكفني أمرك وشِعرك، قال: يا مولانا هي بديهتي، فإن نكرتني ظلمتني، وعلى كلّ حال فاسمع، فإن كان بارعين، وإلاّ فعاملني بما تحبّ. قال: أنت لجوجٌ، هاتِ. فأنشد:

يأيّها الصّاحب تاج العلا * لا تجعلني نُهْزَةَ الشّامتِ
بمُلحِدٍ يُكنّـــى أبـا قاســم * ومُجبَر يُعـزّى إلى ثابت

قال: قاتلك الله، لقد أحسنت وأنت مسيء، قال لي أبو القاسم: فكِدت أتفقأ غيظًا، لأنّي علمت أنّه من فعلاته المعروفة، وكان ذلك الجاهل لا يَقرِض بيتا، ثمّ حدّثني الخادم الحديث بنصّه. والّذي غلّطه في نفسه وحَمَله على الإعجاب بفضله، والاستبداد برأيه، أنّه لم يُجْبَه قطُّ بتخطئة، ولا قُوبِل بتسوئة ، ولا قِيل له أخطأت أو قصّرت أو لحّنت أو غلطت أو

أخللت " [1]. فالسّارد يعرض في هذا النصّ عن أهمّ الخصال والأخلاق الّتي يتّصف بها "ابن عبّاد"، والغريب في الأمر أنّه يكتب شعرا ويطلب من غيره إنشاده ومدحه فيه، أويهجو ويكلّف غيره، كما فعل ذلك مع "أبي القاسم" و"ابن ثابت". شخصيات ذُكرت في الخطاب السِّرديّ دلّت عليها أسماء الإشارة، بإحالة قبليّة أو بعديّة في سياق الكلام، هذه الإشاريات اختصرت وجنّبت الرّاوي التّكرار، ودلّت على شخصيات ضمن القصّ، استوعبها السّامع عن طريق تداول الكلام الحواري المباشر بينه وبين الرّاوي في سياق المجلس.

يبدو حضور الضّمائر بشكل مكثّف في سياق السّرد القصصيّ، بدءًا من الإشاريات الشّخصيّة المتمثّلة في : الضّمير المستتر، والضّمير الظّاهر "أنت"(المخاطب)، و"تُ" الدّال على المتكلّم، و"ك" المخاطب، الهاء. كلّها إشاريات تدلّ على مُعيّن في سياق النصّ بإحالة نصيّة قبليّة أو بعديّة، أو بالإشارة العائديّة أواللاّحقيّة كما يُسمّيها " جورج يول [2]، هذه الإشاريات تُنسب لشخصيات القصّة عن طريق الإحالة، كما يتضمّن أسماء الإشارة، والّتي تُعدّ من المبهمات الّتي لا يفسّرها إلاّ السّياق الّذي ترد فيه. و(هذان) إشارة لمن كان أمام الباب، وهي إحالة مقاميّة، واسم الإشارة (ذلك الجاهل) يدلّ على إحالة نصيّة بعديّة، تشير إلى لفظ متأخّر بعد اسم الإشارة.

[1] - أُنظر: الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص54-55.

[2] - جورج يول، التّداوليّة، ص46.

الاسم الموصول "الّذي":

تعدّ الأسماء الموصولة قرائن لغويّة إشاريّة لا يُفهم معناها إلاّ من خلال اتّصالها بسياق المقام، منها : الّذي، الّتي...، وهي أسماء تدلّ على مُعيّن إلّا وفق سياق تواصليّ مُعيّن.ويتّضح مدلولها من خلال جملة تأتي بعده تُسمّى: "صِلة الموصول"، تأتي لتبيّن معناها وتوضّحه. فعندما أشار الرّاوي إلى شخصيّة معيّنة ب اسم الموصول " الّذي"، في قوله: والّذي غلّطه في نفسه، وحَمَله على الإعجاب بفضله، والاستبداد برأيه، أنّه لم يُجْبَه قطُّ بتخطئة...)، الاسم الموصول يُشير في سياق النصّ إلى شخصيّة "ابن عبّاد"، وذلك من خلال جملة من العبارات الّتي يُوحي معناها بأنّه: لم يقبل في حياته نصحا من طرف غيره، قد يكون ذلك بدافع من قوّة السّلطة الّتي يتمتّع بها. بحيث لا يدع مجالا لإبداء أيّ رأي اتّجاهه. فقد أشار هذا اسم الإشارة إلى مجمل الأخلاق الّتي يتّصف بها الرّجل، وتوضّحت بواسطة جملة صِلة الموصول الدّالة على مذكور بعدها بمرجعيّة نصيّة قبليّة تُحيل على سابق؛ أي إحالة قبليّة.

وعلى هذا فإنّ الاسم الموصول من الإشاريات الّتي يُمكن أن يُشار بها إشارة حسيّة إلى موجودات في سياق النصّ، وهذه القرائن النّصيّة من مميّزاتها أنّها تُعوّض المشار إليه، ويُفهم ذلك من خلال صِلة بعده تسمّى " صلة الموصول"، وهي الّتي تُحيلنا إلى مرجعيّة قبليّة أو بعديّة، وهذا ضمن سياق التّواصل. لذلك فهذه الإشاريات تُحدَّد قيمتها التّداوليّة من خلال إحالة تلك القرائن على المُحال عليه في سياق النصّ أو خارجه. فلا نستطيع أن نحدّد معالمها إلاّ وفق مقام تواصليّ معروف. والرّاوي يحكي قصّة شخصيّة غائبة، مع أنّه ذكر السّياق الّذي وردت فيه جميع ملابساتها، أي أنّها استوفت عناصر السّياق الّذي جرت فيه الأحداث وفق سياقها الخارجي، لكن دلت عليها عناصر الإشارة مع السّياق الجديد بين الرّاوي والسّامع بواسطة خاصيّة الإحالة.

لذا تعدّ هذه الأسماء عناصر مهمّة في النصّ، قد تحقّق مرجعيّة سابقة إثر وجودها في سياق خارجيّ، وتسترجع من طرف الرّاوي عن طريق الإحالة، أو تشير إلى موجودات داخل النصّ بالإحالة أيضا سواء كانت قبليّة أو بعديّة.

النّــــــداء بـ: "أيّ":

النّداء أحد العناصر اللّغويّة الّتي تُستعمل في السّياق للإشارة إلى تنبيه المخاطَب، وجلب انتباهه لغرض حَمله على التّركيز والاهتمام بما يقال. وهو صيغة تتحقّق بفعل التّلفّظ الّذي يُنجزه المتكلّم، ويؤسّسه وفق العمليّة الحواريّة، وذلك بالإشارة إلى المخاطب (المنادى) بواسطة حرف النّداء، سواء كان موجودا أو محذوفا في سياق الجملة.

وقد وظّف السّارد أسلوب النّداء في أكثر من موقع، بداية من اللّيلة الأولى، وهو يُخاطب شخصيّة الوسيط الّتي تُحيل على شخصيّة خارج الخطاب، وهو " أبو الوفاء المهندس"، فيقول: " وصلت أيّها الشّيخ أوّل ليلة في مجلس الوزير، فأمرني بالجلوس..." [1]. المنادى في السّياق النصّي هو الشّيخُ " أبو الوفاء"، والرّاوي أشار إليه بأداة النّداء" أيّ" والهاء للتّنبيه، ولكن هذه الأداة في الحقيقة هي المنادى في اللّغة، أمّا ضمنيّا فهو الشّيخُ، بصيغة النّداء تلك لغرض التّنبيه، واستدعاء ذهنه للتّركيز أكثر، خاصّة وأنّه طلب منه سرد كلّ ذلك، مُسبقا.

وقد برز النّداء في التّواصل الحواري المباشر مع الوزير، بقول الرّاوي: " فقلت أيّها الوزيرُ: قد خالطت العلماء، وخدمت الكبراء، وتصفّحتُ أحوال النّاس...، وكذلك قال ابن السّماك للرّشيد: يا أمير المؤمنين لتواضعك في شرفك أشرف من شرفك..." [2]. وهذا القول صدر من المبدع في سياق المجلس. فقام بسرده بضمير المتكلّم، التّاء المتحرّكة "ت"، والّذي يُشير بها إلى نفسه. وهو ينادي الوزير بأداة النّداء مع حرف التّنبيه " أيّها"، لغرض التّنبيه على الإقبال لاستيعاب ما سوف يذكره من حديث ، مشيرا إليه ب"أيّ"، ليجلب انتباهه، فيما سوف يذكره عن نفسه، أو يطلعه عن صفاته الّتي تجعل منه جديرا بالمحادثة معه في مجال العلم والمعرفة. وكذلك يُسهم هذا النّداء في تنبيه القارئ الخارجي الوسيط "أبي الوفاء" في استمالة انتباهه، وتركيزه لما سوف يطلعه عنه الرّاوي.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، اللّيلة الأولى، ص30.

[2] - المصدر نفسه، ص32.

كما يظهر أسلوب النّداء في الإشارة إلى المنادى البعيد، خاصّة في سرده لأقوال الرّواة، على نحو " ابن السمّاك"، في نداء أمير المؤمنين ، لتنبيهه وإعلامه أنّ خصاله الحسنة تسبق شخصه.

النّداء في السّياق التّواصليّ من الإشاريات الّتي تجعل المنادى ينتبه لما يريده المتكلّم من المخاطَب البعيد بأداة النّداء " أيّ"، وحرف النّداء " يا..."، بمعيّة الهاء كحرف متّصل بالأداة يشير غلى معنى التّنبيه في" أيّها"، في سياق الحوار التّواصليّ التّداوليّ، لأنّ لا معنى لأدوات وحروف النّداء خارج السّياق التّواصليّ.

لذا تعتبر من الآليات الّتي تتداول في نطاق السّياق التّواصلي بين طرفي الحوار، لغرض تنبيه المخاطًب على الإقبال؛ أي إقبال الذّهن ضمنيّا، وإحالته إلى التّركيز أكثر لما قِيل أو لما سوف يُقال.

معاني الإشاريات الزّمانيّة:

إنّ طبيعة الزّمان في خطاب " الإمتاع والمؤانسة" يحتضنه مسار السّرد؛ أي له بداية ونهاية، هذا الوصل في السّرد، أو بالأحرى التّواصل الزّمنيّ الّذي يجسّده الليل، يمتدّ عبر ليالي السّمر، لغرض تمديد المحادثة وخطاب المعرفة فيه. وهذا ما يصبو إليه المتلقّي ويرغب في معرفته، وهذا يحتاج متّسعا من الزّمن استطاع المتلقّي أن يجد له حيّزا زمنيّا معتبرا ليتمتّع بكلامه، فكان اختيار اللّيل للأنس، أنسب أوقات السّهر والسّمر، ومن خلاله يتحقّق هدوء الذّهن والحسّ معا، لاستقبال الكلام والمشاركة في المحادثة.

لقد تفاعلت فيه أزمنة العصور، من خلال استحضار ثقافات الشّعوب والأمم، والّتي حاول التّوحيديّ في خطابه السّردي استيعابها، وحصرها جميعاً، كم حمل بين طيّات صفحاته وحدات زمنيّة شكّلت صيرورة السّرد، وأخذت مساحة واسعة في الخطاب سواء على المستوى اللّيالي، والمتمثّل في تعاقب الزّمن كلّ ليلة، أو على مستوى الأزمنة المذكورة بين طيّات الحكي والقصّ، أي ضمن سياقات خارجيّة، أُستحضرت في المجلس بدعوة من الرّاوي من خلال مجموع القصص الواردة في خطاباته، بما يحمله ذهنه من معارف العلماء، وحكايات العصر. وكل هذا وفق سياق تواصليّ معرفي وتبليغيّ هادف.

ذلك أنّ هذه الأزمنة فعّلت السّرد، وساهمت في استيعاب المتلقّي لمضمون تلك الأخبار والقصص والمعارف بكلّ وعي ومتعة.

إنّ البنية السّرديّة عند التّوحيديّ ليست بمنأى عن عناصر السّرد، ومن بينها عامل الزّمن الّذي تقصّى وتابع خطوات الأحداث والسّرد، فهو ملازم لها طيلة الخطاب من بدايته إلى نهايته، ناهيك عن تخلله وتسلّله داخل طيّات الخطابات الصّادرة من الرّاوي.

فتظهر من خلال تلك الأقوال المؤشّرات الدّالة على ظروف الزّمان المُنبعثة من الزّمن الحاضر وهو زمن السّرد من خلال ذلك التّواصل الحواري المباشر بين المبدع والمتلقّي. بقوله: " وصلتُ أيّها الشّيخُ – أطال الله حياتك - أوّل ليلة في مجلس الوزير- أعزّ الله نصره- فأمرني بالجلوس...،ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتّأنيس، ولأتعرّف منك أشياء كثيرة مختلفة تردّد في نفسي على مرّ الزّمان، لا أُحصيها لك في هذا

الوقت، لكنّي أنثرها في المجلس بعد المجلس" [1]. ويُعدّ لفظ " ليلة"، من الظّروف الّتي تدلّ على مدّة معيّنة، وارتبطت بحدث السّياق الوجوديّ بينه وبين الوزير في إطار التّواصل بينهما. وجعل من اللّفظ نكرة " ليلة" دون تحديد ليلة بعينها، وهذا في حدّ ذاته يُشير إلى زمن ووقت مَضَى.

أمّا لفظ "مرّ الزّمان"، فهي تشير إلى أنّ المواضيع والمحادثات سوف تُطرح في الأيّام القادمة، وقد حدّدها بفترة اللّيل" أوّل ليلة"، إشارة إلى ليالٍ قادمة، أي آتية، فهو لا يعني الزّمن الحاضر. بالإضافة إلى أنّ زمن اللّيل ضمن السّياق التّواصلي، يشير بدوره إلى السّكينة والهدوء الّذي يبعث الرّاحة والمتعة، خاصّة أثناء سرد المعرفة فيه، فكان بذلك المقال مناسبا للمقام.

كما يعدّ لفظ "أُنثرها" في المجالس القادمة، رغبة منه وإشارة إلى طلب امتداد الزّمن؛ أي استمراره زمن التّلاقي ليلا ، وهذا ما يتمنّاه ويرنو إليه المتلقّي. لتحقيق رغبته الملحّة في طلب العلم والمعرفة. لذا فكلمة (ليلة ، زمان) يشيران بحسب السّياق إلى الوقت القادم في زمن غير محدّد؛ أي ليالي قادمة.

لذا فزمان التّكلّم هو مركز الإشارة الزّمانيّة في الكلام – حسب رأي محمود نحلة- أي أنّ لحظة التّلفّظ هي الّتي نقيس على غرارها ما يُمكن أن يُشير إليه ظرف الزّمان في الكلام.

يزخر سرد التّوحيديّ بمجموع الإشاريات الزّمانيّة الّتي تتواجد ضمن القصّ، وتكون ضمن أخبار العلماء والفلاسفة، فلا وجود لقصص موحيّة وهادفة دون أن يتخلّلها أزمنة دالّة عليها ومعبّرة عنها. فتوظيف الرّاوي للزّمان في خطابه رغبة منه في دعم دلالة البنية النّصيّة، وإضفاء جمال السّرد على الطّرح المعرفيّ الّذي شكّل به خطابه. ويظهر ذلك من خلال قوله: " ثمّ إنّي أيّها الشّيخُ، ذكرت للوزير مناظرة جَرَت في مجلس الوزير " أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات" بين " أبي سعيد السّيرافيّ" و" أبي بشر متى" واختصرتها . فقال لي: أُكتب هذه المناظرة على التّمام...، فكتبت:حدّثني أبو سعيد...، لمّا انعقد المجلس سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة...، ثمّ واجه أبو سعيد "متى"، فقال له: حدّثني

---

[1] - المصدر السّابق ذكره، ص30.

عن المنطق ما تعني به؟ قال متى: أعني به أنّه آلة من آلات الكلام، يُعرف بها صحيح الكلام من سقيمه...، فقال أبو سعيد: أخطأت. لأنّ صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالنّظم المألوف والإعراب المعروف، إذا كُنّا نتكلّم العربيّة..." [1]، وهي مناظرة تناولت قضايا معرفيّة وفلسفيّة لامست جوانب اللّغة والمنطق، والبلاغة، وتعدّ من أجمل ما قِيل في السّرد المعرفيّ لدى التّوحيديّ، لقد زَخرت بمعرفة لا متناهيّة، وبلاغة لا حدّ لها، تعكس جمال اللّفظ ورونق المعنى، خاصّة وأنّ محتواها تضمّن أطول ليلة تقريبا ضمن ليالي الأنس والإمتاع. سرد فيها الرّاوي كلّ التّفاصيل بدقّة، " قلت لعليّ بن عيسى: وكم كان سنّ أبي سعيد في ذلك الوقت؟ قال: مولده سنة ثمانين ومائتين، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة..." [2]، " لأنّ أبا سعيد مات في رجب سنة ثمان وستّين وثلاثمائة " [3]. إنّ لفظ " سنة" ظرف زمان، يشير إلى تحديد عامل الزّمن في السّرد، كما يشير بداية إلى المدّة الّتي انعقد فيها المجلس، أي زمان وقوع الحدث. والمتمثّل في المناظرة الّتي جرت بين " أبي سعيد" و" متى" ، وبمجرّد أن يستهل الرّاوي كلامه مشيرا إلى وقت المحادثة، وهذا عنصر مهم في التّواصل لكي يزيح الغموض عن السّامع، ويُثبّت له الأحداث ووقت وقوعها، فيكون على علم بزمن حدوثها، ويكون بذلك قد فهم الكلام من خلال هذا السّياق التّواصليّ المبنيّ على وضوح سرد المناظرة القائمة على زمن وقوعها.

وعند الإشارة إلى عُمر أحد قُطبي الحوار التّواصلي في وقت وأثناء المحادثة في سرد الرّاوي، هذا في حدّ ذاته يحدّد معالم السّنة المرتبطة بفعل الحدث الّذي جرى في مدّة زمنيّة مضبوطة، أي في تلك السّنة تحديدا. وكلها نقاط زمنيّة تُساهم في فهم واستيعاب الحكي لدى المتلقّي، من خلال هذا التّواصل المباشر بينه وبين المبدع . فذكر الأزمنة في القصّ وفي الحوار ، هي نقاط إشاريّة تبعث على استيعاب سيرورة المحادثة بين طرفي الحوار. بالإضافة إلى أنّ هذه الإشاريات الزّمنية ضرورة سياقيّة لربط الأحداث، وتسهيل فهمها لدى السّامع خلال التّواصل في المقام الحواري.

---

[1] - المصدر السّابق، ص88-89.

[2] - نفسه، ص102.

[3] - نفسه، ص104.

كما أشار السّارد إلى فلسفة اليونان في سياق مرجعيّ، وهذا بدوره يدلّ على الإشارة إلى الزّمن الماضي؛ أي عصر المعرفة والفلسفة المطلقة. ويدلّ على أنّ السّارد أراد أن يأخذ ذهن السّامع إلى الزّمن الماضي ليعرّفه عن معرفة قديمة ، لكن استحضارها من خلال تلك المناظرة يبيّن مدى اطّلاع العالم والمفكّر "أبي سعيد" بها، وفي نفس الوقت أراد من المتلقّي أن يعي تلك المقارنة الفكريّة، ويستفيد منها، ويُحدث في نفسه عنصر التّأثير فيه من خلال ذلك السّياق التّواصليّ.

من خلال عمليّة التّواصل التّداوليّ بين المتكلّم والمخاطَب، نجم عنها ذكر عناصر زمنيّة تُشير إلى حدوث الفعل – الحدث، في وقت محدّد ومضبوط، وهذا يدلّ على مدى مصداقيّة الرّاوي في نقل الحقائق دون تزييف، فيمكّنه ذلك من كسب ثقة المتلقّي، وجعله يهفو ويطّلع إلى اللّقاء القادم. وهذا ما وجدناه في شخصيّة الوزير الّذي يختم كل ليلة بطلب يتمثّل في خاتمه الوداع، وهي عبارة كرّرت على مدار نهاية كل ليلة بصيغة: "هاتِ مُلحة الوداع". وهي جملة وردت في نهاية كلّ ليلة، تشير إلى خاتمة وقت السّمر.

يقول على لسان الوزير: " قد تقطّع اللّيل، ويحتاج في هذا الحديث إلى استئناف زمان..." [1]. ثمّ قال: " إنّ اللّيل قد ولّى، والنّعاس قد طرق العين عابثا، وإذا حضرت في اللّيلة القادمة أخذنا في حديث الخلق والخالق " [2]، " هاتِ مُلحة الوداع حتّى نفترق عنها، ثمّ نأخذ ليلة أخرى في شجون الحديث" [3]. و" قال لي: هات الوداع ، فإنّ اللّيل قد همّ بالإقلاع" [4] . إنّ وُرُود عبارات: " تقطّع اللّيل"، و" اللّيل قد ولّى"، " هات ملحة الوداع حتّى نفترق عنها"...، دالّة عن زمن الافتراق، وتشير إلى نهاية وقت السّمر، بطريقة جدّ حضاريّة أنتهجها المتلقّي ليضمن اللّقاء القادم في ليلة أخرى متجدّدة. جمل تتضمّن طلب نهاية المجلس، وعادة ما تكون خاتمته شيء من النّادرة أو الشّعر أو الحكمة.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل ، ص49.

[2] -المصدر نفسه، ص112.

[3] - نفسه- ص36.

[4] - نفسه، ص121.

أمّا صيغ:" استئناف زمان"، و" نأخذ ليلة أخرى.."، فهي تشير إلى وقت وزمن قادم، فإذا كان حدث القيام بفعل المحادثة هو وقت تلفّظ هذا الكلام في سياق التّواصل، فإنّ هذا الظّرف الزّمانيّ يشير إلى المستقبل القادم الّذي يتطلّع المتلقّي إلى بلغوه مخلّفا وراءه نشوة " مُلحة الوداع"، والّتي بدورها تشير إلى ختام المجلس ، أو نهايته.

صيغ تدلّ على أنّ اللّيل أشرف على نهايته، والقصد أنّ هذه الخواتم تُشير إلى نهاية مجلس السّمر، والّتي يتحكّم في إبطاله المتلقّي. لكن من فرط حبّه للحديث، واستمتاعه بالمحادثة، فإنّه يكاد يرتجي الصّبح أن أمهل قليلا، لكنّه يتدارك اللّقاء، ويشعر أن نفسه لها حقّ عليه، ولكي لا تفوته فرصة الاستمتاع بكلام الرّاوي، يُحاول أن يطلب المزيد والمتمثّل في خاتمة المجلس. هذه النّهايات والخواتم دعّمت أواصر الانسجام بين الطّرفين ضمن التّواصل في السياق الحواريّ. وضمنت الحضور القادم، على الأقلّ من طرف المبدع في الزّمن الموالي؛ أي في ليلة سمريّة آتية.

إنّ السّارد يصنع زمن البداية، والّذي يشير إلى لفظ" ليلة"، وزمن نهاية يختم زواله بملحة الوداع، ويشير ما بينهما من وقت إلى زمن التّلفّظ الّذي يفعّله الحوار التّداوليّ التّواصليّ بين المبدع والمتلقّي.

فزمن سيرورة السّرد في " اللّيلة"، ينطوي على ثلاث مستويات زمنيّة، تتمثّل في:

أ/ زمن بداية الحدث، انطلاق أوّل ليلة في السّرد، ويشير إليها بسؤال المتلقّي، بـ :

" ثمّ عُدت وقتا آخر. فقال: كنت حكيت لي..." [1]

ب/ زمن التّلفّظ بجميع سياقاته الوجوديّة؛ أي الزّمن الّذي يتجسّد في الحوار المباشر بين الطّرفين في المجلس، والمتمثّل في زمن اللّيل. والزّمن المُستقى والمُستدعى بخاصيّة المرجعيّة الّتي تضمّنت أزمنة فرضها السّرد أثناء المحادثة في السّياق التّداوليّ ضمن مجموع القصص والأخبار الّتي استشهد بها الرّاوي في كلامه مع الوزير، وتشير إليه مجموع ظروف الزّمان وقت حدث الكلام. بقوله: " فكان من الجواب:...، قلت: ..."[2].

---

[1] - المصدر السّابق، ص173.

[2] - نفسه، ص170.

ج/ وزمن النّهاية، ويتمثّل في " ختام المجلس"، والّذي يُشار إليه بصيغة " ملحة الوداع". بقوله: إنّ اللّيل قد دنا من فجره، هات ملحة الوداع.

هذه مجموع الإشاريات تدلّ على زمن يُحدّده سياق التّواصل بجميع عناصره وموجوداته، بدءًا من لحظة التّلفّظ الّتي حَظِي بها طرفا الحوار، لأنّ هذه العناصر والأسماء الإشاريّة اللّغويّة لا يظهر محتواها باديا في الأنساق والتّراكيب، إلاّ إذا وُضعت في سياق تواصليّ محدّد المعالم والدّلالات، فيزيح عنها الإبهام والغموض، وبالتّالي يُفهم من خلالها مضمون الخطاب، لأنّها تُساهم في بنائه وتماسكه.

وكما استطاعت الإشاريات الزّمانيّة في الخطاب السّردي التّوحيديّ أن تُثبت وجودها ووظيفتها التّبليغيّة والتّأثيريّة لدى المتلقّي لكي يستوعب بدوره مقصديّة الكلام، ومعناه الدّلاليّ الّذي يشير إليه ضمن الخطاب، وضمن السّياق الحواري التّداولي، فإنّ للإشاريات المكانيّة لها ما تقول وما تدلّ عليه.

معاني الإشاريات المكانيّة:

المكان هو ذلك الفضاء الّذي يضمّ عناصر السّياق، والّتي فعّلها طرفا الحوار في الخطاب التّداولي بين المبدع والمتلقّي. فلا تزال تلك الإشاريات اللّغويّة توضّح معالم التّواصل بين الطّرفين، وذلك عن طريق فضاء المكان الّذي يحمل في طيّاته ثقافة العصر.هذا المكان يجسّده مجلس السّمر، القائم على ذلك التّواصل الحواري بينه وبين الوزير. في قصر هذا الأخير. بتصريح من المبدع أنّه أُستدعي من طرفه.

المكان في خطاب " الإمتاع والمؤانسة"، هو ذلك الحيّز الّذي يشغله مقام التّواصل، وهو مكان ثابت ومتكرّر. فالثابت فيه هو مجلس الوزير في قصره، والمتغيّر هو ذلك التّجدّد الّذي تجري فيه المحادثة، والّذي يجسّده المجلس المتكرّر كلّ ليلة. هذا المكان يجمع ويحتوي عناصر الحوار جغرافيّا، ويؤسّس من خلاله فكرا ومعرفة ضمنيّا. هذا التّفاعل في مسار المسامرات اللّيليّة شكّل إطارا تواصليّا احتضن عوالم السّرد من حكايات وقصص ونوادر وأخبار وفلسفة وبلاغة فاقت حدود المكان، وتجاوزته إلى ذكر أمكنة مستوحاة من الواقع، واستثمرها المتكلّم في سرده عن طريق مرجعيّة لسياقات خارجية اقتحمت مكان المجلس بواسطة الرّاوي، وهو يحكي عنها، ويذكرها ضمن طيّات قصصه وأخباره. فكان لهذه القصص أمكنة ومواقع تعدّت الزّمن الحاضر، وهو يحكي عن ماضيها، هذه العناصر الزّمانيّة والمكانيّة التّي بدورها تؤدّي وظيفة التّواصل ضمن سياق معيّن، انطلاقا من أوّل ليلة في قوله: " وصلت أيّها الشّيخ أوّل ليلة إلى مجلس الوزير"، ولفظ " المجلس" مُعيّن بالإضافة إلى اسم بعده، يُشير إلى ذلك الإطار المكانيّ، ألا وهو دار الوزير، مع ضيفه "أبي حيّان التّوحيديّ"، هذا المكان احتضن بدوره ثقافة وفكر العصر بجميع فروعه الفكريّة والفلسفيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة...، ضمن سياقات مرجعيّة عكست واقع المعرفة في القرن الرّابع الهجريّ. واستدلّ بها المبدع لتثمين كلامه وتبرير حججه، وبيان قدرته على الخوض في كلّ ما يطرح له أو عليه.

فهذا المكان يشير إلى طبيعة التّواصل، وعناصره المكوّنة له، وعلى رأسها طرفي الحوار في مجلس موقّرٍ يُوحي بمنزلة الطّرفين عالمٌ ومتعلّمٌ، مفكر فيلسوف، وحاكم لا

يُستهان مطلقا بعلمه ودرايته بشؤون الحياة بجميع مجالاتها. كما يشير إلى وظيفة التّواصل البلاغي والمعرفيّ بين طرفي الحوار، والّذي بَانت معالمه منذ أوّل ليلة، وأيضا يُحيل إلى طبيعة تلك المحادثات المعرفيّة بجميع فروعها، وجوانبها الإنسانيّة. هذه الفروع ساهمت في إنتاج الخطاب السّرديّ بجميع عناصره الإشاريّة الزّمانيّة والمكانيّة.

الإشاريات المكانيّة هي تلك العناصر الّتي تشير إلى المواقع عن طريق الوظيفة الكلاميّة التّداوليّة في سياق التّواصل. إذْ يمكن تفسير معناها من خلال مكان وجود المتكلّم بالاعتماد على مكان التّلفّظ الّذي يُسهم في تحديد المسافات القريبة أوالبعيدة عن طريق تلك الإشاريات الّتي يتخلّلها الخطاب، كما في قوله: " قال لي ليلة أخرى: حدّثني أبو الوفاء عنك حديث الخراسانيّ، فأريد أن أسمعه منك. قلت: كنت قائما عشيّة على زَنْبريّة * الجسر في الجانب الشّرقيّ والحاج يدخلون، وجِمالُهم قد سدّت عرض الجسر- أنتظر جوازها وخفّة الطِّريق عنها، فرأيت شيخا من أهل خُراسان ذَكَر لي أنّه من أهل سَنْجان* واقفًا خلف الجمال يسوقها، ويحفظ الرّحال الّتي عليها. حتّى نظر إلى الجانب الغربيّ فرأى الجذع عليه " ابن بقيّة"، وكان وزيرا صلبه الملِك لذنوب كانت له- فقال : لا إله إلاّ الله، ما أعجب أمور الدّنيا، وما أقلّ المفكّر في عِبَرها وغيَرِها، عضد الدّولة تحت الأرض وعدوّه فوق الأرض!" [1]. لقد تخلّل السّرد القصصيّ عند التّوحيديّ في" الإمتاع والمؤانسة" عناصر وقرائن لغويّة تّشير إلى العديد من الأمكنة، منها: (الشّرق، الغرب، خلف، تحت، فوق)، هذه الألفاظ تشير إلى أماكن معيّنة، تُعرف وتُحدّد دلالاتها، وما تشير إليه بدءًا من فعل التّلفّظ بها عن طريق شخوص القصّة من خلال سرد الرّوي.

فقد حدّد سرد القصّة مكان وجود الشّيخ، وذلك بالإشارة إليه بظرف المكان" خلف"، وأنّه وراء الجمال، وفي لحظة وقوفه على موقع من الأرض ينظر إلى الجانب الغربيّ

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص45
* الزّنبريّة: السّفينة الضّخمة.
* سَنجان: قرية على باب مدينة مرو.

"الغرب"، ويشير إلى مكان معيّن، وهو يُخاطب " الخراساني"، وفي نفس الوقت يُحدّد له مكان" مكان صلب الوزير ابن بقيّة"، وهو موجود على جذع الشّجرة. وتمّ هذا كلّه من خلال ذلك التّواصل الحواريّ بينهما، والّذي يختمه بصيغة تعجبّ من هذا الحدث الحاصل.
أمّا ظرف المكان (فوق وتحت)، فلا يمكن فهم مضمونها إلاّ من خلال ذلك السّياق الكلاميّ الّذي جرى بينهما، والّذي يُوحي بأنّ ذلك المطلوب مدفونا في الأرض والآخر يمشي عليها.
وجملة القول أنّ تلك الإشاريات المكانيّة لا يمكن تحديد مواطنها على حيّز مكان الأرض جغرافيّا، إلاّ من خلال موقع ومكان المتكلّم، واتجاهه لحظة التّلفّظ بالكلام، ولحظة ذلك التّواصل التّداوليّ بين أطراف الحوار. ومن خلال السّياق المقاليّ النّصيّ الّذي تَرِد فيه، فيعدّ بذلك مكان التّلفّظ مرجعيّة لتحديد معنى الكلام وإزالة الإبهام عنه. وكذلك فإنّ التّأشير المكانيّ المُراد معرفته وتحديد مساحته وأبعاده الدّلاليّة موجود في الكلام، ويتوضّح من خلال سياق الكلام، فبالتّلفّظ ينجلي الغموض عن معاني الأمكنة، وتفهم بواسطته ضمن مقام التّواصل الّذي وجدت فيه، وليس بعيدا عنه، وإلا أصبحت كلمات مطلقة التّعيين وعامّة، لذا فوضوح معانيها تظهر من خلال الخطاب سياق التّواصل الّذي ترد فيه.
وهذا كلّه يظهر ويتجلّى من خلال الوظيفة المقاميّة الّتي يسّرت البوح عن كُنه الألفاظ المكانيّة في المقام التّخاطبيّ، وفجّرت الإفصاح عن تلك الإشاريات الدّالة والموحيّة بالمواطن الموجودة في أماكن محدّدة لحظة التّلفّظ بها وذلك عن طريق شخصيات القصّة في سرد التّوحيديّ، هذه الأمكنة أضفت جمالا ورونقا في السّرد القصصّي، خاصّة وأنّها استلهمت ذلك السّحر والمعنى الدّلاليّ القويّ من خلال ذلك التّواصل التّداوليّ الحواريّ بين عناصر وشخصيات القص في الخطاب السّرديّ.

لذا فأهميّة ووظيفة الإشاريات الزّمانيّة أو المكانيّة، تبدأ لحظة إزالة الغموض عنها بدءًا من زمان ومكان فعل التّلفّظ بها. في خضمّ ذلك السّياق التّداوليّ بين طرفي الحوار.وأنّ هذا المقام التّواصليّ بكل تجلّياته وظروفه السّياقيّة المحيطة به سواء كانت وجوديّة أو سياقات مرجعيّة، فإنّه هو الكفيل الأوحد بتحديد ما تُشير إليه من أزمنة وأمكنة، ومواقع تسهّل عمليّة التّواصل بين المرسل والمرسل إليه في إطار الاحترام المتبادل الّتي توحي إليه تلك الإشاريات الاجتماعيّة في الخطاب السّرديّ.

الإشاريات الاجتماعيّة:

إنّ العلاقة بين أطراف الحوار والسّياق التّداوليّ في الخطاب السّرديّ عند التّوحيديّ، بين المبدع والمتلقّي تضبطها مجموعة من الشّروط الأساسيّة، والّتي صرّح بها السّارد في مطلع اللّيلة الأولى جراء فعل التّواصل بينه وبين الوزير، كنوع من أنواع الاتّفاق في المعاملة الاجتماعيّة الّتي قد يفرضها المقام التّواصلي بينهما، وهو مجلس الوزير. ولكن هذا الأخير لفرط احترامه لنفسه، وتقديره للعلم والعلماء فقد امتثل لاقتراح:" أبي حيّان"، والّذي بادر بالاستئذان منه بطلب إزالة وطمس كلّ الألقاب، وكلّ أنواع الألفاظ الدّالة على التّكلّف والرّفعة في المخاطبة لعلوّ منزلة المتلقّي، قلت: " يُؤذن لي في كاف المخاطبة، وتاء المواجهة،حتّى أتخلّص من مزاحمة الكناية ومضايقة التّعريض...، قال: لك ذلك، وأنت المأذون فيه، وكذلك غيرُك "[1]. بُنود هذا الاتّفاق والاستئذان سهّلت عمليّة المعاملة والتّواصل، وعزّزت الثّقة بينهما استمرار التّواصل في مقام مجلس السّمر.

وبما أنّ هذا التّواصل الحواريّ بَدَا واضحا منذ أوّل ليلة بين الطّرفين، وفق ثنائيّة السّؤال والجواب، وهو حوار تداوليّ مباشر ومرتّب وفق ليالي السّمر ليلا في مجلس ومكان ثابت هو دار احد حُكّام الدّولة، فإنّ هذا لا يمنع من أنّ المبدع من خلال سرده يُظهر أثناء التّلفّظ بعض الكلمات الّتي تُشير إلى المتلقّي ضمن إطار السّياق المقاميّ، وهي ألفاظ تدلّ على الاحترام والتّقدير لشخصيّة المحاور، مثل:

- فقلت: أيّها الوزير...
- قال الوزير...، قال:...

سواء كان يشير إليه بأداة النّداء لغرض التّنبيه، واستدعاء تركيزه، أو يشير إليه بلفظ "الوزير"، وهو لقب له مركزه الاجتماعيّ، ألا وهو الوزير " أبو عبد الله العارض"، وهذا اللّفظ كرّره السّارد دون سِواه ضمن خطابه السّرديّ.

إنّ هذه الإشاريات الدّالة على شخصّية السّامع جميعها تُحيل إلى شعور المبدع بالارتياح والاطمئنان، يجعله ذلك يستمرّ في العطاء المعرفي أكثر دون ضغط أو تكلّف، فكلّما كان

---

[1] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل ، ص31.

الحوار والتّواصل تلقائيّا، ومعرفة مسبقة بالطّرف الآخر، كان العطاء أكثر في التّعبير والإدلاء بما يحسّ به المتكلّم ويُخالج شعوره، وما يجول في ذهنه من انشغالات وفِكرٍ.كما يدلّ ذلك على مدى احترامه وتقديره لمنزلة المتلقّي، وأخلاقه الرّفيعة.

وإنّ تواجد الضّمير" نا"،في سياق كلام المتلقّي. كما في قوله: " أوّل ما أسألك عنه حديث " أبي سليمان" المنطقي، كيف كان كلامه فينا، وكيف كان رضاه عنّا، ورجاؤه بنا..." [1]. هذا الضّمير "نا" يُشير به المتكلّم ويحيله على نفسه، ومع أنّه ضمير للجمع والدّال على الجماعة، ومع ذلك فهو يبعثه كإشارة دالّة على شخصه وذاته، أي أنّه وظّفه في كلامه للإشادة بمكانته المرموقة، وتفضيل صيغة الرّفعة والتّقدير في كلامه ، مع أنّه لا يرغب من الآخرين زيادة التّكلّف في مخاطبته. هذا دليل على منزلته وثقته بنفسه، والّتي تنبع من ذاته لا من غيره، سواء بذكر تلك الألقاب أو بعدمها. لكنّه أعطى لنفسه قيمة علوّ الشّأن بضمير الجمع. هذه الإشارة الجمعيّة تُوحي بالإحالة إلى مركزه وإلى صفة التّبجيل والتّعظيم.

كما تظهر بعض الإشاريات الاجتماعيّة في سرديّة التّوحيديّ، الدّالة على الاحترام، وتقدير قيمة الآخر، وهذا يظهر جليّا من خلال كلامه عن شخصيّتين مميّزتين في مجال العلم والبلاغة والحكمة والمعرفة الواسعة الّتي ليس لها حدودٌ تُذكر، وهما أكثر الشّخصيات ذِكرًا بلقب " الشّيخ". وهذا اللّفظ كان سائدا في ذلك العصر ، ويَصدقُ على كلّ مَن له حظّ وافر مِن العلم والمعرفة في جميع مجالات الحياة الثّقافيّة والدّينية، كما يوحي بمنزلة الشّخص العلميّة واحترامه. كما جاء على لسان السّارد:

- قلت: إنّ شيخنا أبا سليمان غزير البحر...[2]

- فقلت: قال شيخنا أبو سعيد السّيرافيّ الإمام : المَصادِرُ كُلّها على تَفعالٍ بفتح التّاء...[3]

فلفظ " الشّيخ"، إشارة إلى المكانة العلميّة والأدبيّة الّتي يتحلّى بها ذلك الشّخص، واعتقد بأنّ هذا اللّفظ يُطلق على من برع في مجال علم من العلوم في ذلك العصر – القرن الرّابع

---

[1] - السّابق ذكره، ص37.

[2] - السّابق، الجزء الثّانيّ، ص193.

[3] - نفسه، ص178.

الهجري- وهذا ما نجده واضحا في سرد التّوحيديّ من خلال تلك الأخبار الّتي يرويها للمتلقّي عن بعض العلماء في سياق التّواصل الحواري، بقوله: " وحدّثنا "النّصريّ أبو عبد الله"، قال: كُنت أخطّ بين يدي " الصّيمريّ أبو جعفر"فالتمسني يومًا، فلم يجدني، وكان " أبو سعيد السّيرافي" بحضرته، فتقدّم إليه أن يكتب فأطال في عمل نسخة. ثمّ قال لأبي سعيد: خفّف عليك أيّها الشّيخ، وادفع الكتاب إلى أبي عبد الله تلميذك...، فلمّا ابتدأت الجواب تحيّز منّي أبو سعيد، ثمّ قال: أيّها الأستاذ ليس بمستنكر ما كان منّي..." [1]. يتبيّن أنّ أكثر الإشاريات الاجتماعيّة الواردة في خطاب المبدع، والأكثر تقديرا ورِفعة لصاحبها هي: " الشّيخ" و" الأستاذ"، ولفظ الشّيخ أكثر استعمالا،على اعتبار أنّه اللّفظ الشّائع في ذلك العصر، والّذي يوصف به كلّ جهابذة ذلك الزّمان، وكل من هو ضليع في العلوم والمعارف والمُلمّ بكلّ جوانب الخبرة والمعرفة العلميّة في شؤون الحياة الطّبيعيّة.

هذه الإشاريات الاجتماعيّة هي عناصر لغويّة هادفة وموحيّة بمعانٍ جدّ هامّة في السّياق التّواصليّ، ولها أهميّة من جانب أنّها تُشعر النّفس بالرّضا والقبول والرّاحة النّفسيّة للطّرف الآخر، كما تُحدثُ جانبا تأثيريّا في السّياق الحواري، والمتمثّل في إعجاب المتلقّي، أو على الأقل مَنح فرصة استمرار الكلام، والتّواصل التّداولي بينه وبين المتكلّم. لأنّه كلمّا كان الانسجام والتّوافق والاحترام بين أطراف الحوار استمرّ التّواصل، وحدوث وظيفة الكلام، والّتي هدفها التأثير في المخاطّب ضمن سياق المقام الحواريّ.

الإشاريات الاجتماعيّة لها تأثير على نفسيّة المخاطَب، تبيّن العلاقات الاجتماعيّة الّتي تربط بين أطراف الحوار التّداوليّ، وحتّى وإنْ اختلفت تسمياتها الدّالة على الاحترام، فإنّ لها منزلة في الخطاب السّرديّ، فقد ساهمت في فهمه واستمرار لياليه، وإزاحة قيود الرّسميّة بين المبدع والمتلقّي، فعزّز هذا الثّقة المتبادلة، والعلاقة بين الطّرفين لإنجاح التّخاطب الحواريّ بينهما في إطار سياق المقام التّواصليّ.

هذه الإشاريات الاجتماعيّة، والّتي تميّزت ببساطتها في سرد التّوحيديّ، تحمل بُعدا تداوليّا جسّده فعل التّخاطب بينهما للوصول إلى هدف أسمى يضطلع إليه السّارد وهو بثّ جانب المعرفة وإصلاح وتوجيه المتلقّي.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص105.

الإشاريات الخطابيّة :

إنّ السّرد عند التّوحيديّ هو ذلك الخطاب البلاغي الّذي تعكسه مختلف المعارف، والعلوم الّتي اطّلع عليها المبدع وبَرَع في سرد معالمها وخباياها، وأخبار أصحابها، ضمن السّياق الوجودي المباشر بين طرفيّ الحوار. إذ لم يترك هذا السّياق التّواصليّ مجالا معرفيّا إلاّ وطرح فيه بالشّرح والتّحليل من طرف المبدع. هذا الّذي فعّل الحوار وأثرى الحديث بسرد أخبار العصر، والّتي تمثّلت في بواعث الفكر والمعرفة من فلسفة ومنطق وبلاغة في القرن الرّابع الهجريّ. وواظب على ذِكر جميع تفاصيلها، وإن فاض الحديث لديه عن ذلك، أو عن تلك المواطن المعرفيّة، والمناقب الفكريّة والقصصيّة، أحاله ذلك إلى الإشارة إليها بعنصر أو بعبارة تدلّ على معناها، وتوحي بوجودها خارج النصّ، لكنّها تدلّ عليها، سواء لديه مزيد من الكلام، أو أراد اختصاره لأنّه أقلّ من أن يُقال في هذا المقام. أو أراد أن لا يُسهب ويُطيل في الكلام، والكلامُ عادة لديه كثيرٌ.

هذه الإحالة السّياقية دالّة على مرجعيّة خطابيّة، والّتي تشير إليها عبارات وصيغ لغويّة تدلّ على معناها تُعرف بالإشاريات الخطابيّة، و "الصّيغ اللّغويّة هي تعابير الإشارة، والّتي قد تكون أسماء علم (مثالا: شكسبير)، أو عبارات اسميّة معرفة (مثلا: كاتبٌ، المغنّي، الجزيرة)، أو نكرة (رجل، امرأة)، أو ضمائر "هي، هو" " [1]. وعلى نحو: تلك قصّة أخرى، لكن، بل، قِيل...،وغيرها من الإشاريات الّتي تلائم السّياق، وتشير إلى مرجع جديد خارج الخطاب بواسطة تلك الصّيغ اللّغويّة، ومحاولة الاستعانة بها لتدلّ على المعنى الدّلاليّ، ونوع ذلك الخطاب الخارجيّ، وبتحديد ماهيته من خلال سياق المقام التّواصليّ التّداوليّ، قال الرّاوي: " ثمّ حضرت ليلة أخرى، فقال: أوّل ما أسألك عنه حديث أبي سليمان المنطقيّ...، وهذه قصّة من القصص، فقال: حدّثني عن درجته في العلم والحكمة...، وعرّفني محلّه فيهما من محلّ أصحابنا...، فقلت: إذا قنع منّي بهذا، فإنّي أخدم بما عندي، وأبلغُ فيه أقصى جهدي . أمّا شيخنا أبو سليمان فإنّه أدقّهم نظرا وأصفاهـم

---

[1] - جورج يُول، التّداوليّة، ص39.

فكرا... " [1]. ففي معرض الحديث عن "أبي سليمان" العالم الفذّ، وذكر ما يُميّز الرّجل من خصال وصفات وجوانب علميّة وأخلاقيّة، وسرد بعض مناقبه المعرفيّة، وختم كلامه بعبارة: "...وهذه قصّة من القصص"، أمّا الجزء الأوّل من العبارة (هذه قصّة)، فإنّه يوحي بالقصّة الّتي رواها السّارد عن شخصيّة أبي سليمان، ضمن الخطاب التّواصلي بينه وبين المتلقّي، ووظّف اسم الإشارة " هذه" ليدلّ على الإحالة على القصّة المرويّة، بلفظ جاء بعده، وهي إحالة بعديّة. هذه الإحالة الّتي تشير إلى عناصر داخل النصّ، مغايرة ومختلفة تمامًا عن الإشاريات الّتي تدلّ على خطابات خارجيّة. كلفظ "القصص"، فلا يمكن لها أن تحيل على كلام داخل النصّ ، بل تشير إلى مرجعيّة خطابيّة خارج النصّ؛ بمعنى أنّه اختار واستحضر قصّةً تناسب المقام، وهي من بين مجموع القصص الّتي لم تروَ له بعد.

فالإحالة هي كلّ ما يحيلنا وما يُشار إليه داخل النصّ أو خارجه، ضمن سياقات خارجيّة، " فالإحالة يتّحد فيها المرجع بين ضمير الإحالة، وما يُحيل إليه، أمّا إشاريات الخطاب، فهي لا تُحيل إلى ذات المرجع، بل تخلق المرجع، والإشارة إلى مرجع جديد " [2]، وتتمثّل هذه المرجعيّة في خطاب التّوحيديّ بلفظ " القصص"، والّتي تشير بأنّ للرّجل" أبي سليمان" قصصًا أخرى قد قِيلت في شخصه، نظرا لنبوغه وغزارة علمه وبلاغته، وتأويل ذلك أنّها تشير إلى خطابات قصصيّة لا يسع المقام ذكرها.

كلّ تواصل حواريّ تداوليّ لحظة التّلفّظ لا يخلو من غاية وهدف معيّن، أو من فعل محّدد يشير إليه الكاتب، و" الإشارة فعل يستعمل فيه المتكلّم، أو الكاتب صيغا لغويّة لتمكين مستمع، أو قارئ تحديد شيء ما " [3]. وذلك عن طريق الإشارة إليه بصيغة داخل النصّ، تدلّ على خطاب خارجه. كما ترتبط هذه الإشارة بهدف معيّن يقصده المتكلّم.

كإظهار إعجابه بشخصيّة ما، كما هو الحال مع شخصيّة "أبي سليمان"، وما مدى تأثير أقواله فيه. ويظهر هذا الاهتمام في أنّه روى كلامه ، وأُستشهد به في مُعظم سرده الفنيّ والمعرفيّ.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص37-39.

[2] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر، ص24.

[3] - جورج يول، التّداوليّة، ص39.

والمتلقّي بدوره يدرك تماما ما تستدلّ عليه، وتعنيه تلك العبارة – هي قصّة من القصص-، فبادر بالسّؤال عنه ، وعن درجته في العلم والحكمة، فردّ عليه قائلا: "إنّي أخدم بما عندي"، وهذا الكلام بدوره يشير إلى تصريح صريح من الرّاوي، مُبديا فيه تعاونه الصّادق في سرد معارف هؤلاء العلماء، وهذا في حدّ ذاته يمثّل أحد مكوّنات بناء المعرفة، وعنصرا هامّا من عناصر التّواصل التّداولي الحواريّ بينه وبين المخاطب، والّذي بدوره يفعّل الوظيفة التّأثيريّة، وتتمثّل في تأثير كلّ منهما في الآخر.

السّارد يطرح قضيّة تمسّ الفنّ البلاغيّ في عصر ازدهار الخطاب الأدبي، ألا وهي صناعة النّظم والنّثر. مبيّنا مراتبهما، ومبديا الفرق بينهما استنادًا إلى آراء العلماء فيهما.بقوله: " فللنّثر فضيلته الّتي لا تُنكر، وللنّظمِ شرفه الّذي لا يُجحدُ...، وقد قال بعض العرب: خيرُ الكلامِ ما لم يحتج معه إلى كلام " [1]. فلفظ " كلام " يشير إلى ذلك الخطـــاب (قول، نثر وشعر)، وما يميّزه من بلاغة القول، وبيان اللّفظ وجمال المعنى، فهذه الصّفات إذا اجتمعت فيه جعلته مفضّلا لا يحتاج إلى كلام آخر يُقال فيه أو يزيد عنه. فأشار إليه بلفظ نكرة، للإشارة إلى معنًى كلاميّ لاحق، غير معيّن، يتوقّع من السّامع أن يخبره عنه؛ أي قد يكون هذا الكلام غير جدير بإسقاطه عليه، أو قوله فيه، فإنّه استوفى معناه.

أمّا لفظ " الكلام"، فتوحي بمرجعيّة ذلك الخطاب الفنيّ المستوفى لكلّ شروط البيان، ووضوح المقصد، لا غموض فيه، ولا يجد المتلقّي صعوبة في فهمه، لأنّه خطاب يتّصف بدلالة اللّفظ ووضوح المعنى.

وفي حديث آخر ورد على لسان " أبي سليمان"، عن البلاغة وضروبها: " فمنها بلاغة الشّعر، ومنها بلاغة الخطابة،ومنها بلاغة النّثر، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة.ومن أمثلة هذه الأبواب موجودةٌ في الكتب، ولولا ذلك لرسمت في هذا المكان لكلّ فنّ مثالاً وشكّلت شكلاً، ولو فعلت ذلك لكنت مكرّرًا لما قد سبق إليه ... " [2]. فالسّارد استعمل صيغًا لغويّة تشير إلى خطابات خارج النصّ، أوّلا بكلمة " الكتب"، إشارة إلى

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص279.

[2] - المصدر نفسه، ص282.

أصناف البلاغة بجميع فروعها، أنّها مطروحة وموجودة في الخطابات والمؤلّفات الأدبيّة والبلاغيّة. كما يشير لفظ (لكلّ فنّ)، إلى تلك النّصوص الّتي تضمّنت فروع البلاغة وفنونها سواء في خطاب النّثر أو الشّعر، ولفظ (سبق إليه) إشارة إلى ما كُتب في هذا المجال، وفُصّل في فروعه وجوانبه وبيانه ومعانيه.

هاته الإشاريات الّتي احتواها الخطاب السّرديّ، قد أحالت على مرجعيّة خارج النصّ، تدلّ على كلّ تلك الخطابات والنّصوص البلاغيّة الّتي احتوت وتضمّنت البيان بلغة العرب.

أمّا الهدف الّذي سعى إليه المبدع من خلال هذا الطّرح كلّه: هو تحقيق التّفاعل والتّواصل بينه وبين المتلقّي، وكذلك تحقيق الجانب المعرفيّ لدى المتلقّي الّذي استحسن القول، وفهم مقصديّته من خلال السّياق النّصيّ، وهذا الاستيعاب والاستجابة راجع إلى المعرفة المشتركة بينه وبين المبدع، والّتي فرضتها ثقافة وعلوم العصر.

وإنّ فهم كلّ تلك الإشاريات الصّادرة من المتكلّم، يتوقّف على ما مدى فهم وتفسير تلك التّعابير من طرف المتلقّي، مع أنّه لا يمكنه ذلك إلاّ إذا كانا يتشاركان في السّياق ذاته، وأنّ كليهما يعي ما يجول في ذهن الآخر.بحيث يمكن للمتكلّم الإشارة إلى شيء معيّن واضعا في الاعتبار قدرة السّامع في الوصول إلى فهم مرجعيّة ذلك الشّيء عن طريق ما يحمله من ثقافة، وهذه الأخيرة توضع في الحُسبان دائما. وهذا يمكننا إدراكه من خلال الخطاب السّرديّ عند التّوحيديّ، ومدى تكافؤ وتعادل طرفي الحوار، ويظهر ذلك من خلال المناقشة، وخاصة من جانب المتلقّي الّذي ما يلبث أن يُبدي الرّضا والاستحسان، وهذا إن دلّ على شيء، إنّما يدل على ثقافته وقدرته الفائقة في فهم واستيعاب كلام المفكر والفيلسوف أبي حيّان. كما جاء على لسانه، فقلت: " إنّ أبا سليمان يقول: إنّ الفلسفة حقٌّ لكنّها ليست من الشّريعة في شيء، والشّريعة حقٌّ لكنّها ليست من الفلسفة في شيء، وصاحب الشّريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، وأحدهما مخصوص بالوحي، والآخر مخصوص ببحثه، وهذا يقول أمرت، وعلمت وقيل لي، وما أقول شيئا من تلقاء نفسي، وهذا يقول: رأيت، نظرت، واستحسنت واستقبحت، وهذا يقول،قال الله تعالى، وقال

المَلَك، وهذا يقول: قال: أفلاطون وسقراط..." [1]. الرّجل يدافع عن الشّريعة الإسلاميّة، من خلال تلك الرّسائل الّتي زعم أصحابها أنّه متى امتزجت الشّريعة بالفلسفة حصل الكمال، وهذه ترهات وادّعاءات لا أساس لها من الصّحّة. وهذا ما أراد الرّاوي تبيينه وإثباته من خلال هذا الخطاب الّذي تضمّن عدّة إشاريات توحي بنصوص خارج الخطاب،ولا يمكن فهمها إلاّ من خلال السّياق الّذي وردت فيه. بدءًا من لفظ " الشّريعة" ولفظ " الوحيّ"، فهما يشيران إلى كتاب الله -عزّ وجلّ- المنزّل على سيّدنا محمّد – صلّى الله عليه وسلّم-، ولفظ الفلسفة والبحث، اللّذان يشيران إلى الخطاب الفلسفي الموضوعي، والّذي وضعه وألّفه البشر، واسم العَلم " أفلاطون"و" سقراط"، إشارة إلى أقوالهما العقليّة والمنطقيّة، وإشارة إلى عصر الفلسفة اليونانيّة.

كما أشار إلى جملة: (في شيء)، للدّلالة على أنّ لا مجال للمقارنة بينهما بأيّ كلام كان. لأنّ الاختلاف بادٍ وواضح، وكذلك ليُدحض كلّ من يزعم أنّ للفلسفة علاقة بالشّريعة والعكس.

إنّ مجموع تلك الإشاريات يجعل المتلقّي في موقف معرفيّ يضعه أمام تصوّر ذهنيّ يمكّنه من فك شفرات ومعاني تلك المدلولات والإشاريات، واستنباط خطاباتها الخارجيّة، وهذا في حدّ ذاته يتطلّب تجاوبا فكريّا وثقافيّا من طرف السّامع؛ أي يجب أن يتحلّى بثقافة دينيّة، وعلميّة تؤهّله إلى استيعاب مضمون الكلام من خلال حواره مع المتكلّم في العمليّة التّواصليّة.

وهذا الاستيعاب يدفع بالمبدع إلى الاستمرار والاسترسال في المحادثة، وفي الكلام عن ثقافة وعلوم العصر بشتّى مناحيها ، مع تناوله للجوانب والفروع الحجاجيّة الّتي تساهم بدورها في التّعبير عن المقاصد المعرفيّة والبلاغيّة الّتي تنطوي بدورها على دلالات تأثيريّة ضمن إطار السّياق التّواصليّ.

[1] - السّابق ذكره، ص189.

لا يخلو خطاب " الإمتاع والمؤانسة" من الخبر الطّريف ، والفنّ اللّطيف، والكلام الّذي يبعث في النّفس متعة وجمالا ورونق التّأليف. خاصّة إذا صدر من سريع البديهة، وحاضر القول المختصر المفيد الّذي يوحي بالمرح والفكاهة، ويؤثّر في النّفس بالقبول والضّحك، كقول الرّاوي: " وقال الوليد العَنبَريّ: مرّت امرأة من " بني نُمَيْرٍ" على مجلس لهم. فقال رجلٌ منهم: أيّتها الرَّسْخاء*. فقالت المرأة: يا بني نُمير، والله ما أَطَعْتُم الله ولا أطعتم الشّاعر.

- قال الله تعالى :" قُلْ لِلْمُؤْمنيْنَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـرِهِم".[النّور30]

- وقال الشّاعر: فغُضّ الطّرفَ إنّكَ مِنْ نُميْرٍ * فَلاَ كَعبًا بَلَغْت وَلاَ كِلابَا ." [1]

هذا الكلام الطّريف لا يخلو من إشارات صدرت عن نباهة وفطنة تلك المرأة، حين تكلّمت بلفظ الشّاعر و لفظ الجلالة سبحانه وتعالى. إنّها بذلك أشارت إلى خطاب خارجيّ يُحيل إلى قول الشّاعر من "بني نُمير" يحثّهم على غضّ البصر.

وكذلك تشير إلى قول الله تعالى، الدّال على أمره تعالى للمؤمنين بأن يغضّوا أبصارهم.

هذه الإشارات الدّالة على خطابات خارج سياق النصّ، تبيّن مدى حكمة وفطنة صاحبة القول. كما تشير أيضا حضور البديهة، وبلاغة القول، وتعتبر روافد تطرأ على الذّهن لتدلّ على الجواب الحاضر، وهذا ما كان يتّصف به العرب قديما، بحسب نماذج الطّرائف الإمتاعيّة في الكتب العربيّة.

وفي جملة القول تعتبر الإشاريات الخطابيّة روافد يستحضرها الذّهن من خلال علامات وصيغ لغويّة، ولا يمكن تحديد معناها خارج السّياق التّواصلي، بل داخل السّياق، وأثناء التّواصل التّداوليّ، وهي إشاريات يختصرها سياق النصّ في كلمات، وألفاظ مفردة، لكنّها توحي بدلالات عميقة خارج السّياق، ويمكن اكتشاف ذلك عن طريق المرجعيّة الخطابيّة الّتي تحيل إليها هذه الإشاريات، والّتي تختصر في سياق النصّ من جانب الشّكل الكتابيّ، لكنّها تلهمه دلالات ومعانٍ عن طريق الذّهن تساهم في إثرائه وتقوية معانيه.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص437.

* الرّسخاء: الخفيفة اللّحم.

وهكذا فالإشاريات صيغ ومعاني لغويّة خطابيّة، على قدر صغر حجمها، فإنّها تُعطي تعابير أعمق وأكبر، وذلك بحسب استعمالها في الكلام، وتتبيّن معالمها من خلال خاصيّة الإحالة، سواء كانت نصيّة، أو مقاميّة خارج سياق النصّ، على اعتبار أنّه لا يمكن إدراك معانيها إلاّ عن طريق السّياق الّذي تَرِد فيه.

فإذا كانت تلك الملفوظات الإشاريّة وسّعت من معاني ودلالات النصّ، وأثرت آفاقه التّواصليّة، فإنّها منحت بدورها للمتلقّي درجة من الوعيّ الذّهنيّ، وهذا الوعي مكّنه من الاستدلال على تلك المعاني، وكشف كُنهها بواسطة تلك الإشاريات.

لكن توجد معانٍ قد يتخلّلها التّداول الحواريّ في عمليّة التّواصل، ولا تظهر لها صيغة لغويّة واضحة داخل النصّ، وهنا يأتي دور المتلقّي لفكّ رموزها ودلالاتها الخفيّة، لأنّها لا تظهر معانيها مباشرة، بل قد تتوارى خلف الحروف والكلمات، وبين طيّات السّياقات النّصيّة والمقاميّة، فيكون تأويلها أو فهمها ضمنيّا من خلال العمليّة التّواصليّة. وهي ما يُطلق عليه متضمّنات القول.

الفصل الثّالث:

- تداوليّة الحوار في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ:

1- الأطراف المتحاورة في الخطاب
أ- التّخاطب بين أطراف الحوار والخلفيات المعرفيّة
ب- الحوار تقنيّة تداوليّة خطابيّة

2- الخطاب السّرديّ وقواعد التّخاطب
أ- مبدأ التّعاون وقواعد التّواصل
ب- الاستلزام الحواريّ

3- استراتيجيّة التّأثير في المخاطب
أ- متضمّنات القــــول
* القول المضمـــــر
ب- الافتراض المُسبق وأنواعـــه
* الافتراض المسبق الواقعــيّ
* الافتراض المسبق المعجميّ
* الافتراض المسبق البنيــويّ
* الافتراض المسبق غير الواقعيّ

الأطراف المتخاطبة في الحوار:

أ- التّخاطب بين أطراف الحوار والخلفيات المعرفيّة:

الإمتاع والمؤانسة خطاب سرديّ تجاوز به التّوحيديّ ذلك السّرد القصصّي المعروف، والحكايات التّخييليّة المعهودة إلى سرد المعرفة والمحادثات، والّتي استمرّت طيلة ليالي السّمر اللّيليّ، واستطاعت أن تستحوذ على مختلف معارف القرن الرّابع الهجريّ، لتساهم جميعا في نسج ذلك الصّرح المتمثّل في الخطاب السّرديّ المعرفي، وتأكيد سمته المعرفيّة وغايته التّواصليّة الّتي حُدّدت معالمها بين المبدع والفيلسوف والمفكّر التّوحيديّ وبين المتلقّي وزير زمانه ، بدءًا من اللّيلة الأولى. " وصلت أيّها الشّيخ- أوّل ليلة إلى مجلس الوزير، فأمرني بالجلوس..." [1]. هذه الجمل القصيرة الّتي استهلّ بها التّوحيديّ كلامه، تكفي لتحديد أطراف التّواصل في الخطاب، فالرّاوي التّوحيديّ، والوسيط الّذي بينهما "أبي الوفاء المهندس"، وهو ينتظر أن يُدوّن له كلّ ما جرى من حديث في ليالي السّمر، وذلك وفق اتّفاق أبرمه مع المبدع، قبل مقابلة المخاطَب في التّواصل الحواريّ وهو الوزير. في مكان محدّد هو المجلس، أمّا الزّمان فحصر في ليالي السّمر. وبهذا لقد بَدَت ظاهرة معالم السّياق التّواصليّ التّداوليّ بينهما في فضاء مجلس الوزير، وليالي السّمر الّتي تغمرها تلك الخطابات الإبداعيّة الّتي استطاع من خلالها المبدع أن يصل إلى أرقى مستوى الثّقافة والفِكر، وبلاغة الكلام، وحكمة القول.

لكنّ هذا التّواصل التّداوليّ مبنيٌّ على علاقة وطيدة بين الطّرفين، بعقد التّفاوض المسطّر والّذي أزاح كلّ الحواجز بينهما، فأصبح التّواصل مبنيّا على الرّضا والالتزام والتّوافق بينهما، ويظهر ذلك في موافقة الوزير على هذا الطّلب، سعيا منه أنّ ما يصبو إليه من هدف، هو أرقى من أن يدعه ينتهج طريق الكلام والتّكلّف فيه. فقال: " لك ذلك، وأنت المأذون فيه، وكذلك غيرك، وما في كاف المخاطبة، وتاء المواجهة؟ إنّ الله تعالى-على علوّ شأنه، وبسطة مُلكه وقدرته في جميع خلقه- يُواجه بالتّاء، والكاف، ولو كان في الكناية

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص30.

بالهاء رفعةً وجلالةً وقدر ورُتبة، وتقديس وتمجيد، لكان الله أحقّ بذلك، ومقدّما فيه، وكذلك رسوله- صلّى الله عليه وسلّم- والأنبياء قبله-عليهم السّلام- وأصحابه-رضي الله عنهم- والتّابعون لهم بإحسان-رحمة الله عليهم- وهكذا الخلفاء، فقد كان يُقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزّك الله، ويا عمر أصلحك الله، وما عاب هذا أحد... "[1]. إنّه أراد أن يرفع مستوى الكلام عن الكناية والتّكلّف، وبيّن أنّ كاف المخاطبة وجّهت لأصحاب الشّأن والرّفعة أكثر منه، فما بالك أن توجّه له هو. كأنّه يقصد بذلك أنّ لا مجال لحضورها في الكلام عندما يتطلّب الأمر الحديث عن المعرفة، والتّطلّع إلى طلب التّزوّد بالعلم.

فهو بهذه الحجج يدعّم موافقته على بناء تواصل تفاعليّ تداوليّ بينه وبين المبدع؛ تتلاشى فيه كلّ أنواع القيود، والحواجز الّتي من شأنها تعطيل وتثبيط عزيمة القول، والتّعبير عن مكنونات النّفس، وما يخالجها من كلام هادف ومفيد، فتظهر بذلك حريّة الحديث في مقام التّواصل، فهو بهذا يُؤسّس نَهجًا وحوارًا تداوليًّا، يقصد من خلاله هدفا وجيها ألا وهو طلب المعرفة. كقوله: " قد مرّ في كلامك شيء يجب البحث فيه، ما الفرق بين الحادث والمحدث، فكان من الجواب: أنّ الحادث... "[2]، والحقيقة المعترف بها عند قراءة خطاب التّوحيديّ، أنّ كلّ سؤال مهما كان نوعه ومحتواه، يقابله جواب من طرف المبدع بالشّرح والإسهاب في التّحليل وتفصيل المعنى، والتّعليل، وكلّ ذلك القصد منه تحقيق المنفعة المعرفيّة، ومتعة السّرد، ناهيك على أنّ هذا الحوار يساهم بشكل كبير في إثراء السّرد وتناميه، واستمراره لتحقيق غايات السّارد، وبهذا يعدّ الحوار مكوّنا أساسيًّا من مكوّنات الخطاب السّرديّ عنده.

وهكذا كانت المعرفة هي المطلب الأسمى للتّواصل في خطاب "الإمتاع والمؤانسة"، الّذي يسعى فيه المبدع بدوره إلى تحقيق قيم إنسانيّة تُسهم في تغيير ما في ذهن المخاطَب، وحمله على الاستفادة من القول المفيد والهادف، والتّأثير فيه، ودفعه إلى العمل بتلك القيم.

---

[1] - المصدر السّابق، ص31.

[2] - نفسه، ص34.

التّواصل التّداوليّ بين طرفي الحوار، والّذي استمرّ طيلة أربعين ليلة، فعّله وبثّ فيه حركة الاستمرار، هو ذلك السّؤال الصّادر من الوزير، والجواب من المبدع، ليس كأيّ جواب؛ إنّه كلام المعرفة دون حدود، يصبو فيه إلى تحقيق غاية معرفيّة استطاع أن يظهرها للوجود ذلك البعد الحجاجيّ الّذي يرمي إلى إبراز الوظيفة الإقناعيّة والتّوجيهيّة، وكذلك الجانب الجماليّ الإبداعيّ الّذي تعكسه بلاغة النصّ، وسلاسة الطّرح المعرفيّ، بالإضافة إلى أسلوب الكاتب الّذي يُميّزه اللّفظ الموحي الدّال على عمق التّجربة الثّقافيّة والفكريّة لديه، والمعنى السّلس الّذي يحمل في طيّاته الإضمار أكثر من الإفصاح، والقول المضمر أكثر من الظّاهر، هذا كلّه ساهم في بُروز وإظهار سِحر بيان الخطاب ، ورونق جماله الخلاّب الظّاهر على مستوى تراكيبه وأنساقه، وعلى مستوى معانيه الدّالة على محتوىً معرفيّ غير مَسبُوقٍ.

كلّ هذا الخضمّ المعرفيّ يندرج ضمن وظيفة التّأثير في المتلقّي،بما يحمله الخطاب من محتويات قوليّة وعمليّة. ومن فَرْطِ تأثّره الشّديد بليلة من ليالي السّمر السّاحرة للّبّ والعقل قبل الحسّ والقلب، وفي ظلّ عِبق الإيمان ، ومصير الإنسان، بذكر خالق الأنام، والشّكر على الهداية والهدى. طلب دُعاء الصّوفيّة، فقال: " اِختم مجلسنا بدُعاء الصّوفيّة. فقلت: سمعت ابن مسعود يدعُو في الجامع، في آخر مجلسه، ويقول: اللّهُمّ اجعل قولنا موصولاً بالعمل، وعَمَلنا مُحقّقًا للأملِ، ولا تُضايقنا فيما نتحوّل به، ونتقلّب لك فيه، وكَنِّف علينا بسترك، وسَوّغْنا بِرَّك، وألهمنا شُكرَكَ، وخَفّفْ عن أفواهِنا ذِكرِكَ، واخْصُصْنا بعد ذلك بما هو ألْيَقُ بذلك، اللّهُمّ اِسْمع واستجبْ، وقَرِّبْ" [1]. خاتمة هذا القول تجسّدت في "ملحة الوداع" الّتي أنهى بها الوزير تلك اللّيلة.

هذه "المُلحة"، استطاعت أن تحقّق عدّة معطيات، ووظائف تأثيريّة وتعليميّة نفعيّة، تمثّلت فيما يلي:

أوّلا: تحقيق مُتعة السّمر والأُنْسِ ليلاً، إلى أقصى درجات التّأثير في شخصيّة الوزير.

ثانّيَا: يكشف هذا المطلب عن الذّات العامرة بالإيمان.

ثالثا: مساهمة المبدع في تهذيب نفس المتلقّي قولا وفعلا.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص423.

فالسّارد يُمارس وظيفة حواريّة تواصليّة وتداوليّة بينه وبين السّامع، لتحقيق إغراضه التّوجيهيّة والتّعليميّة، ومن جهة أخرى استطاع أن يمنح المخاطَب مُتعة الأنس في ليل السّمر المضيء بشتّى علوم العصر ومعارفه، وحكايات أزمنة غابرة...، وغيرها من خطابات الإبداع الفنيّ والأدبيّ، بطريقة بلاغيّة تستهوي نفس السّامع، وتجعله يرغب في المزيد من الكلام المُفيد، وتبعث فيه التّعجبّ، والذّهول. كقوله: " هذا كلامٌ عجيبٌ، ما سَمِعْتُ مثله على هذا النّحو والتّفصيل "[1]. اعتراف صريح من المتلقّي، سوف يضمن للسّارد سُلطة القرار المعرفي مهما كانت نوعيّة الطّرح الإخباريّ والفكري فيه، ولهذا يتبيّن أنّه بعدما كانت السّيطرة على المحادثة مُخوَّلَةً للوزير في اختيار موضوع الحوار، لكنْ سُرعان ما تغيّرت الأدوار عكس الاتّجاه؛ وأصبح السّارد هو سيّد الموقف. فالمُحادثة تَصدُر من الرّاوي الّذي أخذ بزمام الأمور في بداية اللّيلة التّاسعة بقوله: " وعُدت ليلةً أخرى، فقال: فاتحة الحديث معكَ، فهاتِ ما عندكَ. فكان من الجواب: أنّ أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة..." [2]، وبدأ السّارد يتكلّم عن أنواع الحيوان،وأصنافها وطبائعها وطريقة حياتهم الطّبيعيّة، إنّه أفرد لها ثلاث ليالٍ متتاليّة للحديث عنها، وعن عناصر وأنواع الخَلْقِ وأخلاقهم، بتفصيل ينبئ ببراعة المتكلّم وما مدى خبرته ومعرفته بها. فكانت هذه الحريّة الّتي مُنِحت للرّاوي من طرف المتلقّي، تُوحي بمدى ثقة السّلطة فيه، وفي أقواله الوَجيهة الّتي تدعو إلى التّمعّن فيها، والاستفادة والنّفع منها.

فالمعرفة عند "أبي حيّان" غايةٌ وهدفٌ استطاع أن يُجسّدها ضمن سيرورة السّرد، وِفق معادلة واضحة سطّرها الوزير واستجاب لها الرّاوي باتّفاق الطّرفين فيها، بواسطة إبرام بنود مُعاهدة ضُبطت عناصرها انطلاقًا من أوّل ليلة بينه وبين السّارد الّذي لجأ إلى اعتماد خطابات وسياقات خارجيّة بمرجعيّة الإحالة، ووظّفها في السّرد كعناصر مُساهمة في تواصل الحوار واستمراره. كما أَثْرَت تنامي الخطاب السّرديّ برمّته، وهذا من خلال ما ذكره من أقوال شخصيات وعلماء عصره. مُشيرا إلى شخصيّة " أبي سليمان المنطقيّ"،

[1] - المصدر السّابق،الجزء الثّانيّ، ص193.

[2] - نفسه، الجزء الأوّل، ص113.

الّتي اكتسحت أقوالها معظم طيّات الخطاب، والمتمثّلة في أقوال الرّاوي، وحُججه التّوضيحيّة فيما يخصّ جانب البلاغة والمعرفة المتنوّعة لديه.والّتي ساهمت كثيرا في بناء السّرد، وذلك بواسطة مرجعيّة استحضار الرّاوي لآرائه وخطاباته ومضامينها المعرفيّة، في مُعظم اللّيالي السّمريّة، على اعتبار أنّه العالم المنطقيّ الأكثر رَواجًا ونُبوغًا وشُهرة من غيره من علماء العصر في خطاب التّوحيديّ. فيُعتبر بذلك العنصر الفعّال في السّرد، كما تعتبر آراؤه سندا ومرجعًا مهمًّا للسّارد في الحوار التّواصليّ مع السّامع.

فما من قضيّة أُشير إليها من خلال ذلك التّواصل التّداوليّ، وتُثار في المحادثة، إلاّ وكانت أقوال"أبي سليمان"، وتدخّلاته الحجاجيّة حاضرة ضِمن السّياق التّواصليّ، فتُفعّل كوسيط معرفي وكحجّة لتبرير الكلام للمتلقّي، بل المبدع يستدلّ بأقواله ليعتمدها كحُجج لإقناع السّامع، إنّه مُلهمهُ؟ ومدعّمٌ له، نظرًا لصحّة أقواله العقليّة والمنطقيّة، وقدوته ومثله الأعلى.نظرا لِكون مُعظم الخطابات المُعتمدة من طرف الرّاوي في جميع الأصعدة المعرفيّة والإخبارية تُنسبُ له، وتُوظّف عند الحاجة من طرف المبدع، سواء للإدلاء بها عند الحديث عن البلاغة أو عند قول فنون القول من شعر ونثرٍ.

السّرد عند التّوحيديّ يُبنَي على الحوار التّداوليّ، ضمن سياق تواصليّ مضبوط. وفق شروط المحادثة الّتي تُيسّر البَوْحَ والتّعبير عن مكنونات النّفس دون تكلّف قد يُعيقُ مسار استرسال الكلام، وتحقيق حريّة اكبر للتّواصل، لكي يستطيع أن يهتمّ بالجانب الأهمّ من ذلك كلّه، ألا وهو التّثقيف والمعرفة، والتّوجيه.

وبالتّالي إحداث التّأثير في المتلقّي عن طريق ذلك التّواصل بينهما، هذا التّواصل أساسه تلك المحادثة المفيدة بين الطّرفين، والّتي قال عنها الرّاوي: " إنّ في المحادثة تَلقِيحًا للعقولِ، وتَرْويحًا للقلب، وتَسْريحًا للهمّ، وتَنْقيحًا للأدب " [1]. يبدُو أنّ الحديث أخذ مكانة الصّدارة في سرد التّوحيديّ ضِمن مسار التّواصل الحواري بينه وبين السّامع، يليه جواب، من المفترض أن يُلمّ ويُحيط بجميع المعارف المرتبطة بكُنهه ومضمونه، والّتي يستوجب من خلالها وصول حدّ الفهم والاِستيعاب والإقناع الوافي له. ويظهر ذلك في قول السّارد، بشرط أن

[1] ـ السّابق ذكره ، ص35.

يكون فيها " الجواب المقنع الشّافي " [1]. تُفعّل من خلاله عدّة وظائف معرفيّة وحجاجيّة وبلاغيّة، تساهم في تحقيق غايات وأغراض المبدع التّوجيهيّة والإصلاحيّة تجاه المتلقّي في سياق التّواصل المبنيّ على النّقاش الهادف والبَنّاءِ، والرّامي إلى بثّ المعرفة والاستفادة من خباياها وفروعها المتنوّعة.

التّوحيديّ يُؤسّسُ خطابا تواصليّا معرفيّا يدخل في دائرة الإبداع الأدبيّ والفنيّ، بواسطة الحوار التّداوليّ الّذي يتزعّمه شخصيّتان في قِمّة المعرفة، و مستوى التّعامل مع اللّغة بطريقة بلاغيّة فاقت التّصوّر والحدود في تكوينها وتشكيل أنساقها اللّغويّة من جهة نسج الألفاظ ، وحَبك المعاني الدّالة. كلّ ذلك لغرض تحقيق الوظيفة المعرفيّة، والوظيفة الجماليّة الإمتاعيّة في الخطاب السّرديّ، على اعتبار أنّ الكاتب شخصيّة بارزة في عالم المعرفة، وعالم بعلوم عصره وعلمائه، كما له قدرة فائقة في استظهار المعارف المتنوّعة، لكونه مُلمًّا بثقافة واسعة تكشف عن موسوعة ذهنيّة غير مسبوقة، لها غاية أخلاقيّة يمارسها في خطابه هي التّوجيه والتّهذيب، ليُثبت مدى عُمق الثّقافة والمعرفة لديه، بل وكأنّه يُمثّل الثّقافة العربيّة والفلسفة اليونانيّة في عصره.

هذه المعرفة المُستفيضة والعميقة في مجالات الثّقافة المتنوّعة، مكّنته من بناء هذا الصّرح المعرفيّ في قالب سرديّ، نهجُهُ هو مسار التّداول الحواريّ بينه وبين المتلقّي، وغايته هي الوصول إلى أقصى حدود المعرفة، وهدفُه التّعليم والتّوجيه والتّأثير في المخاطَب.

الوزير"أبو عبد الله العارض"، شخصيّة مُحبّة لطلب المعرفة والتّزوّد بها، يُعلّق آماله على طموح طلبها، والاستفادة منها في حياته، والانتفاع بخباياها. ويظهر ذلك في أنّه يسّر نهج التّواصل بينه وبين المبدع، دون شروط تُذكر، رغبةً منه في استمرار المحادثة بينهما، والتّمتّع بمجال المعرفة، من خلال تلقّي الجواب عن أسئلته الدّالّة على خبرته الّتي تُوحي بأنّه مطّلع على ثقافة عصره، وأنّه ليس بمنأى عن معارف قرن بحاله، وهو القرن الرّابع الهجريّ. كما يظهر من خلال سؤاله: " ما تحفظُ من تِفعال وتَفعال، فقد اشتبها؟ فقلت: قال

---

[1] - السّابق، الجزء الثّالث، ص396.

شيخنا أبو سعيد السّيرافيّ... " [1]. تلك رغبة مُلحّة تَجيش في نفسه وذهنه ينتظر منها الجواب من المبدع، هذا الأخير يبذُلُ كلّ الجهد للردّ عليه، وبيان مدى قدرته وبراعته في الجانب المعرفيّ وجانب الاطّلاع على قواعد النّحو من مصادرها؛ أيْ من علماء اللّغة المختصّين فيها. في كونه يَتُوقُ ويتطلّع أكثر لحديث المثاقفة الّذي يأمل أن يبقى لكي يُروى في المستقبل، " فلعلّ المثاقفة تبقى وتُروى، ويكون في ذلك حُسن الذّكرى" [2]. هذا التّواصل نشأ عنه رغبة الطّرفين في المحادثة، بهدف تحقيق خطاب معرفيّ يبعث على الاستفادة، والإمتاع والمؤانسة.

وإنّ طبيعة العلاقة الّتي تربط بين المبدع والمتلقّي، هي علاقة مبنيّة على الاستحسان والرّضا بينهما، بكلّ ما يصدر من السّارد من أقوال، فيتقبّلها المخاطَب بكل صَدر رحبٍ، هذا التّفاعل بين الطّرفين تؤكّده نهاية كلّ ليلة، ويتجلّى في ذلك التّعبير الصّادر، وهو شعور صادق يُعبّر عن الرّضا والإحساس بالمتعة لدى السّامع. بقوله: " فقد بلغت في المؤانسة غاية الإمتاع " [3]. " ما أحلى هذا الحديث! " [4]، " هذا فنٌ موفٍ على الغاية " [5].

لقد استمرّ هذا التّواصل التّداوليّ برضى الطّرفين، وخاصّة المتلقّي الّذي ما يلبث أن يُبدي إعجابه بالكلام في كلّ موقف، وفي كلّ مقام يسحره القول فيه، ويُبهره بجمال بلاغته ودقّة معلوماته. ففي كلّ ليلة ومع كلّ سؤال، يظهر الجواب الجديد يمنح من خلاله السّارد معلومات أخرى تُضاهي وتفوق سابقتها. ومهما تعدّدت الموضوعات المطروحة للنّقاش، يظلّ الحوار هو المُؤسّس الرّئيسيّ لهذا الخطاب. بوصفه عنصُرًا تداوليًّا تواصليًّا يُساهم في خَلْقِ المحادثة، وبناء الخطاب السّرديّ بواسطة رصد مختلف الأفكار الصّادرة من المساهمين في هذا الحوار.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسةّ، الجزء الثّانيّ، ص178.

[2] - المصدر نفسه، الجزء الأوّل، ص23.

[3] - نفسه، الجزء الثّانيّ، ص193.

[4] - نفسه، ص230.

[5] - نفسه، ص289.

الحوار تقنيّة تداوليّة خطابيّة:

الإمتاع والمؤانسة خطاب سرديّ يقوم على خاصيّة الحوار بين المبدع والمتلقّي، وفق سياق تواصليّ استمرّ طِيلة أربعين ليلة. هذا التّواصل تظهر معالم استقراره مُنذ البداية بشروط سخّرت له مساحة من الحريّة للمباشرة في بدء المحادثة في مجلس الوزير، وفق تقنية الحوار الّتي تبعث في نفسيّة كليهما مُتعة الأنس، بالمشاركة الفعّالة والحوار الجادّ.

فخطاب سرديّ نشأ في ربوع لياليه، بسؤال في كلّ ليلة، وجواب في باقيها، حتّى نهايتها وتاليها، والّتي تُختم بملحة الوداع، المتضمّنة لخاتمة المجلس، والّتي تستقطبُ بدورها ذهن المتلقّي، وتأسر جانب التّفكير لديه، بوله شديد انتظارا لقدوم المجلس الموالي. بسؤال يأخذ صيغة: (قال:...، قلت: ...، فكان من الجواب: ...). هذه الأنساق والتّراكيب التّعبيريّة، تحمل في طيّاتها بُعدًا معرفيًّا ينقله المسؤول إلى السّائل / المتلقّي، بكلّ معطياته وقيمه المعرفيّة والإنسانيّة النّبيلة، لغرض إخبار السّامع أو إقناعه. وعلى سبيل المثال لا الحصر في اللّيلة السّادسة، " قال: أتفضّل العرب على العجم، أم العجم على العرب؟ قلت: الأمم عند العلماء أربع...، وصعب أن يُقال العرب وحدها أفضل...

قال: إنّما أريد بهذا الفرس.

فقلت: قبل أن احكم بشيء من تلقاء نفسي، أروي كلاما لابن المقفّع.

قال: هاتِ على بركة الله وعونه.

قلت: قال: "شبيب بن شبّة":... إذْ أقبل علينا "ابن المقفّع"، فقال: أيُّ الأممِ أعقلُ؟

فقلنا: فارس أعقل الأمم، نقصد مقاربته، ونتوخّى مصانعته.

فقال: كلاّ، ليس ذلك لها ، ولا فيها،...

قال: العرب، فتلاحظنا، وهمس بعضنا إلى بعض...

قال: لن أدعكُم حتّى أُبيّن لكم لِمَ قلت ذلك...

قال الوزير: ما أحسن ما قال ابن المقفّع! وما أحسن ما قصصته، وما أتيت به! هات الآن ما عندك من مسموع ومُستنبط.

فقلت: إنْ كان ما قال هذا الرّجل البارعُ في أدبه، المقدّم بعقله كافيا، فالزّيادة عليه فضلٌ مستغنًى عنه، وإعقابُه بما هو مثله لا فائدة فيه ." [1]

الحوار في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ يكاد يشمل النصّ بأكمله، إذْ يُوظّف في الاستفهام، ليأخذ مكانه الحقيقيّ من الجواب الّذي يسعى فيه المبدع إلى توظيف وتسخير كلّ معانيه، وثقافته لاستحضار الدّلائل والحجج لغرض تواصليّ إقناعيّ.

الحوار بين السّارد والوزير في موضوع أفضليّة العرب عن باقي الأمم الأخرى، لا يبدو فيه الوزير جاهلا بمعرفة تلك الأمم بدليل سؤاله عنها، لكنّه يريد جوابا شافيا ومقنعا. والرّاوي بدوره يستعين بكلام وحجج "ابن المقفّع" داخل الحوار الوجودي، من خلال القصّة الّتي استحضرها المبدع في حواره مع الوزير. والّذي يظهر في حوار آخر بصفته سائلا و مسؤولا، من خلال تلك المتتالية من الأسئلة تعقبها مجموعة من الأجوبة في بنية سرديّة تُذكر فيها عناصر السّرد، من خلال حوار يبعث التّشويق في نفس السّامع. وفي نهاية الأمر يُعطى الجواب، ألا وهو " العرب"، فيبدأ في وصفهم بإعطاء ميزاتهم الأخلاقيّة، الّتي تُخالف كلّ من حولهم من الأمم الأخرى.

وما دام المبدع في موقف يُنتظر منه إجابة حاسمة في موضوع شائك كهذا، لا بُدّ له من أن يلجأ في جوابه إلى شخصيّة أخرى، هي شخصيّة " ابن المقفّع"، وهذا الكاتب العبقريّ، لا يُعلى عليه في مجال الأدب، بمعرفة أسرار الشّعوب والأمم، فيذكر مزاياها وخصائصها، بإسهاب وبلغة بيانيّة بلاغيّة إبداعيّة تسحرّ اللّب. وفِكَرٌ عقليّة تأسر الذّهن. فاعتبر السّارد أنّ كلام ابن المقفّع كافيا ووافيا لإقناع الوزير. وهذا ما أبداه هذا الأخير في كونه استحسن الأمر، واقتنع بما صدر من الرّاوي. لذا فالإقناع بالإثبات بواسطة الحجج الدّامغة، يُزيح ويُزيل الغموض، وكلّ الشّكوك الّتي تُساير الذّهن فتأسره، وتطغى على العقل فتقيّده.

وبما أنّ المبدع حريصٌ كلّ الحرص على إقناع السّامع، فقد استدعى حُججا تمثّلت في كلام غيره لإقناعه، لأنّه سُرعان ما غاب صوته عن الحوار، ثم رجع من جديد ليستأنف المحادثة، ويُجدّد الحوار مع السّامع، بطرح آرائه، مُبديا في ذلك أنّ خطاب ابن المقفع كفيل

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص64-65.

بالإقناع، وكافيا للاستمتاع بالحجّة الدّامغة، لأنّه استوفى المعنى والدّلالة معا. مُدركا أنّ استشهاده بكلام الأديب ابن المقفّع قد أدّى دوره في عمليّة التّواصل التّداولي بين أطراف الحوار.

الإمتاع والمؤانسة خطاب معرفيّ يقوم على ثنائيّة (السّؤال والجواب)، والّذي يُفعّلها سياق المقال، ويجسّد وظيفتها التّواصليّة بين الأطراف المتحاورة، لإنجاح عمليّة التّبليغ، وإلزام المتلقّي على الاستجابة، بسبب التّأثير فيه، بحيث يُصبح الخطاب سردًا للحوار من بدايته إلى نهايته. والغرض من ذلك هو الاستفسار، والفهم والتّعلّم الّذي يتطلّع إليه المتلقّي للاستطلاع على معارف وعلوم عصره، لأنّه يُدرك تمامًا أنّ المبدع موسوعة ثقافيّة لا تتكرّر. فيريد من خلال كلّ ذلك التّشبّع بالثّقافة؛ أي أن ينعكس ما لدى المبدع ليتحوّل إليه. فيكون بذلك من ضمن زمرة العارفين، والمميّزين. على اعتبار منه أنّ السّلطة لا تكفي، وقيمة الإنسان تكمن في علمه، والأساس هو المعرفة. والعلم النّافع عنده يؤدّي إلى العمل الموصول بسعادة الإنسان في الحياة الدّنيا والآخرة، كما في قوله: " الزّيادة من العلم داعية إلى الزّيادة من العمل، والزّيادة من العمل جالبة الانتفاع بالعلم، والانتفاع بالعلم دليل على سعادة الإنسان، وسعادة الإنسان مقسومة على اقتباس العلم والتماس العمل. حتّى يكون بأحدهما زارعًا، وبالآخر حاصدًا، وبأحدهما تاجرًا، وبالآخر رابحًا "[1]. فالخطاب يوحي بمعنًى ضمنيّ، يتضمّن التّأمّل في محتواه، وهو أنّ طلب المعرفة عنده إيمان واعتقاد، وطريقة تعايش في الحياة الدّنيا للفوز بآخرتها.

سؤال يتعقّبه سؤال موالٍ في حوار تداوليّ بين الطّرفين، يبني فيه المبدع سرد أقوال بحسب سياق التّواصل في موقف المُجيب العارف بخبايا اللّغة من مصادر ورودها، ومنبعها من علمائها، ويظهر ذلك في حوار بينهما حول سرّ اللّغة وخبايا معانيها. كما جاء على لسان الرّاوي، " قال: هل يُقال ظَفِرْتُ عليه؟ قُلت: قد قال شاعرهم:[من الطّويل]

وكانت قريش لو ظفرنا عليهم * شفاءً لِمَا في الصّدور والنّقصُ ظاهرُ

[1] - المصدر السّابق، الجزء الثّالث، ص384.

قال: هذا حسنٌ. قلت: الحروف الّتي تتعدّى إلى الأفعالِ، والأفعالُ الّتي تتعدّى الحروف، يُراعى فيها السّماع فقط لا القياس.

هذا كان مذهب إمامنا أبي سعيد، وقد جاء أيضًا ظفر به، وأجاب سخرت به ومنه.

ومن لا اتّساع له في مذهب العرب يظنّ أنّ سخرت به لا يجوز، وهو صحيحٌ. حكاه أبو زيد.

قال: مَن لَقَبه الخرسيّ إلى أيّ شيء ينتسب؟ فكان من الجواب: يقال: رجل خراسانيّ وخرسي وخراسي، فنسبت إلى رجل نزلها سنة فاشتهرت به.

قال: نسيت أن أسألك- أعني الخرسي- من أين لك تلك الفتيا؟ فكان من الجواب: قرأته على أبي سعيد الإمام في شرحه كتاب سيبويه. قال: برّدت غليليّ، فإنّ الحجّة في مثل هذا متى لم تكن بأهلها كانت متلجلجة " [1]. وإنّ مثل هذه القضايا الّتي تمسّ جانب اللّغة، حتّى وإن وردت في الحوار، واتّخذت مساحة مُعتبرة للغوص في جوانبه مع ذكر علمائه وقواعده، وأخذت نصيب مناقشتها كباقي المعارف الفلسفيّة والدّينيّة والأخلاقيّة...، يكفي أنّ لغة النّحو اكتسحت الخطاب السّرديّ، وسيطرت عليه ببلاغتها وحُسن رونقها وبيانها، من خلال تقنيّة الحوار والتّواصل بين المبدع والمتلقّي.

وبالتّالي فخطاب أبي حيّان، هو خطابُ سرد الحوار، وأيُّ حوار؟ إنّه حوار العقل، ونقاش ثقافيّ ومعرفيّ يرقى إلى مستوى براعة المبدع، ونبوغه في جميع مجالات الحياة العقليّة والفكريّة، تظهر عند إبداء رأيه بحجج يستدعي فيها آراء غيره، عن طريق إحالة سياقات مرجعيّة تمكّنه من الإدلاء بفكر وفلسفة العصر، كلّ هذا الخضمّ الهائل من المعارف، يحقّق فعل التّأثير في السّامع، وحمله على إبداء شعور الاستحسان، والرّغبة في الاستزادة والنّفع، فكلّ ما حصل عليه من معرفة، كانت مُستبعدة في نظره، وبعيده المنال عليه، وأنّ النّفس توّاقة إلى المعرفة. بقوله: " هذا من الفوائد الّتي كنت أحنُّ إليها، وأستبعد الظّفر بها، وما أنفعَ المُطارحة، والمفاتحة، وبثِّ الشّكّ واستماحة النّفسِ، فإنّ التّغافل عمّا تَمُسّ إليه الحاجةُ سُوء اختيار، بل سوء توفيق." [2]، فهو بذلك يُبيح لنفسه السّؤال، مادام

---

[1] - السّابق ذكره، الجزء الأوّل، ص168-169.

[2] - نفسه، الجزء الثّانيّ، ص260.

النّفع وارد فيه، والعمل مبنيّ عليه. فيكون طرحه مبرّرا له، فيجب الاستفادة منه.
والسّرد عند الكاتب ليس سرد حكايات، وأحداث جرت لشخصيات كما في سرد القصّ، بل هو سرد مُغاير تمامًا قد نعرفه أو نسمع به، إنّه سرد معارف وأقوال تتضمّن في محتواها ثقافة متعدّدة الجوانب والرّؤى، يغزو من خلالها الحوار التّداوليّ فيها الفكر الإنسانيّ، بتعدّد مجالاته الإيديولوجيّة والبلاغيّة عبر مسار التّواصل في السّياق التّداوليّ.

لذا يَجدُر القول عنه، أنّه خطاب المعرفة، هذه الأخيرة تنبع وتنبثق من الحوار التّواصليّ الّذي بدوره يزخر بعناصر السّياق التّداوليّ للتّأثير في السّامع. بواسطة إحالته إلى سياقات مرجعيّة تُستحضر منها أقوال الشّخصيات، بل وعلوم العصر، ضمن مناظرات القول الفلسفيّ الّتي تعكس المحتوى الفكريّ، والطّرح البلاغيّ في خطابات هؤلاء. " فقال: ما الفرق بين الإرادة والاختيار؟" [1]، و " قال: ما الفرق بين القضاء والقدر؟ " [2]، وكلام حول طبيعة النّفس، وحياة الإنسان ...، هذه مجموع القضايا الفلسفيّة الّتي كانت محور النّقاش، ضمن ذلك التّواصل الحواريّ بين السّارد والمتلقّي. وتجلّى هذا الحوار في الخطاب المعرفيّ الفلسفيّ بطريقة استفهام فجواب، وفق بلاغة الإبداع والتّأليف اللّغوي البديع. الّذي تجسّد في تداوليّة وتواصل الفكر عبر الحوار، هذا الأخير منح مساحة أعمق للتّواصل وتبادل الكلام بن أطراف الحوار، للوصول إلى هدف معرفيّ بحتٍ.
وبهذا كلّه لقد بلغ السّارد مبتغاه، من نواحٍ عدّةٍ، ناحيّة الإخبار والتّزوّد بالمعرفة والثّقافة لدى الوزير الّذي يتطلّع أكثر إلى الاستفادة والتّعلّم. فأبدى تعاونا ضمن هذا الحوار في استيعاب القول، وفهم مضامينه، والاسترسال في استمرار التّواصل عبر سياق المقام. وناحيّة أخرى جماليّة إمتاعيّة، شعر فيها المتلقّي بمتعة الحديث من النّاحيّة النّفسيّة والوظيفيّة . لأنّ المبدع من خلالها يصبو إلى جانبٍ وظيفيّ عمليّ هو تحقيق التّوجيه والإصلاح. كما في قول السّارد، و" لكنّ الحضّ على إصلاح الخُلُق، وتهذيب النّفس لم يقع من الحكمـاء

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة ،الجزء الثّالث، ص395.

[2] - المصدر نفسه، الجزء الأوّل، ص171.

بالعَبَث والتّجزيف. بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة..." [1]. قول ينطوي على معنًى مضمر، يتضمّن معانيَ ضمنيّة تتمثّل في أنّ الأخلاق والفضائل لا تقتصر على أحد دون آخرٍ، مهما كان وضعه وطبيعة مركزه الاجتماعيّ، بل تفرضها عليه إنسانيته.

فالحوار في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ ، يعتبر من مكوّنات السّرد، وفي نفس الوقت هو الّذي كوّن السّرد وفَعّل مواضيعه، وأجبر الرّاوي على سرد سابق ولاحق من معارف عصره، لكي يستطيع أن يُجيب كلّ سؤال وارد من طرف الوزير. بواسطة ذلك الحوار الّذي يلجأ فيه المبدع إلى خَلق تواصل تداوليّ معرفيّ يضبطه سياق بجميع عناصره، سواء بتعزيز فكرة أو رفضها، ذلك عن طريق طرح كلّ الحجج الّتي تؤيّد رأيه وتدعمه.

فلم يكن هذا الحوار يقتصر على تحقيق الجانب المعرفيّ فقط، بل تعدّته إلى تحقيق متعة السّرد القصصيّ، والّذي تدور معطياته وملامحه عن طريق توظيف فنّيات أدبيّة من صفات وترادف...، ناهيك عن الأبعاد الجماليّة الفنيّة المستوحاة من المحادثة والحوار المشوّق الّذي يعتبر عنصرا بارزا في سرد التّوحيديّ، والّتي تبعث على الإقناع والمعرفة، بقوله: " لقد كنت قَرِمًا* إلى هذا النّوع من الكلام " [2]. فالحوار يتميّز بمقصديّة تداوليّة هدفها الإمتاع والفائدة، لا تخلو من بلاغة مُحكمة، ومقاصد تعليميّة وتوجيهيّة. هذا التّواصل الحواريّ بدوره يُحقّق وظيفة تداوليّة تتعلّق بالتّزوّد بالمعارف الأدبيّة والفكريّة والفلسفيّة. بصفته وسيلة للتّأثير والتّواصل. كما أنّه يمدّ جُسور المعرفة بطريقة تداوليّة يُجيّدها تبادل الحوار والمشاركة بين أطراف الكلام، والتّعاون بينهم وفق شروط سياق التّواصل.

الحوار بين المبدع والمتلقّي، لا تقتصر معرة السّامع في التّطلّع إلى فهم وإدراك علوم ومعارف عصره، بقدر ما يهفو إلى معرفة آراء غيره فيه، وخاصّة من علماء عصره، بقوله: " أوّل ما أسألك عنه حديث" أبي سليمان المنطقيّ"، كيف كان كلامه فينا، وكيف كان رضاه عنّا ورجاؤه بنا " [3] ، فهو يتحيّن الفرصة في أنه يريد معرفة غيره فيه، بحكم أنّه

---

[1] - نفسه، ص116.

[2] - المصدر السّابق، ص79.

* قَرِمًا: مشتهيّا.

[3] - المصدر نفسه، ص37.

صاحب سلطه فلا يسعه إلاّ أن يساوره الفضول في معرفة ما إذا كان مفضّلا عند غيره أو مرفوضا بالنّسبة له، وفي سؤال آخر يريد أن يعرف من خلاله، ما تقوله الرّعيّة عنه، وما رأيهم فيه. قال: " حدّثني عمّا تسمع من العامّة في حديثنا " [1]. فالوزير تتملّكُهُ الرّغبة في المعرفة والتّوحيديّ يكشف عن موسوعيّة الخطاب ضمن الحوار التّواصليّ معه. فيستعين بالقصّ والأحاديث وفِكر غيره، فهذا التّنوّع في الأخبار والنّصوص داخل الخطاب السّرديّ ساهم بدوره في بلوغ مُتعة الفنّ الأدبيّ الّتي يتوق لها نفس السّامع، ويظهر ذلك في تعبيره عن رغبته وتطلّعه في الاستزادة من العلم والمعارف، بقوله: " هاتِ ما أحببتَ، فما عَهِدنا من روايتك إلاّ ما يشوّقنا إلى رؤيتك. وقال: ما أكثر رونق هذا الكلام! وما أعلى رُتبته في كُنه العقل! أُكتبه لنا، بل اِجمع لي جزءًا لطيفًا من هذه الفِقَر، فإنّها تُروِّحُ العقلَ في الفَينة بعد الفينَة... " [2]، ومن فَرطِ حبّه وشغفه للمعرفة، لم يكتف بالسّماع من الرّاوي ضمن الحوار التّواصليّ، بل طلب تدوينها للاطّلاع عليها باستمرار في المستقبل؛ أي تكون مُتاحة له كلّما أراد التّرويح عن نفسه قراءتها.

لقد لامس الحوار جلّ ليالي السّمر في خطاب" الإمتاع والمؤانسة"، وهو العنصر الّذي أسهم بشكل كبير في توليد موضوعات السّرد، وإثراء الأفكار والمعاني والأخبار المتنوّعة في مجالات العلم والمعرفة البلاغيّة والفلسفيّة والثّقافيّ، كلّ هذا الصّرح المعرفيّ الهائل ساهم بشكل جليّ وبارز في تكوين وتشكيل موسوعة التّوحيديّ، وجعل منها خطابا معرفيّا تجمّعت فيه عدّة أنماط أسلوبيّة فعّلت جانب الصّبغة الأدبيّـة فيه، على نحو نمط الوصف، والحجاج والحوار والسّرد، كلّ هذه العناصر مجتمّعة، أسهمت في تشكيل خطاب مختلف، ومُغاير عن باقي خطابات عصره.

الحوار هَيمن على سرديّة الخطاب عند "أبي حيّان"، الّذي بواسطته تمكّن من تقديم شتّى المعارف الّتي تنمو وتتطوّر وفق هذا التّداول والتّفاعل الحواريّ، والّذي يُبيّن أنّ المتلقّي لا يجهل تماما تلك المعارف، بقدر ما يُريد تأكيدها وتثبيتها في ذهنه ، خاصّة وأنّه يتمتّع بقـدر

[1] - المصدر السّابق، الجزء الثّانيّ، ص195.

[2] - نفسه، ص193،194.

كبير من الثّقافة، مكّنته من طرح أسئلة وجيهة تحمل دلالات عميقة، أو تدلّ على مضامين مثيرة للجدل في عصره، وطرحها بطريقة حواريّة ضمن مقام التّواصل بينه وبين المبدع.

فمهما تعدّدت تلك الموضوعات والأفكار المطروحة للنّقاش، والّتي ساهمت في إثراء السّرد وبنائه، يظلّ الحوار هو المؤسّس الرّئيسّ لهذا الصّرح المعرفيّ التّوحيديّ، واستمرار الطّرح الفكريّ من طرف المبدع للتّعبير عن رؤاه، وأفكاره بحسب ما يتطلّبه المقام التّواصلي.

وجملة القول يتجلّى البُعد التّداوليّ في الخطاب السّرديّ بآليّة الحوار الّتي استحوذت على الخطاب برمّته، وأخذت مساحة مُعتبرة كان للمعرفة الدّور الفعّال في توسيعها وسبر أغوارها وفق عناصر السّياق الّتي منحها البعد المطلق في التّطرّق لمجالات الحياة الاجتماعيّة والثّقافيّة الّتي تخصّ العصر، وما قبله من عصور غابرة. لذا كان الحوار له دور في تزويد المتلقّي بمختلف التّساؤلات والمعارف، كانت فيها الحُجج المطروحة المُوجّه الحقيقيّ لإرساء خاصيّة الإقناع والتّأثير في المتلقّي ضمن سياق المقام التواصليّ.

كما أنّ الحوار لَعِب دورا مهمّا في الخطاب السّردي، يكفي أنّ لكلّ سؤال جوابًا، وأيّ جواب؟ إنّه جواب سرد للمعرفة وعلوم العصر. لهذا كلّه كان للحور دورا، ووظيفة تداوليّة في التّعريف بتلك المعارف، وإعطائها أبعادًا ساميّة ساهمت في تثقيف المتلقّي وتهذيب سلوكه، ومُحاولة طرح هذه المعارف بطريقة الحوار، وسلاسة التّواصل بين الطّرفين كان مبعثه مبدأ التّعاون الّذي يُعتبر مرحلة مهمّة كلّ ما يُقال.

الخطاب السّرديّ وقواعد التّخاطب

أ- مبدأ التّعاون وقواعد التّواصل:

إنّ الحوار بين المتكلّم والمتلقي في سيرورة الكلام، وفق نظام المحادثة بين الطّرفين في سياق المقام بشروطه وعناصره، وفق نظام التّواصل التّداوليّ، يكون عماده التّلفّظ كإجراء أساسيّ للبوح والتّعامل مع الطّرف الآخر بانسجام وتواصل يُبنى على صدق القول، والتّعابير الصّريحة، خاصّة إذا كانت المعلومات المطروحة في الكلام لها صِلة بالطّرف الآخر، هذا التّوافق في المحادثة بين أطراف الحوار التّداوليّ، هو نقطة بداية "التّعاون"، كمبدأ من مبادئ التّواصل الّذي يحرص على أن تكون مساهمة الأطراف المتحاورة في المحادثة ملائمة ومناسبة للمقام.

وقد حُدّدت من خلال "مبدأ التعاون" مجموعة من القواعد الواجب وضعها محّل اهتمام، وحرص على أن تحتوي الكلام ، وتتضمّن أنساقه وتراكيبه ومعانيه، وأن نكون على دراية بمدى فعاليتها في جعل الكلام واضحا مستمرا عبر التّواصل التّداوليّ في سياق المقام، للوصول والفوز بفائدة مشتركة نافعة للطّرفين.

هذه المبادئ الضّمنيّة الّتي تتحقّق متى كان التّعاون مُجديًا بين المشاركين بكلامهم الملائم للمقام التّواصليّ، وإذا حدث خَرق لأحد قوانين هذا المبدأ، فإنّه يتعيّن على المتلقي حَمْل مفتاح التّأويل بسبب وجود تضمينات في القول. هو مُلزم بتفسيرها على اعتبار أنّها جزء من الكلام يتمّ إيصاله دون قوله. فكلّما كان الكلام مُناسبا في المقام التّواصليّ. تحققت شروط التّعاون بين أطراف الحوار، وتحقق على إثر ذلك الفعل الإنجازي المقصود.

مع الجدير بالذّكر أنّ ليس كلّ تواصل حواري بين أطراف الحوار، ووفق سياق مقامي ينجم عنه تعاون بين المشاركين. لأنّ هذا التّعاون قد يظهر في التّواصل البسيط المبني على المعاملات الاجتماعية في الحياة اليوميّة. فنجده واضحا بالنّسبة للطّرفين، وناجحا ومستمرّا بينهما. لكن يوجد ما هو جدير بالدّراسة، والوقوف عند معناه، وسبر أغوار مدلولاته الضّمنيّة، ألا وهو ذلك الكلام البلاغيّ الّذي ارتبطت أنساقه وتراكيبه على مُحتوًى لغويّ تتفاعل فيه عناصر لغويّة، وتصوير بيانيّ يُضفي على الكلام جمال اللّفظ وإيحاءات المعنى. والّذي يكون فيه عنصر التّواصل بين الطّرفين على مستوًى ثقافيّ معيّن، يُجبر المتلقّي على

أن ينظر إلى الكلام من جانب واضح إذا كان صريحا، ومُتماشيا مع العرف والمعروف عليه في الحوار من ملفوظات، ومن جهة ثانيّة قد يُؤوّل من طرف المخاطب إذا كانت معانيه ضمنيّة غير بادية على سطح الكلمات. هذه المفاضلة تستوجبها نوع أطراف الحوار، فكلّما كان المتكلّم والمتلقّي على درجة واحدة من المعرفة المشتركة كان التّواصل متعاونا بينهما.

ولهذا كان من بين شروط التّعاون في الحوار التّواصليّ، أن يكون الطّرفان المشتركان لهما نفس الفعل الثّقافي المشترك بينهما. وهذا ما جسدّه الخطاب السّردي عند التّوحيديّ، الّذي يمارس فيه عمليّة تداول الكلام بين أطراف الحوار لتحقيق فعل السّمر بجميع معطياته ومضامينه الثّقافيّة والعلميّة والأدبيّة. هذا المحتوى المعرفي يتجلّى في موضوعات الحوار الذّي اتّسم بتعاون الطّرفين، وهما: المبدع والمتلقّي.

لقد بدَا التّعاون واضحا منذ بوادر الكلام في مستهل اللّيلة الأولى الّتي حققّت معالم السّياق المقاميّ بوجود طرفي التّواصل: التّوحيديّ والوزير، وفضاء المكان" المجلس"، والزّمان ليل السّمر. والّتي بُنيت على أساسه شروطا واضحة يسرّت البوح في المحادثة، وفعّلت طريقة التّعامل بين الطّرفين. كما ساهمت في تنامي السّرد، وتوليد موضوعات الحوار، إلى بلوغ غاية الأنس والإمتاع.

خطّة التّواصل بين المبدع الّذي يصبو إلى نيل الرّضا الماديّ والمعنويّ، وبين المتلقي الّذي يهفُو بشغف للاستماع والإفادة. هذه الخطّة بُنيت على شروط وضعها الوزير، وتظهر في قوله: " فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة، والتّأنيس، ولأتعرّف منك أشياءَ كثيرة مختلفة تردّد في نفسي على مرّ الزّمان....، فأجبني عن ذلك كلّه باسترسال وسُكون بال، بملءِ فيك، وجمِّ خاطرك، وحاضر علمك، ودعْ عنك تفنُّن البغداديين مع عفوِ لفظك، وزائدِ رأيِك، ورِبْح ذهنك، ولا تجبُن جُبن الضّعفاء، ولا تتأطّر[1] تأطّر الأغبياء، واجزم إذا قلت، وبالغ إذا وصفت، وأُصدق إذا أسندت، وافصل إذا حكمت، إلاّ إذا عرض لك ما يُوجب توقّفًا

[1] ـ لا تتأطّر:لا تحبس نفسك وتُثنيها.

أو تهاديًا " [1]. الوزير يتوق إلى المحادثة لغرض تحقيق الفائدة والأنس، ولا شكّ أنّ رغبته في التّواصل خوّلت له وضع شروط للحوار في السّياق التّواصليّ المقاميّ.

هذا التّطلّع والشّغف بالحديث، جعله يضع استراتيجيّة تواصليّة. أجبر المبدع السّير على منوالها. فأظهر شروط معالمها من خلال أوّل حضور معه مجلسه، وذلك بأن يكون الكلام مسترسلا، يحمل علما ومعرفة. مع بلوغ القصد في الكلام، والمبالغة في الوصف والحرص على صدق القول.

شروط أقرّ بها الوزير في القرن الرّابع الهجري، وفرضها على جليسه، سبقت التّنظير النّقدي الحديث، تتماشى أو بالأحرى تختصر "مبدأ التّعاون" بجميع فروعه الثّانويّة، وتوحي بشروط الملاءمة، ومناسبة القول أثناء الحوار، والتّواصل التّداوليّ.

هذا التّواصل الّذي يصبو إليه الوزير، يرتبط بشروط تداوليّة لإنجاح خطاب المعرفة، ولهذا عَمَد إلى وضع شروط تمكّنه من فهم ما يقال من طرف المبدع واستمرار التّواصل المعرفيّ بينهما.

والمبدع بدوره يضطلعّ إلى وضع شروط المحادثة، فيقول على لسان المتلقي، قبل الانطلاق في ليالي السّمر، والخوض في قضايا المعرفة، والخطابات العلميّة والفلسفيّة والبلاغة، فقال: " وليكن الحديثُ على تباعد أطرافه، واختلاف فنونه مشروحًا، والإسناد عاليا متّصلاً، والمتنُ تامّا بيِّنا، واللّفظ حفيفا لطيفا، والتّصريح غالبا متصدّرًا، والتّعريض قليلا يسيرا وتوخّ* الحقّ في تضاعيفه وأثنائه، والصّدق في إيضاحه وإثباته، واتّق الحذف المخل بالمعنى، وإلحاق المتصل بالهذر، واحذر تزيينه بما يشينه، وتكثيره بما يقلله، وتقليله عمّا لا يستغنى عنه، واعمد إلى الحُسن فزد في حسنه، وإلى القبيح فانقص من قبحه، واقصد إمتاعي بجمعة نظمه ونثره، وإفادتي من أوّله إلى آخره، فلعلّ هذه المثاقفة تبقى وتـــروى" [2]. إن خطّة التّواصل لتحقيق غايّة المثاقفة تَصدُقُ على شروط "مبدأ التعاون"،

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص30.

* توخّ الأمر:تعمّدهُ دون سواه.

[2] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص22-23.

وتُعلن على مناسبة القول للمقام التّواصليّ. بين متعة الحديث، وصدق إيضاحه، وحُسن القول بالإفادة. لتحقيق القصد، والغرض من التّواصل، هو بقاء المثاقفة على المدى البعيد. مجموع هذه الشّروط الّتي وضعها الكاتب، ليكون الكلام مناسبا للمقام التّواصليّ، تبعث اتّفاقا مشروطا بين الطّرفين، رغبة منهما في إنجاح التّواصل الّذي يُبنى على المعرفة والثّقافات المختلفة الّتي وصل إليها الفكر الإنسانيّ في أرقى عصور التّاريخ الإسلاميّ. ومن خلال هذا التّصور العام في وضع أساسيّات الكلام الّتي ترتبط بالتّواصل التّداوليّ بين الطّرفين. إنّه يبني صرحا ثقافيا القصد منه يبدو واضحًا بدءًا من " اللّيلة الأولى"، وتتجسّد في تعاون، وانسجام الطّرفين. باستعمال التّوحيدي ل" تاء المخاطبة"، واستجابة المتلقّي لها، وهذا استلزام ناتج عن رغبة كليهما في تسهيل، وتيسير التّواصل، لتحقيق متعة الأنس بعيدا عن الغموض والتّكلّف في المحادثة. لتحقيق وظيفة أسمى هي المعرفة، وإصلاح السّلوك الإنسانيّ.

هذا التّعالق الحواري المباشر والحيّ بين الأطراف المشاركة فيه، في إطار سياق تواصليّ معيّن مُسبقا، ينمُّ عن وجود تفاعل كلاميّ، ومشاعر الحبّ ولهفة الشّوق للحديث الشّجيّ. استطاع أن يحقّقها المبدع من خلال توظيفه "لمبدأ التّعاون" والمشاركة بينهما لغرض مقصديّة إنجاح الخطاب، والوصول إلى تحقيق الفعل الكلاميّ المقصود إنجازه من خلال ذلك التّداول الحواريّ، والمتمثّل في تقبّل المعرفة بجميع أنواعها وتفاصيلها، والعمل بمحتواها.

الوزير يُبادر في قول استفهام في مستهل كلّ ليلة. راجيا جوابا شافيا ومُقنعا، طالب الانتفاع بالقول، ومتعة في ليالي السّمر.قال: " حدّثني عن اعتقادك في أبي تمّام والبحتري، فكان الجواب: إنّ هذا الباب مُختلفٌ فيه، وقد سبق هذا من النّاس في الفرزدق وجرير، ومن قبلهما زهير والنّابغة..." [1]. فلجأ السّارد إلى حديث"أبي محمد العروضي" حين سأله أحدهم عن أبي تمّام والبحتري، فقال : " أبو تمّام يعلو عُلوًا رفيعا ، ويسقط سقوطا قبيحا، والبحتري أحسن الرّجلين نمطا، وأعذبُ لفظًا...، فقال الوزير: هذه حكايةٌ مفيدة من هذا

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص449.

العالم المتقدّم، وحكمٌ يلوح منه الإنصاف، وقد أغني هذا القول عن خوض كثير." [1] ، ويبدو من قول هذا العالم أنّه سرد كميّة مناسبة ووافية من المعلومات لإقناع السّائل. كما ذكر حقيقة انطباعه في قول الشّاعرين للنّظم، مُحاولة منه توضيح ذلك قدر الإمكان. وكذلك حقق مناسبة القول؛ أي علاقة الكلام بالموضوع المطروح. مع أنّ القول تجلوه تضمينات خفيّة إلاّ أنّ المتلقّي فهمه، واستوعب مقصديته. على أساس أن شعر أبي تمّام غير متوازن، يعلو نظمه إلى مستوى الإجادة، وأحيانا يحيد عنها فتسقط مرتبته. أمّا البحتري فيفوقه في النّظم حُسنا وعُذوبة. وبهذا متى تمّ إقناع المتلقّي، وإبداء فعل الإفادة، والاستكفاء، فقد تحقّق فعل التّعاون، أي مناسبة الجواب للموضوع المطروح.

الوزير يظهر مشاركة في الخطاب السّردي في مستهل اللّيلة " السّابعة والثلاثين " مُبديا تعجبا يُوحي بسؤال ضمنيّ. غرضه تحقيق إجابة شافيّة. " وقال الوزير ليلة: ما أحوجَ الجبان إلى أن يَسمَع أحاديثَ الشُّجعان! وما أشدّ انتفاعَ الضَّيِّقِ النّفسِ باستماعِ أخبارِ الكرام، لأنّ الأخلاق في الخَلْق أعْرَاض، والأعراضُ منها لازِمُ ومنها لاصقٌ " [2]. هذه المشاركة والتّعاون في المحادثة توحي بحوار حقيقي، يرقى إلى مستوى شرعيّة بناء السّرد عند التوحيدي عن طريق التّواصل الّذي اعتمد على ثنائيّة السّؤال والجواب. في سياق الحوار التّداولي لتحقيق الخطاب السّردي المعرفيّ.

ويستمرّ المتلقّي في ذِكر ووصف الأخلاق المبنيّة على التّباين والأضداد، أنّه ذكر " العَقل والحُمق، والعلم والجهل، والحِلم والسخف، والقناعة والشّره، والحياء والعفّة، والرّحمة والقسوة، والأمانة والخيانة، والتّيقّظ والغفلة، والتّقى والفجور، والجرأة والجبن، والتّواضع والكِبر، والوفاء والغدر، والنّصيحة والغش، والصّدق والكذب، والسّخاء والبخل، والأناة والبطش، والعدل والجُور، والنّشاط والكسل، والنّسك والفتك، والحقد والصّفح" [3]، وينتهي حديثه بصيغة طلب الإلزام لإعادة شرح هذه الجملة من القول. أي جملة الأخلاق المختلفة الواردة فيه ، فقال: " وينبغي أن نزور عيسى، وتذكر له هذه الجملة، وتبعثه على

---

[1] - المصدر السّابق، ص449.

[2] - السّابق ذكره، ص410.

[3] - نفسه، ص410.

إعادة حدودها.وإشباع القول فيها، مع إيجازٍ لا يكون به مدخلٌ للخلل، ولا تقصيرٌ عند إيصال الآخر بالأوّل. " [1]، من خلال قوله يظهر أنّه يريد أن يُذكّر المبدع بشروط التّعاون الّتي حدّدها في بداية اللّيلة الأولى، والّتي تفاوضا على تسطيرها، واتّفقا على العمل بها.

ومن خلال الحوار السّردي يبدو أنّ الوزير يتطلّع إلى الإيجاز في الكلام، ومناسبة القول المدرج في الحوار، " طامعا في الجواب المقنع الشّافي " [2]. والمبدع بدوره يهفو إلى إقناع المتلقي، مُتبنّيا في ذلك قاعدة: ملاءمة القول للموضوع المطروح في المحادثة.

يقول السّارد على لسان "أبي سليمان المنطقي "ردّا على رسالة وجّهها إليه الوزير لغرض شرح ما فيها فقال: " إنّك سألت على العالم بأسره، فلا طاقة لأحدٍ أن يعرض عليك العالمَ بأسرِه، ولولا عَجَلة رسُولِك في المطالبَة، وإدلالِهِ بالإلحاح، وقوله المُراد التّقريب والإيجاز، لا التّطويل والإسهاب، لكان النّسج على غير هذا المنوال، والعمل على غير هذا الوشي" [3]، فالمتلقّي يحرص على الإيجاز، وعدم الإسهاب في القول، لكنّ المبدع يؤمن بأنّ بلاغة القول، حتّى وإن اعتراها، ولاَمَس مضامينها نوعٌ من التّوسيع والإطناب. فلا يُنقِص ذلك من قيمتها، ولا من رونق الوشي الإبداعي فيها. لأنّ الكلام البليغ عنده لا يُقاس بحجمه، بل بمدى ضمان بلوغ مقصديته وغاياته التّواصليّة التّي تضمن الوصول إلى الوظيفة التّأثيرية فيه.

من خلال هذه الشّواهد السّرديّة، يظهر أن من أَوْلَوِيات التّواصل الحواريّ، أن يكون الخطاب مُصيبا للمعنى بشرط أن يكون واضحًا قَدْر الإمكان، ويعكس مبدأ التّعاون القائم بين الطّرفين على ضبط القول المناسب للمقام التّواصليّ، بهدف بلوغ المقاصد التّي ينجم عنها إنتاج خطاب بليغٍ ومؤثر.

يظهر في خطاب المبدع الموجّه إلى المتلقّي الوسيط، والّذي يُقرّ فيه بأنّ الإطالة في الكلام تتّسع للقلم لا للّسان في قوله: " فأمّا الحديث الّذي كان يجري بيني وبين الوزير،فكان على قدر الحال والوقت والواجب، والاتّساع يَتبَعُ القلم ما لا يتبع اللّسان، والرويّة تتبع الخطّ ما لا

[1] - المصدر السّابق، ص410.

[2] - نفسه، ص396.

[3]- نفسه، ص408.

تتبع العبارة "[1]. فهو بهذا يؤمن بالقول المختصر المفيد الّذي يوّفر كميّة مناسبة من المعلومات لها صلة بالموضوع في إطار التّواصل الحواري المباشر، وما زِيد عن مُختصر الكلام، فهذا من اختصار القلم. والمتلقّي بدوره يحرص على أن يكون الجواب حاضرًا ضمن صيغة تعّجب، الغرض منها الاستفسار، و" قال الوزير ليلةً: يُعجبني الجواب الحاضر، واللّفظ النّادرُ، والإشارة الحُلوة، والحركة الرّضيّة، والنّغمة المتوسّطة، لا نازلةً إلى قعر الحلق، ولا طافحةً على الشفة "[2]. فكان جواب المبدع على "الجواب"، بإحالة مرجعيّة مخاطبين لتبرير حجّة قوله: " قال المدائنيّ: أحسنُ الجواب ما كان حاضرًا مع إصابة المعنى، وإيجاز اللّفظ وبلوغ الحُجّة. وقال أبو سليمان شارحًا لهذا: " أمّا حضور الجواب فليكون الظّفر عند الحاجة، وأما إيجاز اللّفظ فيكون صافيًا من الحشو، وأمّا بلوغ الحجّة فليكون حسمًا للمعارضة، قال: ما أحسن ما وشح هذه الفقرة بهذه الشّذرة! " [3]. يبدو أن مبدأ التّعاون باديا في الحوار التّواصليّ. حتّى وإن استدلّ المبدع بخطابين لتدعيم حُججه ورأيه، تبقى ميزة القول البلاغيّ الّذي يدلّ على " ما قلّ ودلّ ". تأخذ مَنحًى في الوظيفة الحجاجيّة. ضمن الخطاب السّردي، والدّليل على ذلك تأثّر المتلقّي، وإقناعه بالقول القليل الدّال على الكثير.

هذا المشترك التّعاوني بين المبدع والمتلقي، خَلقَ نوعًا من التّصريح والبوح بما أمكن دون إخفاء شيء من المحادثة، فلا يَكِلّ الرّاوي من سرد كلّ ما يتعلّق بالموضوع حتّى وإن لجأ إلى سياقات مرجعيّة تتضمّن سرد أخبار لتبرير حججه، وتحقيق مقاصده من خلال خطابه السّردي الّذي مارس فيه وظائف متعدّدة معرفيّة وبلاغيّة، لغرض التّأثير فيه وتوجيهه إلى السّلوك الإنساني القويم.

فكلّ ما صدر من المبدع لاق الرّضا من طرف المتلقّي، وبعث في نفسه الشّعور بالاستحسان والقبول. وفي مُعظم الأحيان التّعجّب الذي يوحي ويدلّ على الانبهار والذّهول من كلام المبدع العجيب. ضمن الحوار التّواصليّ بينهما، ففي نهايّة كلّ محادثة يعطي

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص433.

[2] - المصدر نفسه، ص434.

[3] - نفسه، ص434.

المتلقّي انطباعا تجاه ما سمعه من المبدع، قائلا: " ما أعذب هذا المورد !، وما أعجب هذا المشهد !، وما أبعد هذا المقصد !" [1]

" قال: لقد شرّدت النّوم من عيني، وملأت قلبي عجبا " [2]

" قال: هذا بابٌ في غاية الإيفاء والاستيفاء " [3]

" قال: هذا من الفوائد الّتي كنت أحنّ إليها، واستبعد الظّفر بها " [4]

" قال: هذا كلام ليس عليه كلام " [5]

هذا التّلاحم والانسجام في المحادثة بينهما، والتّعامل وفق سياق تداوليّ تواصليّ، ليس أمرًا جُزافيّا عشوائيّا، بل هو تواصل مبنيّ على الوضوح، ومدى سلاسة التّعامل في الكلام وفق مبدأ" لكلّ مقام مقال"، لتحقيق أهمّ دوافع اللّقاء، ألا وهي بثّ المعرفة والبوح بصدق القول. ووضوح اللّفظ الّذي يُؤدّي إلى المعنى المضبوط. والّذي بدوره يتقبّله المتلقّي ويؤثّر فيه. فكانت تلك العبارات جميعها الصّادرة من المتلقّي، تتضمّن بُعدًا مفاهيميّا يحمل في طيّاته مُنتهى الإعجاب والوله بسبب ما صدر من المبدع من حجج إقناعيّة، وأحاديث بلاغيّة معرفيّة، أليست تلك العبارات الصّادرة من المتلقّي دليلا على تحقيق مبدأ التّعاون بجميع عناصره، والّذي يبعث متعة الأنس بإشباع الذّهن ببلاغة القول؟ بل هي دليل واضح على استيفاء التّعاون وبلوغ مقاصد القول والفعل الّذي يتولّد من خلاله طلب " مُلحة الوداع " الّتي تُنبئُ، وتُسفِر على مقاربة نهاية المحادثة في المجلس، والّتي يتحقّق على إثرها المتعة والمؤانسة، لبلوغ التّأثير في المتلقّي كنتيجة حتميّة منطقيّة حاصلة ضمن آليّة الاستلزام الحواري.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص317.

[2] - المصدر نفسه، ص319.

[3] - نفسه، ص422.

[4] - السّابق ذكره ،الجزء الثّانيّ، ص260.

[5] - نفسه، ص296.

ب- الاستلزام الحواريّ:

مضامين الكلام تُحدّد ماهيتها من خلال تلك الأنساق والتّراكيب في الكلام أثناء الحوار من طرف السّامع على مستويات. سواء بالفهم المباشر للكلام، وهذا في حالة كان صريحًا، أو محاولة معرفة وإدراك معناه إذ كان الكلام متضمّنا لمعانٍ تستوقف المتلقّي، وتجعله في مرحلة وعي ذهني يصل به إلى إزالة الغموض على تلك المضامين الّتي يحتويها الكلام في الحوار التّداوليّ.

هذه التّضمينات قد يُبادر المتلقّي إلى معرفة كُنهها عن طريق افتراض ما سبق، يتمثّل في مجموع المعاني الّتي تُخالج ذهن المتكلّم قبل نطق الكلام. والّذي من خلاله يكشف المتلقّي معناه بتقنية الافتراض المسبق، على أساس أنّ الكلام الضّمنيّ يسبق الملفوظ، أي فهو موجود عند المتكلّمين وليس في الجمل.

أمّا في حالة ما اعترى الكلام نوعا من المعاني الضّمنيّة الّتي نستطيع أن نستخلص منها نتيجة لكلام سبقها، لكون أنّه يوجد سبب أدّى إلى حدوثها. فهي تدخل ضمن القول كنتيجة منطقية حاصلة لما قبلها من أقوال في الحوار المتداول، وهذا ما أُصطلح عليه اسم "الاستلزام الحواريّ".

الاستلزام الحواريّ: هو نتيجة حتمية لِما قِيل؛ أي أنّه معنًى نتج عن كلام سابق ليُظهر معنًى آخر خفيّ له دلالة في الأنساق والتّراكيب اللّغويّة ضمن سياق تواصليّ معين، بمعني أصحّ يُؤدي إلى نتيجة حاصلة من نفس الكلام، في إطار الحوار والتّواصل. ولذا تعتبر هذه النّتيجة استنتاجا يُزيح الغموض، ويُساهم في استمرار التّعاون بين أطراف الحوار لإنجاح العمليّة التّواصليّة .

الحوار في"الإمتاع والمؤانسة" ارتقي إلى مستوى تداوليّ بين المبدع والمتلقّي.أخذ على إثر ذلك أبعادا تواصليّة معرفيّة تميّز بها الخطاب السّردي، والّذي نتج عنه عدّة وظائف فكريّة ومعرفيّة مارسها المبدع في خطابه التّواصليّ. نحت منحنًى إقناعيّا بالحجّة الدّامغة، والرّأي الصّائب، ومنحنًى آخر توجيهيّ محاولة منه التّأثير في المتلقّي . وحمله على تغيير سلوكه والتّحلي بإنسانيّته.

الحوار التّواصليّ في الخطاب التّوحيديّ خَلق لنا أنواعا من الخطابات وبثّها في سيرورة سرده تضمّنت مضامين دلاليّة توارت خلف حروف الكلمات، والأقوال المرويّة، قد يكون من العسير الوقوف على مكنوناتها، إلاّ بواسطة آلية التّأويل للوصول بها إلى قصديّة الكلام الضّمنيّ فيه، خاصّة وأنّ خطاباته يغلب عليه الجانب المعرفيّ الّذي شكلته وبعثت به إلى الوجود بتلك البلاغة، وذلك النّسج البيانيّ الّذي يُوحي ببراعة صانعه. يستلزم ذلك وجود مضامين قوليّة يعيرها نوع من الغموض، وقصد في القول يتواري خلف الأنساق التّركيبيّة، بمعانٍ ضمنيّة، يُفترض معرفتها من السّياق التّواصليّ في مقام مجلس الوزير ضمن ليلي الأنس و السّمر .

إذ نظرنا إلى الخطاب السّرديّ التّوحيديّ من الأعلى (نظرة شاملة)، كخطاب من أوّله إلى آخره، فهو خطاب مبنيّ على الحوار وفق سياق تواصليّ حُدّدت معالم مكانه في فضاء مجلس الوزير، وزمان ليالي السّمر فيه. أول نقطة تُظهِر معالم " الاستلزام الحواريّ " أثناء التّواصل بين المبدع والمتلقّي المبنيُّ على اتّفاق عُيّنت شروطه مُسبقا، على أساسها أحدهما يسأل والآخر يُجيب. قاعدة اِمتثل لها المبدع تماشيا مع طلب الوزير الّذي بدوره يسأل وينتظر ويترقّب إجابة وافية على الغاية، والمبدع على إثر ذلك مُجبر على الردّ عليه، فمجرد أن يُجيب هذا الأخير فقد حقّق نتيجة منطقيّة مفادها أنّه التزم بعقد التّواصل، فالجواب في الخطاب السّرديّ يُعتبر في حدّ ذاته نتيجة منطقيّة لما تمّ تأكيده من شروط. على اعتبار أن هذا الاستلزام ظهر في الحوار كنتيجة حتميّة لكلام سبق الاتّفاق عليه وفق شروط أوّليّة .

كما في سؤال طرحه الوزير" فقال: أوّل ما أسألك عنه عن حديث "أبي سليمان المنطقي"، فقد بلغني أنّك جاره ومعاشره، ولصيقه و ملازمه، وقافي خطوه وأثره، وحافظ غاية خبره، فقلت:..." [1]. يبدو من كلام الوزير أنّه شغوف بمعرفة رأي أبي سليمان العالم المنطقي فيه، من خلال السّارد أبي حيّان. بحكم أنّه جاره وملازمه وبالتّالي فالسؤال في حد ذاته استلزم جوابا، وهذا وفق شروط الاتّفاق الأوليّة المُعلن عنها في بداية اللّيلة الأولى.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل،ص37.

أمّا الاستلزام الحواري الثّاني فتضمّنه الكلام الملفوظ من طرف الوزير، والّذي يوحي بنتيجة منطقية مفادها أنّ لا مناص للتّوحيديّ من الإدلاء بأقواله لكونه يعرف الرّجل معرفة تامّة. فجوابه عن الرّجل سوف يكون استلزاما منطقيا. مُحققا الإقرار والاعتراف بما يكنّه أبى سليمان من رضا أو عكسه بالنّسبة للوزير.

وما صدر من "أبي سليمان" من كلام حول الوزير، على لسان الرّاوي، بقوله: " وقد عمل رسالة في وصفك، ذكر فيها ما أتاك الله وفضّلك به من شرف أعرافك، وكرم أخلاقك، وعلوّ همّتك، وصدق حدسك، وصواب رأيك..." [1]. إنّ ذِكره خصال الوزير، ومدحه له، والثّناء عليه، بعث السّرور في نفس الوزير، فكان السّرور نتيجة و التزام – في الحوار – لما سبقه من مدح، فقال: " سررتَني لسروره بما كان منِّي " [2]. فمشاعر الفرح والسّرور الّتي كانت بسبب مدح سابق، تدخل في مضمار المتعارف عليه، وهو أنّ السّرور ناتجٌ عن كلام مدح و شكر سابق، كنتيجة حاصلة لِما تمّ تأكيده من الكلام. أمّا ردّة فعل الوزير في كلامه ضمن سيرورة، والّذي يحمل بدوره معنًى ضمنيّا مفاده أنّ حدوث فعل السّرور، كنتيجة حاصلة، يُبيّن أنّه يفترض مسبقا أنّ الرّجل سُرّ بمدحه له .

الإمتاع والمؤانسة خطاب معرفيّ تتصدّره الوظيفة الحجاجيّة الّتي عَمَد إليها المتلقّي لإقناع الوزير، وذلك بمرجعيّة إحاليّة لخطابات، وآراء غيره. فالنّمط الحجاجيّ غزا مُعظم ليالي الخطاب السّردي، وخاصّة تلك المناظرات الّتي احتدم فيها الصّراع الفكريّ ووصل إلى أوْجِ رقيّه حول المعارف العلميّة الّتي لاَمَست قضايا اللّغة والفلسفة، والّتي تمكّن فيها المبدع من توظيف خطابات حجاجيّة كان الهدف منها إقناع المتلقيّ والتّأثير فيه .

هذه المناظرات أخذت حيّزا في ليالٍ بأكملها، كما هو الحال في اللّيلة الثّامنة، إثر حوار دار بين "أبي سعيد السّيرافيّ" و"أبي بشر متى" حول حديث المنطق، يَظْهر فيه السّيرافيّ ذلك العالم المتمكّن الّذي يجمع بين النّحو والمنطق، أمّا خصمه "متى"، فإنّه يؤمن بالمنطق، أمّا النّحو فلا يعرفه. " والنّحو لم أنظر فيه " [3] . " فقال أبو سعيد: أخطأت لأنّ صحيح

---

[1] - المصدر السّابق، ص37.

[2] - نفسه، ص38.

[3] - نفسه، ص93.

الكلام من سقيمه يُعرف بالنّظم المألوف، والإعراب المعروف، إذا كنّا نتكلّم العربيّة، وفاسد المعنى من صالحه، يُعرف بالعقل إذا كنّا نبحث بالعقل..." [1]. توجد علاقة استلزام واضحة تظهر في أنّ الكلام الصحيح – استلزم نتيجة – مفادها أنّه يُعرف بالنّظم المألوف، كما أنّ فاسد المعنى تُؤدّي نتيجته إلى أنّ معرفة تكون بالعقل؛ أي استلزم معرفته بالعقل كنتيجة منطقيّة بحسب رأي السّيرافيّ.

و الكلام في رأي السّيرافيّ، إذا كان صحيحا نتيجته تستلزم ذلك؛ أي تكون صحيحة، وإذا كان الكلام يَشُوبه نوع من التّحريف، فسوف يؤدي استلزام ذلك إلى أن يكون غير صادق وغير صحيح. كما في قوله: " ألا ترى أنّ رجلا لو قال: " نطق زيدٌ بالحقّ، ولكنّ ما تكلّم بالحقّ، وأعرب عن نفسه، ولكنّ ما أفصح، وأبَان المُراد، ولكن ما أوضَح، أو فَاهَ بحاجته، ولكن ما لفَظَ، أو أخبر ولكن ما أنْبَأَ، لكان في جميع هذا مُحرّفا ومُناقضًا، وواضعًا للكلام في غير حقّه، و مُستعملا اللّفظَ على غير شهادة من عقله وعقل غيره " [2]. يظهر أنّ كلّ كلام موضوع في غير محلّه من ناحية صياغة الألفاظ ، ونسج المعاني، و ليس له أساس من الصّحة؛ أي أنّ كلماته لا توحي بصدق معانيه، فإنّ ذلك يؤدّي إلى استلزام ونتيجة منطقيّة مفادها: أنّ يُحكم على هذا القول بأنّه مُحرّفٌ ومناقض للواقع، وغير واضح لفظا و لا معنًى.

وجملة القول أنّ في المناظرة عادة يكون المجال رَحبًا للكلام المنطقيّ المبنيّ على أُسس وحُجج عقليّة، والّتي تستلزم بدورها نتائج منطقيّة لإفحام وإقناع الآخر، والتّأثير فيه . ولهذا نجد مثل هذه المحادثات الّتي تدخل في غمار "عِلم الكلام " ضمن طيّات خطاب " الإمتاع والمؤانسة "، وقد عمد المبدع إلى إظهارها عبر صفحات خطابه السّردي، لغرض تحقيق وظائف معرفيّة وحجاجيّة وثقافية...، هذه الخطابات الّتي تتّسم بالمنطق والعقل، والّتي تبعث في القارئ مُتعة فنّ النّظم البلاغيّ، والشّعور بجمال ورونق اللّفظ وما يحتويه من معانٍ رَحبة، وبلاغة ساحرة، وما تتضمّنه أقواله من دلالات عميقة تُشبع وتمتّع الذّهن بقضايا معرفيّة تَأسَر العقل و النّفس معًا .

---

[1] - المصدر السّابق ، ص89.

[2] - نفسه، ص92.

ومن أهمّ القضايا الّتي قد تُدرج ضمن " علم الكلام " ذلك الصّراع الفكريّ بين علماء الدّين والفلسفة، ومنزلة كلّ منهما. فلا مفرّ للرّاوي من اللّجوء دائما إلى أقوال "أبي سليمان المنطقي" الّذي له باع في عصره، كما له مكانة هامّة في خطابه السّردي للاستشهاد، والحُكْم بأقواله في أكبر قضيّه معرفيّة عُرضت وبسطت على طاولة ليالي السّمر، ألا وهي قضيّة الدّين، وما مدى علاقته بالفلسفة، وذلك بحسب آراء المؤيّدين لها. ليُبيّن المبدع براعة الحجّة، ببلاغة القول وروعة المعنى. " قال: فأين الدّين من الفلسفة، وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل، من الشيء المأخوذ بالرّأي الزّائل ؟

قال: وبالجملة، النّبيّ فوق الفيلسوف، والفيلسوف دون النّبيّ، وعلى الفيلسوف أن يتّبع النّبيّ، وليس على النّبيّ أن يتّبع الفيلسوف، لأنّ النّبيّ مبعوث، والفيلسوف مبعوثٌ إليه. قال: ولو كان العقل يُكتفى به، لم يكن للوحي فائدةٌ ولا غناءٌ، على أنّ منازل النّاسِ مُتفاوتةٌ في العقلِ"[1]. كلام منطقي صادر عن تجربة علميّة معرفيّة، واطلاع واسع بخبايا وعلوم الدّين وتفكير عقلي. أدّى كلّ ذلك إلى تحقيق نتائج منطقيّة عن طريق خاصيّة الاستلزام الحوارية، وتتمثّل في قوله: أنّ " النّبيّ مبعوثٌ، وهو فوق الفيلسوف". حقّق استلزام حواري يؤدي إلى أنّ الفيلسوف مبعوث إليه يجب أن يتّبع النّبيّ، كما أنّه لو نحتكم بالعقل، فالنّتيجة تكون لا فائدة لوجود الوحي. بما أنّنا نتّبع الفيلسوف؟

هذه قضايا عقليّة الّتي تنبعث من التّواصل التّداوليّ بين المبدع والمتلقّي، تَنجم عنها نتائج منطقيّة تتحقّق وفق تقنيّة الاستلزام الحواريّ، كما تفرضها حتميّة الدّفاع عن القول السّديد، فيتقبّلها العقل، والتفكير السّليم. فمنها كانت تلك التّضمينات في الخطاب السّرديّ التّوحيدي بين معانٍ خفيّة وأقوال مضمرة خلف ستار الحروف والكلمات. و افتراضات تسبق القول توحي بمدلولات عميقة، يكون فيها المعني المُستنبط من الذّهن أكثر إفصاحًا عنه في القول، حتّى وإنْ كانت مضامينه تستلزم، وتُؤدّي إلى نتائج منطقيّة ممّا تمّ تأكيده من كلام سَبَق ذِكره، فإنّ كلّ هذا الكمّ الهائل من الكلام المتضمّن، أَسْفَر عنه خطابٌ معرفيّ وبلاغيّ يُوحي بجمال الوَشي، ورونق اللّفظ، والمعني الدّال على تضمينات في الكلام حقّقت للمتلقّي مُتعة الأنس قولاً و فعلاً.

---

[1] - المصدر السّابق، الجزء الثّانيّ ، ص183.

3- استراتيجيّة التّأثير في المخاطب.

- متضمّنات القول:

"الإمتاع والمؤانسة" خطاب سرديّ بلاغيّ إبداعيّ يُحاكي ثقافة العصر، وتجربة إنسانيّة وفق مقام تواصليّ مباشر يضطلع فيه الكاتب إلى التّأثير في المتلقّي وتوسيع آفاقه الفكريّة والمعرفيّة بواسطة تلك الموضوعات والنّصوص الّتي قام المبدع باستحضارها لنسج وحبك نصّه الكتابيّ، بلغة فاقت التّصوّر البسيط من ناحيّة تشكيل اللّفظ والمعنى، بلاغةً وإبداعًا. ممّا يضطرّ القارئ إلى تأويلها وفهم كُنهها وأثرها الفعليّ والعمليّ المتعلّق بالتّوجيه من النّاحيّة الأخلاقيّة والفكريّة. لأنّها تتضمّن دلالات مضمرة، إنّها تتوارى خلف الكلمات والأقوال الّتي تضمّنها السّياق الدّاخليّ للنصّ المبنيّ على المقام التّداوليّ والتّواصليّ بين طرفي الحوار.

المبدع سطّر استراتيجيّة لسرد تلك المعارف والأقوال المطروحة في النّقاش وفقا لتوجيهات تداوليّة، وبناءً على افتراضات مُسبقة، تأخذ منحيين:

الأوّل: هو جملة من الافتراضات المسبقة الّتي تتعلّق بتلك العمليات الّتي تسبق عمليّة الإنتاج اللّغويّ؛ أيْ قبل تحقيق الإنتاج الفعليّ للخطاب. هدفها التّأثير في المتلقّي، وهذا يتحقّق بدوره وفق افتراضات سابقة تتمثّل في سرد كلّ ما يجري في مجلس الوزير على غرار الاتّفاق الحاصل بين المبدع و"أبي الوفاء المهندس"، على أساس افتراض مسبق، وهو تسهيل عمليّة التّواصل بين الطّرفين، بشرط أن يُدوَّن كلّ ما جرى وحدث بينهما من كلام.

المَنحى الثّانيّ: يتمثّل في افتراضات يقوم ببنائها القارئ بواسطة خاصيّة التّأويل، انطلاقا من النصّ. يسعى من خلالها إلى مقاصد السّارد، وأهدافه التّي يرغب في الوصول إليها، والّتي تتعلّق بجانب المعرفة، وأهداف أخرى يصبو إلى الحصول عليها تخصّ جانب الرّضا والكسب الماديّ.

السّرد عند التّوحيديّ أخذ منحًى قوليًّا، عن طريق التّصريح بالكلام بدءًا من اللّيلة الأولى، جسّده ذلك التّواصل الّذي جرى بين المتكلّم والمخاطب، ويُفترض مسبقا أنّ هذا التّواصل ينطوي على وظيفة معرفيّة، خَلقت بدورها افتراضات مسبقة في ذهن المبدع وتتمثّل في أنّه

يجب أن يكون مستعدّا، وألاّ يُوفّر جُهدا، حتّى يلقَ القبول من طرف السّلطة. بالإضافة إلى الاهتمام بنسج خطابه الإبداعيّ الفنيّ، وذلك ببعث السّمات الجماليّة والبلاغيّة فيه، والّتي تنطوي على توجّه تداوليّ يخضع للمقام التّواصليّ المباشر، وخدمةً لأغراض أخلاقيّة وفكريّة.

كلّ تلك الموضوعات والنّصوص الّتي تضمّنها الخطاب السّرديّ عند التّوحيديّ ببلاغته وتشكيله اللّغويّ الجماليّ الفنيّ، لا يخلو من جوانب ضمنيّة، تتمثّل في متضمّنات القول، وهذه " التّضمينات جزءٌ مِمّا يتمّ إيصاله دون قوله " [1]. هذه الأقوال المضمرة "يتمّ إيصالها دون قولها"، فهي أقوال خفيّة تتوارى خلف تلك الدّلالات القوليّة العميقة المعنى والمدلول، والّتي برع في تشكيلها المبدع، وحرص على أن يُدلي بأفكاره وآرائه في خطابه السّرديّ، بلغة تحمل في طيّاتها أكثر من المعنى الّذي قد يبدو ظاهرا للقارئ، وما على هذا الأخير إلاّ أن يحمل القليل من العناء في ذهنه لاستنباط المعاني الخفيّة الّتي لها مقصديّة عند المبدع، والّذي له القدرة على الحيلولة دون بسطها مباشرة.

هذه الدّلالات الخفيّة تعدّ معانٍ ضمنيّة ومتضمّنات القول، والّتي فرضها السّياق التّواصليّ التّداولي بين الطّرفين المتحاورين بلغة البلاغة والبيان، قد اتّخذت اتّجاهين:

بين مجموع المعاني الّتي تُساور ذهن المبدع، وتدخل في نطاق افتراضات مسبقة، قد سَبِقت التّفوّه بالكلام؛ أي موجودة في ذهن المتكلّم. وما على المتلقّي سِوى معرفة مضمون الكلام بواسطة الاستدلال عنه من خلال معطياته، في مقام تواصليّ محدّد، وبين " قول مضمر" يفرضه السّياق النّصيّ بمحتواه الإبداعي اللّغويّ لدى التّوحيديّ.

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص76.

أ- القول المضمر:

الكلام هو مجموعة من الجمل والملفوظات الّتي تصدر من المتكلّم من خلال ذلك التّواصل التّداوليّ الحواريّ في سياق معيّن. ذلك الكلام قد يتضمّن في طيّاته معانٍ تتوارى خلف أشكال وبُنًى لغويّة، تلك المعاني تسمّى "بالأقوال المضمرة"؛ أي هي تلك المعاني الّتي قد لا يُصرّ بها المتكلّم، لكنّه يضع معانيها بين طيّات الكلام، وعلى المتلقّي التّعرّف عليها ومحاولة كشف كُنهها. فالمتكلّم ليس مُجبرا على أن يبوح بكلّ أقواله، ويصرّح بكلّ ما يجول في نفسه وذهنه من معانٍ، بل يَجدُرُ بالمتلقّي أن يعي جيّدا أنّ ليس كلّ ما يُقال فهو صريح، أو مباشر، أو مقصديّته معلومة وواضحة، بل بالعكس، عليه أن يُدرك أنّ المتكلّم لا يقول عادة كلاما مباشرا، فقد تحمل أقواله دلالات غير مُصرّح بها لأسباب معيّنة. " فالمتكلّمون يوصلون المعنى عبر التّضمينات، والمستمعون يتعرّفون على هذه المعاني المُوصلة عبر الاستدلال " [1]. فكلّما كان الكلام غير مباشر، هذا يعني أنّه يحتوي معانٍ ضمنيّة، تكون في غالب الأحيان مضمرة أي خلف القول، وبذلك تقع على عاتق المتلقّي أن يعرف تلك الأقوال الخفيّة، بتوظيف قدراته الذّهنيّة الّتي تُساهم في توضيح وكشف معنى الكلام التّداوليّ خلال الحوار التّواصلي بينه وبين المتكلّم. وهذا كلّه لا ينأى عن سياق تواصليّ تفاعليّ واضح المعالم، ويساعد بدوره في توضيح القول المضمر، وإزالة الغموض عنه، وهذا يُعدّ جزءًا من استمرار التّواصل بين أطراف الحوار. بحكم أنّ التّواصل النّاجح بين طرفين، يكون وضوح وفهم الكلام المُدرج بينهما.

المحادثة في " الإمتاع والمؤانسة" ترقى إلى مستوى ثقافيّ إبداعيّ غير مسبوقٍ. جسّده ذلك التّواصل الحواريّ بين المبدع والمتلقّي، والّذي اِحتواه فضاء المكان في ليالي السّمر طيلة أربعين ليلة، اختصر فيها الكاتب معارف وعلوم القرن الرّابع الهجري. مُستحضرا كلّ تلك الفنون، ساردا إيّاها بلغة دالّة ومُوحية على معانٍ تدلّ على متعة الفنّ الإبداعيّ الرّفيع الّذي ينطوي على معرفة شَملت كلّ مجالات الحياة الدّينيّة والدّنيويّة. كان للبوح فيها من طرف المبدع دورًا فنّيًا معرفيًا تمثّل في ذلك الصّرح المعرفيّ البلاغيّ الّذي لم يكن فهمه

---

[1] - المصدر السّابق، ص71.

واستيعابه من طرف المتلقّي مبسوطا مُيسّرًا ومُتاحًا. بل بالعكس، حَمل في طيّاته أقوالا، ومحادثات صنعت بدورها بلاغة " الخطاب السّرديّ"، بكلّ محتوياته المعرفيّة والفكريّة الّتي تقلّدت الصّدارة في تشكيل وتكوين ونسج صيرورة السّرد، وبَعْث جوانبه الفنيّة والإبداعيّة، الّذي شكّلها ودعّمها ذلك الحوار التّداوليّ بين الطّرفين. وفق ثنائية السؤال والجواب. وضمن هذا السّياق التّواصليّ يطغى على الحوار كلام مضمر، مُتضمَّن ومُتوارى في طيّات الكلام من طرف المتكلّم، قد يهدف من خلال ذلك تحقيق وظيفة فنيّة إبداعيّة، منحت الخطاب صبغة بلاغيّة طافت على معانيه وكلماته. وبلاغة القول تولّدها المعاني القويّة وغير المباشرة، والّتي يتضمّنها الكلام.

كما أدّى ذلك التّواصل وظيفة تعليميّة، تغمرها دلالات ضمنيّة ما على المتلقّي إلاّ أن يستوعب معانيها الخفيّة. وكلّ قول غير صريح فهو ضمنيّ، لأنّ المبدع لا ينقُل أخبارا فقط، بل يبني خطابا سرديّا بواسطة ذلك التّواصل التّداوليّ الحواريّ. وبلغة يكادُ يطغى عليها الجانب البلاغي والمعنى الضّمني أكثر من الصّريح.

فالكلام الضّمني لا تفسّره التّراكيب والبُنى اللّغويّة، بل يفسّره السّياق، فالمعاني المضمرة رهينة السّياق الّتي تَرِدُ فيه، على عكس "الافتراض المسبق" الّذي يُحدّد بناءً على معطيات تسبق القول ؛ أي أنه موجود في ذهن المتكلّم قبل وجود الكلام، وهنا يبدأ دور المتلقّي في إدراك ما يمكن أن يقوله المتكلّم، قبل أن ينطق به . أمّا القول المُضمر، فهو يُفهم من خلال سياق الحديث؛ أي يُحدّد ويؤوّل بناءً على معطيات في سياق التّواصل الّذي قِيل فيه الكلام.

وفي ليلة من ليالي السّمر، بادر الوزير بحديث بلغه عن لِقاءٍ وأُنس قد جرى بين "أبي سليمان المنطقيّ مع جماعة كانوا معه، فأراد أنْ يعرف ما يحفظه السّارد عن هؤلاء. بقوله: " ما الّذي حفظت من حديث عنهم، ومأثور أن يُلقَى إلينا منهم؟ فقلت: سمعت أشياء، ولست أحبّ أن أسّمي نفسي بنقل الحديث،وإعادة الأحوال،فأكون غامزا وساعيا ومفسدا " [1].

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص45.

فأراد بذلك أن يعرف الكلام المأثور الّذي يستوجب المعرفة والإفادة منه. لكنّه قوبل بردّ من طرف السّارد يحمل كلاما ضمنيّا، مفاده أنّ التّكتّم عن الأمر أحسن من الإفصاح عنه، وأنّه ليس من طبعه نقل الحديث، خاصّة إذا كان هذا يمس بشخصيّة الآخر. ومن جهة ثانية لكي لا يعتبر سعيا لإفساد العلاقات بينه وبينهم. ومع ذلك كلّه أصرّ الوزير معرفة ما قيل بينهم. فكان على التّوحيديّ إلاّ أن يُجيب على لسان أحدهم، ألا وهو " ابن برمويه": " ما هذا الاسترسال كلّه إلى ابن شاهويه؟ وما هذا الكلف ببرهام؟ وما هذا التّعصّب لابن مكيخا؟ وما هذا السّكون إلى ابن طاهر؟ وما هذا التّعويل على ابن عبدان؟. وما من هؤلاء أحد إلاّ يريّش عدوّه ويبريه، ويضلّ صاحبه ويغويه "[1]. من الواضح أنّ السّؤال ينطوي على كلام مُضمر، مفاده أنّه يوجد تعارض بين الوزير والجماعة الّتي تحيط به. هذا الاستفهام المجازيّ الّذي يحمل معنى الإنكار، يبيّن ضمنيّا تلك الفروقات الموجودة بينه وبينهم اجتماعيّا وأخلاقيّا. بوصف هؤلاء أنّهم أصحاب سُوء وضلالة، وضرر أكثر من نفع.

أمّا الوزير فمعروف بأخلاقه الفاضلة، " هذا الإنسان الحرّ المبارك الكريم الرّحيم، فإنّه شريف النّفس، طاهر الطّويّة، ليّن العريكة، كثير الدّيانة، وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع النّاس "[2]. تلك صفات تدلّ على خصال الوزير الّذي ليس من مقامه الجلوس مع هؤلاء بحسب القول السّابق. وفي الاستفهام الضّمنيّ الّذي يوحي بالتّذمّر لوجود تَعارض بينه وبين هؤلاء، يحمل في طيّاته كلمات لاذعة تضمّنها الكلام، على نحو:(التّعجبّ، السّكون، التّعويل)، تحمل نقدا خفيّا يدعُوه من خلاله إلى التّخلّص من هؤلاء الّذين أساءوا إلى مجلسه. هذا الكلام رغم محتواه النّقديّ اللاّذع، إلاّ أنّ وقعه لا يكن بنفس الدّرجة لو كان الشّخص حاضرا في مجلسه. لذا عَمَدَ التّوحيديّ إلى سرد ذلك على لسان غيره ليكون الكلام أكثر تقبّلا.

---

[1] - المصدر السّابق، ص46.

[2] - نفسه، ص47.

ولم يكتف بذلك الاستفهام بل أعقبه استفهام بلاغيّ: " وما أدري كيف استكفى هذه الجماعة حوله؟ " [1]، وهذا الكلام يحتوي معنًى ضمنيّا يتمثّل في الحيرة والاستغراب (وما أدري؟)، تدلّ على التّعجبّ، غرضه الاستنكار، لعمق التّباعد والفروق بينه وبينهم.

كما يتخلّل السّرد رؤية ضمنيّة في مقام التّواصل أراد السّارد إيصالها إلى الوزير، ومضمونها أنّه يرغب في أن يوضّح له صورة هؤلاء بطريقة غير مباشرة، ليساهم في توجيهه وإصلاح حال مجلسه الّذي من المفروض لا يكون فيه مثل هؤلاء العصبة. وهذه من غايات السّارد طِيلة سيرورة خطابه السّرديّ، والّذي يُفعّل فيه المقصد البلاغيّ في إطار معانٍ ضمنيّة للوصول إلى غايات معرفيّة وتوجيهيّة.

لا يقتصر خطاب التّوحيديّ على الإمتاع فقط، بل هدفه تحقيق غرض الإقناع الّذي تندمج فيه الوظيفة الجماليّة مع الوظيفة التّداوليّة. ببلاغة القول مع التّواصل الحواريّ الهادف الّذي أثبت وجوده في سياق المقام بتوليد المعاني وتنويع المواضيع المطروحة، لغاية أسمى هي تحقيق التّأثير في المتلقّي، وبعث خاصيّة الاستجابة لديه. وهذا كلّه عن طريق الخطاب البلاغيّ، والّذي يُعدّ إحدى أدوات المبدع، والّذي يصبو فيه إلى طرح لغة بلاغيّة عميقة المعنى، وليست متاحة للقراءة لأيٍ كان. تحمل دلالات ضمنيّة معرفيّة يسعى السّارد إلى توصيل مضمونها للمخاطَب، فيجعله أكثر تقبّلا للقول، وإيمانا بالطّرح الفكريّ. وهذا ما نجده على غرار ما بَدَر من الرّاوي في حديث فلسفيّ عن النّفس، وعلاقتها بالبدن. إذْ بدا من منظوره أنّ الكلام المباشر عادة يُخفي الأقوال، ويَصْعُب الإفصاح عن كلّ مكنونات النّفس، فأراد أن يُنصف القلم على اللّسان، لأسباب نفسيّة يفرضها المقام التّواصليّ. بقوله: " قد أملى علينا " أبو سليمان" كلامًا في حديث النّفس هذا موضعه، ولا عذر في الإمساك عن ذكره ليكون مضمومًا إلى غيره...، لكنّ الخوض في الشّيء بالقلم مُخالفٌ للإفاضة باللّسان. لأنّ القلم أطولُ عنانًا من اللّسان، وإفضاءُ اللّسان أحرَجُ من إفضاء القلم، والغرض كلّه الإزادة، فليس يَكثُرُ الطّويل" [2]، وذلك أنّ الخوض في الكتابة يكون أجدى وأغزر، وأقوى وأفضل من الكلام باللّسان. لِما للخاصيّة الأولى من حريّة القول، والبوح بمكنونات العقل

[1] - المصدر السّابق،ص47 .
[2] - نفسه، ص152.

والنّفس معًا، دون مراعاة التّكلّف والإحساس بالحرج، فينتج عن هذا عدم الإفصاح بكلّ الكلام، بسبب مراعاة للمقام وللمخاطب في السّياق التّواصليّ المباشر. خاصّة إذا كان الهدف نبيلا، وهو الاستزادة بالعلم والمعرفة.

إذا كان الخطاب السّرديّ عند التّوحيديّ يتضمّن بلاغة القول، فإنّ هذه البلاغة بدورها تحتوي كلاما ضمنيّا يسّر التّواصل الحواريّ، وبعث التّأثير في المتلقّي. هذه البلاغة استطاعت أن تحوي الجانب المعرفيّ الّذي شكّل الخطاب وأصبح أحد أغراضه الأساسيّة. هذا الجانب سخّر للسّارد تصوّرا إنسانيّا يجعل الإنسان يعرف موقعه من هذا العالم الرّحب. والمعرفة الحقيقيّة عنده هي معرف الله تعالى، مدركا في ذلك الرّجوع إليه، فقال في مضمون كلامه: " صاحب النّفس الّذي هو الإنسان بما يستفيده من المعارف الصّحيحة، ويضمّه إلى الأفعال الواجبة الصّالحة.فأمرُ المعارف الصّحيحة معرفة الله الواحد الحقّ باليقين الخالص، وأمرُ الأفعال الواجبة الصّالحة العبادة له والرّضوان عنه. وغاية المعرفة الاتّصال بالمعروف، وغاية الأفعال الواجبة الفوز بالنّعيم والخلود في جوار الله، وهذا هو الصّراط المستقيم الّذي دعا على الجَواز عليه كلّ مَن رجع إلى بصيرة وآوى إلى حُسن سيرة "[1]. لقد بَدَت تظهر نوايا السّارد في خطابه الّذي يضطلع فيه إلى المعرفة الّتي صاغها بجميع فروعها: الفلسفيّة والأدبيّة والدّينيّة، تلتحم جميعها للوصول إلى غاية نبيلة، وهي نُصح الوزير، ومحاولة إصلاحه والتّأثير فيه بطريقة بلاغيّة غير مباشرة، تنمّ عن مقصديّة توجيهيّة، وتظهر في متضمّنات القول الّذي أراد من خلاله بثّ مجموع المعاني الّتي توحي بكثير –من الكلام- الّذي يتمّ إيصاله دون قوله، وذلك من خلال كلامه، أنّ المعرفة الحقيقيّة عنده، هي معرفة الله تعالى، بالإضافة إلى أنّه يعترف كُلّ الاعتراف أنّ كلّ خطاب، وكلّ كلام لا يكون هدفه هو توحيد الله تعالى، والإيمان به، وبذكره فهو مرفوض، " وأنا أعوذ بالله من صناعة لا تُحقّق التّوحيد، ولا تدلّ على الواحد، ولا تدعو إلى عبادته، والاعتراف بوحدانيته، والقيام بحقوقه، والمصير إلى كنفه، والصّبر على قضائه، والتّسليم

[1] - السّابق ذكره، ص154

لأمره " [1]. فلا يُقبل قول أو فعل لا يُذكر فيه الله تعالى. والفعل الواجب على المؤمن القيام به هو جانب العبادة الّتي تُمكّنه من النجاة والفوز في الدّنيا والآخرة. كما أنّ المعرفة عنده هي: الاتّصال بالمعروف، أي معرفة الله تعالى، والإيمان به أيمانا مُطلقا يعود بالنّفع على النّفس للجَوَاز إلى جنّة النّعيم.

ومع أنّ هذه الكلمات الصّادرة من السّارد، والّتي تحمل معانٍ ضمنيّة عميقة، كان الهدف منها تبليغ المتلقّي بالجانب الإيمانيّ الّذي يجب أن يتحلّى به المسلم، في حين أنّ المخاطب يدرك تماما معناها، لأنّه في المستوى الفكري المطلوب، ولا يصعب عليه كلام وبلاغة وبيان المبدع، خاصّة وأنّه في كثير من الأحيان يسأل عن كُنه الأمور، والمواضيع المطروحة والسّائدة في عصره، من جوانبها الفكريّة والثّقافيّة، ولكنّه لا يسأل عن لغة وأسلوب المبدع؛ لأنّه فعلا يعي ما يقوله، وما يصدر عنه، وما يفكّر فيه.

فالمعرفة بصفتها وسيلة للرّقيّ والتّواصل مع من حولنا من عوالم، وكذلك إدراك الوعي الذّهنيّ الهدف من خلق الإنسان وتسخير الحياة الدّنيا له، وغاية من جهة أخرى يسعى من خلالها السّارد إلى توجيه المتلقّي للتّدبّر والتّفكير في ما بعد الحياة الفانية.

والمتمعّن في قراءة الخطاب يجد أنّ المعرفة تصدّرته منذ مستهل الخطاب الموجّه إلى " أبي الوفاء المهندس" يقول فيه السّارد: " نَجا من آفات الدّنيا من كان من العارفين، و وَصَلَ إلى خيرات الآخرة من كان من الزّاهدين، وظَفِر بالفوز والنّعيم مَن قطع طَمعه من الخَلقة أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على نبيّه، وعلى آله الطّاهرين " [2]. فالمعرفة عنده نجاة ومنجاة للإنسان، فإذا عرفها عرف الطّريق الصّحيح الّذي يخصّه من آفات وشرور ما يوجد في هذه الحياة من حوادث ونوائب. هذه المعاني الضّمنية الّتي تتخلّل الخطاب كان هدف السّارد منها نصح وإرشاد الوزير، في أنّه مهما كان مركزه، ومعرفته بالحياة ومجالاتها، تبقى معرفة الله تعالى هي الأفضل والأنسب له، لأنّها هي الحِصن المنيع الّذي يجعل من الإنسان معتدلا ومتوازنا في دينه ودنياه، ووجود التّفكير في الأجل الّذي يُحمدُ عُقباه.

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص415 .

[2] - المصدر نفسه، الجزء الأوّل، ص17.

وجَرى حديثٌ في حديث الرّاويّ، قال: " وقف أعرابيّ في مجلس الأخفش فسَمع كلام أهله في النّحو، وما يدخل معه، فحار وعجب، وأطرق ووسوس. فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟

قال: أراكم تتكلّمون بكلامنا في كلامنا ، بما ليس من كلامنا " [1]. إنّ سماع الأعرابيّ لحديث الأخفش عن النّحو، بعث في نفسه الحيرة والتّعجبّ، والذّهول، من خلال جوابه الّذي يتضمّن كلاما مضمرا، ومن خلال سياق الكلام الّذي أزاح الغموض، ودلّ على مقصديّة المتكلّم، في أنّهم يتكلّمون بكلام عربيّ، في كلام عربيّ آخر ألا وهو" علم النّحو"، على اعتبار أنّ الأعرابيّ أوّل مرّة يحضر مجلس يتصدّره عالم اللّغة "الأخفش". وكلام هذا الأخير لا يعي ولا يعرف كُنهه وسرّه ذلك الأعرابيّ، كونه مازال في ريعان عيش البداوة، والكلام العربي الفصيح على الطّبيعة. لذا بدا له أنّ الكلام في علم النّحو دخيل على الكلام العربيّ. لكونه أوّل مرّة يسمع به. وخاصّة أنّ العرب الأوائل كانوا يتكلّمون اللّغة، ويتعاملون بها، ويتواصلون من خلالها، لتحقيق مآربهم بكلام على السّليقة والفطرة الّتي جُبِلوا عليها.؛ إذْ لم تعتريها شروط النّحو بعدُ.

هذه الشّروط غيّرت من طبيعة الكلام العربيّ، كما يرى أعرابيّ آخر في قوله: [2]

ما زال أخذُهم في النّحو يُعْجِمُني * حتّى سمعت كلامَ الزّنج والرُّومِ

على اعتبار أنّ الكلام خرج عن طبيعته المعهودة، وأصبح نطقه يلتبس عليه ويَصعُب، لأنّه حَادَ على الفطرة، وذلك بسبب اتّباع نُظُمِ النّحو وقواعده. حتّى كأنّه أصبح يسمع كلاما أعجميّا؛ أي ليس عربيّ المصدر، لأنّه نَأَى عن الأصول.

ومع ذلك فإنّ " أبا سليمان" له رأي آخر، يعترف فيه أنّ الأشياء قد تتشابه في الأصول، وتتباين وتختلف في الطّباع والصّنائع. قال: " نحوُ العربِ فطرةٌ، ونحوُنَا فِطنة، فلو كان الكمال سبيلٌ، لكانت فِطرتُهم لنا مع فِطْنتُنا، أو كانت فطنتُنا لهم مع فطرَتهم " [3]. هذا الكلام

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص279 .

[2] - المصدر نفسه، ص280.

[3] - نفسه، ص280 .

يتضمّن اعترافا صادقا من "أبي سليمان"، أنّ العرب عرفوا النّحو نُطقًا من خلال سياق الكلام؛ أي عرفوه في كلامهم بالفطرة، من خلال تواصلهم مع بعضهم البعض. وليس وَضْعًا ؛ أي عن طريق قواعد النّحو الموضوعة كما عرفوها فيما بعد. لمن جاءوا بعدهم ووضعوا تلك القواعد، والّتي صدرت من فطنة هؤلاء العلماء، وخبرتهم بخبايا اللّغة، والّذين قاموا بسنِّ ضوابط وقوانين تحكُم نطق الكلام الصّحيح، على الأقلّ في رأيهم أنّ للضّرورة أحكامٌ، وأنّ الحاجة لضبط قواعد اللّغة أصبحت أمرا مُلحّا، خاصّة وأنّها أصبح يشوبُها نوع من الكلام الدّخيل عليها، بسبب اختلاط العرب مع غيرهم من الأجناس الأخرى. فما على علماء اللّغة إلاّ ضبط تلك القواعد، حتّى وإنْ أصبحت غير مُستساغة من طرف بعض العرب من العوامِ.

كما استدلّ السّارد بقول أعرابيّ آخر في نقده لعلماء النّحو بالجملة، ورفضه لما يقولونه، لأنّه في رأيه يُخالف طبيعة كلامه، فأنشد قائلاً:[1]

ماذا لَقِيتُ من المستعربين ومِن * تأسيس نحوهم هذا الّذي ابتدعُوا
إنْ قُلت قافيةً فيه يكون لها * معنًى يُخالفُ ما قاسُوا وما وَضَعُوا
قالوا لَحّنت وهذا الحرفُ مُنخفضٌ * وذاك نصبٌ وهذا ليس يرتفعُ
إنّي نشأتُ بأرضٍ لا تشُبُّ بها * نارُ المجوسِ ولا تُبنى بها البِيَعُ*
ما كلُّ قولي معروفٌ لكم فخذُوا * ما تعرفون وما لم تَعرفُوا فدعُوا

يستهل الشّاعر مطلع أبياته باستفهام ضمنيّ، غرضه الاستغراب والاستنكار، موجّه كلامه لهؤلاء الّذين ابتدعوا النّحو،والّذي لم يجد فيه إلاّ ما يُخالف فطرته وطبيعته المعهودة لأنّه مهما قال من معانٍ، فإنّها سوف تُخالف قياسهم، وما وضعوه من قواعد بين حرف منصوب، وآخر ليس مُرتفعا. فالشّاعر في متضمّن نظمه يدعو فيه إلى أنّه لن يَحيد على كلامه، حتّى وإن خالفه الآخرون. ويشعر بالاعتزاز بأنّه نشأ عربيّا بلغة العرب، وفي

[1] - المصدر السّابق، ص280.

* البِيَعُ: جمع البيعة: الكنيسة.

أرض لم تطأها البِيَعُ. وهو بهذا يُناشد كلّ من كان للنّحو واضعًا أنّ أقوالهم لن تُؤثّر في طبيعته وفطرته، فليأخذوا ما فهموه من كلامه وليتركوا ما لا يعرفوا معناه.

فالكلام المتضمّن في الكلام يظهر جليًّا في تلك الخطابات الّتي نثرها المبدع في سرده، مُبديا مجموع الآراء حول ضروب الكَلِمِ والنّحو، والبلاغة، بأقوال تتضمّن معانيًا مختصرة لتدلّ على مدلولات عميقة وكثيرة. فقد تتضمّن بعض التّفاصيل الصّغيرة معانيًا كثيرة. وهذا ما نستشفّه من خلال كلام الرّاوي: " و ابن المَراغِيِّ يقول كثيرًا- وهو شيخٌ من جِلّة العلماء، وله سَهمٌ وافٍ في زُمرةِ البُلغاءِ- : ما أحسنَ مَعونةَ الكلماتِ القِصارِ، المُشتمِلة على الحِكم الكِبار، لمن كانت بلاغتُه في صناعته بالفم واللِّسانِ، فإنّها تُوَفِيه عند الحاجة، وتَسْتَصحِب أخواتها على سهولة " [1]. الكلام لا يقف عند المعنى الظّاهر، بل يتجاوزه إلى المعنى الخفيّ الضّمنيّ الّذي ينطوي بدوره على معانٍ مخالفة للمعنى الحرفيّ الوارد في الأنساق والتّراكيب اللّغويّة. لكنّها تدلّ على ما يوحي إليه . فمقصديّة الكلمات الّتي طرحها في قوله، هي كلمات تقلّ حروفها وتكثُر معانيها من خلال سياق الوصل فيها. فخيرُ الكلام ما قلّ ودلّ، وبلاغة وبيان الجمل القصيرة تكمن في دلالاتها العميقة الموحية بالمعاني الدّالة على أكثر من محتواها الحرفي الظّاهر. وهذا النّوع من الكلمات يصدر ممّن كانت له قدرة على نظم الكلام البليغ الّذي يسترسل ويتبع بعضه لعذوبة لفظه، وسلاسة معناه وسُهوله لسان مُبدعه. وهذا النّوع من الكلام يتجلّى في أقوال الحكمة الدّالّة على معان تفيض بالمدلولات، لكنّها تَخْتصِرها الحروف والكلمات. فيُستدلُّ بها عند الحاجة الماسّة لتبرير قول، أو تلقين معنًى وَجِيه وهادف في خطابٍ ما.

هذا الكلام الصّادر من الرّاوي لفت انتباه الوزير، فسأله عنه، قائلاً: " وما أمثلة الكلمات القصار الّذي أَوْمَا إليها ذلك الشّيخ؟ فكان من الجواب: أنّ هذا الباب واسعٌ، نَحْو قول القائل: مَا خَابَ من استخار، ولا نَدِم من استشار. من عُرفَ بالحكمة لاحظتهُ العيُونُ بالهَيبة " [2].

وبدا الرّاوي يسرد له مجموع الحِكم القِصار الجمل، الدّالّة على المعاني الهادفة والحكيمة

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص284 .

[2] - المصدر السّابق، ص285 .

الّتي صدرت من أصحاب العقل والحكمة. وذلك من خلال تجاربهم في الحياة، ومعرفتهم بأسرارها.

فكلّ كلام عن الحكمة ينطوي على مدلولات مضمرة خلف الحروف والكلمات، لا تظهر معانيها إلاّ عند قراءة ما بين السّطور، قراءة إيحائيّة تُزيحُ الغموض عن الكلام. خاصّة تلك الحكم الّتي صدرت من السّارد والّتي مردّها لغرض توجيهيّ تعليميّ معرفيّ، يقصد من خلاله المتلقّي لكي يفهم ويستوعب تلك المضامين الدّلاليّة، ويعمل بها في حياته الطّبيعيّة.

ب- الافتراض المسبق وأنواعه:

إنّ الإبداع عند التّوحيدي يعكسه ذلك الخطاب التّواصلي بجميع وظائفه: المعرفيّة والحجاجيّة والتّوجيهيّة والجماليّة...، كما حمل في طيّاته قِوى الإقناع والإمتاع والتّأثير، هذه البُنى المعرفيّة الّتي شكّلت ذلك الخطاب الموسوعيّ الإبداعيّ بمعطيات البلاغة والفصاحة والبيان، و ما تحمله تلك من مقاصد في السّياق التّداوليّ، تجعل المتلقي ينطلق في صياغة افتراضاته من خلال تلك الخطابات الّتي تصبح فضاءً لبناء الافتراضات المسبقة.

المبدع سطّر استراتيجية لمشروع أدبيّ ذي نمط سردي، قِوامه ذلك الحوار التّداوليّ بينه وبين المتلقّي، هذا المحتوى الحواري تحتويه عناصر سياقيّة تتجلّى في مقام مجلس الوزير على مرأى ليل السّمر، في محادثات عنوانها بثّ المعرفة، بطريقة بلاغيّة فنيّة، فكان هذا الصّرح المعرفيّ قد صِيغ بأسلوب بلاغيّ إبداعيّ، لتحقيق أغراض يُفترض مُسبقا أنّ المبدع يهدف إلى الوصول إليها لغايات يفرضها الخُلق الإنسانيّ والمتمثّلة في التّوجيه و الإصلاح.

هذا الطّرح البلاغيّ يكتنفه نوع من الغموض الدّلاليّ، لكنّه يوحي بمعانٍ سابقة ذات دلالات يفرضها الإبداع قبل التّلفّظ بها، كافتراض سبَقَ الكلام، وجسّدته تلك المحاولات التّوحيديّة في مسار التّواصل التّداوليّ.

قال الوزير: " قد سألت عنك مرّات شيخنا أبا الوفاء...، ولذلك فقد تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتّأنيس، ولأتعرّف منك أشياء كثيرةً مختلفة تُردّد في نفسي على مَرِّ الزّمان، لا أُحصيها لك في هذا الوقت، لكنّي أنثرها في المجلس بعد المجلس " [1]. هذا الحوار يحتوي على مجموعة من التّضمينات المُدرجة في هذا القول والّتي تتمثّل في: إنّ أوّل كلام في أوّل ليلة بين المبدع والمتلقّي، بداية من صيغة " تاقت نفسي إلى حضورك...". والّتي تدلّ على أنّه يُفترض مُسبقا أنّ الوزير عالم بقدوم التّوحيديّ لمجالسته في بيته، وينتظر حضوره بفارغ الصّبر، ليأنس بالحديث معه. كما يُفترض مسبقا أنّ المتكلّم وضع خطّة للمحادثة بينه وبين المبدع، في قوله:"لأتعرّف منك أشياء...،أنثرها في المجلس؛

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص30.

أي يُفترض أنّه يبقيه في اللّيالي القادمة ليشاطره الحديث. على افتراض أنّه تخالجه مجموعة من المواضيع الّتي خطّط لها للمُضيّ في المحادثة معه في ليالي السّمر. هذه التّضمينات بانت معالمها بناءً على معطيات سبقت القول، ويُفترض أنّ الوزير سطّرها مُسبقا في ذهنه وتفكيره، ليعقد لقاءً معه في المستقبل القريب.

هذا التّواصل الحواريّ تتخلّله خطابات يُحيطها نوعُ من الكلام المتضمّن، والّذي يفترض وجوده مسبقا في ذهن المتكلّم، لذا توجد أنواع من الافتراضات تظهر في الحوار التّواصلي بين متكلّم و متلقٍ. بكلام يفترض مسبقا أنّه واقعيّ، و آخر غير واقعيّ، و كلام
نستطيع أن نستدلّ عنه افتراضا مسبقا بنيويّا من خلال البُنى التّركيبيّة، و صيغة لغويّة تفسّر كلاما ضمنيّا غير مذكور بنيويّا، وهو الافتراض المسبق المعجميّ. وكلّها افتراضات تسبق التّفوّه بالكلام؛ أي يُحرِّرها الذِّهن قبل تحرير الكلام.

الافتراض المسبق الواقعيّ:

الكلام في الحوار يتضمّن أقوالا، تُحدث نوعًا من التّصور والتّفكير الذّهنيّ للمتلقّي خارج القول الموجّه له. وبالتّالي فإنّ كلّ كلام تتضمّنه الملفوظات والجمل على اعتبار أنّ المتكلمين لا يصرّحون بكلّ ما لديهم من معلومات، هو جزء ممّا يريدون إيصاله دون قوله، فإذا دلّ هذا الكلام على الواقع، فإنّه يعتبر افتراضات مسبقة واقعية، ونستدلّ عنها بمجموعة من الألفاظ تسبق القول؛ أي يبدأ بها القول، وما بعدها يكون حقيقة. مثل "أدرك ـ لم أدرك، يعلم، لم أدرِ..."، ولذا في حالة الافتراض المسبق الواقعي، " يؤخذ استعمال تعبير معيّن على أنّه يفترض مسبقا صحّة المعلومة المذكورة بعده " [1]؛ أي أنّ الكلام له علاقة بالواقع، ويمُتُ للحقيقة بصلة. كقوله في ليلة من ليالي السّمر، " أوّل ما أسألك عنه حديث " أبي سليمان المنطقيّ" كيف كان كلامه فينا، وكيف كان رضاه عنّا، ورجاؤه بنا...، فقلت: ما أعرف اليوم ببغداد ـ إنسانا أشكر لك، وأحسن ثناءً عليك منه " [2]. يظهر من مطلع الحديث، أنّه يفترض مسبقا أنّ الوزير يعلم بأنّ أبا سليمان العالم تطرّق في الحديث عنه في مجالسه،

[1] ـ المصدر السّابق ، ص55
[2] ـ نفسه، ص37.

كما هو معروف بأنّه يذكر شخصيات عصره من جميع الطّبقات، و يفترض أنّ يكون هو من ضمنهم. على اعتبار أنّ له رأي في شخصه، إثر قوله: " كيف كان كلامه فينا ". فيفترض أنّه سبِق و أن تكلّم عنه. والجواب: " أشكر لك وأحسن ثناء عليك منه "، على افتراض أنّه فعلا يتكلّم عنه في غيابه، ويذكره باستحسان، فشكر مساعيه، وأثنى على صفاته. هذه العبارات الّتي تحمل افتراضات مسبقة تعدّ افتراضات واضحة، نظرا لكون المذكور من الشخصيات ألا وهو "أبو سليمان "موجود في الواقع.

وفي لقاء متجدّد سأل الوزير التّوحيديّ، فقال له: " إنّي أريد أن أسألك عن"ابن عباد " فقد انتجعته* وخبرتَه وحضرت مجلسه، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته، وعن علمه وبلاغته...، فما أظنّ أنِّي أجد مثلك في الخبر عنه، والوصف له " [1]، من خلال هذا القول، يفترض مسبقا أنّ لا أحد يعرف ابن عباد في نظر السّائل، أكثر من التّوحيديّ، فهو أجدر بالحديث عنه وعن أخلاقه، وهو افتراض مسبق عن شخصية واقعية، لها أثر في الواقع، تَضَمّن الكلام جزءًا منها.

قال الرّاوي " ثمّ حضرت ليلة أخرى، فأوّل ما فاتح به المجلس أن قال: أتفضّل العرب على العجم أو العجم على العرب؟ فقلت : توقعّت أن يُقال العرب وحدها أفضل...، وقيل أن أحكم بشيء من تلقاء نفسي، أروي كلاما لابن المقفّع، وهو أصيل في الفرس عريق في العجم...، فقلت: قال شبيب بن شبّة: إذْ أقبل علينا ابن المقفّع، فقال: أيّ الأمم أعقل؟ فظنّنا أنّه يريد الفرس. قلنا فارس أعقل الأمم، قال: العرب.

قال الوزير: ما أحسن ما قال ابن المقفّع! وما أحسن ما قصصته وما أتيت به! هات ما عندك الآن مسموع و مستنبط. فقلت:.." [2]، من خلال هذا الحوار والتّواصل التّداوليّ بين الشّخصيات، نستشفُّ أنّ كلامهم يوحي بمعطيات متضمّنة في أقوالهم غير مصرّح بها تصريحا مباشرا. بل سبقت التّفوّه بالقول منها:

---

[1] - المصدر السّابق ، ص52.

* انتجعته: أتيته طالبا معروفه.

[2] - المصدر نفسه، ص64.

ما يبدو ظاهرا في بداية الخطاب من كلام يسبقه افتراض في ذهن الوزير أنّه متطلّع إلى حديث المعرفة الّذي ينتظره بشغف وحبٍّ كبير، فلا مجال إلى أن يُؤخّر السّؤال. هذا الأخير يدلّ على افتراض مسبق قائم في ذهنه، أنّه عادة توجد أفضليّة بين الأمم، وأنّ أحدهما أفضل من الآخر، وقد يقصد "العرب" بحكم أنّه عربي. فكان الجواب على لسان الجماعة: " فظنّنا أنّه يريد الفُرس قلنا فارس أعقل الأمم "، فكان افتراضهم المسبق أنّه يفضّل الفرس بحكم أنّ " ابن المقفّع "فارسي، لكنّ افتراضهم غير صحيح، لذا فهو افتراض غير واقعيّ، لأنّه لا يمتُ للحقيقة بصلة.

وصيغ التّعجّب الصّادرة من الوزير تدلّ على شعور في نفس المتلقّي سبق التّلفّظ به. وهو افتراض مسبق واقعي يدلّ على الإعجاب الشّديد بقول " ابن المقفع "، لأنّه وفّى واستوفى الكلام، وأقنع بالحجة والبرهان.

وعلى هذا فكلّ كلام يعبّر عن النّفس، وما يجيش فيها، وما تكنّه من أحاسيس ومشاعر وتأثرها بشيء ما، يسبقه دائما شيء موجود في الذّهن يكون متضمّناً في جزء من الملفوظ. نكتشفه عن طريق خاصيّة الافتراض المسبق.

وبمجرد ما يقول الوزير: "هاتِ ما عندك من مسموع ومستنبط". يفترض مسبقا أنّ المتلقي على دِراية تامّة بأنّ المبدع له ما يقوله في هذا المجال، وله ما يفصّل فيه في هذا الطّرح الفكريّ. ومع ذلك قال: " إذا كان ما قال هذا الرّجل البارع في أدبه، المقدم بعقله كافياً، فالزّيادة عليه فضلٌ مستغنىً عنه، وإعقابه بما هو مثله لا فائدة فيه "[1]. افتراض مسبق ـ يجول في ذهن التّوحيديّ ـ يدلّ أنّه يُدرك جيّدا أنّ " ابن المقفع " ضليع ومتمكّن في وصف الأمم والشّعوب لخبرته بها، عالم بأسرار العرب، والزّيادة في القول لا تفيد المُستوفَى منه.

يروي التّوحيدي في "اللّيلة الثّامنة " المناظرة الّتي جرت في مجلس الوزير"ابن الفرات" بين "أبي سعيد السّيرافيّ "النّحوي، و" أبي بشر متى" المنطقي. ولم يحضرها التّوحيديّ بل رواها عن غيره ممّن حضرها، أو شارك فيها.

المناظرة تحمل أصواتا متعدّدة، بخطابات متنوّعة، يقصد من خلالها التّوحيديّ الدّفاع عن الثّقافة العربيّة. بيد أنّه توجد متضمّنات القول الّتي يعكسها المقام ـ ولكلّ مقام مقال ـ

[1] ـ المصدر السّابق ، ص66.

من جهة، ومن جهة ثانيّة يعكسها ذلك التّواصل البلاغيّ الّذي يتزعّمه علماء نحو ومنطق. فالكلام الخفيّ هنا ـ البلاغي ـ أكثر من المباح. والّذي تفرضه بلاغة الطّرح المعرفيّ من خلال أطراف الحوار.

قال ابن الفرات: " والله إنّ فيكم لمن يفي بكلامه، ومناظرته وكسر ما يذهب إليه " [1]. وهو بقوله يقصد العالم"متى"، يفترض مسبقا أنّ الوزير يدرك مستوى وقُدرة هؤلاء في الرّد عليه، وخاصة :" أبا سعيد "، " قال متى: يونان و إن بادت مع لغتها، فإنّ التّرجمة حفظت الأغراض وأدّت المعاني، وأخلصت الحقائق. قال أبو سعيد: فكأنّك تقول: لا حجّة إلّا من عقول يونان، ولا برهان إلّا ما وضعوه " [2]. فيفترض في ذهن الأوّل: أنّ ما بقي من اليونان إلّا فلسفتهم وعلومهم وهي السّائدة في معرفة الحقائق.

والثّاني أنّ هذا الطّرح يشوبُه نوع من التّضليل، والبعد التّام عن الحقيقة. ولهذا فهو غير صحيح. فقال: " أسألك عن حرف واحد، وهو الواو ما أحكامه؟ وكيف مواقعه؟ فبهت "متى"، وقال: هذا نحو. والنّحو لم أنظر فيه، لأنّه لا حاجة بالمنطقي به...، فقال أبو سعيد: أخطأت... " [3]، يفترض مسبقا في الواقع أنّ أبا سعيد عالم نحو، والحرف عنده نقطة من بحر ذلك العلم، ويعلم علم اليقين أنّه لا يستطيع أن يجيبه على سؤاله، لأنّه يجهل بأنّ العالم يجب أن يُحيط بعلوم عصره بكلّ بصيرة وتفكير سليم، ليتبيّن حقيقة الكلام من تزييفه.

يفضي بنا مثل هذا الكلام إلى الوظيفة المعرفيّة الّتي يضطلع إليها المبدع. و هي في الحقيقة، يفترض مسبقا أنّ السارد يسعى إلى إزاحة تلك المغالطات التي ترجّح كفّة النّحو على المنطق، ومن جهة ثانيّة أنّ هذا التّواصل ينطوي على رغبة المبدع في التّثقيف والتّوجيه والتّأثير في المتلقّي، فيقول: " أُكتب هذه المناظرة على التّمام " [4]، ولفرط إعجابه ببلاغة المبدع ومزايا النّحو العربيّ، يفترض مسبقا أنّه يترصد المعرفة بجميع جوانبها، وكتابة المناظرة يجعله ذلك يستفيد منها أكثر عند قراءتها في المستقبل.

---

[1] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص89.

[2] ـ المصدر نفسه، ص90-91.

[3] ـ نفسه، ص92.

[4] ـ السّابق ذكره، ص88.

بالإضافة إلى أنّ بلاغة القول، وما يحمله من فِكر عقلية، هذه البلاغة الّتي صِيغ بها السّرد عند التّوحيدي، هي الّتي تَخلق لنا افتراضات مسبقة يتضمّنها الكلام خلال ذلك التّواصل المعرفيّ. والّذي تتجلّى فيه المعرفة المشتركة الّتي تؤهل المتلقي لأنْ يعي ويدرك معنى وكُنه هذا الكلام. وهل يُعقل أن يكون المتلقّي بسيط الفكر ليستوعب كلام المبدع؟ كلّا، فما يتراءى لنا من خلال الخطاب السّردي التّوحيديّ ، يظهر أنّ الوزير شخصية تتمتّع بثقافة تؤهّله لأن يتجاوب مع المبدع. و مادام يبحث عن المعرفة فله قدرٌ منها. ويظهر ذلك في قول الرّاوي: " ثمّ ناولني رقعةً بخطّه فيها مطالب نفيسة تأتي على علم عظيم، وقال:" باحث عنها أبا سلمان "...، وكان في الرّقعة: ما النفس؟ وما كمالها؟...، وما الروح؟ ...، فعرضتها كما رسم على أبي سليمان، وقرأتها عليه، فلما فهمها عجب، وقال: هذه مسائل المتحكّمين، وطلبات المُدلِين، واقتراحات المقتدرين، ومنية الأولين والآخرين. قلت: هو كما قلت أيّها الشيخ..." [1]. هذه المتضِّمنات المدرجة في هذه الأقوال، تتضمّن افتراضا مسبقا واقعيّا لصحة المعلومات المذكورة. فطلب البحث عنها عن طريق أبي سليمان. دلالة على افتراض مسبق أنّه هو الجدير، والمتمكّن بالإجابة عن هذه المسائل، وتعجبه من مقال الوزير. يفترض مسبقا أنّه يجهل ما عند الوزير من ثقافة ودراية بأمور المعرفة. أمّا الموافقة الّتي بدت من التّوحيدي، توحي بأنّه يعرف المتلقّي، وكلّ ما قيل عنه فهو صحيح.

لا يخلو الخطاب السّرديّ عند التّوحيديّ من طريف القول، وحاضر البديهة، في إحالته لتلك الخطابات السّرديّة الّتي تحمل في طياتها حسّ الفكاهة لأغراض إنسانيّة، وتتمثل في غرس القيم الأخلاقيّة. لأنّه يفترض مسبقا أنّ المبدع لا يقتصر على بثِّ المعرفة. بل يهدف إلى إمتاع المتلقّي لكي يشعر بالأنس في ليالي السّمر. فما كان منه إلّا أن يبعده عن رتابة الجدّ إلى القليل من المزح والهزل. بقوله: " وقال عبّاد بن زياد: كنت عند " عبد الملك بن مروان "، إذ أتاه " أبو يوسف " حاجبه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه بُثينة. قال: أبثينة جميل؟ قال: نعم، قال: أدخلها، فدخلت امرأة أدمَاء طويلةٌ يعلم أنّها كانت جميلة، فقال له: يا أبا يوسف ألقِ لها كرسيّاً، فألقاه لها، فقال لها عبد الملك: ويحك ما رَجَا منك جميل، قالت:

[1] -الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص395-396

الّذي رَجَت منك الأمّة حين ولّتك أمرها " [1]، يفترض مسبقا أنّ الأمير قد سمع عن قصتها وولَه و افْتِنَان جميل بها. لكنّه أقرّ بكلام يقصد منه الاستهزاء لكونها تغيّرت ملامحها، فردّت عليه بنفس الافتراض الّذي جرى في ذهنه مستهزئة (نفس ما رجت منك الأمّة...). على اعتبار أنّ الأمّة اختارته لنفس السّبب، أي حُبّا فيه.

---

1 ـ السّابق ذكره ، ص438.

الافتراض المسبق المعجميّ:

الافتراض المسبق يُحدّد بناءً على معطيات تسبق التفوّه بالقول. على أنّها موجودة في ذهن المتكلّم. لكنّها غير مصرّح بها مباشرة في الكلام. هذه التّضمينات تتوارى خلف شكل اللّغة. لتوحي ضمنيا إلى كلام سبقها. فيكون هذا الملفوظ قد حَمَل جزءًا منها، إمّا أنّه يظهر في بنيته التّركيبيّة اللّغويّة، فتعتمد عليها لكشف الافتراض المسبق، وهذا ما سَبَقَ ذكره على أنّه مسبق بنيوي.

لكن إذا استعملت صيغة لغوية بمعنًى مؤكّد في الكلام، ولم تشر إليه داخل الكلام. أي غير مذكور. هذا يسمى حينئذ بالافتراض المسبق المعجمي؛ الّذي بدوره يدلّ على معنى آخر غير مؤكّد ولا مذكور في الكلام. و قد يتمّ فهمه. وهذا النّوع من الافتراض " يفسّر استعمال صيغة بمعناها المؤكّد عادة بالافتراض المسبق أنّ معنىً آخر غير مؤكّد قد تمّ فهمه " [1]، بحيث يكون كلام المتكلّم مؤكدًا، فيدلّ على افتراض مسبق لا وجود له في السّياق (غير مذكور).

كما بيّن " جورج يول " أنّه توجد بعض الكلمات الابتدائيّة الّتي تظهر في بداية الكلام، منها " أقلع "، " بدأ "، "مجدّدًا "، وهي ألفاظ تدلّ على تأكيد الكلام؛ بمعنى أنّه كلّما ذكرت أنّ شخصا تمكّن من إنجاز شيء ما، فيفترض مسبقا أنّه "حاول ".

وهذا ما يتراءى لنا في الحوار التّداوليّ في خطاب أبي حيّان، سواء بين المبدع والمتلقّي أو نجده بين طيّات الحادثات الّتي تمّت وجرت بين الشّخصيات المذكورة في الخطاب السّردي. كما في قول الوزير: " قدْ والله ضاق صدري بالغيظ لما يَبلُغني عن العامَّة من خَوضِها في حديثنا، وذكرِها أمورَنا، وتتبُّعها أسرارنا،...، وما أدري ما أصنَعُ بها، و إنِّي لأهُمُّ في الوَقْت بعدَ الوقْت بقطعِ ألسنةٍ وأيدٍ وأَرْجُلٍ وتَنكِيلٍ شديدٍ، ولعلَّ ذلك يَطْرَحُ الهَيْبَةَ ويَحْسِمُ المادّةَ، ويَقْطَعُ هذه العادة...، ما لهم لا يُقْبلونَ على شُؤونِهم المهمّة ومَعايشهم النّافعة، وفرائضِهم الواجبة؟ " [2]. إنّ ما يعانيه الوزير من تذمّر تجاه الرّعيّة، ناتج

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص55.

[2] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص381.

عمّا صدر منهم. من خلال قوله يفترض مسبقا أنّه لم يكن متذمِّرًا قبل وصول كلامهم عنه، بأنّهم يقتصّون أخباره وأموره الشّخصيّة، فأحاله ذلك إلى حلّ مُؤكّد في كلامه، بمعنًى آخر غير مؤكّد لأنّه لم يحققه في الواقع؛ أي يفترض مسبقا أنّه مجرّد تفكير في الأمر، لكنّه لم يفعل ذلك. ويفهم من عبارة " ما لهم لا يقبلون ..."، أنّه يفترض مسبقا في ذهنه أنّه يحبّذ لَوْ يبعدوا تفكيرهم عنه، و يهتموا بشؤون حياتهم.

وقال في ليلة أخرى: " ألا تتم ما كُنّا قد بدأنا. قلت: بلى " [1]، الكلام يدلّ و يؤكّد أنّهما بدآ في الكلام في ليلة سابقة، والافتراض المسبق أنّه لم يتم تكملة وإتمام الحديث السّابق. وهو افتراض معجمي لأنّه بصيغة (بدأ). أي تمكّن من إنجاز الفعل، لكن يفترض مسبقا لم تتم تكملة الإنجاز.

---

[1] ـ المصدر السّابق ،الجزء الأوّل، ص61.

الافتراض المسبق البنيويّ:

هو ذلك الافتراض المسبق الّذي يظهر في بنية الكلام، ويدلّ جزء منه في الصّيغة المفترضة على اعتبار أنّ الافتراض يكون سهلا وفي متناول المتلقّي. خاصّة إذا ورد على شكل سؤال - استفهام - فهذه التّراكيب تستعمل في الكلام على أنّها مفترضة مسبقا أنّها صحيحة، (متى انصرف؟›› انصرف)، و تظهر جليًّا في السّؤال المطروح، فتكون بنية السّؤال طريقة متاحة للمتلقّي تصديق القول، واستنتاج الافتراض المسبق. ويظهر في قول الوزير: " حدّثني عن درجته في العلم والحكمة، وعرّفني محلّه فيهما من محلّ أصحابنا ابن زرعة و ابن الخمّار...، فقلت: وصف هؤلاء أمر متعذّر، وباب من الكلفة شاقّ...، فقال: هذا تحايل لا أرضاه لك..." [1]. فسؤال الوزير عن شخصيّة أبي سليمان ليس اعتباطيّا بقدر ما هو مقصود بدافع فضول المعرفة، ولأنّه على يقين أنّ التّوحيديّ يعرفه معرفة تامّة، وهو العالم الخبير بما يطبع ذلك العصر من معارف وعلوم وأخبار، فكان هذا السؤال ينمّ عن افتراض مسبق في ذهن المتكلّم، يظهر جليّا من خلال بنية الكلام، في قوله: " حدّثني عن درجته في العلم والحكمة "، أنّ الرّجل يتمتّع بعلم ومعرفة فعلا، هو وأصحابه المعاصرين له. بدليل قوله بعد ذلك: "ما قصرت في وصف هذه الطائفة " ، على افتراض سابق أنّه وصفها له وصفا تامّا ومُرضيا.

كما يظهر افتراض مسبق أوّلا في ردّة فعل المبدع. يوحي بأنّ ذكر هؤلاء ليس بالأمر الهيّن اليسير. وثانيّا في كلام المتلقي، بأنّ هذا الامتناع الّذي بين جَنَباتِه رفض مُبطّن وعدم إخبار، لا يُصدِّقُ فيه قولاً.

هذه التّضمينات يفترض مسبقا أنّها صحيحة. ويدلّ عليها جزء من البنية التّركيبيّة لصيغة الكلام المُتناول بين طرفي الحوار في سياق التّواصل التّداوليّ. ومن ضمن ذلك "عُدت ليلة أخرى. فقال: فاتحة الحديث معك. فهاتِ ما عندك " [2]. العبارة تحتوي على كلام متضمن في بنية القول. وعلى أساسه بُني الافتراض الّذي سبقه، والّذي يدلّنا على أنّ المتلقّي قد سمح للمبدع ببدءِ الحديث، لأنّه يعلم علم اليقين أنّ لديه الكثير ليقوله، فمنحه على

---

[1] - المصدر السّابق، ص38.

[2] - نفسه، ص113.

إثر ذلك حريّة استهلال القول. ونلاحظ أنّ هذا الافتراض المسبق أصبح متكررا لدى المتلقّي، والّذي نتج عن مدى اقتناعه ببراعة المبدع، وقدرته وبراعته في الخوض في شتّى المعارف الإنسانيّة، بقوله: " حدّثني بشيء فيه جوابٌ حاضر، وللبديهة فيه تَوقدٌ ظاهر"[1]، على اعتبار أنّ التّوحيدي بارع في الجواب الحاضر الّذي يوحي بقدرة العقل، وسرعة البديهة في استحضار القول المُراد.

لقد أنتج التّوحيدي في خطابه السّرديّ شكلا جديدا لتوصيل المعرفة وترسيخها وبعث وجودها للوجودِ، ويظهر في ذلك التّواصل التّداوليّ الحواريّ بينه وبين المتلقّي، على أساس أنّ لديه افتراضا مسبقا يسعى إلى تحقيقه. أوّلا إمتاع المتلقّي بخطابات جماليّة فنيّة تأثيريّة، وفي نفس الوقت طرحه للجانب الفكريّ المعرفيّ لتثقيفه وتوجيهه. بالإضافة إلى افتراضات مسبقة نستشفّها من أقوال المتلقّي. كما في قوله: " أحبُّ أن أسمع كلاما في مراتب النّظم و النّثر، وإلى أيِّ حدٍّ ينتهيان، وعلى أيّ شكل يتّفقان، وأيُّهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، وأدخل في الصّناعة وأولى بالبراعة؟؟ "[2]. يظهر من البنية التّركيبيّة للكلام أنّه يفترض مسبقا معرفته بفنون الأدب، وميزاتها والفروق بينها. كما يفترض أنّه يعرف مراتب النّظم و النّثر. وللشعر منزلة عنده، يفترض أنّه يفضل سماعه، والتمتّع بجماله، من ناحيّة رونقه، وعذوبة لفظه، وذلك بطلب منه. بجميع أغراضه من غزل وحكمة...، فيظهر ذلك في قوله " أنشدني غزلاً...، أتحفظ الأبيات..." [3]، على اعتبار أنّ المتلقّي يُدرك جيّدا أنّ المبدع يحفظ فنّ النّظم.

فطلب منه أن يذكر له أبياتا من الشّعر، بقوله: " أَنْشِدْني أبياتاً غريبَةً جَزْلَة، فأَنْشَدْتُ لهَدْبَةَ العُذرْي: [الطويل]:

سَأَوِي إلى خيْرٍ فقد فاتنِي الصِّبَــــا وصِيـــحَ بِرَيْعانِ الشَّبَـــابِ فنُفِّــرَا

---

[1] - المصدر السّابق، الجزء الثّالث، ص390.

[2] - المصدر نفسه، الجزء الثّانيّ، ص274.

[3]- السّابق ذكره، الجزء الثّالث، ص321.

أمورٌ وألوانٌ وحالٌ تقلّبتْ بنا وزمانٌ عُرْفُه قدْ تنكَّرَا
أُصِبْنَا بِما لَوْ أنَّ سَلمى أصابَهُ تَسَهَّلَ من أرْكانِهِ ما تَوَعَّرَا*
وإنْ نَنْجُ مِنْ أهوالِ ما خَافَ قَوْمُنَا عَلَيْنَا فإنَّ الله ما شاءَ يسَّرَا
وإنْ غَالنَا دَهْرٌ فَقَدْ غَالَ قَبْلَنَا مُلوكَ بَنِي نَصْرٍ و كِسرَي و قَيْصَرَا
وذِي نَيْرَبٍ قد عابَنِي لِيَنَالَنِي فأعيا مَدَاهُ عن مَدَاهُ عن مَدَايَ فأقصَرَا**
فإنْ يكُ دَهْرٌ نالَنِي فأصابنِي بِرَيْبٍ فما تُشْوِي الحوادثُ مَعْشَرَا***
فَلَسْتُ إذا الضَّرَّاءُ نَابَتْ بِجُبَّإٍ ولا جَزَعٍ إن كان دَهْرٌ تَغَيَّرَا

فقيل: ما الجُبَّأُ؟ فقال: الجَبانُ.

فقال: ما أمتن هذا الكلام، وألطف هذا الجدد! وما أَبْعَدَهُ من تلفيق الضّرورة، وهُجْنَةِ التكلّف، لولا أنّ سامعَه رُبَّما تطيَّرَ به، وانكَسَر عليه " [1].

يكفي أنّ طلب الإنشاد يدلّ على حبّ النّظم، و إبداء التّعجب من جزالته ومعناه، فيفترض مسبقا أنّه أعجب بتلك الأبيات الّتي تُوحي إلى تقلّب أحوال النّاس من نائبات وحوادث، فما أصيبوا به أصاب قوما قبلهم، وأنّ إعجابه بالشّعر بدا واضحا في أكثر من موقع من مواقع السّرد لدى خطاب التّوحيدي.

---

[1] - المصدر السّابق، الجزء الثّالث، ص461.

* سلمى: اسم جبل. ** النيرب: الشرّ والحقد.*** تُشوي: تخطيء

الافتراض المسبق غير الواقعيّ / المُناقض للواقع:

هو ذلك الافتراض الّذي يكون في ذهن المتكلّم قبل الكلام. على اعتبار أنّنا نستوحي معناه من متضمّنات القول الواردة فيه. كما توجد بعض الكلمات الدّالة عليه، كاستعمال أفعال: " يحلمُ - يتصوّرُ - يتظاهرُ"، توحي بافتراضات مسبقة غير واقعيّة.

كما توجد بعض البُنى الّتي لا تمت للواقع بصِلة، بحيث أنّنا لا نستطيع أن نقول عنها أنّها غير صحيحة فحسب، بل مناقضة للحقيقة. هذا الافتراض المناقض قد تدلّ عليه بعض أدوات الشّرط، ويسمّى عادة " الشّرط المناقض للواقع " [1]، بحيث تكون هذه العبارات وقت الكلام غير صحيحة.

هذا النّوع من الكلام يَحفل به الخطاب السّرديّ التّوحيديّ. خاصة في المناظرات الّتي يُعطى أصحابها حُججا ودلائل لا علاقة لها بالحقيقة، والّتي تحمل في طيّاتها تناقضات، وذلك لدحض وتفنيد الرّأي الآخر، وغيرها من المحادثات والأخبار المُرواة من طرف المبدع، والّتي تخلّلت جميع جوانب الحياة.

وفي أثر حديثه عن بعض الشخصيّات " قال: فما تقول في ابن الباقلاني؟ قلت: يزعمُ أنّه ينصر السُنَّة، ويفحم المعتزلة وينشر الرّواية، وهو في أضعاف ذلك على مذهب الخرميّة، وطرائق الملحدة. قال:إنّ هذا لمن المصائب الكبار والمحن الغلاظ، والأمراض الّتي ليس لها علاج " [2]. نستشف من خلال سؤال الوزير: أنّه يفترض مسبقا أنّ المبدع يعرف الباقلاني. فسرد عليه أخباره، واستهلّها بالفعل" يزعم" الدّال على الشّك، وعدم اليقين في مناظرة أهل السُّنة وفلسفة علم الكلام...، مع أن لا عقيدة له تُذكر. وما صدر من المبدع في الخطاب يوحي بافتراض مسبق غير واقعي؛ أي ليس صحيحا، وأنّ نُصرة أهل السُّنة بعيدة عنه لأنّه مُلحد. وما صدر من الوزير، يفترض مسبقا أنّ أكبر المصائب من يقول عكس ما يؤمن به.

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ص57.

[2] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص111.

وإذا تقصَّيْنَا ما جاء في المناظرات، والحجج الّتي يقدّمها بعضهم. فقد يلجأون إلى تبرير مواقفهم بكلام يجهلون مصداقيته، فمن يجهل الشيءَ يُعييُهُ، ويقول فيه ما ليس فيه، لغرض غلبة، والسّيطرة على الآخر بتلك الحجج، لكن إذا كانت مناقضة للواقع فلا سبيل إلى تصديقها.

فقال: " متى: يكفيني من لغتكم هذا الاسم والفعل والحرف، فإنّي أتبلّغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذّبتها لي يونان. قال: [أبو سعيد]: أخطأت، لأنّك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على التّرتيب الواقع في غرائز أهلها..." [1]. كلام "متى" يوحي بأنّه يكفيه معرفة تلك الأشكال الثّلاث، وإنْ كان يجهل بناءها وتشكيلها وصناعتها. لكنّ " أبا سعيد " فنّد مقولته. وهذا الكلام يفترض مسبقا عدم صحته لكونه صرّح بأنّه يجهل النّحو. وبالتّالي فهو مناقض للواقع. ولا أساس لكلامه من الصّدق والحقيقة.

وقال الرّاوي: " وأعجب أيضا أفضل عجب من الجيهانيّ في كتابه وهو يَسُبُّ العرب...، وقال الجيهانيّ أيضا: ليس للعرب كتابُ إقليدس ولا المجسطيّ*، ولا الموسيقى، ولا كتاب الفلاحة، ولا الطبّ ولا العلاج، ولا ما يجري في مصالح الأبدان، ويدخل في خواّص الأنس" [2]. يظهر من خلال كلامهم أنّ العرب لا تعرف العلوم والمعارف ولا الفلسفة. وهذا افتراض مسبق مناقض للواقع، ومناقض للحقيقة. لأنّ العرب عرفوا العلوم وبرعوا في شتّى أنواعها ومجالاتها وفروعها ومناقبها." قال: وهذا بيانٌ نافع في كذبهم " [3]، فمنها كانت حُججهم كاذبة، فإنّها تظهر في أقوالهم.

وفي ليلة من ليالي السّمر يبوح الوزير عمّا يزدريه ويقلقه من الرعيّة، فيسرد ما صدر منهم، وما بدر مُخاطبا التّوحيديّ، راجيا منه جوابا لمعضلته. فما كان على المبدع إلّا أن يختار صيغتين سرديتين على لسان غيره، قائلا: (قال أبو سليمان ـ حدّثنا شيخ صوفي)، ليخدم بذلك مقاصده التّواصليّة. من خلال ما تضمّنته تلك الأقوال الّتي أراد التّوحيديّ

---

[1] ـ المصدر السّابق ، ص93.

* المجسطي: أقدم كتاب في الفلك، ألّفه بطليمس، وعرّبه حنين بن إسحاق.

[2] ـ المصدر نفسه، ص69 و75.

[3] ـ نفسه- ص76.

من خلالها أن يقنع الوزير بموقفه ليخفّف غضبه، هذا الموقف له أغراض وغايات إنسانيّة سامية، تتمثّل في أنّ السّلطة المفروض لا تضجر ممّا يصدر من رعيّتها لأنّ " عَقْلَهُ فَوْقَ عُقُولِهِمْ ، وحِلْمُهُ أَفْضَلُ من حُلُومِهِمْ، و صَبْرُهُ أَتَمُّ من صَبْرِهِمْ، ومنها أَنَّهُم إنّما جُعِلُوا تحت قدرته، و اختُبِرُوا بتصْريفهم على أَمْرِه و نَهْيِهِ، لِيَقُومَ بحقِّ الله تعالى فيهم، ويَصْبِرَ على جَهْلِ جَاهِلِهِمْ، ويكون عمادُ حالِه معهم الرِّفْقَ بهم، والقيامَ بمصالِحِهِم..." [1]، من خلال هذا الكلام يفترض مسبقا أنّه توجد مفاضلة بين الرّعية والملك، فهو يفوقهم مرتبة، وأنّ هذا التّفضيل يستوجب العقل والحكمة.

لكنّه لم يتوقّف المبدع عند هذا الحدّ، بل سرد له أمثلة مفترضة ـ ليست من الواقع ـ لكي يدرك أنّ الرّعية لها حقّ في راعيها. وبهذا فهو يمثّل صوتهم لغاية يريد بها أن يوطِّد الوَصْلَ بينه وبينهم. فقال: " ولو قالت الرّعيةُ لسلطانها: لِمَ لا نخوض في حديثك، ولا نبحث عن غيب أمرك، و لِمَ لا نسأل عن دينك وعلّتك وعادتك وسيرتك؟... أما كان عليه أن يعلم أنّ الرّعية مصيبة في دعواها الّتي بها استطالت، بلى والله، الحقّ مُعترفٌ به، وإن شغب الشّاغب، وأعنت المعنت.

قال: ولو قالت الرّعية أيضًا: و لِمَ لا نبحث عن أمرك؟..." [2]. لقد أدرج السّارد أداة الشّرط (لو): الدّالة على الشّرط المناقض للواقع. بصيغ لغوية يُفترضُ أنّها قِيلت حقيقة، مع أنّها لم تُقَلْ في الواقع. لذا فهذا الافتراض المسبق مناقض للواقع، فهو مجرّد كلام صدر من السّارد قصد إقناعه بأن يهتمّ برعيته، وحمله على تغليب عقله على عاطفته.

---

[1] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص381.

[2] ـ المصدر نفسه، ص382.

الفصل الرّابع:

- أفعال الكلام وتداوليّة الخطاب السّرديّ التّوحيديّ:
  - أفعال الكلام المباشرة وغير المباشرة

- أفعال الكلام ووظيفتها التّواصليّة في الخطاب السّرديّ:
  - أ- الوظيفة التّوجيهيّة
    - * صيغة الأمر، وتفعيل الفعل الإنجازيّ
    - * الاستفهام والإنجاز
  - ب- الوظيفة الإخباريّة

طُرق التّداول المعرفيّ في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ:

1- فعل المعرفة ووظائفه الموسوعيّة التّبليغيّة
2- فعل الحجاج ووظائفه الإقناعيّة
3- فعل الوصف ووظائفه الجماليّة التّأثيريّة

أفعال الكلام وتداوليّة الخطاب السّرديّ:

إنّ الاستراتيجيّة الّتي ارتكزت عليها البرغماتيّة التّداوليّة هي: دراسة اللّغة/ الكلام أثناء الاستعمال والتّواصل، وعلاقة تلك الكلمات بمستعمليها، وفق سياق تواصليّ يهدف إلى إنجاز الأفعال عبر تلك الملفوظات. لأنّ كل فعل إنجازيّ يتحقّق عن طريق كلمات وملفوظات لها مدلولات تقصد من ورائها معان دالّة عليها. وغاية المتكلّم إنجاز الفعل في خضمّ مجموع متضمّنات القول الّتي يُبادر المتلقّي إلى إزالة الغموض عنها للمباشرة في إنجازه.

يتوقّف معرفة نوع ومدى قوّة الأفعال الكلاميّة، على الأقوال والملفوظات ضمن التّواصل التّداوليّ، وعلى حسب قول المتكلّم الّذي قد يصدر منه كلاما في سياق معيّن، ويعني به معنًى آخر ضمنيّا، مُغاير تماما لظاهر الخطاب، وهو " ما لم يتمّ قوله على أنّه جزء ممّا يتم إيصاله " [1]، وسواء كان المعنى صريحا أو ضمنيّا، فهو يتوقّف على فهم واستيعاب الكلام في السّياق الّذي ورد فيه. لأنّه يستطيع أن يوضّح معالمه، ودلالته وقصديّته في نطاق عمليّة التّواصل، ناهيك عن خاصيّة التّعاون الّتي تجمع بين المتكلّمين ، والّتي تزيح الغموض، ويُفهم من خلالها الكلام غير المباشر، لأنّه يخضع إلى عمليّة ذهنيّة تحدّد مسار معناه، وتكشف معانيه الضّمنيّة بين طيّات الكلام عبر السّياق التّواصليّ. وكذلك عن طريق الافتراض الّذي سَبَق التّلفّظ، أو عن طريق الاستلزام الّذي شكّله الحوار انطلاقا ممّا تمّ تأكيده من كلام بين أطراف الحوار. وإعطاء التّصوّر الوظيفيّ لذلك الخطاب، ومدى تأثيره في المتلقّي، وهذا التّأثير يتجسّد في الفعل الإنجازيّ المُراد الوصول إليه وتحقيقه فعليّا.عن طريق قوّة الملفوظات الّتي تُؤدّي إلى فعل التّأثير في المتلقّي، فهي بدورها تُسهم في إنجاز الفعل من طرف السّامع، بسبب حصول ذلك التّأثير، والّذي نتج عن قوّة اللّفظ الوظيفيّة الفاعلة في إحداث الإنجاز. لذا ترتبط قوّة الفعل الإنجازيّ، بمدى قيمة الكلام أو القوّة الّتي ينتج عنها الفعل. ومدى علاقة تلك الملفوظات بالوظيفة التّواصليّة الّتي من خلالها نستطيع أن نميّز بين فعل كلاميّ مباشر وفعل كلاميّ غير مباشر.

---

[1] - جورج يول، التّداوليّة، ترجمة قصي العتابي، ص19.

أفعال الكلام المباشرة وغير المباشرة:

استعمال اللّغة قد يكون مباشرا أو غير مباشر، فهو يعدّ آليّة لغويّة وخاصيّة من خصائص الكلام، ويندرج هذا النّوع من الاستعمال اللّغويّ بنوعيه (المباشر وغير المباشر)، ضمن معنى آخر يتمثّل في التّصريحات والتّضمينات، و " تعتبر الفرضيّة الّتي نستخلصها من القول صريحة، إذا كانت نتيجة من نتائج صورته المسجّلة فيه، وتعتبر فرضيّة نستخلصها من قول لم يقع إبلاغها إبلاغا صريحا فرضيّة ضمنيّة " [1]. أي لا تبدو معانيه ظاهرة في الكلام، بل نجدها متضمّنة في الكلمات.

فالفعل المباشر يظلّ يلازم ملفوظاته في مختلف السّياقات التّواصليّة مهما تعدّدت، لكون أنّه تظهر معالم معانيها مباشرة؛ أي يتطابق المعنى مع اللّفظ، فيكون إنجاز الفعل مُلائما للبنيّة اللّغويّة الحرفيّة للكلام. على اعتبار أنّه " كلّما وجدت علاقة مباشرة بين البنية والوظيفة، نحصل على "فعل كلام مباشر"، بينما كلّما وجدت علاقة غير مباشرة بين البنية والوظيفة، نحصل على "فعل كلام غير مباشر"، لذا يعتبر استعمال البنية الخبريّة لتكوين جملة خبريّة، فعل كلام مباشر، ولكنّ استعمال البنية الخبريّة لتكوين طلب فعل كلام غير مباشر" [2]. أمّا الفعل غير المباشر، فهو يرقى إلى مستوى ذهنـي يعتمده السّامع من خلال ما صدر من المتكلّم من كلام ضمنيّ، مُحاولةً منه استيعاب مضمونه الّذي يستمدّه من خلال المقام التّواصليّ، والّذي يدلّ على قوّة إنجازيّة لا تُعرف إلاّ بطريقة ذهنيّة لدى المتلقّي، أي طريقة تفكير لفهم كُنه معناه، وقصديّة دلالته. فتكون بذلك هذه الأفعال الإنجازيّة قد ترجمت الفعل القوليّ، وحقّقت إنجاح التّواصل التّداوليّ.

وضمن حديث السّارد عن الفلسفة والدّين، والردّ على كلّ من يُناصر الفلسفة على حساب الدّين، فيقوم بالمقارنة بينهما، ويُظهر مدى اختلافهما في الجوهر والتّوجّه، ، بقوله: " وما يزيدك عجبا أنّ الأمّة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها، فصارت أصنافا فيها وفرقا، كالمرجئة والمعتزلة والشّيعة والسّنيّة والخوارج، فما فزعت طائفة من هذه الطّوائف

---

[1] - جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة، ص126.

[2] - جورج يول،التّداوليّة، ص92.

إلى الفلسفة، ولا حقّقت مقالتها بشواهدهم وشهادتهم، ولا اشتغلت بطريقتهم، ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربّها وأثر نبيّها "[1]. المعاني الصّريحة الظّاهرة تدلّ على أنّ هؤلاء لم يعتمدوا الفلسفة، ولم يتبنوا ما جاء فيها كدليل في أقوالهم. أمّا المُتضمّن منه، فيدلّ على أنّ رغم ضلالة وتيه بعض تلك الفرق والتّوجّهات الدّينيّة الّذين اختلفوا فيما طرحوه من قضايا تخصّ طبيعة الإنسان وعالمه، وفضّلوا التّناحر والصّراع من أجل سيادة وبقاء أفكارهم، ومع ذلك لم يعتمدوا ما جاءت به الفلسفة، بل اعتمدوا على ما أنزله الوحي، على اعتبار أنّ الفلسفة في منزلة دنيا بالمقارنة مع منزلة الدّين الرّفيعة.

الكلام الضّمني يحاصر محاورات التّوحيديّ ، وتتجسّد ضمن قوّة الفعل الكلامي الّذي يصدر منه، وغالبا ما يكون معانيه الظّاهريّة تستحوذ على معانٍ إضافيّة غير مباشرة في سياق الكلام. وهذه التّضمينات هي الّتي تحمل قوّة المعنى، فتكون له وظيفة تأثيريه إقناعيّة ينتج عنها قوّة الفعل الإنجازيّ.

وكلّما تحقّقت هذه الأفعال، فإنّها ساهمت في بلوغ هدف المتكلّم، وأدّى ذلك إلى معرفة وكشف ما يدور في ذهنه على اعتبار أنّه يتطلّع إلى إنجاز فعل كلاميّ كما يريده هو. وعلى هذا فالكلام المباشر لا يجد فيه المتلقّي صعوبة في بنيته الخطابيّة. لأنّها تظلّ معروفة مهما اختلفت السّياقات. لكن تلك الّتي تعتريها تضمينات لا تعكس الجانب الحرفيّ المباشر، بقدر ما تتوارى خلف الكلمات، أو تفوق ما يوجد في ظاهر الكلمات، فيحقّ لها أن يكون لها متلقّيا مميّزا يعي ما تعكسه من معانٍ ودلالات، كما في سرديّة التّوحيديّ الّذي انتهج خطابا بلاغيّا ترقى لغته إلى مستوى بيانيّ ، وأسلوب أدبيّ غير مسبوق، ومع ذلك فالمتلقّي في مرتبة ثقافيّة تؤهّله إلى أن يعي ويفهم كلام السّارد، مع أنّ جلّ خطاباته في معظم لياليه تتجاوز المفهوم والفهم البسيط، وترقى إلى مستوى معيّنا من البلاغة والبيان، ومع ذلك استطاع المتكلّم أن يؤثّر في السّامع ويبعث فيه الفعل الإنجازيّ المرجو تحقيقه، وهو توجيهه والتّأثير فيه، كما جاء في قول المتلقّي: " ما أعلى نَجْدَ هذا الكلام! وما أعْمَق غَوْرَه! وإنّي لأَعْذِرُ كُلّ من قابل هذا المَسمُوعَ بالرَدِّ، واعتَرَضَ على قائله بالتّكبُّر، ولَعَمْرِيّ

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص183.

إذا تَعَايَت الأشياءُ بالأسماءِ والصّفاتِ، وعَرَضَ العجزُ عن إبَانَتها بحقائق الألقاب، حار العقل الإنسانيّ، وحُيّر الفهمُ الحسيّ..." [1]، يبدو من كلام السّامع أنّ الخطاب الّذي صدر من المبدع أدّى وظيفة، أي صنع قوّة تأثيريّة تمثّلت في رد فعل المتلقّي، وحيازته على الرّضا والتّعجب.

فكان للفعل التّعبيريّ اللّغوي ضمن إطار التّواصل بينهما، له خصائص بلاغيّة ومعانٍ دالّة، جعلت من المتلقّي يبدي رأيه تجاهها، وذلك من خلال إبداء فعل التّعجبّ، والانبهار من أسلوب الكاتب، وبيان بلاغته وعمق معانيه، بالتّالي كان لهذا الخطاب ضمن السّياق التّواصلي، وظيفة تأثيريّة في نفسيّة السّامع ساهمت في إنجاز فعل التّأثير لديه.

ولهذا فالخطاب التّوحيديّ يسمو بلغة راقية، وأسلوب بلاغيّ مميّز، تخضع معظم كلماته وجملة إلى معانٍ ضمنيّة تتخلّل كلماته، وجمله الخطابيّة والتّوجيهيّة. ومع أنّ هذه الأفعال غير مباشرة، إلاّ أنّ المتلقّي يتطلّع إلى فهمها واستيعاب كُنهها، خاصّةً وأنّه شخصيّة تتمتّع بثقافة ترقى إلى مستوى المبدع، أي ليس ببعيدٍ عن وعي ومرتبة الكاتب العلميّة والثّقافيّة. لذا كان حبّه للمعرفة والتّطلّع إلى اكتسابها أمرًا ألزم نفسه عليه منذ استدعاء الكاتب إلى بيته، وبداية المحادثة معه في شتّى مجالات العلم والمعرفة.

فكلّما كان الفعل الكلامي مباشرا حقّق فعلا إنجازيّا متطابقا مع فعل التّلفّظ الكلامي في الخطاب التّواصليّ. فلا يصدر من المتلقّي أدنى جهد ذهني لاستيعاب الكلام والمباشرة في إنجاز الفعل، على عكس الكلام غير المباشر، فقد نلجأ إلى عمليّة التّأويل لفهم وتفسير تضمينات القول، على افتراض أنّ لها دلالات ضمنيّة عميقة تستوجب قوّة فعل إنجازيّة، تُعرف بواسطة الإحالة على السّياق التّواصليّ الّذي وُجدت فيه. لذا فالفعل الإنجازيّ مرتبطٌ بمدى قوّة التّلفّظ النّاتج عن الفعل القوليّ.

---

[1] ـ المصدر السّابق، الجزء الرّابع، ص460.

أفعال الكلام ووظيفتها التّواصليّة في الخطاب السّرديّ:

عندما نتكلّم نتواصل، وعندما نتواصل نُنجز الأفعال، فكلّ ما نتلفّظ به نعنيه، وكلّ ما نقوله نُريد أن نُحقّق به تغييرا معيّنا، أي تحقيق وظيفة تواصليّة تعكسها أقوال المتكلّم، وما توحي به من مقصديّة، تهدف إلى تحقيق فعل يتمّ إنجازه من طرف المتلقّي. وبالتّالي تحقيق الفعل الإنجازيّ المُراد، " وكلّ وظيفة يجب تمثيلها بكلمات فعليّة في لغات فعليّة، لأنّ الكلمات ذات المعنى هي نفسها موضوعات ذات وظائف "[1]. وتحقيق هذه الوظيفة يتمّ بواسطة عناصر السّياق ضمن تواصل معيّن. وما يتضمّنه من أطراف الحوار لتحقيق وظيفة تواصليّة تداوليّة قائمة على فعل التّلفّظ، لأنّ تلك الكلمات " تؤدّي وظيفة المعنى بالتّعبير عن معانيها " [2]، والّتي بدورها تُبيّن مدى استعمال اللّغة استعمالا صحيحًا ومقبولاً ضمن مجموع الأنساق والتّراكيب. بحيث يلائم الكلام المقام التّواصليّ الّذي ورد فيه. وهذا يعتبر من بين شروط إنجاز الفعل وإنجاحه في عمليّة التّواصل. هذا الالتحام والّذي نستطيع أن نُطلق عليه لفظ "تفاعل" بين عناصر الحوار، هو الّذي يُظهر ذلك التّعاون الحاصل بينهم، والّذي يُؤدّي بدوره إلى تفعيل مقصديّة المتكلّم، ومعرفة فَحوى المحتوى القضوي في الكلام من طرف المتلقّي. فيؤدّي به ذلك إلى إنجاز الفعل، وتحقيق ما يصبو إليه المتكلّم.

وهذا الإنجاز الفعليّ يتحقّق وفق أفعال الكلام الّتي صنّفها "سيرل"، وحصرها في خمسة أنواع، هي: " الإعلانات،المُمثّلات(الإخباريّة)،المُعبّرات، المُوجّهات، المُلزمات " [3]، وأطلق عليها الوظائف العامّة لأفعال الكلام، على اعتبار أنّها أفعال لها وظيفة تواصليّة تداوليّة ينشأ من خلالها الفعل الإنجازيّ.

والسّؤال الّذي يطرح نفسه، ما طبيعة الإنجاز في خطاب "الإمتاع والمؤانسة"؟، وإذا اعتبرنا أنّ الخطاب السّرديّ التّوحيديّ اِنْبنى على استراتيجيّة تواصليّة بين المبدع والمتلقّي،

---

[1] - جون سيرل، العقل واللّغة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات دار الاختلاف، ط01،2006م، ص226.

[2] - المرجع نفسه، ص227.

[3] - جورج يول، التّداوليّة، ص91.

كشرط أساسيّ في المحادثة، وتداول الكلام بينهما.فإلى أيّ حدّ حقّق هذا السّرد الفعل الإنجازيّ، وغاية التّأثير فيه؟ خاصّة إذا وجدنا أنفسنا أمام خطاب سرديّ، ذُكرت فيه جميع أصناف الأفعال بمعانيها وتنوّع دلالاتها في سياق تواصليّ حواريّ، كان تداوَل الكلام فيه بين المبدع والسّامع حول كلام، وليس كأيّ كلامٍ! إنّه كلام حول المعرفة ودروبها وفروعها الفكريّة والفلسفيّة...، كلّ هذه الخاطبات صنعها المبدع، وتفنّن في خَلقها بأسلوب إبداعيّ ، وصاغ معانيها وفق بلاغة وبيان فاق التّصوّر الذّهنيّ. على اعتبار أنّ تلك الأفعال الواردة في خطاب التّواصل، ووظائفها المتعدّدة بتعدّد الأغراض الموحيّة لها، يهدف المبدع من خلالها إلى إنجاز الفعل من طرف المتلقّي، وهو التّأثير فيه، بواسطة خطابات تعليميّة وتوجيهيّة هادفة. هذا المحتوى القضويّ والّذي يبدو في معظمه ضمني، أي غير مرئيّ، نظرا لطبيعة النصّ الأدبيّة والبلاغيّة، يحمل في طيّاته سِمات جماليّة تنطوي على توجّه حواري تداوليّ، غايته إنجاز الفعل الكلامي.

"الإمتاع والمؤانسة" نصّ بلاغيّ، أرست مضامينه تلك المعطيات المعرفيّة الرّاسخة في ذهن المبدع، والّتي كان البَوح أداة للتّعبير عنها، فشكّل بذلك طريقة خاصّة في خطابه، واستراتيجيّة معيّنة ومحدّدة للخوض في الفكر المعرفيّ بواسطة الوظيفة الحواريّة، لبسط أهدافه، وأغراضه التّواصليّة ضمن الحوار التّداوليّ المباشر بين الطّرفين. في مقام تواصليّ حُدّدت عناصره مُسبقًا، وفُعّلت بواسطة مجموعة من الشّروط الأوّليّة المتّفق عليها قبل البدء في المحادثة. هذه الاستراتيجيّة التّضامنيّة بين المبدع والمتلقّي، تمثّلت في خطّة أوّليّة للشّروع في مشروع تواصليّ، يهدف من خلاله المتكلّم إلى تحقيق الفعل التّأثيريّ، والّذي ينجُمُ عنه تحقيق الفعل الإنجازي المُراد، وبالتّالي تغيير توجّهات المتلقّي وتغيير نظرته لبعض المواضيع والمسائل وفق الأفعال التّوجيهيّة.

1- الوظيفة التّوجيهيّة:

إنّ ممارسة فعل الكلام في سياق تواصليّ معيّن، يهدف إلى تحقيق فعل الإنجاز. فكلّ ما نريد أن نقوم به نُحدّده وفق معايير نتّبعها للوصول إلى الهدف المراد، والمبتغى المرجو من ذلك. وهذا ما عَمِل به التّوحيديّ وفَعَّله ضمن خطابه، بأن وضع استراتيجية في بداية خطابه للوصول إلى غايته ضمن عمليّة التّواصل. ويُفترض مُسبقا أنّه خطّط لذلك قبل حضوره مجلس الوزير، بدليل مرجعيّة الخطاب الّذي بعثه للمتلقّي الوسيط: أبي الوفاء المهندس ، وهي خطّة وظيفيّة وضعها التّوحيديّ ليحقّق البعد المعرفيّ في مقام التّواصل بينه وبين الوزير. وتحقيق الجانب التّوجيهيّ الّتي بَدَت معالم استراتيجيّته بدءًا من اللّيلة الأولى الّتي عَمَد فيها الطّرفان إلى وضع قواعد عمل محدّدة الهدف والغاية ضمن سياق مقاميّ حُدّد فيه الفضاء المكانيّ، وهو مجلس الوزير، وحيّز زمانيّ، وهو ليالي السّمر ، واستمرار مُتعة الأنس من خلال تلك المحادثات على مدار أربعين ليلة. كان الهدف منها الوصول إلى إنجاز الفعل المطلوب بواسطة أفعال التّوجيه الّتي اكتسحت الخطاب وطغت على جوانبه الفكريّة لتحقيق الفعل الواحد، وهو التّأثير في المتلقّي وحَمله على إبداء الرّضا والاستحسان لِكلّ ما صدر من المتكلّم.

وهذه الأفعال التّوجيهيّة هي أنواع من أفعال الكلام " الّتي يستعملها المتكلّمون ليجعلوا شخصًا آخر يقوم بشيء ما، وهي تُعبّر عمّا يريد المتكلّم، وتتّخذ أشكال أوامر وتعليمات وطلبات ونواهٍ ومقترحات " [1]. وهي أفعال توجّه إلى المتلقّي، بغرض التّأثير فيه للقيام بالفعل الإنجازيّ، و" هذه الأفعال التّوجيهيّة، هي كلّ المحاولات الخطابيّة الّتي يقوم بها المرسل بدرجات مختلفة للتّأثير في المرسل إليه، ليقوم بعمل معيّن في المستقبل " [2]، وعلى إثر ذلك فالفعل التّوجيهيّ الّذي يحمل معنى "التّوجيه"؛ أي القيام بشيء ما، يحمل في طيّاته قصدًا معيّنا من طرف المتكلّم. يهدف من خلاله إلى حَمل السّامع على أداء الفعل، وتوجيهه

---

[1] - المرجع السّـابق، ص90.

[2] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، ص336.

إلى تحقيق غرض وفعل إنجازيّ ضمن سياق التّواصل بينهما يكون من أولوياته صدق القول في المحادثة.

ولذلك فإنّ هذه الأفعال التّوجيهيّة الّتي تصدر من طرف المتكلّم في إطار نظام لغويّ يحدّده المقام التّواصليّ، يحمل ضمن طيّاته مقاصد ومعانٍ، الغرض منها إنجاز الفعل الّذي حُدّد مسبقا في الكلام.

صيغة الأمر وتفعيل الفعل الإنجازيّ:

ووفق الاتّفاق الّذي بدت ملامح ظهوره بدءًا من اللّيلة الأولى، والّتي تمثّلت في ضبط المهام، وهي شروط مسبقة يسّرت مهمّة المبدع في إنتاج خطابه التّوجيهيّ، وبلوغ الهدف لكلّ من المبدع والسّامع، هذا الأخير يطلب من المتكلّم - بصيغة الأمر- القيام بفعل الكلام المتمثّل في إنشاء المحادثة وفق شروط معيّنة على مدار سيرورة ليالي السّمر القادمة بقوله: " فأجبني عن ذلك كلِّه باسترسال، وسكون بالٍ، بمِلءِ فِيْك، وجمِّ خاطرك، وحاضر علمك، ودَعْ عنك تفنّن البغداديين مع عفو لفظك، وزائدِ رَأيك، ورِبْحِ ذِهنك، ولا تَجبُنَ جُبنَ الضّعفاء، ولا تَتأطّر تَأطُّر الأغبياء، واجزِم إذا قلت، وبالغ إذا وصفت، وأُصدق إذا أسندت، افصِل إذا حَكمت، إلاّ إذا عَرَض لك ما يُجبُ توقّفًا أو تهاديًا "[1]. هذه مُجمل الأفعال التّوجيهيّة الصّادرة من المتكلّم وهو الوزير في سياق مقام التّواصل، وفق حوار تداوليّ يعرض فيه شروط فيه شروط المحادثة، ويوجّهه إلى ما يجب أن يكون عليه أثناء اتّخاذه زمام أمور الحديث، والكلام عن مختلف المواضيع الّتي سوف تُطرح بينهما. ضمن ذلك المحتوى الكلامي الصّادر منه، ويتضمّن أفعالا دالّةً على الطّلب بصيغة الأمر: "أجِب، دَعْ، لاَ تَجبُنْ، اجْزِم، بَالغ، أُصدُق، افصِل." غرضها الفعليّ هو حمل المخاطَب وهو المبدع على أداء الفعل الإنجازيّ، والتّأثير فيه من خلاله خطاب الوزير الّذي يطلب فيه، ويتطلّع إلى ما يجب أن يكون عليه فعل المحادثة، كما تهدف هذه الأفعال إلى إحداث وَقع في نفس المتلقّي والتّأثير فيه لإنجاز الفعل الكلاميّ المرجو.

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص30.

كما أنّ جلّ هذه الأفعال تُعادلُ لفظ " أَطْلُبُ منك..."، بحُكم أنّها جميعها دالّة على الطّلب.إنّ قول الوزير يتضمّن أوّلا: فعل التّلفّظ، وهو الفعل التّعبيريّ، والّذي يتجسّد في تلك الكلمات المفيدة داخل أنساق وتراكيب طِبقًا لنظام اللّغة، والّتي بدورها توحي بمدلولات عميقة المعنى والهدف والمَطلب، أظهرت جانيا بلاغيّا، كان توظيف خاصيّة موسيقى النّثر، وهي السّجع أقرب إلى الذّهن.

ثانيّا: فالفعل المتضمّن في القول: فيكمن في طلب " المحادثة"، ومن خلالها يُنجز فعل الجواب على كلّ سؤال بطريقة لغويّة بلاغيّة، فهو بذلك يصبو إلى تحقيق وظيفة تواصليّة، يكون الصّدق أساسها، والفصل في القول والحديث مُبتغًى لها.

ثالثًا: وبالنّسبة للفعل النّاتج عن ذلك القول: فيتمثّل في الفعل التّأثيريّ الّذي ينجُمُ عنه إنجاز الفعل من طرف المبدع، وجسّده ذلك الخطاب السّرديّ الّذي تضمّن كلّ الإجابات عن كلّ التّساؤلات الصّادرة من الوزير في شتّى مجالات الحياة، والمعرفة الإنسانيّة. وبهذا فالفعل الكلاميّ تحقّق على مستوى أقسامه الثّلاث، ونبيّن ذلك في المخطّط الآتي:

فعل القول: فعل الطّلب

* **فعل القول:**" الفعل اللّفظيّ التّعبيريّ": ملفوظات صدرت من المتكلّم، وفق نظام لغوي بلاغيّ مُحكم، يوحي بمدلولات عميقة المعنى والهدف.

* **الفعل المتضمّن في القول:**"الفعل الإنجازيّ": ويتمثّل في طلب إنجاز الفعل، وهو الجواب، وإنجاح المحادثة.

* **الفعل النّاتج عن القول:**"الفعل التّأثيريّ": ويتمثّل في إنجاز الفعل من طرف المبدع، والإجابة على كلّ تساؤلات "المتكلّم"، فنتج عن ذلك خطاب سرديّ معرفيّ.

الأفعال التّوجيهيّة هي الأفعال الّتي تدلّ على الطّلب بصيغة الأمر، تتضمّن في محتواها التّوجيه لفعل أمر ما، فالمتكلّم "الوزير" يتمتّع بسلطة الآمر، فيطلب من المبدع أن يسرد له معارف وعلوم عصره، ويزوّده بها. وفق شروط لغويّة تخضع للمقام التّواصليّ، وتحمل ضمن معانيها قوّة اللّفظ، وجانب الفعل الوظيفي فيه، والقصد من خلال ذلك كلّه التّأثير في المتلقّي، وتحقيق الوظيفة التّوجيهيّة من خلال الخطاب المعرفيّ.

يستمرّ إنتاج الخطاب وفق حوار تواصليّ تداوليّ مبنيّ على مقاصد معرفيّة، تقع على عاتق المبدع ليقوم بإنجازها، ففي سرديّة التّوحيديّ، تتحقّق المحادثة على غِرار مجموعة من العناصر الهامّة، منها سلطة المرسل إليه، والمبدع الّذي له القدرة على تحقيق فعل التّوجيه، والّذي يتوقّف على قوّة إنجاز الفعل، وتحقيق استمرار الخطاب التّواصليّ بينهما.

ومنها المعرفة المشتركة الّتي يسّرت البوح، وسَلاسةِ التّواصل بينهما ، وجعلت المبدع يواصل خطابه التّوجيهيّ بإنجاز الفعل المطلوب من طرف المتلقّي، هذا الأخير يسعى إلى تحقيق مُراده في الجواب الشّافي الوافيّ، بقوله: " قُلْ -عفاك الله- ما بَدَا لك، فأنت المُجاب إليه ما دُمت ضامنا لبلوغِ إرادتنا منك، وإصابةِ غرضنا بك. قلت: يُؤذن لي في كاف المُخاطبة، وتاء المُواجهة،..." [1]، و" قُلْ واتّسعْ مُجاهرا بما عندك، مُنْفِقًا ممَّا معك" [2]، لقد تكرّر الفعل التّوجيهيّ "قُلْ"، وتكرّر الأمر هذا على مدار الخطاب التّواصليّ التّداوليّ بين طرفيّ الحوار، يُوحي بتأكيد الطّلب، وإصرار المتكلّم في أن يتزوّد بمختلف المعارف الّتي يحتضنها ويتزوّد بها ذهن المبدع، ضمن تواصل معرفيّ تحقّقت من خلاله قوّة إنجاز الفعل، وتفاعل الطّرفين، كانت نتيجة ذلك نُشوء فعل تأثيريّ، ينطوي على رغبة الوزير المتكرّرة، والمستمرّة في طلب التّثقيف، والحصول على المعرفة، تُعادلها في الوقت نفسه رغبةً أخرى تخصّ جانب المبدع، وتتمثّل في محاولة توجيه الوزير وإصلاحه بما يُمكن أن يكون عليه، ويعمل بها في حياته.

1 - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص31.
2 - المصدر نفسه، ص112.

هذا الطّلب الصّريح لم يتعدّ أكثر من قصد المتكلّم إلى طلب استمرار المحادثة بينهما، وهذه المهمّة تقع على عاتق المبدع، للبوح بمعارفه وفكره، وهذا يَتمّ في نظره بطلب الاستئذان بفعل " يُؤذن لي"، وإنجازه بشرط منحه حريّة قول ما يشاء دون قيود تُذكر.

الفعل التّوجيهيّ "قُلْ" لفظ صدر من الوزير بصيغة الطّلب في سياقٍ تواصليّ، أخذ فيه منزلة الآمر، والمبدع في فضاء مجلس الوزير، وتحت سُلطته، ومع ذلك فالغرض التّأثيريّ تحقّق بفعل أنّ الطّرف الآخر استجاب للطّلب، وبادر في الاسترسال في الحديث عن المعرفة وفروعها، ومجالات العلم في شتّى مناحي الحياة. بمرجعيّة أنّ الطّلب مقبول، ومُتّفق عليه ضمن استراتيجيّة الشّروط الموضوعة مسبقا بين طرفي الحوار. لذا حقّقت قوّة الطّلب المراد، وباشر المبدع في إخباره لتحقيق مبتغاه، وهذا كلّه فعّل قوّة إنجاز الفعل، واستمرار الخطاب التّواصليّ في السّياق المقاميّ بين الطّرفين.

"الإمتاع والمؤانسة" خطاب يقوم على تداول الكلام ضمن سياق حوار ي تواصلي بين التّوحيديّ والوزير، تعكسه تلك المحادثات الّتي أثرت الخطاب السّردي الّذي يقوم فيه المبدع بسرد معارف عصره، وبيان أصحاب تلك المعارف، بوصفهم وذكر مميّزات التّخصّص العلميّ لديهم، وهم العلماء والمفكّرون الّذين قرأ لهم، واطّلع على أقوالهم، فمنهم من عرفه وأخذ عنه ثقافة العصر وعلومه، والوزير يُدرك جيّدا أنّ هذا الكمّ المعرفيّ موجود في ذهن التّوحيديّ. لذا نراه يُصرّ على أن يُزوّده بمعارف هؤلاء؛ لأنّه يتطلّع بشغف وحبّ شديد لمعرفة ذلك، فيطلب منه الحديث عن بعض الفِكر الفلسفيّة، كالنّفس وعلاقتها بالإنسان، بقوله: " حدّثني عن مذاهبهم في النّفس، وما يقولون فيها، وإلى أين ينتهون من يقينهم بشأنها، وكيف ثقتُهم ببقائها بعد فناء أبدانها؟ فقلت:.." [1]. طلب بصيغة لغويّة بلاغيّة، يحمل مدلولا فلسفيّا، يُراد به معرفة ما يقوله هؤلاء بخصوص شأن النفّس وخباياها. والفعل المتضمّن في الفعل الإنجازي لدى المبدع، أخذ أبعادا فلسفيّة تتضمّن قوّة إنجازيّة للفعل ما بين شرح كلام هؤلاء، وبيان آرائهم حول موضوع النّفس ومجال اتّفاقهم واختلافهم فيها، فنتج عن هذا الفعل الكلاميّ فعلا تأثيريّا صدر من المتكلّم، وجعله يستحسن الأمر.

---

[1] - المصدر السّابق، الجزء الأوّل، ص41.

ومن فرط إعجابه بالخبر والمحادثة بينهما أبدى شعور التّأثّر والاستحسان، بقوله: " هذا حسنٌ...، هذا في الحُسنِ نهاية " [1]. على اعتبار أنّه أدّى مراده. بسبب قوّة إنجاز الفعل الّتي حقّقها المبدع لقدرته على ذلك.

ويستمرّ الحديث عن طلب العلم، والتّزوّد من خلال ما يُقرّه السّارد عن هؤلاء، بقوله: "أُنثُر علينا دُرَر هذه الطّائفة الّتي نَمِيل إليها بالاعتقاد، وإنْ كُنّا نقع دونها بالاجتهاد.." [2]. ففعلُ القول يتجسّد في اطّلاع المتكلّم لألفاظ تحمل بين جَنَبَاتِها وطيّاتها معنًى ضمنيّا غير مباشر، بفعل الطّلب "أُنثُر..."، بعبارة تتضمّن صيغة الأمر، توحي بكلام يقصد من ورائه المتكلّم أنّه مهما كان مستوى هؤلاء، فإنّه يتّفق معهم في جانب الاعتقاد، لكنّه لا يستطيع أن يُجاريهم في مجال العلم والمعرفة. لكنّ المبدع أنجز من خلال ذلك فعلا يحمل قوّة إنجازيّة إخباريّة؛ بحكم أنّه استطاع أن يسرد له ما يتمتّع به هؤلاء من علوم وآراء فكريّة وثقافيّة. والّتي يصبو إليها المتكلّم من خلال فعل التّوجيه. والّذي تحقّق عن طريقه فعل الإنجاز.

إنّ تلك الأفعال التّوجيهيّة الّتي يتضمّنها الخطاب السّرديّ، بصيغة الأمر وغرضها طلب إنجاز الفعل، والّتي تدخل في غمار وزُمرة الكلام الضّمنيّ، بالإضافة إلى مدى قوّة الطّلب؛ أي قوّة الأفعال التّوجيهيّة صادرة من السّلطة. ومع ذلك فإنّها لا تُعيق مسار المبدع، بل بالعكس تزيد قوّة إنجازه للفعل، وتحقيق الغرض الإنجازيّ من الطّلب. وبذلك يُحقّق التّأثير في المتلقّي، بتحقيق وظيفة نفعيّة تواصليّة.

التّوحيديّ يصنع الفارق في خطابه بينه وبين جميع خطابات السّرد في عصره، على اعتبار أنّ خطابه يتضمّن الفعل التّعبيريّ، والمتمثّل في التّعبير اللّغوي لديه في مقام الحوار، ومحاولته تحقيق الفعل الوظيفي للكلام في إطار سياق التّواصل بينه وبين السّامع، بتفعيل قوّة الفعل الإنجازيّ التّواصلي؛ أي تحقيق الوظيفة التّواصليّة، إلى جانب أنّ قوّة الأفعال لديه، يَنجُم عنها الجانب التّأثيريّ؛ أي فعل التّأثير في المتلقّي. ونقصد هذا أنّ هذا الأخير في كلّ مرّة يُبدي انطباعه وشعوره تجاه الكلام المسموع، وهذا في حدّ ذاته يعدّ فعلا إنجازيّا يهدف إليه المبدع ضمن السّياق الحواريّ بينهما.

---

[1] - المصدر السّابق، الجزء الأوّل، ص43.

[2] - نفسه، ص166.

السّارد يضطلع إلى إنشاء خطاب ثقافيّ مشترك، تجاوز فيه جانب اللّغة الّذي برع في نسج بيانها وبلاغتها، إلى تحقيق متعة السّمر والأنس لدى المتلقّي، وذلك من خلال التّواصل الكلامي بينهما، وكذلك بواسطة أفعال الطّلب الّتي فعّلت سيرورة واستمرار المحادثة، وبعثت في نفس المتكلّم " الوزير" الإصرار على كتابة تلك الأقوال، نظرا لكونه يفضّل قراءتها في المستقبل، والاستمتاع بما يوجد فيها من مضامين معرفيّة وبلاغيّة وتوجيهيّة...، والحقيقة أنّ أقوال المبدع بحقّ تبعث في نفس القارئ المُتعة لبلاغة وغِنَى معانيها، وبيان لغتها، ونظرا لهذا الجانب المُميّز في لغة المبدع، فإنّ المتلقّي يطلب كتابة تلك المحادثة والاستمتاع بقراءتها. وهذا دليل على مدى تأثّره بهذه الخطابات الّتي أراد الاستفادة منها. إذْ أنّه لم يكتف بالسّماع في سياق المقام التّواصليّ الحيّ والمباشر بينه وبين المبدع، بل طلب التّدوين، وهذا يدلّ على أنّ فعل التّلفّظ والقول، استطاع أن يحقّق الفعل الإنجازيّ بجدارة، وهذا الفعل الإنجازيّ حقّق أغراضا ووظائف تعليميّة وتوجيهيّة، تُثبتُ بدورها استمرار التّواصل والإمتاع بينهما. كما في قوله: " أنسُخْ لي رسالة من المُسودّة " [1]، و " أجِدْ تحريرها وعليَّ بها، قلت: السّمع والطّاعة " [2]، و " اِجمعْ لي حروفا نظائر لهذه اللّغة، واشرحْ ما ندر منها، وعرض الشكّ لكثير من النّاس فيها، فقلت: " السّمع والطّاعة مع الشّرف بالخدمة " [3] ، و " إذا فرغت فأضفْ لي جُزءًا أو جُزءين، أو ما سَاعدك عليه النّشاط، فإنّ مَوضعها يَحسُن، وذكرها يجمُلُ، وأثرها يبقى، وفائدتها تُروى، وعاقبتها تُحمدُ. فقلت: السّمع والطّاعة " [4] ،و" فاجمعْ لي فقَرًا من هذا الضّرب الّذي مرّ من حديث " [5] تعدّ الكلمات: " أُنسخ، أجدْ، اِجمعْ، اِشرحْ، أضفْ"، من أفعال الطّلب، لِما تضمّنته من تحقيق إجابة لدى السّامع ، خاصّة إذا تميّزت هاته الملفوظات بقوّة الطّلب ، وهذه صفة للأفعال

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص53.

[2] - المصدر نفسه، ص57.

[3] - نفسه، الجزء الثّانيّ، ص178.

[4] - نفسه، ص228.

[5] - نفسه، ص296.

التّوجيهيّة الّتي تُبَثّ في مقام التّواصل، وتكون فيه الكلمة للسّلطة، المتمثّلة في الآمر، فما على المأمور إلاّ أن يستجيب ، ويُجيب على الطّلب.

الخطابات الطّلبيّة موجّهة لذات معلومة في الحوار التّواصليّ المباشر، وذلك بطلب الفعل بالضّمير المستتر" أنت" ، ويلتمس فيه تحقيق فعل إنجازيّ يتمثّل في فعل " الكتابة "، أي كتابة المحادثة الّتي جرت بينهما.وهو يهفو إلى إنجاز هذا الفعل من طرف المبدع، راجيا أن تُحقّق له مِلكيّة الحديث ماديّا في مُدوّنة.

المبدع بدوره صدر منه فعلا إنجازيّا، يسبقه فعل الرّضا والموافقة على حصول الطّلب، بلفظ: "السّمع والطّاعة"، الدّال على القبول من طرفه، وهي عبارة تمهيديّة لفعل الإنجاز، مفادها أنّ الطّلب سوف يتحقّق في المستقبل القريب. وهذا ما تدلّ عليه أفعال التّوجيه الصّادرة من المتكلّم، والّتي تُعبّر عمّا يريد أن يُحقّقه، ومحاولة التّأثير في المبدع ليقوم بالفعل الإنجازيّ لاحِقًا، قبل الشّروع في محادثة أخرى، في ليلة قادمة.

تظلّ هذه الأفعال التّوجيهيّة تتضمّن أغراضا وصِيغا طلبيّة في سرديّة التّوحيديّ، والّتي استطاع أن يُحقّق فيها أفعالا إنجازيّة بمحتواها المعرفيّ والفكريّ والبلاغيّ. وما تركته هذه الخطابات الفكريّة المتنوّعة من تأثير في السّامع ضمن إطار المقام التّداوليّ الّذي حقّق متعة الحديث من جانبها التّواصليّ، والأنس والإمتاع من جانب آخر.

كما ورد في خطاب " الإمتاع والمؤانسة" عبارة ما أسماه ب " مُلحة الوداع"، أو "خاتمة المجلس"، هذه الجملة القوليّة ورَدَت في نهاية مُعظم اللّيالي، أي وظّفها الكاتب في العديد من اللّيالي، والّتي صدرت من المتلقّي عندما يَحينُ وقت فُراقه في نهاية ليل السّمر، فيحاول أن يُنبّه المبدع بطريقة حضاريّة، تُوحي ببلوغ وتجاوز الوقت حدّه، والتّعب نال منه، فيأمُرُه بعبارات: " هاتِ مُلحة الوداع حتّى نفترق عنها، ثمّ نأخُذ ليلة أخرى في شُجون الحديث " [1]، و " هاتِ خاتمة المجلس" [2]، بلفظ "هاتِ"، وهو اسم فعل أمر بمعنى "أَعْطِ"، جاء بصيغة الطّلب، كفعل توجيهيّ غرضه تحقيق فعل الإنجاز. إنّها صيغة تتضمّن فعل الطّلب والجواب، كما توحي بالمتعة المعرفيّة الّتي حقّقها وأنجزها المبدع خلال

---

[1] - المصدر السّابق، الجزء الأوّل، ص36.

[2] - نفسه، ص43.

صيرورة السّياق المقاميّ التّداوليّ، كما تتضمّن وظيفة معرفيّة، لأنّ فعل التّلفّظ والقول المتمثّل في " المُلحة"، يتطلّب بدوره فعلا إنجازيّا، يصدر من المبدع، وعادة ما يحمل سِمةً معرفيّة على شكل نادرة أو قصّة، أو من فنّ النّظم، والغرض منها التّرفيه والتّرويح عن نفس المتلقّي، وتحقيق فعل التّأثير لديه، ويتجسّد في فعل الضّحك والاستمتاع ، كما يبعث فيه فعل الاستعداد للتّفكير في سؤال جديد يستفتحُ به المجلس القادم، ويتمثّل في الصّيغة الاستفهاميّة.

الاستفهام والإنجاز:

يُعدّ الاستفهام من الوسائل اللّغويّة المُعتمدة في استراتيجيّة التّوجيه لدى التّوحيديّ ضمن خطابه السّرديّ، كما يُعتبر الاستفهام من الأساليب التّعبيريّة الّتي تهتمّ بها الدّراسة التّداوليّة، لكونه أسلوب يرتبط باستعمال اللّغة في سياق التّواصل الحواريّ بين المتكلّم والسّامع في سياق تواصليّ محدّد.

إنّ الوظيفة التّواصليّة هي نظام سطّره السأّرد في الخطاب، بمُوجب الاتّفاق المعقود مسبقا، بين طرفي التّخاطب، ويستند إلى تقنيّة الحوار، المبنيّ على طريقة وثنائيّة "السّؤال والجواب". هذه الخاصيّة منحت فُرصة ومساحة أكبر للتّواصل، وذلك عن طريق إثارة الأسئلة الوجيهة الّتي بدورها استطاعت أن تُفجّر المعرفة المُستوحاة من القرن الرّابع الهجريّ. والّتي تخصّ جوانب المعرفة الفكريّة والفلسفيّة وجانب البلاغة ضمن فنون النّثر والنّظم. كلّ هذه الأسئلة المطروحة على طاولة السّمر في مجلس الوزير، مكّنت من بلوغ فعل الإنجاز، والمتمثّل في الطّرح الفكري، والحقيقة المعرفيّة، الصّادرة من المبدع، والتّي ألهمت بدورها فعل التّأثير في المتلقّي بتوجيهه، وبَعث جوانب التّعجّب والإعجاب، والرّضا والاستحسان فيه.

لهذا كلّه فالاستفهام يُعدّ آليّة لغويّة توجيهيّة يستعملها المُرسِل لغرض " السّيطرة على مُجريات، بل للسّيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسِل، لا حسب ما يريده الآخرون، وتعدّ الأسئلة، خُصوصا الأسئلة المُغلقة من أهمّ الأدوات اللّغويّة لاستراتيجيّة التّوجيه " [1]، وتحقيق رغبة السّائل. وهذا الاستفهام يستلزم بدوره جوابا من طرف المسؤول يرقى إلى مستوى المقام التّواصليّ؛ أي يكون مناسبا للمتلقّي الّذي لا يقلّ عنه معرفة وحكمة.

الخطاب السّرديّ التّوحيديّ بُني على سؤال الّذي يصدر من الوزير في معظم ليالي السّمر؛ إذْ أنّه في كلّ ليلة يطلب الاستخبار عن قضيّة ما، يريد أن يعرف سرّها وكُنه وُجودها، ويريد أن يُجيبه المبدع عنها، من خلال عرضه لفكر وثقافة العصر وعصور سبقته.

---

[1] ـ عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليّة، ص352.

ومن خلال هذا كلّه نرى بأنّ الخطاب السّرديّ يتضمّن مجموعة من الأفعال الكلاميّة الّتي تنمو وتتطوّر وفق سيرورة السّرد المتواصل عن طريق وظيفة السّؤال وفعل الجواب فيه، والّذي يفعّله ويزيح عنه الغموض، هو ذلك البوح الغالب على الصّمت، والتّعبير بلغة بلاغيّة إبداعيّة تزيد وتضيف على تلك المعارف التّجديد وإحيائها من جديد في المجلس الحواريّ المباشر بين المبدع والمتلقّي. وكلّ ذلك عبر فعل "القول الاستفهاميّ"، أو فعل التّلفّظ بالسّؤال.والّذي يتطلّب بدوره الفعل الإنجازي المطلوب، وذلك بحسب قوّة الفعل التّعبيريّ. كما في قوله: " ثُمّ حضرت ليلة أخرى، فأوّل ما فاتح به المجلس أن قال: أتُفضّل العرب، أم العجم على العرب؟ " [1]. السّؤال يظهر على مستوى بنية الخطاب بهمزة الاستفهام "أ"، وغرضه تحقيق الخبر وإنجاز الفعل، على مدار التّواصل في كلّ نهاية ليلى السّمر. والّتي تحمل سؤالا في مطلعها وتنهيه بالإجابة الوافيّة وإنجاز فعل الكلام من طرف المبدع، على اعتبار أنّه يحمل قضيّة حجاجيّة، تدعو إلى الوقوف على مضامينها، لتحقيق الفعل الإنجازيّ وهو الإقناع.

لذا فقد يخرج الاستفهام عن مراده الحقيقيّ من خلال صياغة معانيه وألفاظه في بنية الخطاب، لذا فالمتكلّم لا يطلب الإفهام، بقدر ما يصبو إلى أن يعرف أهمّ الحجج الّتي تُثبت الأفضليّة لأحدهما. كما استطاع المتلقّي أن يستدرج المبدع، لأنّه لم يكتف برأي "ابن المقفّع"، بل عليه أن يُقرّ بما يمتلكه من معارف تُؤيّدُ الرّأي وتُثبتُه.

وعلى هذا فالاستفهام لم يكن يقصد من خلاله المتلقّي فعلا قوليّا بصيغة: نعم أو لا، بقدر ما يريد ويطلب منه إنجاز فعل كلاميّ، لإشباع ذهنه بتلك المعرفة. كما في قوله: " كنت حكيت لي أنّ العامريّ صنّف كتابا عنونه: بإنقاذ البشر من الجبر والقدر، فكيف هذا الكتاب. فقلت:.." [2]، تظهر قوّة اللّفظ التّواصليّة للسّؤال البلاغيّ أنّها تتعدّى الفهم المباشر له، والّذي يُظهر إرادة قويّة في وصف مضامين الكتاب، أي إنجاز فعل الوصف، وهذا جانب يَعيه السّائل، لكنّه في الوقت نفسه يتعدّى قصديّة هذا المعنى، إلى معنًى ضمنيّ آخر بلفظ

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص64.
[2] - المصدر نفسه، ص170.

"كيف؟"، وهذا يُفضي إلى إجابة، إلى تحقيق فعل إنجازيّ متضمّن في القول، وإذا خضع لخاصيّة التّأويل فإنّه يتعدّى الكلام الظّاهر إلى كلام خفي، وهو أنّه يريد أن يُبدي له رأيه حول قضيّة فلسفيّة، وهي "الجبرُ والاختيار"، والّتي نالت حظّها من الصّراع الفكريّ، في ليلة من ليالي السّمر.

فمن خلال الاستفهام الّذي يحمل تضمينات قوليّة في بنيه الخطاب، أي مقاصد غير مباشرة، فإنّه يُحقّق العصف الذّهنيّ للمبدع، إذْ يُبدي من خلاله آرائه وآراء غيره بكلّ تفانٍ وخبرة لا متناهيّة في مجال الفلسفة المعرفيّة. ويساهم في تنامي السّرد على طريقة التّواصل التّداوليّ، وتحقيق الجانب المعرفي، وبذلك يتحقّق الفعل الإنجازيّ من طرف المبدع، الّذي أنجز عن طريق قوّة اللّفظ الوظيفيّة، والغرض منه التّأثير في السّامع، هذا الأخير الّذي يُبدي رأيه متأثّرا بقول السّارد: " هذا فنٌّ حسنٌ " [1]، يدلّ على قوّة الفعل الكلامي، والّذي ينتج عنه فعل التّأثيريّ في المتلقّي.

الاستفهام البلاغيّ الدّال على قوّة الفعل الإنجازيّ، اكتسح مساحة واسعة من الخطاب السّرديّ، ويظهر ذلك في جُلّ المناظرات الّتي تنمّ عن بلاغة القول الّتي تحقّقت على إثرها الوظيفة الحجاجيّة، بواسطة الفعل الإنجازيّ الوظيفيّ خلال التّواصل الحواريّ بين أطراف الكلام، والّتي أثارت بدورها تحقيق الفعل التّعبيريّ القوليّ المتمثّل في مجموع الآراء الفلسفيّة حول المواضيع المطروحة، هذا التّعبير اللّغويّ يُؤدّي إلى تحقيق فعل الإنجاز ضمن الوظيفة التّواصليّة، والّذي يُرجّح القول الصّحيح، وإفشال الضّعيف منه. قال:" فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوةً تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشّريعة...، فأين الدّين من الفلسفة؟ وأين الشّيء المأخوذ بالوحيّ النّازل، من الشّيء المأخوذ بالرّأي الزّائل؟ " [2]. قضايا فلسفيّة أُثيرت في الخطاب، وأخذت فيه مساحة واسعة، كان تحقيق الفعل الإنجازي من طرف المتلقّي يقع على عاتق المبدع في إطار التّواصل

---

[1] - المصدر السّابق، الجزء الأوّل، ص171.

[2] - نفسه، الجزء الثّانيّ، ص182-183.

الحواري بينهما، والّذي أبدع في مناقشة وطرح قضيّة الدّين والفلسفة بذكر وتفصيل آراء علماء، وفلاسفة عصره وعصور سبقته، هذا الفعل الوظيفيّ الإنجازيّ حقّق الفعل التّأثيريّ في المتلقّي، وجعله ذلك يُبدي رأيه تجاه ما سمعه من كلام، بقوله: " هذا كلام عجيبٌ ما سمعت مثله على هذا الشّرح والتّفصيل " [1]. إنّه الفعل الإنجازيّ الّذي يُنجز عبر قوّة اللّفظ التّواصليّة، والّذي ينجرّ عنها اللّفظ التّأثيريّ الصّادر من المتلقّي . من خلال الفعل التّعبيريّ في الخطاب السّرديّ، وهذا القول يتجسّد في صيغة الاستفهام الّتي استمرتّ طيلة أربعين ليلة، استطاعت أن تحقّق أفعال الإنجاز على مستوى الخطاب، ضمن إطار السّياق الحواري، والّذي فعّلته الوظيفة التّواصليّة فيه.

لذا كان الاستفهام يخدم وظيفة المحادثة، ويثيرها بتلك المعارف الّتي تعكس أفكار المبدع ومعارفه المتنوّعة الّتي يهدف من خلالها توجيه المتلقّي إلى سلوك معيّن، أو بتثبيت فكرة لديه، ومحاولة إصلاحه فكريّا وواقعيّا، لذا كان للاستفهام دورٌ كبيرٌ في السّماح إلى مُرور معارف المبدع عبر الواقع، سواء عن طريق تحقيق الفعل الوظيفي التّأثيريّ في المتلقّي وبعثه على تغيير آرائه، وإبداء الرّضا والموافقة على كلامه، أو من ناحيّة تشكيل خطاب سرديّ حواريّ تواصلي فريد من نوعه.كان صِيته ومحتواه المعرفي والفلسفي، أقل من أن نعتبره موسوعة القرن الرّابع الهجريّ.

الوزير يوجّه سؤالا في مقام تواصليّ، محاولةً منه إثارة السّارد ودفعه على الاستجابة، وتحقيق قوّة فعل الإنجاز القوليّة، عن طريق الاستخبار عن قضيّته المطروحة على طاولة النّقاش، والّتي يُمرّرها إلى ذهن المبدع، ويرسلها له عبر المجلس مباشرة، ليقوم بفعل الإنجاز المتمثّل في فعل القول المعرفيّ والثّقافيّ، وهذا بدوره يُضفي إلى تزويد السّائل بمجموع المعارف، أو ترتيب أفكاره، أو تصحيحها، أو توجيهه توجيها صائبا وصحيحا، بواسطة تلك الخطابات المعرفيّة الّتي تبعث فيه الدّهشة والتّعجب، وتفاجئه، وبالتّالي فكلّ ذلك يبعث فيه التّأثير بواسطة قوّة إنجاز الفعل. وهكذا تتكرّر الصّيغة الاستفهاميّة طيلة الخطاب السّرديّ، وكلّ سؤال يتولّد عنه جواب، وكلّ فعل تعبيري لغويّ ينجم عنه فعل إنجازي معرفيّ، له وظيفة تعليميّة ومعرفيّة تطبعها بلاغة الإبداع والإمتاع.

---

[1]- المصدر السّابق، ص193.

الوظيفة الإخباريّة:

الأفعال الكلاميّة الّتي تدلّ على الإخبار أثناء عمليّة التّلفّظ في التّواصل التّداوليّ بين طرفي الحوار، بحيث يصدر من المتكلّم ألفاظا تؤدّي وظيفة معيّنة، القصد منها التّأثير في المتلقّي. هي أفعال الإخبار الّتي تُحقّق الفعل الإنجازيّ، وتتمثّل في إخبار المخاطَب وتزويده بالمعلومات، وبما لا يعرفه. فالجملة الإخباريّة " هي الجملة الّتي تُقرّر خبرا، وتختلف عن كلّ من الجملة الاستفهاميّة والتّعجّبيّة والطّلبيّة "[1]. فقانون الإخبار شرط يخضع له كلّ لفظ يهدف إلى إخبار السّامع، وإفادته بما لا يعرف، أو محاولة منه تثبيت فكرة أو قول لديه. لذا فهو فعل يتعدّى الإعلام والوصف إلى تحقيق وظيفة تأثيريّة في المتلقّي وفق السّياق التّواصليّ التّداولي بين أطراف الحوار. هذا المقام التّواصليّ، والّذي تتوفّر فيه العناصر السّياقيّة، يحقّق القوّة الإنجازيّة للأفعال الكلاميّة الإخباريّة.

هذه الأفعال لا يقصد بها أداء التّلفّظ، أي الفعل التّعبيري اللّغويّ فقط، بقدر ما يُقصد بها الوصف والتّقرير والإخبار عن مختلف الأحداث والمعارف في العالم الخارجيّ، سواء بالإخبار عن وقائع فيما مضى أو في الحاضر. لأنّ " الوظيفة الأولى لتلك الأفعال هي أن تحمل إلى المرسل إليه خبرا ما "[2]، ونقل تلك الأخبار يُوجب ويشترط جانب الصّدق فيها. والقصد في الإبلاغ لتحقيق الفعل الإنجازيّ والتّأثير في المتلقّي. وأن تكون تلك الأخبار تخصّ العالم المحيط به، وتحمل جانبا من المصداقيّة، لأنّ لكلّ خبر قصدٌ لدى المتكلّم، إذا كان يصبو من خلاله إلى تحقيق وظيفة تأثيريّة في السّامع، وحمله على تقبّل ما يريد الإخبار عنه، لأنّ هذه الأفعال " تُبيّنُ ما يُؤمن به المتكلّم. إنّه الحالة أم لا. تمثّل جمل الحقيقة والجزم والاستنتاجات والأوصاف، إنّها تمثّل الحالة كما يعتقدها المتكلّم. وباستعمال تلك الأفعال يجعلُ المتكلّمُ الكلمات تلائم العالم "عالم الاعتقاد""[3]. ولذا فأفعال الكلام الّتي

---

[1] - مبارك مبارك،معجم المصطلحات الألسنيّة، دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، ط01، 1995م، ص71.

[2] - أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعيّ الجديد لعلوم اللّسان، ترجمة منذر عياشي، المركز الثّقافيّ العربيّ ، ص53.

[3] - جورج يول، التّداوليّة، ص89.

تدلّ على الإخبار تصدر من متكلّم يُؤمن بتلك الأقوال، ويعتقدها. وهذا الإيمان يجعل منه متكلّما صادقًا قدر الإمكان. لأنّ الصّدق في القول يُفعّل، ويُحقّق قوّة الإنجاز، على هذا يجب أنّ يكون الخبر حقيقيّا وصادقا.

الأفعال الكلاميّة الإخباريّة هي استراتيجيّة وضعها كلّ من المبدع والمتلقّي كخطّة وشرط مبدئيّ، كان له الدّور الكبير في بناء صرح الخطاب السّرديّ التّوحيديّ. بحيث يأخذ هذا الأخير فيه زمام الأمور، وذلك بإخبار وتزويد المتلقّي بمعارف وعلوم عصره، لينهض بعالمه الثّقافيّ، وهذا من خلال ما يحمله في ذهنه من فِكرٍ ورُؤًى فلسفيّة وبلاغيّة...، أراد أن يحصل عليها المتلقّي، هذا الّذي يُساوره شعور شغف التّعلّم وحبّ المعرفة، ومحاولة الاستحواذ على خباياها وفروعها وصحيحها من سقيمها من خلال المبدع الّذي لا شكّ أنّه مُلمّ بفروعها ومجالاتها.

هذه الوظيفة التّضامنيّة الّتي انبثقت بين الطّرفين، نتج عنها تحقيق "مبدأ التّعاون" بينهما، واتّفاق مضبوط فيما يخصّ السّياق التّواصلي لسرد الأخبار والمعارف، ومن جهة ثانيّة تحديد نوع هذه الأخبار، والّتي سيطرت عليها سلطة المتلقّي، بِحكم أنّه هو من يبادر إلى طرح موضوع الحوار، ويُمّكِن المبدع من الاستطلاع عليه في مجلس السّمر، في سياق تواصليّ يساعد المتلقّي على إصدار مجموع الاستفسارات والملاحظات والتّساؤلات الّتي فَرضَت على المبدع نوع الخبر، والغرض الإنجازيّ منه.

ولذا فالمتلقّي لعب دورا أساسيّا في ضبط نوع الأفعال الإخباريّة، والّتي حصرها في مجال المعرفة والفلسفة الإنسانيّة. هذه الأفعال الإخباريّة نهضت بفكر القرن الرّابع الهجريّ، واستوعبت جميع فروعه المعرفيّة في خطاب التّوحيديّ، كما كان لها التّأثير الجليّ في نفسيّة السّامع، ومبادرته إلى التّعبير عمّا يُخالجه في نفسه، وهي " أنواع أفعال الكلام، تلك الّتي تُبيّن ما يشعر به المتكلّم، وهي تعبّر عن حالات نفسيّة. وتتّخذ شكل جُمل تعبّر عن سرور أو ألَم أو فرح..." [1]؛ أي أنّ أفعال الإخبار تبثّ في المتلقّي التّأثير والتّأثّر في نفسه، نتيجة لمدى قوّة إنجاز الفعل، وتحقيق الرّضا لدى السّامع. ويظهر ذلك في طريقة السّارد

---

[1] - المرجع السّابق، ص90.

في عرض الأخبار، واستمرار إنتاج الخطاب بخلفيّة معرفيّة، مكّنته من سرد كلّ ما يتعلّق بعلماء عصره في جميع التّخصّصات ومجالات المعرفة المتنوّعة.

وهو يذكر صفاتهم وأخلاقهم، وثقافتهم في العلم ومعارف الحياة الإنسانيّة. بقوله: " وصف هؤلاء أمر متعذّر وباب من الكلفة شاقّ، وإنّما يصفهم من نال درجة كلّ واحد منهم، وأشرف بعد ذلك عليهم، فعرف حاصلهم وغائبهم، وموجودهم ومفقودهم...، إنّي أخدم بما عندي، وأبلغ فيه أقصى جهدي. أمّا شيخنا "أبو سليمان"، فإنّه أدقّهم نظرا، وأصفاهم فكرا، وأظفرهم بالدُّرر...، أمّا "ابن زرعة": فهو حسنُ التّرجمة، صحيح النّقل...، وأمّا "ابن الخمّار" ففصيح...، وأمّا "ابن السّمح"، وأمّا "القومسيّ أبو بكر"،وأمّا "مسكويه"، وأمّا "عيسى بن علي"، وأمّا "نظيف"، وأمّا "يحي بن عدي"، فقال: ما قصّرت في وصف هذه الطّائفة، وتقريب البغيّة الّتي كانت داخلة في نفسي منهم " [1]. السّياق الّذي وردت فيه هذه الإخباريات معلوم العناصر، بدءًا من السّامع والمتكلّم، هذا الأخير بادر إلى إخباره عن شخصيات بارزة في مجال العلم والبلاغة والأدب. لقد مارس السّارد أقوالهم ضمن وعبر خطاباته الإخباريّة والحجاجيّة أثناء تنامي الخطاب السّردي برّمته، مُعتمدا في ذلك على آرائهم، وخطاباتهم الحجاجيّة ضمن مواقفه الإخباريّة الّتي وظّفها لإقناع السّامع في سياق تواصليّ حواريّ بينهما ضمن ليالي السّمر.

ومن خلال الفعل التّعبيريّ اللّغويّ، والبنيّة النّصيّة المتمثّلة في أقوال المبدع عن تلك العصبة من العلماء، والّذي أعطى نُبذة عنهم، بوصفه لهم، وذكر مجال براعة كلّ واحد منهم، في سياق تواصليّ تداوليّ، استطاع أن يُظهر قوّة إنجاز الفعل الإخباريّ، بنفس قوّة السّؤال المطروح من طرف السّائل، فكان للمبدع كلمته الأخيرة في الإخبار عن هؤلاء، والّذي لم يتوقّف عند فعل الإخبار والوصف، بل تعدّاه إلى ذِكر خصالهم وأخلاقهم، وما مدى الانتفاع بعلمهم، ومعرفة توجّهاتهم المذهبيّة والعقائديّة من خلال إثراء ومناقشة موضوع "علم الكلام". كلّ هذا الخضمّ المعرفيّ أدىّ إلى إنجاز الفعل الإخباريّ، نتيجة قوّة اللّفظ الوظيفيّة التّواصليّة، والغرض منه التّأثير في السّامع، والذّي أبدى بدوره جانبا من

[1] - الإمتاع والمؤانسة،الجزء الأوّل، ص39-40.

التّفاعل والتّعاون والانسجام بينه وبين المبدع، نتج عنه التّأثير، وتحقيق الشّعور بالرّضا والاكتفاء بالخبر، وحصول درجة الإشباع الذّهني لديه بسبب تفاصيل ومجموع تلك الأخبار عن هؤلاء. وهذا يدلّ ويعكس قوّة إنجاز الفعل الكلاميّ.

السّادر مارس وظيفة الإخبار على أعلى مستوًى قد يتصوّره الذهن، وذلك بتحقيق الوظيفة الأساسيّة للخبر، وتتمثّل في بثّ المعرفة، وتوجيه المتلقّي إلى الاستفادة من الثّقافة السّائدة في عصره. والّتي لا تقتصر على استنتاجات ومعطيات منطقيّة وفكريّة، بل هي أفعال إخبار لمعطيات وضعيّة إنسانيّة تخصّ حياة الإنسان، كما تتميّز بطبيعة أخلاقيّة الغرض منها توجيه المتلقّي إلى سلوك فعليّ إنجازيّ. وتتمثّل أفعال الإخبار عن المعرفة الفلسفيّة، في جُلّ ما ذكره السّارد، وأخبرنا به عن تلك الخطابات الّتي تبيّن عُمق المعرفة الفلسفيّة في ذلك العصر. " فقلت: إنّ الكلام في النّفس صعب...، وقال بعض الفلاسفة: وجدنا النّاس متّفقين على أنّ النّفس لا تموت...، فقال: قد جرى في حديث النّفس أكثر ممّا كان في النّفس" [1]، و" كان الجواب: أنّ أبا سليمان قال: إنّ القضاء مصدره من العلم السّابق، والقدر مورده بالأجزاء الحادثة " [2]. " فقلت: إنّ أبا سليمان يقول: إنّ الفلسفة حقٌّ، لكنّها ليست من الشّريعة في شيء...، قال: هذا كلام عجيب، ما سمعت مثله على هذا النّحو والتّفصيل " [3]. ظهرت أفعال الإخبار في بنية لغويّة حازت على مساحة واسعة في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ، وتتمثّل في الإخبار عن قضايا الفلسفة والدّين والدّنيا. أراد المبدع أن يوضّح معالمها، وإعلام المخاطَب عن مدى اختلاف هؤلاء في الرّأي والحجّة، والغرض من ذلك تحقيق الوظيفة الحجاجيّة الّتي يصبو إليها المبدع عن طريق الأفعال الإخباريّة، والّتي بدورها حقّقت قوّة إنجاز الفعل بواسطة ما تضمّنته من معطيات فكريّة معرفيّة فاقت مرحلة الإخبار، وحازت على مرحلة إنجاز الفعل، ويتجسّد في تحقيق مستوى الإقناع ؛ إذ لم يكتف السّارد بما في ذهنه من معلومات ومعارف، استقاها واستحوذ عليها من خلال

---

[1] - المصدر السّابق، ص150.

[2] - نفسه، ص171.

[3] - نفسه، الجزء الثّانيّ، ص189.

قراءاته للعصر وعلوم القرن الرّابع الهجريّ، وحضور مجالس الفكر، واستيعاب أطروحات المعرفة فيه. بل تجاوز كلّ ذلك إلى الإدلاء برأي عالم موثوق في خبرته وآرائه في مجال الفلسفة، ألا وهو " أبو سليمان المنطقي"، لتحقيق قوّة إنجاز الفعل والّتي تتمثّل في إقناع المتلقّي.

إنّ أفعال الإخبار في خطاب "الإمتاع والمؤانسة"، بُنيت على جملة: " قلت"، وهو لفظ يحمل دلالة، ومقصديّة توحي بمعنًى وقول صادر من المتكلّم، يُبيّن من خلاله ما يُؤمن به، و يعتقده صحيحا، بدليل أنّه استشهد بكلام غيره للإدلاء والتّصريح بالخبر الّذي جرى في سياق تواصليّ واقعيّ. بالاستدلال بأفعال إخباريّة ضمنيّة ومباشرة، دالّة على الإثبات بواسطة أدوات التّوكيد على نحو"إنّ"، فكان هذا الاعتماد اللّغويّ ضمن أنساق وتراكيب الخطاب في السّياق الحواريّ التّداوليّ بين طرفي التّواصل اللّغويّ. دافعًا قويّا، منح الفعل القوليّ قوّة الإنجاز، فعّلت بدورها قوّة التّأثير، هذه القوّة الإنجازيّة تولّدت عنها وظيفة تعبيريّة تجسّدت في التّعبير عن الجانب النّفسيّ تجاه فعل القول اللّغويّ. هذا الفعل التّعبيريّ صدر من المتلقّي بسبب ذلك الشّعور الباعث على أنّ تلك الأفعال الإخباريّة حقّقت الكفاية في القصد والمعنى.

التّوحيديّ اعتمد في سرد الأخبار على إبراز أهمّ الاستنتاجات المتعلّقة بمجال الكلام، واللّغة وقواعدها وأصولها، وجانب التّنظير فيها من خلال المختصّين من العلماء الّذين خاضوا في البحث والحديث عنها، فأسهموا في بيان جوانبها البلاغيّة والإبداعيّة، مُعتمدا في ذلك على الأفعال الإخباريّة الّتي وظّفها المبدع لغرض إنجازيّ معرفيّ تواصليّ بينه وبين السّامع. بقوله: " وقال أبو سليمان: البلاغة ضروب، فمنها بلاغة الشّعر، ومنها بلاغة الخطابة، ومنها بلاغة النّثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التّأويل.فأمّا بلاغة الشّعر، فأن يكون نحوه مقبولا، والمعنى في كلّ ناحية مكشوفا، واللّفظ من الغريب بريئًا، والكناية لطيفة...، وأمّا بلاغة الخطابة... "[1]. إنّ الغرض الإنجازيّ لمثل هذه الأفعال الكلاميّة لا يتوقّف عند الإعلام والإخبار، بل يتعدّاه إلى

[1] ـ المصدر السّابق، ص280.

الاستفادة من علوم العصر، وبالتّالي حصول فعل الإنجاز، ويتمثّل في ترسيخ تلك المعرفة في ذهن المتلقّي ضمن سياق التّواصل المباشر بينه وبين المبدع. فيبني بذلك السّارد أفعال الكلام على أقوال غيره، لما فيها من صحّة واعتقاد ومصداقيّة بالنّسبة له. والّتي من خلالها يستطيع أن يُحقّق قوّة الفعل الإنجازيّ.

إنّ هذا الخطاب الّذي يتضمّن أفعالا إخباريّة دالّة على معاني اللّفظ والمعنى، وضروب البلاغة في أصناف القول من ناحية النّظم والنّثر، تبعث قوّة إنجازيّة مباشرة من خلال وصف صنوف الكلام البليغ، واستنباط محتوى وخصائص كلّ علم من تلك العلوم اللّغويّة على حِدى، وبيان نوع وقوّة الفعل الكلاميّ الّذي تجسّد فيما حقّقه السّارد من غرض إنجازيّ، فعلّ من خلاله "الفعل التّأثيريّ" لدى المتلقّي، وإجباره على إبداء الإعجاب بكلّ ما تلقّاه وسمعه ضمن مقام التّواصل بينهما.

المبدع لم يكتف بإنجاز الفعل الإخباريّ، بقدر ما استطاع أن يُنجز خطابا سرديّا وحواريّا، يحمل وظيفة بلاغيّة، ووظيفة تبليغ لها قيمة جماليّة فنيّة تعكس براعة التّأليف الأدبيّ الإبداعيّ عند المتكلّم، وعبر قوّة هذه الأفعال التّعبيريّة التّواصليّة، استطاع المبدع أن يحقّق "الفعل الإنجازيّ" الّذي بدوره حقّق فعل التّأثير في المتلقّي. وذلك بواسطة تلك الطّريقة الّتي عرض بها أفكاره، والمتمثّلة في تلك الصّياغة اللّغويّة، والنّسيج المُحكم البناء والمعنى والدّلالة البلاغيّة. كلّ ذلك انبثق عنه قوّة الفعل الإنجازيّ، هذا الفعل الوظيفي يُنجزُ عبر قوّة اللّفظ التواّصليّة، والّتي بعثها وفعّلها المبدع في سياق التّواصل الحيّ. وتتمثّل في قوّة اللّغة الإبداعيّة الّتي انتهجها التّوحيديّ في خطاب السّرديّ الّذي تعدّى به مرحلة الإخبار المعرفيّ إلى فعل إنجازيّ ملموس، القصد منه تغيير سلوك الوزير، وحمله على التّحلّي بالقيم الإنسانيّة، والّتي يكون بها، ومن خلالها الإنسان إنسانًا. ومن بين هذه القيم الّتي أراد الرّاوي الإخبار عنها بهدف توجيه السّامع، والتّأثير فيه، إذ يقوم بالمحادثة معه، فيحكي أحداثا جرت في الواقع في عهد الخليفة "المعتضد" ووزيره. حول ما صدر من الرّعيّة أثناء خوضهم في الحديث عن السّلطة. فلمّا عرض الخليفة ذلك، ضاق ذرعًا وامتلأ غيضًا...، فاستشار وزيره، فقال: " تتقدّم بأخذهم وصلب بعضهم، وإحراق بعضهم،

وتغريق بعضهم، فإنّ العقوبة إذا اختلفت، كان الهول أشدّ، والعامّة أخوف. فقال المعتضد: - وكان أعقل من الوزير-: والله لقد برّدت لهيب غضبي بفورتك هذه، ونقلتني إلى اللّين بعد الغلظة...، وما عملت أنّك تستجيز هذا في دينك وهديك ومروءتك...، ولقد عصيت الله بهذا الرّأي...، أتظنّ أنّ العمل بالجهل ينفع...، قال: وفارق الوزير حضرة الخليفة، وعَمِل بما أَمر به على الوجه اللّطيف، فعادت الحال ترف بالسّلامة العامّة، والعافية التّامّة. فقال الوزير: ما سمعت مثل هذا قطّ، وما ظننت أن الخطب في مثل هذا يبلغ هذا القدر" [1].

تتوالى الأفعال الإخباريّة على مسامع المتلقّي، والّذي يخضع فيها الخبر إلى الحكي، بذكر مراحل السّرد، وعرض قضيّة أخلاقيّة، وفي نهاية القَصص يعود التّوازن في الخبر إلى سلامة المملكة والرّعيّة على حدّ سواء.

الخبر اتّسم بمرجعيّة واقعيّة تاريخيّة، يحمل في طيّاته ومضامينه السّياقيّة رسالة أخلاقيّة تُعلّم المخاطَب تفاصيل، وطريقة العيش بسلامٍ، عن طريق التّعامل الصّحيح والعقلانيّ، والرّحيم مع الرّعيّة. يظهر فيه السّارد في موقف الواعظ والنّاصح له. فهو بهذه الأفعال الإخباريّة يدعو من خلالها إلى العمل بمحتواها الأخلاقيّ ومفهومها المعرفيّ. ومن خلالها أراد أن يحقّق فعلا إنجازيّا القصد منه الامتثال إلى تحكيم العقل والنّفس معا، والدّعوة إلى الاعتدال والتّحلّي بالحكمة.

السّرد القصصيّ يُعدّ أعلى مراتب التّأليف النّثريّ البلاغيّ في توظيف أفعال الإخبار للوصول إلى وظيفة إنجازيّة تحقّق غاية تداوليّة تواصليّة، كما تحقّق فعلا إنجازيّا تأثيريّا، يتمثّل في تهذيب خُلُق المتلقّي وإمتاعه.

تمثّل الحكم والوصايا من بين أنواع الخطابات المختلفة الّتي تضمّنها السّرد عند التّوحيديّ، وما احتوته من أفعال إخباريّة لها وظيفتها المعرفيّة والتّواصليّة. إذ يعرض الرّاوي في اللّيلة السّادسة والعشرين، بعض من جوامع الحكمة. في قوله: " ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، موت في قوّة وعزّ، خيرٌ من حياة في ذلّ وعجز، عدلُ سلطان خير من خصب الزّمان، من عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالهيبة، من استعان

[1] - المصدر السّابق، الجزء الثّالث، ص383-384.

بغير الله لم يَزل مَخذولاً، اليومُ فعلٌ وغدًا ثواب " [1]، إنّ أفعال الإخبار الواردة في تلك الحِكم الدّالّة على دفاع المبدع عن بعض القيم الأخلاقيّة، و دعوته للنّظر لأمور الحياة بعقل وحكمة، وتفكير سليم.هذه الأفعال الإخباريّة لا يتوقّف غرضها الإنجازيّ عند الخبر بقدر ما يضطلع المبدع إلى غرض النّصح والإرشاد، من خلال خطابه الّذي ينطوي على وظيفة معرفيّة، ووظيفة توجيهيّة، فعّلتها قوّة إنجاز الفعل الّذي يهدف من خلاله الاستفادة من مضامين تلك الحِكم الأخلاقيّة ودلالاتها التّعليميّة.

الغرض الإنجازيّ للأفعال الإخباريّة في المحادثة في خطاب التّوحيديّ، ضمن سياق تواصليّ تداوليّ، هي تحقيق المثاقفة، وتوجيه المخاطَب نحو السّلوك القَويم. وإصلاح الحاكم أخلاقيّا وعمليّا، وبعث مُتعة الأنس والإمتاع، بطريقة معرفيّة اكتسحت الخطاب السّرديّ ، لها أبعادها الفنيّة والجماليّة، والّتي قصدها الكاتب وظهرت على مستوى الخطاب برمّته.

إنّ أفعال الكلام الّتي انتهجها المبدع، وهي جزء من البنية السّرديّة الّتي أسّسها المبدع في خطابه، تهدف إلى غايتين، أفعال إنجاز تمثّلت في المعرفة الّتي شكّلت النصّ، وأعطت له أبعادا معرفيّة، لامست جانب التّداول الحواريّ بين عناصره التّواصليّة. وتظهر من جهة ثانيّة أنّها أضفت جانبا تأثيريّا يتمثّل في الفعل الإنجاز التّأثيريّ، والّذي عن طريقه تحققت متعة الأنس، والتّغيير في شخصيّة المتلقّي.

وبناءً على هذا التّصوّر، تمثّل أفعال الكلام من أقوال وأفكار، وقصص، وأحداث...، عالما معرفيّا واسعا، شكّلته تلك الخطابات المتنوّعة، المعرفيّة والفلسفيّة والبلاغيّة...، أسهمت جميعها في تحقيق استراتيجيّة المبدع، ونجاح قوّة الفعل الإنجازيّ عن طريق قوّة فعل التّلفّظ التّعبيريّ الكلاميّ، في تحويل المعرفة إلى أدب، والفكر إلى سرد، والحوار إلى عالم من التّواصل العقلي ، مكّن من تَعالق وتواصل الفكر الإنسانيّ الّذي عن طريقه نشأ حوار الحضارات، والمعارف الفكرية، والتقاء الرُّؤى والاجتهادات العقلية، كلّ هذا الخضمّ المعرفي تمخّض عن ذهن المبدع، وصُبّ في خطاب"الإمتاع والمؤانسة"، وكلّ هذه الحقول

[1] - السّابق، الجزء الثّانيّ، ص285.

المعرفيّة المتنوّعة، مكّنت القارئ من أن يعيش تجربة حياة، وعالم إنسانيّ مليء بما توصّل إليه الفكر والعقل من زاويّة معرفيّة تُوسّع دائرة الوعي لديه، وتبعث فيه مُتعة وبراعة التّأليف الفنّيّة والجماليّة، والّتي تنمّ عن قدرة الكاتب الإبداعيّة في مجال المعرفة العلميّة والثّقافيّة.

طُرق التّداول المعرفيّ في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ.

فعل المعرفة ووظائفه الموسوعيّة التّبليغيّة:

التّعبير عن الذّات، والبوح بما يجول في الذّهن، لتبليغ رسالة ما للمتلقّي في مقام مناسب، ينطلق من النّطق كعمليّة فيزيولوجيّة يتمتّع بها الإنسان، " والنّطق بالجملة هو إنجاز الفعل أو إنشاء لجزء منه " [1]، ويتمثّل في الفعل الكلامي الّذي يعتبر " هو النّطق بالألفاظ من حيث هي منتمية إلى معجم ما " [2]. وإذا كان الكلام يدّل على معرفة ما، فهو بهذا يشكّل لنا فعلا معرفيّا، " والمعرفة تشير إلى الصّلة بين الشّخص والحقيقة " [3]. لأنّه بمجرّد التّفكير في أمر ما يرِد في أذهاننا فإنّنا نبحث عن معرفته، واختبار مدى قدرتنا في الوصول إلى حقيقة تلك المعرفة للشّيء ذاته، أو كيف يُمكن لذاكرة الوعي من استحضار المعارف السّابقة ومحاولة عرضها ضمن سياق التّواصل.

فالمعرفة تصنّف ضمن دائرة العلميّة، وعلم المعرفة هو:" الإبستمولوجيا Epistemology، والمعرفة تُعتبر موردا يتدفّق بحريّة...، ويمكن اكتسابها، واستخدامها لأغراض معيّنة. أمّا استمرار وجودها، فيعتمد بالضّرورة على استمرار وجود الشّخص العارف " [4] وهو المتمكّن من المعرفة، والمطّلع على جميع مجالاتها وفروعها العلميّة، وهذا ما نجده عند شخصيّة التّوحيديّ في خطابه السّرديّ.

الإمتاع والمؤانسة، خطاب أدبيّ جماليّ تميّز ببنية سرديّة فنيّة إبداعيّة، ظهرت معالمها الجماليّة والبلاغيّة من خلال ذلك الطّرح والصّرح المعرفيّ الّذي استوحى معالمه الفنيّة من فنّ البلاغة والتّصوير البيانيّ وجمال الوصف، وروعة التّأليف الأدبيّ، ومتعة الحديث النّبيل، وهذا التّميّز استمدته تلك البنية السّرديّة من خلال خصوصّية العصر بكلّ ما يحمله في طيّاته من جوانب فكريّة وفلسفيّة وثقافيّة وسياسيّة واجتماعيّة...

---

[1] - أوستين، نظريّة أفعال الكلام العامّة، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشّرق، 1991م، ص16.

[2] - المرجع نفسه، ص116.

[3] - جينيفر ناغل،المعرفة، ترجمة مروة هاشم، دائرة الثّقافة، أبو ظبي، 2019م، ص16.

[4] - المرجع نفسه، ص12-13.

هذه المعارف تمكّن من الاستحواذ عليها، والاطّلاع على سرّ وجودها وأهمّيتها هي شخصيّة الوزير" أبو عبد الله العارض"، والّتي منحها إيّاها الرّاوي " أبي حيّان التّوحيديّ" في ليال السّمر، ضمن سياق تداوليّ تواصليّ، كان هذا الوصل الّذي يترقّبه الوزير بمثابة أمنية تمكّن من تحقيقها، ضمن إطار تواصليّ تداوليّ استحوذ فيه خطاب المعرفة على مساحة واسعة ضمن طيّاته ومضامينه. فكانت المعرفة عنوان للسّرد عند التّوحيديّ.

التّواصل هو البوحُ عن كلّ ما يجيش في النّفس من هواجس وتساؤلات، ومعارف وفِكر، والتّعبير عنها للمتلقّي بهدف الإفهام أو التّزوّد بالمعلومات، أو الإفصاح عن خبايا الكلِم، ونوعه وما مدى وظيفته التّواصليّة، وهذا ما نجده واضحا وجليّا في خطاب "الإمتاع والمؤانسة". إذ أُقترنت الفلسفة والفكر بالتّواصل، والحوار التّداولي عن علوم العصر ومعارفه، وحُسن القول وبلاغته. كلّ هذا الخِضمّ المعرفي فعّله " التّوحيديّ" من خلال محاوراته مع الوزير، والّذي بدوره يرغب في معرفة "علم الكلام" الّذي تجسّد في أقوال أصحاب الفرق والمذاهب، الّذين اختلفوا في جوهر الدّين وفروعه، بقوله : " من أين دخلت الآفة على أصحاب المذاهب حتّى افترقوا هذا الافتراق، وتباينوا هذا التّباين، وخرجوا إلى التّكفير، وإباحة الدّم والمال...، فكان الجواب: إنّ المذاهب فروع الأديان، والأديان أصول المذاهب، والمذاهب نتائج الآراء، والآراء ثمرات العقول، والعقول منائح الله للعباد..." [1]. فأجاب السّارد عن تلك القضايا الّتي مهّدت لصراع فكريّ دفع هؤلاء إلى التّعصّب والميل إلى الهوى، بذكر شواهد وأقوال غيره من العلماء، بغرض تزويد المتلّقي بالمعرفة الحقيقيّة لهذا الاختلاف الأزليّ فيما يخصّ هؤلاء الّذين يزعمون مناصرة الدّين. منتهجا في ذلك طريقه تداوليّة ضمن سياق تواصليّ حواري أدّت فيه قوّة فعل الكلام وظيفة التّبليغ للردّ على السّائل بدقّة وتفصيل دقيقٍ ينمّ عن ذاكرة قويّة لدى الرّاوي الّذي أبدع وجال في أقوال هؤلاء، مُستوعبا كلّ تفاصيل المعرفة الّتي احتوتها أذهانهم، والّتي بدورها أبهرت، واستولت على مشاعر المتلقّي، فأحدثت في نفسه تأثيرا جعله يُعبّر عن مكنوناته بسجيّة، في قوله: " ما أعلى نجد هذا الكلام ! وما أعمق غوره! " [2]. هذا التّواصل الحواريّ بين

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص449.

[2] - المصدر نفسه، ص460.

الطّرفين ضمن السّياق، حقّق فعل التّأثير لدى السّامع بصيغة صريحة تمثّلت في البوح عن مشاعر الإعجاب الّتي تُكنّها نفسه.

السّرد عند التّوحيديّ لا يعني ذكر توالي الأحداث، بقدر ما يعني أنّه وسيلة لنقل المعارف، فهو لا يقتصر على الإجابات المبهمة المُطلة؛ بل يَعمَد دائما إلى التّوضيح والشّرح والتّحليل لإقناع المتلقّي، وهو بذلك يسعى إلى تحقيق الوظيفة الإفهاميّة و " هي إحدى وظائف الاتّصال الّتي يُمكن على أساسها بنية أيّ فعل من أفعال التّواصل (اللّفظيّ) عندما يتركّز فعل الكلام على"المرسل إليه" يكون له وظيفة إفهاميّة " [1]. تُساهم في تحقيق استيعاب الموضوع المطروح، وهذا هو مُبتغى السّارد في كشف سرّ اختلاف تلك الفِرق والمذاهب للمتلقّي، لسبب واحد أنّ كون أصحابها يفتقدون الطّمأنينة واليقين.

فتحقيق فعل المثاقفة ووصولها إلى ذهن المتلقّي، وإبداء فعل قول الرّضا، هو في حدّ ذاته فعل إنجاز خطاب السّرد الّذي ساهم بدوره في تحقيق وظيفة التّبليغ والإفهام إثر التّعمّق في قضايا الفكر والعقل، وبهذا الامتداد والتّجدّد في مسار المسامرات، مكّن من تحقيق شروط تداوليّة الخطاب التّواصليّ بين أطراف الحوار للوصول إلى غاية أسمى، هي بثّ المعرفة، والاستفادة منها، وذلك بشرط مهمّ، ألا وهو التزام الصّدق والبُعد عن الزّخرفة الّتي تُشين اللّفظ، مع ضرورة إلحاق الحُسن والصّناعة بمعناه، فيكون اللّفظ فصيحا وسَلِسا، ليتمكّن من احتواء تلك المثاقفة، واستمرار بقائها وتداولها في المقام التّواصليّ.

كما جاء على لسان الرّاويّ: " وليكن الحديث على تباعد أطرافه، واختلاف فنونه مشروحا، والإسناد عاليا متّصلا، والمتن تامًّا بيّنًا، واللّفظ حفيفا لطيفا، والتّصريح غالبا متصدّرا، والتّعريض قليلا يسيرا، وتوخ * الحقّ في تضاعيفه وأثنائه، والصّدق في إيضاحه وإثباته، واتّق الحذف المُخلّ بالمعنى، وإلحاق المتّصل بالهذر، واحذر تزيينه بما يشينه، وتكثيره بما يقلّله، وتقليله عمّا لا يستغنى عنه، واعمد إلى الحسن فزِد في حسنه، وإلى القُبح انقص من قُبحِه ، واقصد إمتاعي بجمعة نظمه ونثره ، وإفادتي من أوّله إلى آخره، فلعلّ هذه

---

[1] - جيرالد برنس، قاموس السّرديات، ترجمة السيّد إمام، ميريت للنّشر، القاهرة، ط01، 2003م، ص36.

* توخّيت هذا الأمر: تعمّدته دون سواه.

المثاقفة تبقى وتُروى " [1]. وبهذا فالتّوحيديّ يطمح إلى أن يكون الحديث ليس مجرّد كلام تُذْرِيه ليالي السّمر، فهو بذلك يُبيّن في خطابه أنّ تواصله مع الوزير سوف يكون بمنزلة تفوق التّصوّر والكلام الحواري العاديّ، بل يتُوق إلى أن يكون الكلام على أعلى مستوى درجات الحوار التّداوليّ، ألا وهو حديث المثاقفة.

هذه المعرفة الّتي تتجسّد وتنبثق من عُمق سيرورة المحادثة، لها دلالات ووظائف ثقافيّة واجتماعيّة، ووظيفة أدبيّة، كما أنّها تزوّد العقل بمختلف المعارف، والشّعور بالمتعة والأنس الّذي يتحقّق بفعل التّواصل بين عناصر الكلام. وهذا ما أقرّه التّوحيديّ، وصرّح به في اللّيلة الأولى من ليالي "الإمتاع والمؤانسة"، عن وظيفة المحادثة في إثراء الذّهن وإمتاع القلب، و " إنّ في المحادثة تلقيحا للعقول، وترويحا للقلب، وتسريحا للهمّ، وتنقيحا للأدب " [2]. رغبة منه في تحقيق قوّة فعل الكلام، والمتمثّلة في تثقيف السّامع مع بثّ شعور الاستمتاع والمتعة في تلقّي الكلام.

فالحديث يُجسّده التّواصل، والإنسان اجتماعيّ بطبعه يميل إلى الكلام مع غيره ، كفطرة ناشئة فيه، ويرغب في البوح للتّعبير عمّا في النّفس من أفكار ومشاعر. والنّفس تتوق دائما للحديث الشّريف، والكلِم الطيّب النّافع، لترويض النّفس وجعلها تسمو إلى الكمال، والتّطلّع إلى البيان الّذي يبعث السّحر. " ولهذا قال بعض السّلف: " حادثوا هذه النّفوس فإنّها سريعة الدّثور"، كأنّه أراد أُصقلوها واجْلُوا الصّدأ عنها، وأعيدوها قابلة لودائع الخير، فإنّها إذا دَثَرَت- أي صَدَأت، أي تَغَطّت- لم ينتفع بها " [3]. فهو يدعو إلى طلب العلم والمعرفة، والتّحلّي بما ينفع المرء لنفسه ولصلاح غيره، وما خَابَ من عَرَف.

فالحديث عند التّوحيديّ يشمل كلّ دروب المعرفة الّتي أضفت صفة الموسوعيّة على خطابه لأنّه شمل كلّ مناحي الحياة، والتّعبير عن الفكر بطريقة تواصليّة قادرة على تحقيق فعل التّثقيف، وإفهام المتلقّي، وتوجيهه أخلاقيّا وسياسيّا، وهذا ما نستشفّه من اللّيلة الرّابعة والثّلاثين، من خلال سؤال الوزير حول ما أصابه من ضيق في صدره، وغيظ وغضب

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص22-23.

[2] - المصدر نفسه، ص35.

[3] - نفسه، ص33.

بسبب ما بلغه من العامّة وخوضها في الحديث عنه، وذكر أموره وأسراره...، فردّ عليه الرّاويّ على لسان " أبي سليمان"، بقوله: " ليس ينبغي لمن كان الله – عزّ وجلّ- جعله سائس النّاس: عامّتهم وخاصّتهم، وعالمهم وجاهلهم...، أن يضجر ممّا يبلغه عنهم لأسباب كثيرة، منها: أنّ عقله فوق عقولهم، وحِلمه أفضل من حلومهم، وصبره أتمّ من صبرهم...، وأنّ العلاقة الّتي بين السّلطان وبين الرّعيّة قويّة...، ولو قالت الرّعيّة لسلطانها: لِمَ لا نخوض في حديثك، ولا نبحث عن غيب أمرك، ولِم لا نسأل عن دينك...، ما كان جواب سلطانها وسائسها؟ أما كان عليه أن يعلم أنّ الرّعيّة مُصيبةٌ في دعواها الّتي بها استطالت. بلى والله ، الحقّ مُعترف به وإن شغب الشّاغب، وأعنت المعنت " [1]، هذا الرّد كان بمثابة توجيهات تعلّم المتلقّي التّحلّي بالأخلاق الفاضلة، والسّياسة الرّشيدة في حُكمه وممارسة السّلطة العادلة مع الرّعيّة.

الخطاب يقدّم مختلف المعارف الّتي تُلامس العقل والرّوح ومجال الأدب والاعتقاد، والأخلاق ورواية الحكايات والأحداث والعجائب...، إنّها معرفة لا محدودة، تشمل كلّ مناحي الحياة بجميع تفاصيلها، ومعالمها الكونيّة. فالمعرفة عنده منجاة، فمن عرفها وامتلكها فقد تخلّص من آفات الدّنيا، وشرور نفسه، وظفر بالآخرة. فقال: " نجا من آفات الدّنيا من كان من العارفين، ووصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزّاهدين، وظفر بالفوز والنّعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين " [2]. فالمعرفة في حياة الإنسان هي نجاة من الحياة الدّنيا الّتي انتشرت فيها القيم والأخلاق السيّئة، وهي حصن منيع يمكّن الإنسان من تجاوز القيم الّتي يرفضها العقل ، وينشزها الحسّ. والتّواصل مع من حوله ممّن يقدّسون العلم والمعرفة، " والعلم مطلوب، والحكمة مرغوب فيها، والأخلاق ظاهرة، والقلوب سليمة...، وحظّه من العلم إنّما هو من قبيل النّفس العاقلة " [3]. فالمعرفة عند التّوحيديّ تُؤسّس على نطاق أوسع يشمل الوعي والقِيم الفاضلة في اكتساب ما ينفع المرء، واجتناب ما يرفضه

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّالث، ص381-382.

[2] - نفسه، الجزء الأوّل، ص17.

[3] - المصدر نفسه، الجزء الثّاني، ص212-213.

العقل والحسّ. وهي أيضا الهدف الأسمى الّذي سطّره الكاتب في مسار السّرد بواسطة الوظيفة التّبليغيّة التّواصليّة.

من خلال هذا التّواصل التّداوليّ يتجدّد الحديث، فتتجدّد بدورها الأفكار والمعارف، وفنون القول، " واستماع فنون الأقوال، يزيد الإنسان بصيرةً وحكمةً وتجربةً ويقظةً ومعرفة وعلمًا " [1]، هذا التّجدّد في المحادثة يفعّله السّرد، ويبعث في السّامع تكوين ثقافة متنوّعة، تُسهم بدورها في تغيير فكره، فيتصرّف في شؤون حياته، ومن حوله بالحكمة والدّراية السّديدة. ولذلك فاقتران الكلام بالحوار، والمعرفة بالسّرد، هي عوامل جميعا ساهمت في بناء المحادثة بين الطّرفين، وبعث تلك الأقوال للوجود كخطاب تطغى عليه ملامح المعرفة الإنسانيّة بشتّى مجالاتها العلميّة والثّقافيّة.

المعرفة عند التّوحيديّ لا تقتصر على مجال معيّن. بل تتعدّاه إلى جُلّ مجالات الحياة العقليّة، والفلسفيّة، والبلاغيّة والدّينيّة. فقد أفرد بعض اللّيالي لمعرفة كُنه ومعنى بعض الأحاديث النّبويّة الشّريفة، وذلك بذكر روّاتها، والتّركيز على بعض الحكم الصّادرة عنهم. فكان ردّ فعل الوزير يتمثّل في أنّه أعجب بذلك، فقال: " ما أحسن هذا المجلس" [2]. كما سأله عن الإعجاز في قول الله –عزّ وجلّ-: " < هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ>. فإنّ هذا الإيجاز لم يعهد في كلام البشر.فكان من الجواب: إنّ الإشارة في "الأوّل" إلى ما بدا الله به من الإبداع والتّصوير، والإبراز والتّكوين، والإشارة في " الآخر" إلى المصير إليه في العاقبة على ما يجب في الحكمة من الإنشاء والتّصريف، والإنعام والتّعريف، والهداية والتّوقيف...،وقال: ما أعذب هذا المورد! وما أعجب هذا المشهد!وما أبعد هذا المقصد!" [3]. لقد أسهب في شرح الآية كالفقيه العارف، والإمام المُدرك بعقله كُنهها وسرّ معناها، إنّه شيخُ العارفين، وعليمُ المفكّرين، لذا تعجّب الوزير بهذا القول والشّرح والتّحليل، جعله يدرك أنّه أمام شخصيّة عجيبة، وفريدة من نوعها. هذا المبدع الّذي لم يترك مجالا إلاّ كفّاه

---

[1] - المصدر السّابق، الجزء الثّانيّ، ص202.

[2] - السابق ذكره ، ص253.

[3] - السّابق ، الجزء الثّالث، ص 316-317. (سورة الحديد- الآية(03).

واستوفاه ووفّاه بالشّرح، ولم يَتطرّق إلى موضوع إلاّ وعرف سرّه، إمّا بقوله؛ أيْ بذكر رأيه الخاص به، أو باستشهاده لكلام الرّواة فيه. هذه المعرفة اللاّمحدودة هي الّتي جعلته يُصنّف من طرف العلماء والمختصّين، بأنّه إمام البُلغاء، ووضعوه في مرتبة الفيلسوف، والأديب والمُحقّق الواسع الدّراية والرّواية.

لقد استطاع أن يُؤسّس خطابا سرديّا مبنيّا على التّواصل، لتحقيق غاية أسمى، ألا وهي المعرفة الّتي تتّسع في فضاء الثّقافة والعلم لديه. فكان خطابه معرفيّا، جوهره التّواصل الّذي غايته إرساء المعرفة وجعلها القيمة الأسمى في حواراته مع الوزير، بآلية بلاغيّة وبيانيّة، مُحكمة التّأليف، استطاعت أن تؤثّر في السّامع، وتبعث فيه الشّعور بالاستحسان والرّضا، ويتجلّى ذلك في إعجابه الّذي ظهر من خلال تقبّله لفن النّظم، ومعاني فنّ الشّعر الّذي بدوره أخذ مساحة ضمن ليالي السّمر. كما في قوله: " ثمّ أنشدت قول الشّاعـــــر [من البسيط]:

إنّي لأصفح عن قومي وأَلبَسهم * على الضّغائن حتّى تبرأ المِئَر [1]

ثمّ قال: ما المئر؟، قلت: هي الضّغائن الّتي ذكرها في حشو البيت، وأحدها مئرةٌ، كأنّه أراد وألبسهم على الضّغائن؛ أي لأصفح عنهم حتّى تبرأ الضّغائن من الأحقاد، فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورة القافية لما كان معناهما واحدا، قال: لمن هذا البيت؟ قلت: لا أحفظ اسم شاعره، ولكن أحفظ معه أبياتا. قال: هاتها، فأنشدت أوّل ذلك [من البسيط]:

يا أيّـها الرّجل المَزجيّ أذيّتــه * هل أنت عن قولك العوراء مزدجر
إنّــي إذا عُدّ مِبطَـــاءٌ إلى أمــد * لا يستطيع حِضاري المقرف البَطِرُ*
إنّي لأصفح عن قومي وألبسهم * على الضّغائـن حتّى تبرأ المئــــر [2]

[1] ـ المئر: العداوة، الضّغائن: الأحقاد.

[2] ـ الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص49-50.

* الحِضار: المبالغة في العدو السّريع- المقرف: من الخيل- البَطر: المتحيّر.عن: الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيّان التّوحيديّ، اعتنى به وعلّق عليه، محمّد الفاضليّ ، ص40.

السّامع يلجا دائما إلى محاولة استيعاب كلّ ما يصدر من المتكلّم، على غرار أنّه توجد أقوال ينتابها الغموض لديه، وهذا راجع إلى كثرة تشعّب المواضيع المطروحة المُستوحاة من مختلف المعارف والعلوم، فيطالبه بتوضيحها، كما فعل في لفظ" المئر"، بمعنى الضّغائن، وأنّ الشّاعر لم يُكرّر لفظ الضّغائن لضّرورة القافيّة.

وإنّ الاستدلال بتلك الأبيات الشّعريّة كان الغرض منه تزويد السّامع بالشّرح المفصّل، والرّجوع إلى النّص الأصلي دلالة على الموضوعيّة الّتي يتّصف بها المتكلّم. بأنّه يستشهد في كلامه بالأقوال من مصادرها.

وتكمن قوّة فعل الكلام ضمن هذا الحوار التّواصليّ في وصول المعنى إلى ذهن المتلقّي، بالإضافة إلى أنّ المتكلّم يعي جيّدا ما يقول وما طرحه من شُروحٍ وافيّة. لأنّه كلّما كانت أقوال المتكلّم تحمل قوّة فعل القول، وتمكّن من تحقيق قوّة الفعل الإفهاميّة والّتي بدورها تُحقّق استمرار التّواصل، وتحقّق فعل الإنجاز والّذي تمثّل في تقبّل الآخر للكلام واقتناعه به. وهذا ما استطاع أن يحقّقه السّارد، بدليل أنّ المتلقّي لم يكتف بالسّماع فقط، بل طلب منه تدوينه، لأنّه يتُوق إلى قراءته والاستفادة منه في المستقبل.

الوزير تميل نفسه إلى التّعلّم وكسب المعرفة، فينتهز الفرصة كلّما سمح له المقام ذلك بالسّؤال أو الاستفسار عمّا يختلج في صدره، كما في قوله: " هل يُقال: ظَفِرتُ عليه؟، قلت: قد قال شاعرهم:

وكانت قريش لو ظَفِرنا عليهمُ * شفاءً لما في الصّدر والنّقصُ ظاهرُ

قال: هذا حَسَن. قلت: الحروف الّتي تتعدّى إلى الأفعال، والأفعال الّتي تتعدّى بالحروف، يُراعَى فيها السّماع فقط لا القياس.

هذا كان مذهب إمامنا "أبي سعيد"، وقد جاء أيضا "ظَفِر به"، وجاء "سخِرتُ به، ومنه".

ومن لا اتّساع له في مذهب العرب يظنّ أنّ "سخِرتُ به" لا يجوز، وهو صحيح. حكاه أبو زيد "[1]. لقد بيّن المتكلّم أنّ بعض الأفعال اللّازمة في الأصل قد تصبح متعديّة بواسطة الحروف ، وهذا التّعدّي يكون سماعيّا ؛ أي بحسب ما سمعناه عن العرب. مستشهدا بذلك

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص168.

بأقوال النّظم، حتّى تكون حجّته قويّة، وتقنع المخاطَب، وتعلّمه أنّ الذي يجهل ما قالته العرب في قواعد النّحو لا يُجيز صحّة بعضه.

السّمة الغالبة للفعل الكلاميّ الصّادر من المتكلّم هو تفعيل الوظيفة التّبليغيّة المتمثّلة في تصحيح فكرة تخصّ قواعد النّحو في ذهن السّامع، هذا التّصحيح بمثابة استلزام حواري ناتج عن قوّة فعل كلام السّارد الّذي لعِب دور النّحوي العارف لمذاهب علماء العرب النّحويّة. والسّامع يُدرك تماما منزلة الرّجل العلميّة في مجال ضبط علوم اللّغة، وكشف أسرارها. قال: " دخل أعرابيّ الحمام فزلق، فانشجّ، فأنشأ يقول:

وقالوا تطهّر إنّه يَوم جُمعــة * فرُحت من الحمامِ غَيرَ مُطهّــر
تردّيتُ منه شاريًا شجّ مَفرِقي * بفَلسين إنّي بئس ما كان مَتجَري
وما يُحسن الأعراب في السّوق مِشية فكيف ببيْتٍ من رخام ومرمــر
يقول لي الأنباط إذْ أنا نــازل * " به لا بضبي بالصّريمة أعفرا" *

وقال: - حرص الله نفسه- كنت أروي قافية هذا البيت " أعفرا"، وهذه فائدة كنت عنها في ناحية " [1].

إنّ هذا الشّرح والتّصحيح اللّغويّ هدفه التّعلّم من طرف المتلقّي، والتّوجيه الصّحيح لدلالة اللّغة من طرف التّوحيديّ، والّذي عَمَد إلى تحقيق خاصيّة السّرد في خطابه بمختلف المعارف، والتّأثير من جهة ثانية في المخاطب، خاصّة وأنّ هذا الحوار ذو طابع تداوليّ ، امتزج فيه الخطاب المعرفيّ بالتّداول الحواريّ، ضمن سياق تواصليّ هدفه التّعلّم والتّزوّد بالمعرفة.

إنّ الوظيفة التّبليغيّة عند المبدع يكتنفها ويحتويها فعل الإقناع الّذي بدوره يُفعّل بواسطة تلك الجوانب المعرفيّة الّتي تخصّ مختلف العلوم، والّتي يُفترض مسبقا أنّ المتكلّم عليم بها، وله باعٌ رَحبٌ فيها، من منطلق أنّه يُجيب ويشرح، وبذلك استطاع أن يُحقّق الوظيفة

---

[1] - المصدر السّابق، ص172.

(*) مثل يُضرب في الشّماتة.

الإفهاميّة في مجال المعرفة ضمن مقام تواصليّ تداوليّ ثقافيّ بينه وبين السّامع، تحكمه عناصر السّياق بفاعليّة المتلقّي الّذي أسهم بشكل كبير في تشكيل الخطاب الحواريّ، وفق المحادثة المؤنسة والكلام الممتع، لتأسيس مشروع تداوليّة الخطاب السّرديّ بين المتحاورين في إطار تبادل الكلام، وتفاعل وإمتاع وتأثير من طرف المتلقّي بدءًا من طلب إفهامه بالشّرح، وتزويده بالمعلومات المعرفيّة والأخبار الّتي تعتبر شرطا أساسيّا في تحقيق المسامرة المكتوبة.

لا تقتصر معارف "التّوحيديّ" في مجال معيّن. بل تشمل جميع مجالات الحياة. والخطاب الفلسفيّ يأخذ حيّزا معتبرا في مسامراته، وهو أحد مواضيع السّرد لديه، إذْ يهدف من خلاله إلى إبرام صفقة مع المتلقّي ليُظهر له مدى استيعابه لمختلف معارف عصره، لتثقيفه وتعليمه، واستجابته تنمّ عن تقبّله لهذا التّواصل، والاستمرار في طرحه للسّؤال مهما كان نوعه، ومهما كانت طبيعته الفكريّة، دلالة على أنّه يثق في المُسامر له، بأنّ له القدرة على مجاراته، وفكّه للغموض الّذي يعتري انشغالاته الثّقافيّة وغيرها. وبالمقابل فالطّرف الآخر من الحوار ليس بالهيّن، ولا بالمستهان به، إذ يظهر في ذلك التّواصل التّداوليّ بمنظر العليم القارئ والسّامع بمعارف عصره، ويبدو ذلك من خلال طبيعة أسئلته الّتي لا تخلو من عُمق التّجربة، والقراءة المستفيضة، كطرحه لـ: علاقة الفلسفة بالدّين والشّريعة، وجوامع الحكمة، والجبر والاختيار، والحساب، والاستفسار عن الأحاديث و الحكايات، وخصائص العلماء الفريدة والأقوال السّديدة، والمناظرات العجيبة. هذه الأخيرة أخذت حيّزا واسعا، ونصيبا رَحبا في الخطاب السّردي التّوحيديّ، إذ سرد للوزير " مناظرة جرت في مجلس الوزير " أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات"، بين "أبي سعيد السّيرافيّ" و "أبي بشر مَتَى"، واختصرتها... ألاَ ينتدب منكم إنسان لمناظرة "مَتَى" في حديث المنطق " [1]. لقد سرد الرّاوي هذه المناظرة بجميع تفاصيلها، جعلنا نستشفّ ذلك الصّراع الفكريّ والفلسفي الّذي يدلّ على قدرة هؤلاء في عرض: علاقة المنطق بالعقل، واللّغة واللّفظ، والإفصاح عن المعنى، وميزات الاسم والفعل والحرف، ومعاني النّحو في حركاته وسكناته. كلُّ هذا الكلّ صُبّ في بوتقة السّمر اللّيليّ، وأُختصر في ليلة واحدة هي – اللّيلة الثّامنة- والّتي تعدّت

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص88.

صفحاتها مستوى أكبر وأوسع حجما وطُولا عن باقي اللّيالي، ووصلت إلى حدّ مُتعة الحديث، والاسترسال في إطالته بالشّرح والتّحليل. ونشأ ذلك من خلال حبّه للمعرفة العقليّة، النّابعة من تلك الموضوعات الفلسفيّة والّتي ساهمت بدورها في تأسيس معرفة جديرة بالطّرح، وهي جديدة التّكوين لدى المتلقّي " الوزير"، خاصّة وأنّها تكوّنت عن طريق ذلك التّوافق والانسجام بين أطراف الحوار، بالسّؤال والجواب، إثر ذلك التّواصل التّداوليّ والمعرفي التّأثيريّ. وبلوغ المتلقّي مرحلة الاستمتاع القصوى. فقال لي: " أُكتب هذه المناظرة على التّمام، فإنّ شيئا يجري في ذلك المجلس النّبيه بين هذين الشّيخين بحضرة أولئك الأعلام ينبغي أن يغتنم سماعه، وتوعى فوائده،ولا يتهاون بشيء منه. فكتبت:..." [1].
لقد كان لقوّة فعل الكلام الصّادر من السّارد وقعًا كبيرا في نفسيّة السّامع، نتج عنه الوظيفة التّأثيريّة والّتي أدّت بدورها إلى إنجاز الفعل المرجو تحقيقه، ألا وهو الإعجاب بما طرحه المتكلّم في المجلس، ومدى استفادة السّامع منه. ولهذا كلّه فتحقيق فعل المعرفة هو أرقى مستويات التّواصل في سرديّة التّوحيديّ. هذه المعرفة الشّاملة مكّنت الرّاوي من تحقيق التّواصل بينه وبين مخاطبه في إطار سرديّ حَمَل مختلف السّمات الّتي تجعل من تلك المعرفة تواصلا تداوليّا، استطاع التّوحيديّ تحقيقه من خلال هذه المحادثة الّتي بدورها تحمل جانبين: جانب تواصليّ تداوليّ معرفي استطاع أن يُرسي من خلاله معارفه للمخاطب، وجعله يطلب المزيد منها، ويرغب في تنامي التّواصل معه وفق توالي استمرار مقام السّمر اللّيليّ. وجانب إمتاعيّ جمالي رَغِب في إيصاله لنفس المتلقّي، فأجبره بأن يكون طرفا فعّالا يتواصل معه دون انقطاع. خاصّة عندما اِلتمس فيه حُبّ المعرفة والعلم. مكّنه ذلك كلّه من تحقيق عمليّة التّعليم، والتّوجيه الضّمني غير المباشر الّذي ساهم بشكل كبير في التّأثير فيه، وتبديل نظرته وتوجّهاته لبعض أمور الحياة، وكذلك تغيير ما في ذهنه.

التّوحيديّ في خطابه السّرديّ، يهدف إلى بسط الثّقافة والمعرفة بكلّ توجّهاتها الفكريّة والأدبيّة والبلاغيّة والدّينيّة...، وكلّ ذلك الطّرح المعرفيّ أحدث ثورةً فكريّة، كانت كنتيجة للمحادثة في المقام التّداولي التّواصليّ، كان للسّامع فيها النّصيب الأوفر نتيجة قوّة

---

[1] - السّابق ذكره، ص88.

التّأثيرفيه. وبالتّالي استطاع أنّ يُحقّق فعل الإنجاز الّذي يتمثّل فيما أبداه المتلقّي من شعور تجاه ما سمعه، بقوله:

" قال: ما أحلى هذا الحديث، هات ما بعده. " [1]

" قال: ما أحسن هذا المجلس! [2]

" قال: هذا من الفوائد الّتي كنت أحنّ إليها، وأستبعد الظّفر بها ." [3]

لقد سَرَى هذا الإعجاب في ليالي السّمر، كلّما كان الجواب شافيا ووافيا وكافيا. وبهذا فالسّرد عند " أبي حيّان" وسيلة لعرض المعارف والفِكر، ومحاولة إيصالها بواسطة الحوار بينه وبين المتلقّي في سياق تواصليّ تداوليّ، عماده المعرفة، وغرضه توجيه السّامع وتهذيبه وإصلاحه، بالإضافة إلى تزويده بمختلف العلوم والمعارف بطريقة سرديّة يعتريها جانب من جوانب الشّرح والتّحليل والإقناع بالحجّة والبرهان.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص230.

[2] - المصدر نفسه، ص253.

[3] - نفسه، ص260.

فعل الحجاج ووظائفه الإقناعيّة:

إنّ فعل الكلام بما يحتويه من معانٍ وما يتضمّنه من دلالات، فهو في حقيقة الأمر موجّه للسّامع على اعتبار أنّه توجد رسالة أراد المتكلّم أن يرسلها للمتلقّي، ولكي يوصل مضمونها سوف يعمل على أن يستخدم كلّ الوسائل لأجل إنجاح عمليّة التّواصل بينهما. لهذا قد يرغب المتكلّم في اتّباع سُبُل الإقناع لوصول الفكرة المراد إرسالها للسّامع. وهذا يدفعه إلى استحضار الحجج لإثبات أقواله أو تفنيدها. والحجاج هو " مجموع التّرتيبات والاستراتيجيات الّتي يستعملها المتكلّم في الخطاب قصد إقناع سامعيه " [1]. فهو يقوم باختيار الحجج، ويقوم بطرحها بناءً على ما يناسب المقام التّواصليّ. والمتكلّم يهدف من وراء أقواله جانبا معيّنا يريد من السّامع تقبّله ومعرفته، فإذا كان الأمر يستدعي إقناعه، فهذا يعني أنّ قوّة فعل الكلام الحجاجيّ هي الّتي توفّر مدى فهم السّامع واقتناعه، وبالتّالي يتمكّن من تحقيق الوظيفة التّأثيريّة فيه. ولهذا فإنّ " فعل الحجاج يتمثّل في إلقاء قول يعمل عمل الحجّة" [2]. على اعتبار أنّ فعل الحجاج قول يُراد به نتيجة وتتمثّل في تحقيق الوظيفة الإقناعيّة. و " الحجاج عند "دكرو" هو علاقة طبيعيّة خطابيّة تقوم بين قولين، أحدهما يكون حجّة وثانيهما يكون نتيجة " [3]. ومهما كانت الأقوال الصّادرة من المتكلّم إذا لم ترتبط بحجج قويّة تُمكّن من حصول فعل أو وظيفة الإقناع لدى المتلقّي، فإنّنا لا نستطيع أن نصنّفها ضمن مجال الحجّة، لهذا فقوّة فعل الكلام تظهر في مدى قوّة الحجج المطروحة، والمنتقاة لأجل أن تفي بالغرض وتُحقّق التّأثير في المتلقّي.

الكلام الّذي ينطوي على الحجج نستطيع أن نسمّيه فعلا حجاجيّا، خاصّة إذا كان في ذهن المتكلّم مجموعة من الحجج القوّية الّتي توجّه إلى المتلقّي أو تعلّمه أو تزوّده بمعارف معيّنة، يريد إقناعه بها ضمن سياق التّواصل، فيستلزم ذلك اختيار الحجج الأكثر قوّة، والّتي يكون لها درجة معيّنة من الإقناع في السّياق التّواصليّ، و " لذلك يرتّب المرسِل الحُجج الّتي

---

[1] - جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة، ص93

[2] - نفسه، ص299.

[3] - نفسه، ص336.

يرى أنّها تتمتّع بالقوّة اللاّزمة الّتي تدعم دعواه، وهذا التّرتيب هو ما يُسمّى "بالسّلّم الحجاجيّ ، ويمكن تعريفه بأنّه عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال، مزوّدة بعلاقة ترتيبيّة وموفيّة بالشّرطين التّاليين:

أ- كلّ قول يقع في مرتبة ما من السّلّم يلزم عنه ما يقع تحته.

ب- كلّ قول كان في السلّم دليلاً على مدلول مُعيّن، كان يعلوه مرتبة دليلاً أقوى منه " [1].

فالحجج تترتّب بحسب قوّة المعنى الّذي تنطوي عليه، وكلّ قول يكون له درجة معيّنة من القوّة كدليل وجيه أكثر من غيره من الحجج الممكنة، فإنّه يكون هو الأعلى ترتيبا مع غيره من الحجج. و " حين توجّه علاقة ترتيب أو قوّة [العناصر الموجودة داخل] قسم حجاجيّ، سنقول إنّ الحجج تنتمي إلى سُلّم حجاجيّ واحد، فالسّلم الحجاجيّ هو إذن قسم حجاجيّ موجّه، ونحن نمثّل للسّلّم الحجاجيّ بواسطة النّتيجة **ن** والحجّتين **ق** و **ق1** الّتي تستجيب ثلاثتها لتعريف القوّة الحجاجيّة على النّحو الآتي:[2]

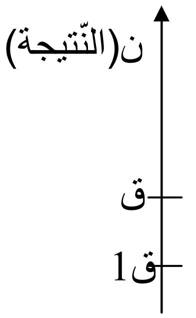

استطاعت التّداوليّة أن تُسيطر على بعض جوانب اللّغة، فأدرجت دراستها وفق جانب الاستعمال والتّواصل، وما ينجم عنه من فعل كلاميّ إلى مرحلة الفعل الإنجازيّ، هذا الفعل التّواصليّ تكون له غايات، يعمل المتكلّم على تحقيقها لإقناع السّامع والتّأثير فيه، بواسطة تقنيّة الحجاج الّتي تعتبر " من أهمّ أركان التّداوليّة، وتُعرّف البلاغة الجديدة بأنّها نظريّة الحجاج الّتي تهدف إلى دراسة التّقنيات الخطابيّة عبر عرض الحجج " [3]. وبهذا يكون فعل التّواصل ليس مجرّد نقل خبر من مرسِل إلى مرسل إليه، بل هو عبارة عن تواصل تجنّد فيه جميع الحجج لتأسيس فعل كلاميّ يُساهم في الإقناع قصد إثبات أو دحض قول ما.

---

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، ص500.

[2] - جاك موشلر، آن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة، ص299.

[3] - صابر حباشة، التّداوليّة والحجاج، صفحات للدّراسات والنّشر، سوريا، ط01، 2008م، ص15.

وهذا ما يتراءى لنا من خلال الخطاب السّرديّ لدى التّوحيديّ، فهو بالإضافة إلى أنّه إبداع فنيّ أدبيّ معرفيّ، فهو خطاب حجاجيّ شملت موضوعاته كلّ مناحي الحياة، فحمل في طيّاته سِمات جماليّة بلاغيّة وفنيّة وضعته في دائرة السّرد لاستحواذه على عناصر تواصليّة سياقيّة تنمو وتتوالى فيه الموضوعات والأطروحات الفكريّة، الّتي ساهم الوزير في عرضها كلّ ليلة، عبر ذلك الحوار التّواصليّ بينهما. كلّ هذه الشّروط التّداوليّة استطاعت أن تشكّل البنية السّرديّة بكلّ عناصرها التّواصليّة الّتي اتّسعت بدورها لشتّى دروب وضروب المعرفة بكلّ سُبلها وتنوّعها، وتوجّهاتها ومعطياتها الإنسانيّة النّابعة من فكر العقل البشري. هذا التّصوّر المعرفيّ المتنوّع، وغير المسبوق الصّادر من الذّاكرة الإنسانيّة المفكّرة، هو محور اللّقاء والتّلاقي في خطاب " الإمتاع والمؤانسة". إنّه ينبوع الثّقافة المستمدّة من الواقع واللّاواقع ، ومن الفكر العقليّ والحديث العجائبي...، هذه مجموع التّناقضات تَرسَى جميعها في مجلس الأنس، وعلى مرأى المتلقّي في سياق تواصليّ تداوليّ كشف عن بلاغة البيان، وجمال التّصوير في رِحاب السّمر اللّيلي الطّويل.

هذه المسامرات كانت محلّ مُعالجة ونقد لبعض المواضيع الّتي صعُبت على المتلقّي، أو شغلت اهتمامه، أو ساوره الشّك فيها. فبادر إلى طرح السّؤال عنها راجيا أن تكون الإجابة كافيّة ووافيّة. وتكون ملاذه لبلوغ طموحه ورغبته الملحّة في كسب المعرفة والعلم والثّقافة. فما كان على السّارد إلاّ أن يُبدي تفوّقه وقدرته في إعطاء الأفضل، وتحدّيه والنّيل منه، بإفحامه ومحاولة إقناعه، وتجنيد كل الحجج المناسبة لترك انطباع جميل ومميّز في ذهن السّائل. فقال: " قال: لِم قِيل الجبر والقدر، ولم يقلْ الإجبار؟

فكان الجواب: أنّ الإجبار لغة قومٍ، والجبر لغة تميم، قال: جبر الله الخلق، وأجبر الخلق، وجبر بمعنى جبل. واللاّم تعاقب الرّاء كثيرا.

فكان الجواب: أنّ مَن لحظ الحوادث والكوائن والصّوادر والأواتي من معدن الإلهيات أقرّ بالجبر وعَرَّى نفسه من العقل والاختيار والتّصرّف والتّصريف، لأنّ هذه وإن كانت ناشئة من ناحيّة البَشَر، فإنّ منشأها الأوّل إنّما هو من الدّواعي والبواعث والموانع الّتي تُنسب إلى الله الحقّ " [1].

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل،ص170.

إنّ مراعاة للسّياق الّذي ورد فيه السؤال عن الجبر والقدر، يُلزم السّارد على إبداء مجموعة من الحجج لإقناع السّامع في قضية فلسفيّة كانت محل جدال في عصره. فيلجا إلى عرض مجموعة من الحجج، وكلّ حجّة تتفرّع عنها نتيجة مستخلصة لها، وكلّها تصب في النّتيجة الّتي أخذت الطّليعة في التّرتيب، أو كانت هي الأقوى من غيرها. ويمكن أن نمثّل ذلك بالسلّم الحجاجيّ الآتي:

- جبر الله الخلقَ وأجبر الخلق.**"ح1"**

- من لحظ الحوادث والكوائن والصّوادروالأواتي من معدن الإلهيات.**"ح2"**، والنّتيجة المستخلصة منها: (أقرّ بالجبر، وعرّى نفسه من العقل والاختيار والتّصرّف والتّصريف).
والحجّة المستخلصة الثّانيّة: هذه الصّفات (وإن كانت ناشئة من ناحيّة البشر).

- النّتيجة المستخلصة منها جميعا أنّ (منشأها الأوّل هو الله الحقّ). وهي الّتي تمثّل النّتيجة **"ن"** .

فالمخاطَب يُدرك تماما أنّ الملفوظ (الإجبار لغة قوم، والجبر لغة تميم)، مجرّد فعل إخبار، ولكنّ الملفوظ (جبر الله الخلقَ وأجبر الخلق)، فهو يمثّل الحجّة الأولى، و(من لحظ الحوادث والكوائن والصّوادر والأواتي من معدن الإلهيات) فهي حجّة ثانيّة، والنّتيجة المستخلصة منها هي (أقرّ بالجبر، وعرّى نفسه من العقل والاختيار والتّصرّف والتّصريف)،وهذه الصّفات الموجودة (وإن كانت ناشئة من ناحيّة البشر) كحجة مستخلصة ثانيّة، والنّتيجة المستخلصة منها جميعا أنّ (منشأها الأوّل هو الله الحقّ). وهذا التّعدّد في طرح الحجج الفرعيّة المستخلصة كنتيجة، أثبتت شيئا مُثبتا مُسبقا، بحكم أنّها موجودة لكن ليس للإنسان القدرة على وجودها. بل الله الحقّ. كلّ هذه ساهمت بشكل كبير في تزويد السّامع بأنّ الله تعالى هو القادر على كلّ شيء. وكل ملفوظ أثبت قوّة الفعل الأقوى هو من يتّخذ الصّدارة والعلوّ في ترتيب الحجج المطروحة، وبالتّالي يحقّق الفعل الحجاجيّ الوظيفة الإقناعيّة المطلوبة.

السّلم الحجاجيّ تترتّب فيه الحجج بحسب مستوى قوّة فعل الكلام الحجاجيّ، وكلّ من الحجّة1 والحجّة2 ، فإنّها تخدم النّتيجة"ن". كناتج حاصل لما سبقه من كلام في إطار السّياق التّواصلي بين الطّرفين. ويظهر البُعد التّداوليّ في الحجـــاج عند التّوحيديّ، أنّ التّواصل

التّداوليّ بينه وبين السّامع مبنيّ على محاولة الإقناع، وبالتّالي فهو مبنيّ على الفعل الحجاجيّ. خاصّة فيما يخصّ القضايا الفلسفيّة الّتي أخذت مداها ضمن الصّراع الفكريّ في عصره، والّتي كان فيها الاختلاف في الرّأي أكثر من الاتّفاق فيه. " قال: ما الفرق بين القضاء والقدر؟ فكان من الجواب، أنّ " أبا سليمان"، قال: إنّ القضاء مصدره من العلم السّابق، والقدر مورده بالأجزاء الحادثة. فقال: لِم ورد في الأثر " لا تخوضوا في القَدَر، فإنّه سرّ الله الأكبر"...، وأنّ حكمة هذا السرّ طيّه، لأنّ عجز النّاظرين يُفضي بهم إلى الحيرة، والحيرة مضلّة والمضلّة هَلَكة، وإذا كانت الرّاحة في الجهل بالشّيء كان التّعب في العلم بالشّيء...، ألا ترى أنّ علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون؟ وعلى أيّ حال تحدث العلّة أو المحنة أو البلاء؟ لكان ذلك مفسدةً لنا، ومحنةً شديدةً علينا.

فانظر كيف زَوَى الله الحكيم هذا العلم عنّا، وجعل الخيرة فيه لنا...،قال: هذا فنٌ حسنٌ " [1]،

إنّ التّدرّج في طرح هذه الأسئلة الفلسفيّة يُعطي للسّارد فرصة إبداء الحجج المناسبة للمقام، ومحاولة حصر ما يمكن أن يكون الأقوى إقناعا بالنّسبة إليه. ففي جوابه عن السّؤال المطروح، كان رأي" أبي سليمان المنطقي" حجّته الأولى، لأنّ المتلقّي يُدرك تماما أنّ لا رأي بعد رأيه، وأنّه أهلا لذلك. لذا استعان به المتكلّم لفرضه كحجّة حاسمة يكون لها وقع في نفسيّة السّامع. وترقى إلى مستوى معيّن من السلّم الحجاجيّ، والاستشهاد بقوله يُوحي بكفاءته. بقوله: (وإنّ القضاء مصدره من العلم السّابق، والقدر مورده بالأجزاء الحادثة)ح1.

" لا تخوضوا في القَدَر، فإنّه سرّ الله الأكبر".

- النّتيجة: لا تخوضوا في القدر.

- الرّابط الحجاجيّ: إنّ.

- الحجّة: سرّ الله الأكبر.

فالرّابط الحجاجيّ" أنّ"، ربط بين النّتيجة والحجّة، وجاء ليُؤكّد الحجّة بعده.

أمّا قوله :" وأنّ حكمة هذا السرّ طيّه، لأنّ عجز النّاظرين يُفضي بهم إلى الحيرة، والحيرة مضلّة والمضلّة هَلَكة".

---

[1] - المصدر السّابق،الجزء الأوّل، ص171.

- النّتيجة: حكمة هذا السرّ طيّهُ.
- الرّابط الحجاجيّ: لأنّ.
- الحجّة: عجز النّاظرين يُفضي بهم إلى الحيرة، والحيرة مضلّة والمضلّة هَلَكة.

فالرّابط الحجاجيّ: "لأنّ": يتضمّن معنيين التّوكيد والتّعليل، هذا المعنى ربط بين النّتيجة والحجّة. والحجّة ترتّب عنها عدّة استلزامات فرعيّة مفادها أنّ العجز يستلزم الحيرة، وهي بدورها تستلزم الضّلال والتّيه. بحجّة أنّ في رأيه الجهل بالشّيء أحسن من العلم به.

- " ألا ترى أنّ علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون؟ وعلى أيّ حال تحدث العلّة أو المحنة أو البلاء؟ لكان ذلك مفسدةً لنا، ومحنةً شديدةً علينا".
- النّتيجة: كان ذلك مفسدةً لنا، ومحنةً شديدةً علينا
- الرّابط الحجاجيّ: لام التّعليل.
- الحجّة: لو أحاط علمنا بموتنا متى تكون. وعلى أيّ حال تحدث العلّة أو المحنة أو البلاء.

هذه مجموع الحجج تنتمي إلى الفئة الحجاجيّة نفسها؛ أي حول نفس الفكرة المُراد إقناع السّامع بها. فيرتّب المتكلّم حُججه من الأقلّ في قوّة الفعل إلى قوّة الفعل الأكبر من غيره معنًى ودلالة وحجّة. فيكون بذلك في الطّليعة؛ أي هو الّذي يُمثّل النّتيجة الأخيرة وتُحقّق من خلاله الوظيفة الحجاجيّة والّتي تُحدث التّأثير في المتلقّي، وتُثبت بدورها حصول فعل الإقناع، والّذي يدلّ عليه فعل الكلام الصّادر منه: هذا فنٌّ حسنٌ.

إنّ تقديم كلّ تلك الحُجج الدّامغة الّتي لا يُمكن دحضها من طرف السّامع، والّتي قدّمها المبدع في موضوع الجبر والقدر، وهو موضوع ليس من قَبيل وسبيل الإدراك بالنّسبة للإنسان. هو في حدّ ذاته قفزة نوعيّة في مجال علم يسبق الوجود، ومع ذلك استطاع المبدع أن يقدّم حُججه من ناحيّة ما يُكنّه عقله من معرفة وخبرة بأصول الدّين والدّنيا. ومن ناحيّة ثانية أنّه استعان واستشهد بقول " أبي سليمان" لِيُدعّم حُججه ويجعل المتلقّي أكثر تقبّلا لها. ويُثبت أقواله بدءًا من كون القضاء والقدر يعلمه الله تعالى، وأنّ هذا السرّ بعيدٌ عن إدراك الإنسان، أفضل من معرفته، لأنّ مَردّه الحيرة والضّلال. مُدعّما ذلك ببعض الأساليب اللّغويّة كأداة التّوكيد "إنّ"، ولام التّعليل في" لأنّ"، وأسلوب الشّرط في قوله:" وإنْ كانت

الرّاحة في الجهل...، كان التّعب في العلم". أدّى وظيفة حجاجيّة تَدعم أقواله، هذه العناصر اللّغويّة ساهمت في تقويّة الحجج، لبلوغ غاية الإقناع لدى المخاطب، في سياق حواريّ استقاه المقام التّواصليّ من خلال إرادة المتلقّي في التّطلّع إلى معرفة الفروق بين هذه القضايا، فنتج عنه عنصر التّأثير بفعل قبول القول واستحسانه.

الإمتاع والمؤانسة، خطاب سرديّ تُحيطه المعرفة من كلّ جانبٍ، والسّرد عند التّوحيديّ وسيلة للتّعبير عن الأفكار والرّؤى العقليّة، لأنّ زاده المعرفة، وزاده ذلك الوعي الذّهنيّ والذّاكرة القويّة مجالا رَحبا لعرض أفكاره، وفَرْضها على المتلقّي، مُنتهجا في ذلك الحجاج والّذي يُعدّ بدوره " عمليّة تعتمد على ملفوظ مُثبت (مقبول) هو الحجّة، قصد بلوغ ملفوظ أقلّ إثباتا (أقلّ قبولا) هو النّتيجة " [1].

مُتّخذا الحجّة وسيلةً لغاية أسمى، ألا وهي تحقيق أهدافه بإفحام الطّرف الآخر، ومحاولة إثبات صدق أقواله بالحجّة والبرهان، وهذا ما نستشفّه في ليلة من ليالي السّمر، في مجلس آخر حين سأله الوزير، " فقال: سمعت صياحك اليوم في الدّار مع " ابن العميد"، ففيمَ كُنتما؟. قلت: كان يذكر أنّ كتابه الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالملك، والسّلطان إليه أحوج، وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتّحرير...، قلت: ثمّ اِعلم أنّ البليغ مُشتَمل بلاغتَه من العقل، ومأخذه فيها من التّمييز الصّحيح، وليس كذلك الحساب...

- وأمّا قولك: إحدى الصّناعتين هزلٌ والأخرى جدّ، فبئسما سوّلت لك نفسك على البلاغة، هي الجدّ، وهي الجامعة لثمرات العقل...

- وأمّا قولك الإنشاء صناعة مجهولة المبدأ، والحساب معروف المبدأ، فقد خرفت، لأنّ مبدأها من العقل، وممرّها من اللّفظ، وقرارها في الخطّ، وأنت إذا قلت هذا جهلت من نفسك على أنّه ليس لك علم تُبصر به هذا المبدأ الشّريف.

- وأمّا قولك: " والبلاغة زخرفة، وهي شبيهة بالسّراب"، فقد أوضحنا لك فيه ما كفّى، فإن لم يكف، فأنت محتاج إلى بيّنة أخرى " [2].

---

[1] - كريستيان بلانتان، الحجاج- ترجمة عبد القادر المهيري، المركز الوطنيّ للتّرجمة، دار سيناترا، تونس، ط02، 2010م، ص43.

[2] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص80-83.

من خلال هذا التّواصل الحواريّ بين الطّرفين، والّذي يظهر على مضمونه أنّه فعل حجاجيّ تفاعل فيه أطراف النّقاش، هذا التّواصل يكتنفه نوع من الصّراع الفكريّ المعرفيّ، ويتمثّل في مناظرة حول قضيّة الأفضليّة والمقارنة بين علمين من أهمّ وأرقى علوم الإنسان، هما: علم البلاغة وعلم الحساب. فمبادرة المتكلّم في وضع خطّة حجاجيّة، دالة على سِعة ما تستوعبه ذاكرته من أدّلة تمكّنه من الانتصار على خصمه، والتّفوّق عليه. هذه الخطّة مرتّبة الأقوال والأفكار بحسب ترتيب خطاب "ابن العميد"، ومحاولة إعطاء لكلّ مقال من أقواله حُججا تُفنّد وتُساهم في دَحض آرائه، على اعتبار أنّها لا تخضع للعقل، ولا للحسّ.

ففي هذه المناظرة نجد أنّ التّوحيديّ قدّم مجموعة من الحجج على النّحو الآتي:

- " اِعلم أنّ البليغ مُشتَملٍ بلاغتَه من العقل، ومأخذه فيها من التّمييز الصّحيح" ح1.

- " البلاغة ← هي الجدّ وهي الجامعة لثمرات العقل".ح2
← مبدأها من العقل.ح3
← وممرّها من اللّفظ.ح4
← وقرارها من الخطّ.ح5

- " وأنت إذا قلت هذا جهلت من نفسك على أنّه ليس لك علم تُبصر به هذا المبدأ الشّريف".

فكلّ تلك الحجج تبيّن مدى جهل "ابن العميد"، وليس له علم يبصر به هذا المبدأ الشّريف المتمثّل في البلاغة. وتلك هي النّتيجة الّتي استقاها التّوحيديّ من محاورته معه، بطريقة تداوليّة ووظيفة حجاجيّة أصابت الهدف، وحقّقت فعل التّأثير فيه، وصولا إلى تغيير رأيه واستسلامه. لقوله: " ما قام من مجلسه إلاّ بعد الذلّ والقَمَاءة *، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكلفِ *، والشّمس بالكسوف، وانتحل الباطل، ونصر المبطل وأبطل الحقّ، وزَرَى على المُحقّ " [1]. فقال الوزير: " هذه جملة قامعة * لمن ادّعى دعواه أو نحا منحاه " [2].

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة،الجزء الأوّل، ص85.

* القماءة: الدّناءة. / الكلف: لون بين السّواد والحمرة.

* قامعة: رادعة.

[2] - السابق ذكره، ص85.

التّوحيديّ دافع عن علم البلاغة بكلّ بلاغة، مُستحضرا قضايا مرتبطة باللّغة، لأنّ البلاغة عنده طريقة في الكلام، ووسيلة إبداعيّة لإيصال ما يجول في ذهنه من أفكار ومعارف. مُدعّما ذلك بصيغ تفضيل، وأسلوب تكرار معاني الألفاظ، كما وظّف بعضا من المصادر الشّرعيّة، ومصادر تاريخيّة كالشّعر وغيره، وكلّها حجج تحمل وظيفة بلاغيّة، هذه الأدوات الحجاجيّة تساهم في دحض وإبطال الرّأي الآخر، وتؤكّد أقوال الرّاوي الّتي من خلالها يُحال أن يقنع المتلقّي ويوجّهه إلى حقيقة البلاغة ودورها في تشكيل الكلام، وجعله يبدو أكثر وضوحا وفهما وإقناعا للآخر. لذا فالسّارد استطاع أن يتّخذ السّرد وسيلة لعرض معارفه من جهة، ومن جهة ثانية إقناع المتلقّي وتوجيهه. وكذلك لطرح أفكاره وحُججه في بعض القضايا العالقة في عصره، على الأقل من جهة هؤلاء العلماء الّذين اختلفوا في طرح تلك القضايا ومقارنتها ببعضها البعض، مع أنّ هذا الاختلاف في ذلك العصر، قد أُلّفت على إثره صنوف من المعارف الفلسفيّة والفكرية آنذاك.

لقد وضع التّوحيديّ استراتيجيّة محدّدة لا تقتصر على تزويد المتلقّي بمختلف المعارف والعلوم، بل يحاول أن يتواصل معه، ويؤكّد له بعض المفاهيم العلميّة والفلسفيّة بآليّة حجاجيّة، كان الغرض منها تحقيق وظيفة إقناعيّة رصد من خلالها الحجج المناسبة لتغيير ما في ذهن السّامع. لذا انتهج فعل الحجاج لغرض التّبليغ والإقناع، فجعل الكلام يرتقي إلى المستوى الحجاجيّ، متّخذا إيّاها كوسيلة ليس من جانبها الكلامي البسيط، بل من الجانب الإبداعيّ البلاغيّ فيها. والتّوحيديّ أمام مخاطبين: مخاطب أوّل هو" ابن العميد"، وتظهر هذه الشّخصيّة في سرد المناظرة الّتي جرت بينهما، استرجاعا إلى الماضي لإخبار الوزير بها. هذا الأخير يعتبر كمتلقٍ ثانٍ في مجلس السّمر بلقاء مباشر بينهما. هذه الازدواجيّة الّتي تشكّلت، وبرزت في نطاق الحوار التّداولي التّواصلي بين الأطراف المتواجدة في سرد التّوحيديّ، جعلته يأخذ مسارين، مسار سرديّ حجاجيّ معرفيّ يدخل في مضمار القصِّ، والثّانيّ:سرد معرفيّ حواريّ مباشر بين المتكلّم والمتلقّي الوزير في سياق مقاميّ تواصليّ.

فالبُعد الحجاجيّ عند التّوحيديّ يظهر في الأقوال الخطابيّة السّرديّة الّتي يتخلّلها النصّ بجميع أبعاده ومعطياته الجماليّة الّتي توحي بدورها بخصائص الإبداع السّرديّ لديه. وكذلك بالمعرفة المطلقة بأسرار اللّغة، وقدرته على استيعابها، واستعملها كوسيلة بلاغيّة للإفهام

والتّبليغ والحجاج البائن، والبيان الواضح، ويظهر ذلك فيما وجده الوزير من جواب على سؤاله، والمتمثّل في: " ما تحفظ من تِفعال وتَفعال، فقد اشتبها؟ وفزعتُ إلى ابن العميد الكاتب، فلم يكن عنده مقنع، وألقيت على "مسكويه" فلم يكن له فيها مطلع، وهذا دليل على دُثُور الأدب، وبوار العلم، والإعراض عن الكدح في طلبه. فقلت: قال شيخنا أبو سعيد السّيرافيّ الإمام: المصادر كلّها على تَفعالٍ بفتح التّاء، وإنّما تجيء تِفعالٌ في الأسماء. وليس بالكثير. قال: وذكر بعض أهل اللّغة منها ستّة عشر اسمًا لا يوجد غيرها، قال:هاتها. قال: هذا حسنٌ " [1].

إنّ لُجوء السّارد إلى الاستشهاد بقول عالم اللّغة" أبي سعيد السّيرافيّ"، هذا في حدّ ذاته حُجّة قويّة تؤدّي الوظيفة الإقناعيّة لدى السّامع ضمن الحوار المباشر بينهما. فذكر كلّ تلك الأسماء والأوزان مع ضبط عددها، يعتبر هذا دليلا قاطعا يُثبت صحّة أقواله.

المتلقّي الشّغوف بالمعرفة وحبّ العلم، يشعر باليأس؛ لأنّه لم يصل إلى مُبتغاه في قضيّة لغويّة شائكة، أثناء طرحه إيّاها على علماء الاختصاص. فكاد يفقد الأمل في الحصول على ما يصبو إليه، لكنّه سرعان ما شعر بالرّضا والاستحسان لمجرّد الاقتناع بجلّ الحجج الّتي قدّمها التّوحيديّ، راجيا منه أن يجمع له حروفا نظائر لهذا النّوع من اللّغة، مع شرحها له. وبهذا فهو استطاع بهذا الحوار التّواصليّ التّداوليّ أن يحقّق خاصيّة التّأثير في المخاطب، وتغيير توجّهاته الذّهنيّة الّتي تنعكس على سلوكه وأقواله.

الحجاج عند التّوحيديّ شكلٌ من أشكال التّواصل المعرفيّ، يشمل الوعي والحكمة فيما يمكن للمرء أن يكتسبه، ويعمل به، وفيما يُمكن تجنّبه لأنّه يُخالف العقل والحسّ معًا.هذا الطّرح المعرفيّ كان باعثه الحقيقيّ هو الفضول المعرفيّ لدى " الوزير"، وحبّه الشّديد للثّقافة، وذلك بالخوض في قضايا الإنسان، وما يمكن أن يعتقده في حياته. هذه القضايا ارتبطت ارتباطا وثيقا بالتّواصل المقاميّ وفق شروط تداوليّة بين الطّرفين.هذه التّداعيات كلّها ساهمت في إجبار السّارد، وإخضاعه للإجابة على جملة من القضايا الثّقافيّة الّتي تمسّ الإنسان وإيمانه واعتقاده، كالشّريعة والفلسفة...، في خطابه السّرديّ تحكمها مقتضيات

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص178.

تبرير ونَبْذ كلّ كلام يشوبه بُهتان وتَيه وضلال، وإثبات مصداقيّة كلّ قول وجيه وصحيح، قريب من العقل والمنطق، وذلك بالحجّة والدّليل. وهذا ما يتراءى لنا في مجالس زوال المغيب، والسّمر اللّيليّ، مع حضور السّؤال في حضرة ووجود فيلسوف الأدباء، وذلك "أنّهم قالوا: الشّريعة قد دنّست بالجهالات، واختلطت بالضّلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ الفلسفة، وذلك لأنّها حاويةٌ للحكمة الاعتقاديّة والمصلحة الاجتهاديّة، وصنّفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة.وسموها "رسائل إخوان الصّفاء وخلاّن الوفاء"...، فقال الوزير: هل رأيت هذه الرّسائل؟ قلت: قد رأيت جملة منها...، وحملت عدّة منها إلى شيخنا " أبي سليمان المنطقيّ" ثمّ ردّها عليّ ، وقال: ..." [1]. المبدع يعرض لنا حجج هؤلاء المؤيّدين للفلسفة، فحجّتهم الأولى: أنّ الشّريعة قد دنّست بالجهالات.

- والثّانيّة: أنّها اختلطت بالضّلالات.

- والنّتيجة: ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ الفلسفة. بحجّة أنّها حاوية للحكمة.

- الرّابط الحجاجي:أنّ للتّأكيد و" الواو" لربط الحجج بالنّتيجة.

وتَهالت الحُجج وتَصاعدت في سُلّم حجاجيّ بلاغيّ تنمّ على الحكمة في الطّرح النّابعة من سلاسة اللّفظ وعُمق المعنى لدى المبدع، استنادا إلى ما أقرّه " أبي سليمان" من حجج دامغة بعد القراءة المستفيضة لتلك الرّسائل، فقال: " إنّ الشّريعة مأخوذة من الله – عزّ وجلّ- بوساطة السّفير بينه وبين الخلق عن طريق الوحي، وباب المنجاة وشهادة الآيات، وظهور المعجزات... " [2]. لقد جاءت الحجج متواليّة مع بعضها بواسطة حرف" الواو" لترتيب الحجج وتعاقبها مع بعضها البعض، فحرف: الواو كرابط في الفعل الحجاجيّ يأتي لِدعّم النّتيجة المطروحة.

- الرّابط الحجاجيّ: الواو.

- الحجّة1: الشّريعة مأخوذة من الله تعالى عن طريق الوحي.تؤدّي إلى نتيجة أنّها باب المنجاة. والحجّة2: وشهادة الآيات وظهور المعجزات.

---

[1] - المصدر السّابق، ص179-180.

(*) انتظمت: امتزجت

[2] - المصدر نفسه، ص181.

وكلّ هذه الحجج والدّلائل المطروحة من طرف المتكلّم. تخدم نتيجة ضمنيّة واحدة تتمثّل في الإيمان بالله تعالى، وأنّ الشّريعة الإسلاميّة نزلت عن طريق الوحي.
فكلّ تلك الرّوابط مثل الواو وإنّ ولام التّعليل...، فعّلت الوظيفة الحجاجيّة في نصّ التّوحيديّ. وهو بدوره يوظّف اللّغة دائما لصالحه لكي يصل إلى أغراضه ومبتغاه والمتمثّل في سرد المعرفة، وتزويد المتلقّي بالمثاقفة مع فرض قوّة فعل الحجاج في أقواله، وتحقيق الوظيفة الحجاجيّة.

" قال: فأين الدّين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ من الوحيّ النّازل، من الشّيء المأخوذ بالرّأي الزّائل؟ " [1].
السّارد يعرض حججه بطريقة استفهاميّة لا ينتظر منها جوابا، بل إنّها توحي بسؤال مجازيّ يعمل عمل الحجّة، بطريقة ضمنيّة تنبئ عن الفروق الواضحة بين الدّين كعقيدة سماويّة، وبين الفلسفة كنظريّة وضعيّة.
- الحجّة1: الدّين مأخوذ من الوحي النّازل.
- الحجّة2: الفلسفة مأخوذة بالرّأي الزّائل.
- والنّتيجة ضمنيّة مفادها أنّ: لا وجه مقارنة بين ما أنزله الله تعالى بالوحي على نبيّه الكريم، وبين ما هو موضوع من طرف البشر، على أنّه يُفترض مسبقا أنّ كلام الخالق لا يُقارن بكلام المخلوق.

يقول: " إنّ الفلسفة حقّ لكنّها ليست من الشّريعة في شيء، والشّريعة حقٌّ لكنّها ليست من الفلسفة في شيء، وصاحب الشّريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، وأحدهما مخصوص بالوحي، والآخر مخصوص ببحثه، والأوّل مكفيّ والثّاني كادح، وهذا يقول: أُمرتُ، وعلمت، وقيل لي، وما أقول شيئا من تلقاء نفسي، وهذا يقول: رأيت، واستحسنت، واستقبحت... " [2].

---

[1] - المصدر السّابق، ص183.

[2] - نفسه، ص189.

هذه الحجج يمكن أن نمثّلها بالسلّم الحجاجي بحسب قوّة فعل الحجاج:

- " الشّريعة حقّ لكنّها ليست من الفلسفة في شيء- صاحب الشّريعة مبعوث - الشّريعة مخصوصة بالوحي - وهذا يقول: أُمرتُ، وعلمت، وقيل لي، وما أقول شيئا من تلقاء نفسي.
- " الفلسفة حقّ لكنّها ليست من الشّريعة في شيء - صاحب الفلسفة مبعوث إليه - مخصوص بالبحث - وهذا يقول: رأيت، واستحسنت، واستقبحت.

- ما قاله حقّ
- الوحي
- النّبيّ
- الشّريعة

- قد يحتمل قوله الصّدق
- مخصوص ببحثه
- الفيلسوف
- الفلسفة

كلّ تلك الحجج المرتّبة أخذت منحًى تصاعديّا بحسب قوّة فعل الحجاج، فكلّما كانت الحجّة أكبر تكون منزلتها في السلّم الأقوى صُعودا؛ أي ترتيبها يكون الأعلى. تؤدّي إلى نتيجة ضمنيّة أراد السّارد أن يعلمها السّامع على افتراض أنّه لا وجه مقارنة بين الكلام المنزّل، والكلام الوضعيّ من طرف البشر.

إنّ تعدّد هذه الحجج وترتيبها بواسطة الرّابط الواو دلالة على أهمّيتها، وتكثيف السّارد لها، ليدعّم النّتيجة الّتي يستقيها المتلقّي ضمنيّا من خلال قوّة فعل الكلام الحجاجيّ.

وبهذا كلّه فطرح هذه القضيّة بالمقارنة وفق الحجج والبراهين العقليّة، كانت بمثابة صرح معرفيّ استحوذ عليه المبدع من خلال علماء عصره، واستطاع بكلّ جدارة أن يقنع السّامع بما يُمكنه معرفته بخصوص الشّريعة السّماويّة والفلسفة الوضعيّة.

والتّوحيديّ عالم وخبير ومطّلع على كلّ دروب وضروب الحياة العقليّة والعلميّة، ويظهر ذلك قراءاته، ومجالسته لعلماء عصره، وإلا فكيف يختاره الوزير طرفا جليسا ومؤنسا في السّمر اللّيلي، ما لم يكن يدرك جيّدا ويعلم بما لديه من معارف وثقافة واسعة تؤهّله لأن يصير المسؤول عن قضايا المعرفة في عصر الحاضر والماضي القديم.

فبمجرّد أن يُدلي بكلّ تلك النّصوص الحجاجيّة، ويقوم باستحضارها لغرض التّعليل والإقناع، ونعني الرّأي القائل: بأنّ الفلسفة بمنزلة الشّريعة. فكان الاستفهام حول ذلك يُوحي بـ: معنًى ضمنيّ، يستشفّه تفكير وذهن المتلقّي. أنّه لا مجال للمقارنة بينهما ، وأنّ الشّريعة لها منزلة رفيعة على الفلسفة الوضعيّة، ولا يوجد أوجه اتّفاق وتشابه بينهما، فالمفارقة واضحة وبعيدة كلّ البعد عنهما، مُستدلاً بجميع الحجج وعبارات التّوكيد، كما وظّف التّعابير المجازيّة المتمثّلة في الاستعارة ف" لا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ بالفلسفة"، هذه الصّور البيانيّة تضطلع إلى وظيفة تصويريّة في تجسيد المعنى، وساهمت بشكل جليّ في توضيح المعنى، وإعطائه بعدا مفاهيميّا بلاغيّا لدى المتلقّي، ينمّ عن جمال التّصوير، وقوّة المعنى الّذي أسهم بشكل واضح في نُشوء قوّة حجاجيّة من طرف المتكلّم، فبادر إلى وضع الفروق بين القضيّتين، من خلال تلك الخطابات الحجاجيّة المنطقيّة والعقليّة الّتي سخّرها المبدع في ذلك المقام التّواصليّ الحواريّ، وبراهين واقعيّة، وفق سُلّم حجاجيّ بدءًا من الشّواهد الوضعيّة وصولا إلى النّصوص الشّرعيّة الّتي قطعت الشّك باليقين. ولاحت في الأفق الحقيقة، وبانت نوايا من نَاصر الفلسفة الوضعيّة على لشّريعة السّماويّة، وبُهت من كان يُساروه الشكّ، وتمّ حصول الإقناع. فشعر المتلقّي بتعجّب يوحي بتأثّره لما قيل. "فقال:هذا كلام عجيب، ما سمعت مثله على هذا الشّرح والتّفصيل " [1]. فكان هذا الحوار التّواصليّ علامة واضحة على رقيّ الفكر العقلي للرّاوي، يعكسه ذلك الخطاب المعرفيّ الحجاجيّ لديه الموجّه للمتلقّي ، وهذا الأخير بدوره يرنو إلى الإحساس بالمتعة والأنس والإفادة. كأنّه ينتهز فرصة وجود التّوحيديّ، وكأنّه أمام لقاء لا ينتظر منه، ولا يمكنه أن يتكرّر بالنّسبة له. فما عليه إلاّ أن يصبّ كلّ تساؤلاته في مقام المجلس، ليظفر ويفوز بالمعرفة قبل وداع الرّاوي.

وبالرّغم من أن هذا الانسجام قد استفحل في المقام التّواصلي بين الشّخصيتين، إلاّ أن المبدع يصبو إلى أن يُظهر كلّ ما لديه لإقناع السّامع، لذا نلمس بعض الصّراع الخفي بين شخصيات الحوار، يبدو فيه نوع من التّضارب وإثبات وجود، ورفع التّحدّي، من طرف

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص193.

الرّاوي المتكلّم. خاصّةً وأنّ المتلقّي في منزلة أعلى وأرقى من المبدع، لكن سُرعان ما تتغيّر المراكز والمواقع، ويصبح من يُؤثّر في الآخر ويُقنعه بما لديه وبقدراته المعرفيّة الفائقة الّتي أهّلته إلى سرد الأقوال، ورصدها وإثباتها بالحجّة والبيان هو الأقوى. والبقاء للأقوى ؛ معرفةً وعلمًا.

الحجاج قوّة تأثيريّة في نفسيّة المخاطَب، ويتجلّى ذلك التّأثير متى كانت تلك الأدلّة والشّواهد صادرة من العقل والتّفكير السّليم، والمعرفة الّتي تُحيط بكلّ مناحي الحياة الإنسانيّة. ومعرفة متنوّعة صاغها التّوحيديّ للإجابة على تساؤلات وانشغالات في ذهن المتلقّي، فيبسطها ضمن المقام التّواصليّ المستمرّ بينهما. لتحقيق غاية تداوليّة، كان القصد منها توجيه وتعليم المخاطَب، وتغيير فكره. وهذا كلّه ليس لمجرّد الإخبار فقط، بل تعدّاه إلى وظيفة الإقناع بالحجّة، والتّبرير الوجيه بواسطة أسلوب بلاغيّ يعكسه المعنى القويّ. والبلاغة عند التّوحيديّ سلاح لإقناع الآخر ضمن سياق تواصليّ تداوليّ أخذت فيه اللّغة مرتبة الشّرف بين أطراف الحوار. فالمبدع متمكّن من ضروب البلاغة، فيكون الكلام الصادر مفهوما بالنّسبة له، أمّا المتلقّي فيكفي أنّ له انطباع تأثيري تعجّبي نتيجة إعجابه وولهه بالكلام، وهذا دليل على مدى استيعابه له.لأنّ اللّغة الوسيلة الوحيدة لتغيير الفكر وإقناع السّامع. و " قال: - أدام الله دولته- ليلة: أحبّ أن أسمع كلاما في مراتب النّظم والنّثر...، فكان من الجواب: إنّ الكلام على الكلام صعب...، وسمعت أبا عابد يقول: النّثر أصلُ الكلام والنّظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع...، وقيل: النّثر من قبل العقل، والنّظم من قبل الحسّ...، وقال: ولشرف النّثر، قال الله تعالى في التّنزيل:" إِذَا رَأَيْتُهُمْ حَسِبتهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورا"[الإنسان19]، ولم يقل لؤلؤا منظومًا. وقِيل الكلام المنثور أشبه بالوشيّ، والمنظوم أشبه بالنير* المُخطّط.والوشيّ يروق ما لا يروق غيره. ويُقال ما أحسن هذه الرّسالة لو كان فيها بيت من الشّعر. ولا يُقال: ما أحسن هذا الشّعر لو كان فيه شيء من النّثر...، ومن فضل النّظم أنّ الشّواهد لا توجد إلاّ فيه، والحجج لا تُؤخذ إلاّ منه، يقولون: قال الشّاعر، فعلى هذا الشّاعر هو صاحب الحجّة، والشّعر هو الحجّة "[1].

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثّانيّ، ص275-278.

* النِّير: القصبُ والخيوط إذا اجتمعت.

-" النّثر أصلُ الكلام ، والأصل أشرف من الفرع - النّثر من قبل العقل.- ولشرف النّثر، قال الله تعالى في التّنزيل:" إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورا"[الإنسان19]، ولم يقل لؤلؤا منظومًا".

- الكلام المنثور أشبه بالوشيّ

- " والنّظم فرعه ، والنّظم من قبل الحسّ - والمنظوم أشبه بالنيّر* المُخطّط - فضل النّظم أنّ الشّواهد لا توجد إلاّ فيه، والحجج لا تُؤخذ إلاّ منه - - " والشّعر هو الحجّة".

- " ويُقال ما أحسن هذه الرّسالة لو كان فيها بيت من الشّعر. ولا يُقال: ما أحسن هذا الشّعر لو كان فيه شيء من النّثر".

السّارد عقد مقارنة بين النّظم والنّثر، فتتفرّع على إثر ذلك مجموعة من الحجج تصبّ كلّها في القضيّة الأولى الّتي طرحها، وهذه الفروع تقتضيها عمليّة المقارنة بين فنّين من فنون الأدب ألا وهما فنّ النّظم والنّثر، فبادر المبدع إلى ذكر الحجج المتتابعة ليتسنّى له المقارنة بينهما على اعتبار أنّ النّظم نال حظّه عبر سيرورة تلك الحجج الفرعيّة الّتي استطاعت أن تخدمه لكون بمثابة نتيجة.

وكذلك مجموع تلك الحجج الفرعيّة استطاعت أن تخدم فنّ النّثر، وخاصّة الدّليل المتمثّل في النصّ القرآنيّ كحجّة على أنّه الأفضل.

وقوله: " في الجملة أحسنُ الكلام ما رقّ لفظه، ولطف معناه، وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنّه نثر، ونثر كأنّه نظم " [1].

فمجموع هذه الجمل تربطها نتيجة واحدة هي: أحسن الكلام. أمّا باقي الجمل المتسلسلة بواسطة الرّابط " الواو"، والّذي دلّ على ترتيبها وربط كلّ حجّة منها بالنّتيجة. على النّحو الآتي:

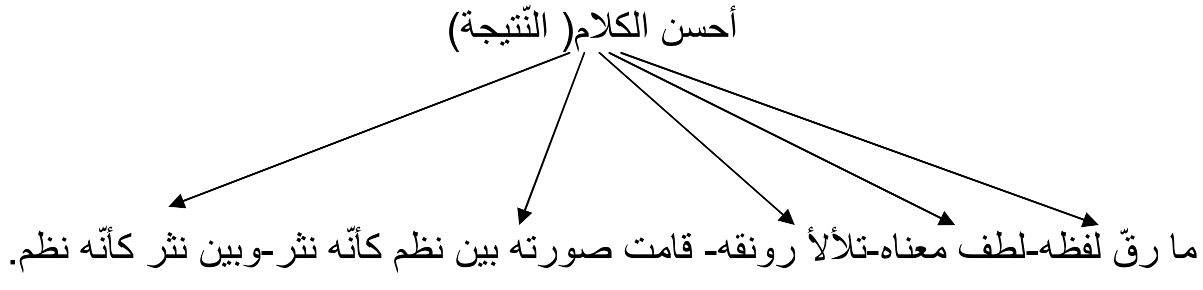

---

[1] - السّابق، ص283.

فالتّوحيديّ يسرد حججا ممّا جادت به قريحته عن فكر وثقافة علماء عصره، واستشهد بها ليقنع المخاطَب بميزات كلّ من النّثر والنّظم من خلال بيان مناصريّ كلّ منهما، مبديا عناصر الجمال والإحساس الّذي ينبع من كليهما، فهما يعتبران بالنّسبة له من فنون الأدب والبلاغة والحجّة الدّامغة في الخطاب الحجاجي لتفنيد الرّأي المخالف.

وبهذا فهو حاول إبراز خصائص هذه الفنون وما مدى أهمّيتها، واختلاف وجهات النّظر فيها، مُبديا جانب البيان والبلاغة في خطابه، وذلك بإضفاء صورة جماليّة تمثّلت في تشبيه النّثر بالوشيّ، والنّظم بالصّناعة المتناسقة، هذا التّصوير البيانيّ قرّب المعنى للمتلقّي، مبيّنا له أنّ كلّ من النّثر والشّعر خطابٌ فنّي بلاغيّ استوفى كلّ عناصر الجمال بألفاظٍ بديعة ومعانٍ زاخرة بالمدلولات الموحية والعميقة، اختصرها الرّاوي في كلامه بأنّها إبداع وفنّ يرتكز على مدى حُسن الكلام بإظهار رونقه العذب وجماله الأخّاذ، ومعناه الخلاّب، سواء كان نثرا أو شعرا. فإنّ غايته تكمن في الإفادة والإمتاع.

الفعل الحجاجيّ غمر الخطاب المعرفيّ عند التّوحيديّ، واستطاع أن يُظهر فيه البعد التّداوليّ المبنيّ على التّواصل المعرفيّ من جهة، ومن جهة ثانيّة تمكّن من تحقيق الوظيفة الإقناعيّة الّتي ساهمت في استمرار التّواصل ضمن السّياق. بالإضافة إلى أنّ تلك الحجج الّتي عُرضت على السّامع أسهمت إلى حدٍّ كبير في إعطاء الكلام بُعدا بلاغيًّا يعكس لنا غاية فنيّة جماليّة، وجوانب معرفيّة انتهج فيها الفعل الحجاجيّ ليصل لهدفه الأسمى وهو تزويد المتلقّي بالمعارف والعلوم، ومحاولة إقناعه والتّأثير فيه. وقد يلجأ في ذلك إلى الاستعانة بالوصف بهدف تمثيل الأشياء وإبراز جوانب الجمال فيها.

فعل الوصف ووظائفه الجماليّة التّأثيريّة:

يعتبر الوصف من الآليات الفنيّة الّتي تساهم في توضيح معالم الأشياء والشّخصيات، ويُساهم في تقريب الصّورة للمتلقّي في إطار تداول الكلام، وضمن سياق تواصليّ محدّد، لذا فالوصف هو " تقديم (تمثيل) الأشياء والكائنات والمواقف أو الأحداث في وجودها المكانيّ، عوض عن وجودها الزّمنيّ...، ويمكن أن يكون الوصف تفسيريّا/ وظيفيّا (يؤسّس الطّابع العام السّائد)، أو ينقل معلومات أو يُسهم في رسم الشّخصيّة " [1]. وبالتّالي فهو يوّضح معالم الأشياء بناءً على ما يقتضيه المقام التّواصليّ.

إنّ بلاغة الخطاب السّرديّ عند أبي حيّان، لا تخلو من جانب التّصوير البلاغيّ الّذي يظهر جليًّا في الجوانب المعرفيّة لديه والّتي طَفَت وبرزت على سطح السّرد. وبَدَت معالمها، وأغراضها البيانيّة تفرض نفسها في السّياق التّواصليّ سواء لغرض الإفصاح أو التّوجيه أو الإخبار، أو بالحجّة والبيان. بأنماط وأساليب بلاغيّة فنيّة مُتعدّدة بدءًا من خاصيّة الحوار الّتي يصنع الخطاب الحجاجيّ، ويُضفي جماله بمسار السّرد وتناميه بين الرّاوي والمخاطَب، بالإضافة إلى البنية السّرديّة الّتي احتضنت جميع المعارف الإنسانيّة بآلية الإخبار والحجاج معًا. كما استطاع الرّاوي أن يستلهم من نمط "الوصف" بُعدًا جماليّا تجسّد في الخطاب الحجاجيّ المُوجّه إلى المتلقّي. لهذا فالصّفة " تُعدّ من الأدوات الّتي تُمثّل حجّة للمرسل في خطابه، وذلك بإطلاقه لنعتٍ معيّنٍ في سبيل إقناع المرسل إليه...، فالصّفة تمثّل أداة في الفعل الحجاجيّ، وعلامة عليه " [2]. لأنّه بذكر الأوصاف تنكشف معالم الأشياء، وتبدو واضحة، خاصّة إذا كان الهدف منها إقناع الطّرف المحاور، فضروريّ إبداء الجوانب الأساسيّة فيه، والّتي تُعطي الطّابع العام له وذلك برسمه بوضوح. والهدف من ذلك كلّه قد يكون في تغيير ما في ذهن المتلقّي أو توجيهه إلى أمور لم يكن في وسعه معرفتها. وهذا يتراءى لنا جليّا عند التّوحيديّ الّذي يَعمَدُ إلى وصف بعض الشّخصيات في سرده لغرض إبعادهم عن مجالس الوزير لأنّها أساءت له. فيُبدي من خلال خطابه الحجاجيّ

---

[1] - جيرالد برنس، قاموس السّرديات، ص43.

[2] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، ص486- 487.

صورة هؤلاء، وحمله على التّخلّص منهم. وبذلك فهو يَدعمُ غرضه الحجاجيّ لكشف الحقيقة من وصفهم بأنّ " هؤلاء سِباع ضارية، وكلاب عاوية، وعقارب لساعة، وأفاعٍ نهاشة، وَقَى الله هذا الإنسان الحُرّ المبارك الكريم الرّحيم، فإنّه شريف النّفس، طاهر الطّويّة، ليّن العريكة، كثيرُ الدّيانة، وهذه الأخلاق لا تصلح اليوم مع النّاس.

قال الشّاعر[من الطّويل]:

ومَنْ لاَ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ النّاسَ أو يكن * لهُ جَانِب يشتدّ إنْ لاَنَ جانِبُ

يَطَأ حوضَه المستوردون وتَغْشَـــــه * شوائبُ لا تَبقَى عليها النّقائبُ

وما ضاع قولهم: لا تكن حلوًا فتؤكل، ولا مُرًّا فتعاف " [1]. لقد وظّف التّوحيديّ عناصر لغويّة لإقناع الوزير بأنّ هؤلاء عُصْبة سيّئة من خلال وصفه لهم ب" سباع ضارية"، دلالة على فساد أخلاقهم، كما استدلّ بحجّة قويّة تمثّلت في نصّ شعريّ، وفحواه أنّ الّذي لا يستطيع أن يدافع عن مكانه بنفسه وبلسانه، يطأ عليه من يُدنّسه، فلا يُبقى على فضائله.

في حين أنّ الرّاوي سرد مجموعة من الشّخصيات لها باعٌ كبير في العلم والأدب، لإيصال مبتغاه، والّذي يتمثّل في الشّرح وتبرير الأقوال، وذِكر الشّخصيات، وإبراز صفاتهم لكونهم عناصر بارزة في مجال اللّغة والعلم والحكمة. وليس هذا الوصف بمنأى عن طلب الوزير، بقدر ما له من غاية عند الرّاوي، وسرده لهم بحجّة إقناعه بما لديهم من علم ومعرفة استقاها الرّاوي واستشهد بها في خطاباته الحجاجيّة ضمن السّياق التّواصلي في مجلس ومقام الوزير.فذكر أخلاقهم وما صدر عنهم من حُسن الكلام، وبلاغة الحكمة والقول، والعلم الواسع في كلّ ضروب الحياة العقليّة والفكريّة والفلسفيّة. فكان هذا الوصف باعثا قويّا لإقناع المتلقّي ليحذُوَ حذوهم. بقوله: " أمّا شيخنا أبو سليمان، فإنّه أدقّهم نظرًا، وأصفاهم فكرًا، وأظفرهم بالدّرر، ...، وأمّا " ابن زرعة": فهو حسن التّرجمة، صحيح النّقل، كثير الرّجوع إلى الكتب، محمود النّقل إلى العربيّة ...، وأمّا" ابن الخمّار": ففصيح، سبط*

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص47.

* سبط الكلام: سهله.

الكلام، مديد النّفس، يُفسد السّمين بالغثّ، ويرقّع الجديد بالرثّ..." [1]، و" أمّا "عيسى بن علي": فله الذّرعُ ** الواسعُ، والصّدر الرّحيب في العبارة، حجّة في النّقل والتّرجمة، والتّصرّف في فنون اللّغات، وضروب المعاني والعبارات...، فقال: ما قصّرت في وصف هذه الطّائفة، وتقريب البغيّة الّتي كانت داخلة في نفسي منهم " [2]، وإنّ مجرّد وصف هؤلاء من طرف التّوحيديّ، يُظهر أنّ له مقاصد نبيلة، خاصّة وأنّه مُطّلع على حياتهم وعلومهم وآثارهم، وهذا في حدِّ ذاته أمر يفتخر به الرّاوي، ويحاول بذلك إقناع المتلقّي، بأنّه مُلمٌّ بكلّ ما صدر من علماء عصره، والمردُّ الثّانيّ أنّه يُحاول توجيهه وإصلاحه، والحثّ على التّحلّي بالأخلاق الفاضلة، لمجرّد ذِكر أخلاق هؤلاء، في قوله: "...وحبُّ الدّنيا يعمي ويصمّ ...، والقلبُ متى لم ينقّ من دنس الدّنيا لم يعبق بفوائح الحكمة، ولم يقبل شعاع الأخلاق الطّاهرة المفضية إلى سعادة الآخرة " [3]. بهذا فالتّوحيديّ يُؤمن بأنّ الإقرار بالمعرفة فضيلة، والاعتراف بها للمخاطب، ومحاولة إقناعه، وبثّ فعل التّأثير في نفسه، وحثّه على العمل بها، كمالُ عقلٍ وصفاءُ سريرةٍ.

وللوصف وظيفة تواصليّة تداوليّة تمثّلت في تفصيل وصف هؤلاء للمتلقّي، ومحاولة تغيير نظرته اتّجاههم، والتّأثير فيه. سواء بتغيير نظرته نحو هؤلاء أو الالتزام بالنّتيجة الّتي خلّفتها تلك الحجج، وهي جانب التّحليّ بالأخلاق الفاضلة الّتي تؤدّي إلى السّعادة في الآخرة.

هذا التّواصل الثّقافيّ الّذي يتنامى والوظيفة المعرفيّة، وفق بلاغة الخطاب الحجاجيّ. دعّمه الوصف كتقنية جماليّة لها أبعادها التّداوليّة تتجسّد في تحقيق فعل التّأثير في المتلقّي، وتحقيق فعل الإنجاز لديه. وإنّ ارتباط السّرد بالوصف يأخذ منحًى جماليّا، فيكسب الخطاب وظيفة أدبيّة تبعث المتعة والأنس في نفسيّة المتلقّي، وتجعله أكثر اهتمام للغايات المراد تحقيقها، وتتمثّل في التّحلّي ببعض الجوانب الأخلاقيّة والجماليّة، وتوجيهه نحو الأفضل.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص39.

* الذّرعُ: الطّاقة.

[2] - المصدر السّابق، ص41.

[3] - نفسه، ص39-40.

الوصف في سرديّة التّوحيديّ، عمليّة فنيّة تخلق وظائف جماليّة، استطاع تحقيقها من خلال امتزاج المعرفة بالبلاغة، والوصف بالحجاج، والّذي يُعدّ نمطا تعبيريّا بلاغيّا. بالإضافة إلى نمط الحجاج الّذي أراد الرّاوي من خلاله تحقيق أغراضه التّوجيهيّة والإقناعيّة في سياق تواصليّ يضطلع فيه المبدع إلى تحقيق وظيفة تداوليّة ،ألا وهي إنجاز الفعل من طرف المخاطَب، وذلك بتوجيهه أو تغيير ما يجول في ذهنه، والتّأثير فيه للقيام بعمل ما.

المبدع يهدف إلى غاية هي إقناع المتلّقي والتّأثير فيه، بآليات فنيّة وبلاغيّه جماليّة استطاعت إلى حدّ بعيد تحقيق الوظيفة التّأثيريّة. انتهج فيها خاصيّة تداوليّة الخطاب وفق سياق تواصليّ ، أثبت فيه أنّ توظيف الغرض الحجاجيّ كتقنيّة تداوليّة مهمّة لإقناع المتلقّي، وبلوغ مستوى إنجاز فعل التّأثير فيه. والاستعانة بخاصيّة الوصف ضمن إطار التّواصل هو بمثابة تمثيل الأشياء وجعلها واضحة، وبهذا فهو حقّق الوظيفة التّداوليّة بكلّ آلياتها الوظيفيّة واللّغويّة والبلاغيّة، بواسطة تفعيل السّياق بجميع عناصره التّواصليّة.

التّصوير الفنيّ في الخطاب الأدبيّ خاصيّة يمتاز بها الكلام البليغ والفنّ الإبداعيّ الّذي يستحوذ على عناصر جماليّة تبعثها للوجود تلك المعاني الّذي تعجّ بالتّصوير البيانيّ والتّأليف الجماليّ. كالاستعارة الّتي " تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكريّ والعاطفيّ للمتلقّي " [1]. على اعتبار أنّ منطلق وجودها هو تلك التّعابير البلاغيّة والمجازيّة والّتي بدورها تشكّل معنًى مغايرا تماما للمعنى المقصود، فتعكس دلالات تحمل في طيّاتها وظيفة جماليّة وبلاغيّة.

إنّ أعذب الكلام أبلغُه، والخطاب السّرديّ عند "أبي حيّان" فنّ إبداعيّ بلاغيّ يصدر عن دراية وبديهة تأليف، وبلاغة واصفة تُظهر عذوبة اللّفظ، وعُمق وجمال المعنى التّصويريّ الّذي بدوره يهدف إلى مقاصد جماليّة تخييليّة، تُساهم في بيان معنى اللّفظ، وإظهار سِرّ دلالته المُوحية إلى معانٍ خفيّة ذات مقاصد حجاجيّة توجيهيّة. وهذا ما نستشفّه بين ثنايا السّرد عند التّوحيديّ، والّذي يجمع بين الوظيفة السّرديّة الّتي تضطلع إلى تحقيق تواصل

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، ص495.

إخباريّ معرفيّ، والوظيفة الحجاجيّة التّداوليّة ضمن سياق تواصليّ له مقاصد سرديّة جماليّة تُوحي بالجانب الأدبيّ الفنيّ فيه، ومقاصد أخرى بيانيّة بلاغيّة تُفعّل الخطاب الحجاجيّ وفق أغراضه التّوجيهيّة والتّعليميّة، وكلّها ساهمت في التّأثير في المتلقّي، وتغيير نظرته لكلّ القضايا الفكريّة الّتي غمرت محيط المجلس أثناء الحوار والتّداول المعرفيّ. والشّرح بالبيان والحجّة لما قد يتطرّق إليه المتلقّي ويسأل عنه. كما جاء في سؤاله عن رسالة " لوهب بن يعيش" اليهوديّ، يقول: " إنّ هنا طريقًا في إدراك الفلسفة مذلّلة مختصرة فسيحة، ليس على سالكها كدٌّ ولا شقّ في بلوغ الحكمة...، وإنّ أصحابها طوّلوا وهوّلوا وطرحوا الشّوك في الطّريق...، فكان من الجواب: ...إنّه شديد الفقر، ظاهر الخصاصة، لاصق بالدّقعاء*، وللّذي قاله وادّعاه، وقصده وانتحاه، وجه واضح وحجّة ظاهرة. وللّذي قاله أصحابنا – أعني مخالفيه- وجه أيضا وتأويل، وللقولين أنصار وحُماة، وحفظة ورُعاة. فكان من الجواب أنّ ابن يعيش يريد بهذه الخطّة أنّ عمر الإنسان قصير، وعلم العالم كثير، وذو نضائد* مزيّنة بالتّأليف المعجب المتقن " [1]. لقد بيّن المتكلّم أثناء سرد رسالة ابن يعيش الطّويلة للوزير، مجموع الحجج الّتي تُنصف الرّجل، وتُؤيّد توجّهاته الفكريّة والمعرفيّة، بطريقة بيانيّة بلاغيّة غايةً في الإمتاع؛ إذْ توارت خلف كلامه المعاني والتّعابير المجازيّة " الفلسفة مذلّلة ومختصرة وفسيحة"، جسّد الفلسفة كأنّها أرض واسعة، فالاستعارة دائما أبلغ من الحقيقة. والصّور الكنائيّة هي " صور بلاغيّة يُحدّد بها أحد الألفاظ فكرة ما، تُستخدم بدل من لفظ آخر يُحدّد فكرة أخرى " [2]. تلك الصّور الموحيّة بجمال الوصف والتّصوير، والدّالة على تبرير مقال الرّجل، والّذي تضمّن وظائف تصويريّة تمثّلت في الكناية في قوله:" طوّلوا وهوّلوا وطرحوا الشّوك في الطّريق"، كناية عن وضعهم للعراقيل والصّعوبات لدى طلاّب العلم والحكمة والمحبين للحقيقة. وكناية فقره المدقع وحاجته الشّديدة في قوله:" ظاهر الخصاصة لاصق بالدّقعاء". و" وللّذي قاله وجه

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص86.

* الدّقعاء: التّراب الدّقيق على وجه الأرض.* نضائد: الوسائد.

[2] - جيرالد برنس، قاموس السّرديات، ص110.

واضح وحجّة ظاهرة". وكناية عن وضوح كلامه للعيان معنًى ودلالة. و" نضائد مزيّنة بالتّأليف المعجب المتقن"، و" ليس على سالكها كدّ ولا شكّ في بلوغ الحكمة". هذه الصّور المجازيّة، والّتي تمثّلت في الاستعارة والتّشبيه، جسّدت الكلام المتقن التّأليف كأنّه نضائد في الوشي والزّينة، والفلسفة مسلك وطريق لا نشقى ولا نتعب في بلوغه. هذه الصّور البيانيّة الاستعاريّة البلاغيّة لها وظيفة تداوليّة أفصحت عن كُنه الكلام، وبيّنت رقيّه ومستواه التّصويريّ البلاغيّ، كما لها وظيفة تصويريّة، ومقاصد جماليّة تخييليّة، تظهر بعمقٍ في الخطاب الحجاجيّ، انتهجها الرّاوي كالتّشبيه في قوله: " ثمّ واجه "متى"، فقال له: حدّثني عن المنطق ما تعني به؟ قال "متى": أعني به أنّه آلة من آلات الكلام، يُعرف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه، كالميزان، فإنّني أعرف به الرّجحان من النّقصان، والشّائل من الجانح، فقال أبو سعيد: أخطأت، لأنّ صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالنّظم الألوف والإعراب المعروف...، فأنت كما قال الأوّل[من البسيط]:

حفظتَ شيئًا وغَابَت عَنْكَ أَشْيَاءَ " [1].

هذا التّوجّه الحجاجيّ استلهمه الرّاوي من خلال المناظرة الممتعة حجّةً وبلاغة، والّتي جرت بين عالم المنطق"متى" وأبو سعيد السّيرافيّ"، طغى عليها التّصوير البيانيّ في طرح وإعطاء وتبرير الحججّ، واختلاف البيان عند التّوحيديّ يكمن في طرق " الإيضاح والكناية، والإفصاح والتّشبيه والاستعارة " [2]. والبيان آليّة حجاجيّة تداوليّة تُؤدّي دورا وظيفيّا في الحوار التّواصلي بين أطراف الكلام ضمن سياق مُعيّن لاستيعاب وفهم الخطاب الحجاجيّ المتداول بينهم. فيتولّد عن تلك الحجج الّتي امتزجت بالسّرد التّأثير في المتلقّي، لأنّها تضمّنت مقاصد بلاغيّة مُضمرة ساهمت في بناء فعل الإقناع وإفحام الطّرف المقابل في العمليّة التّواصليّة. وكلّ عكسه أسلوب جماليّ انتهجه الرّاوي في السّياق التّداوليّ لتقريب الحجج للمتلقّي، والسّعي إلى أقناعه بها. هذا الطّرح المعرفيّ صبغته الصّور البيانيّة بلمسات جماليّة سحرت اللُبَّ، ومن البيان لسحرٌ، فاستطاعت بذلك أن تُقرّب المعنى للعقل والحسّ معًا.

---

[1] - الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأوّل، ص89.

[2] - نفسه، ص158.

ناهيك عن مجموع الرّوابط اللّغويّة الّتي زاحمت الخطاب السّرديّ وألهمته ترابطا قوّيا ظهر بين طيات معانيه، واستحكم به البناء اللّغوي أجزاءه، بما يقتضيه التّراكيب والأنساق اللّغويّة، من مبالغة في القول، مع ذكر ترادف المعاني، وأضدادها، وأسماء التّفاضل ومعانيها الزّاخرة بالمدلولات العميقة بين الجمل، فأضفت عليه غزارة وعمق في المعنى الدّلالي بتلك الألفاظ الموحية، على نحو قوله: " أسهلُ الأسباب...، أقربُ الطّرق، وأطلعُ على هذا التّفضيل...، الأكبرُ والأعظمُ...، صعبٌ وشاقٌ، الرّدئ والفاسد. قليل أو غزيرٌ، أين ذاك الفرد والشّاذ والنّادر؟...، إلاّ أن تُقلّدُه وتأخُذُ منه، وتتّبعهُ "[1]. جلّ هذه الآليات الحجاجيّة دعّمت المعنى، وأظهرت البيان والحجج بسلاسة كلماته العميقة المعاني، وأضدادها الموحية لمعانٍ ضمنيّة، يستطيع الذّهن إدراكها وفهم أغوارها العميقة الدّالة على رَحابة وتنوّع الدّلالات. وبالأضداد تتّضح المعاني، والتّصوّرات أمام المتلقّي بهدف إقناعه، والتّأثير فيه وتحقيق فعل الإنجاز.

فالتّوحيديّ في خطابه السّرديّ استطاع أن يُجنّد كلّ الآليات والعناصر البلاغيّة ليحظى بخلق خطاب سعى من خلاله إلى تحقيق عدّة وظائف تبليغيّة وإقناعيّة وبلاغيّة وجماليّة الهدف منها جميعا تحقيق الوظيفة التّأثيريّة، وذلك من خلال قوّة فعل الكلام الّذي انتهجها بطريقة تداوليّة ضمن المقام الحواري التّواصليّ بينهما. ولم يكتف فيها بتزويد المتلقّي بالمعارف والعلوم ، بل لجأ إلى الوظيفة الحجاجيّة محاولة منه تأكيد بعض المفاهيم العلميّة لديه، ويعمل على التّأثير فيه، وتغيير بعض وجهات نظره، وتوجيهه نحو الأفضل.

---

[1] ـ المصدر السّابق، ص87.

الخاتمــــة

الإمتاع والمؤانسة خطاب سرديّ حافظ على وجوده عبر الزّمن،؛ لأنّه لم يتغيّر إلاّ من جانب واحد، وهو خضوعه لقراءات وتأويلات عديدة، ومع ذلك فإنّه لا يزال يلوح ببعض السّمات والمميّزات الّتي تجعل منه قابلا للقراءة وفق التّنظير التّداوليّ النّقديّ الحديث، للوصول إلى أبعاده الجماليّة، وسرّ إمتاعه، ووظيفته التّأثيريّة، وذلك عن طريق قراءته من أجل البوح لنا بأسراره الإبداعيّة الّتي تتوارى خلف ظلال المعاني والدّلالات عن طريق آليات التّداوليّة كمنهج استطاع أن يُسهم بشكل كبير في إظهار الأنساق والتّراكيب والمعاني، والنّظام اللّغويّ لديه، وهذا كلّه ضمن سياق التّواصل والاستعمال اللّغوي في الحوار التّداوليّ بين المبدع والمتلقّي، فيمكّننا من فكّ رموز الخطاب، ومدى إنجاز قوّة الفعل عن طريق تأويل الأقوال والكشف عن عناصر التّواصل والإبداع فيه.

الخطاب السّرديّ التّوحيديّ نصّ يحمل في طيّاته وظيفة تخاطبيّة شكّلتها تلك المحادثة في ظلّ وجود السّارد والمتلقّي، وسياق حوار تداوليّ بجميع عناصره التّواصليّة من فضاء المكان الّذي يحتوي المجلس، وزمان السّمر اللّيلي يبعث بدوره لأنس والمتعة بين طرفيّ الحوار. إنّها خطاب حواريّ أعلن عن وظيفة تداوليّة مبنيّة على أساس قولي حواري بين الطّرفين تجسّد عبر أقوالهما، بالإضافة إلى سرد أقوال باقي الشّخصيات الأخرى الّتي تخلّلت ثنايا الخطاب وجعلت منه سردا حواريّا حجاجيّا عكس لنا معرفة العصر وعلومه، وثقافة وفلسفة علمائه. وذلك من خلال ما تكنّه ذاكرة المبدع من معرف فاقت حدود العصر لعصور سبقته بقراءاته المكثّفة وعلمه بما صدر من علماء عصره وسابقيه.

المبدع زاوج بين السّرد والحوار والحجاج بالقول والحجّة، هذه العناصر جميعا أعطت خصوصيّة للنصّ السّرديّ وجعلت منه خطابا ذا وظيفة معرفيّة وجماليّة فنيّة، امتزج فيها التّواصل التّداولي بين الشّخصيات بالمعرفة العلميّة، والجوانب الأخلاقيّة التّوجيهيّة، وجميع تلك الوظائف الّتي أراد السّارد تحقيقها في خطابه خلقت إيديولوجيّة حقيقيّة عكست واقع العصر وامتزجت في المقام التّواصليّ، فكان القول والمحادثة فيه أساس وغرض وظيفيّ لترسيخ مجموعة من القيم العلميّة والأخلاقيّة ناهيك عن المعرفة المتنوّعة في جميع مجالات الحياة الطبيعيّة ضمن سياق تواصليّ يهدف المبدع من خلاله إلى تحقيق الفعل الإنجازيّ في عمليّة التّواصل التّداوليّ والتّأثير في المتلقّي وحمله على الالتزام بالقيم الإنسانيّة الفاضلة.

الخطاب شكّلته مجموعة من الخطابات المعرفيّة العلميّة والأدبيّة والبلاغيّة والفلسفة، ناهيك عن التّوجّهات الدّينيّة الّتي تستحضر الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة الشّريفة، ومجموع الأقوال والمعارف المتعلّقة بالأديان والفِكر والمواعظ والحكم، واللّغات والبلدان والحيوان، وجانب من الحكمة وأنواع السّلطة والرّعيّة. مع استحضار مجموع أسماء الفلاسفة اليونانيين، وأعلام العرب الشّرقيين. كلّ ذلك الخضمّ المعرفيّ مُزج في بوتقة الخطاب التّوحيديّ فشكّل منه بنية سرديّة بعناصرها القصصيّة المستوحاة من سياق المقام التّواصليّ التّداوليّ بين الطّرفين. فأظهر لنا إبداعا ينمّ عن نسيج وتشكيل نصّي سرديّ لغويّ يتأرجح بين الخطابين الشّفويّ والكتابيّ، فأظهر لنا بعدا تداوليّا يكشف لنا بدوره عن الجانب الحواريّ الّذي يتعلّق بما مدى فاعليّة الكلام ضمن التّواصل وإبراز الجانب الوظيفي العملي لديه، وذلك عن طريق أهمّ آليات التّداوليّة الّتي أعطت للمحادثة سرّها ومضمونها التّداولي في سياق التّواصل، فانبثق عن ذلك جماليّة الطّرح المعرفيّ ومقصديّته وهدفه للكشف عن الفعل الكلامي المرجو الوصول إليه وتحقيقه. فكان الجانب الوظيفي الحواري في الخطاب السّرديّ يُوحي بمدى التّأثير في المتلقّي، وإلهامه مُتعة الإعجاب والشّعور بالإمتاع والمؤانسة.

النصّ شكّلته مجموعة من الأنماط استطاعت أن تُثري سرديته الإبداعيّة وتُنمّي فصول المعرفة فيه، بين خاصيّة الحوار الّذي اكتسحت ليالي السّمر، فكان لحضور المتلقّي فيه كطرف فعّال وقويّ بجميع مواضيعه وتساؤلاته المطروحة على طاولة النّقاش دورا فعّالا في إجادة المبدع وعطائه المتمثّل في طرح معارفه وحججه وأفكاره وبسطها في مجلس الوزير عن طريق الوصف أو الإخبار أو التّوجيه والتّعليم. فكلّ هذا المحتوى المعرفي أُدرج ضمن سياق تداوليّ بجميع عناصره ومعطياته الفنيّة والجماليّة، فكان للتّداوليّة كمنهج الدّور الأساس في إبراز جوانب التّفاعل بين طرفي الحوار، وإظهار مدى التّعـــاون بين المبدع والمتلقّي لاستمرار المحادثة بكلّ مصداقيّة ووضوح، وبشروط كان السّبق لها منذ بداية لقاء التّواصل كعقد اتّفاق مُحكم بينهما. وبهذا استطاع أن يحقّق غايته المنشودة ألا

وهي نجاح التّواصل، والتّأثير في التلقيّ وتوجيهه بتغيير سلوكه، في مقام تواصليّ عزّز العلاقة الوطيدة بين الطّرفين، هدفه إنجاز الفعل التوّاصل الثّقافيّ بينهما.

الحوار التّداوليّ بين المبدع والمتلقيّ أبدى عناصر وآليات التّداوليّة بشكل جعل من الخطاب يبدو لنا أنّ استعمال اللّغة ضمن مقام التّواصل يوحي بتأويلات ودلالات مقصديّة ليس من السّهل اكتشافها إلاّ عن طريق معرفة ما يدلّ عليه الكلام، إمّا بواسطة الإحالة على سياقات داخليّة في النصّ أو سياقات خارجيّة كان للمتلقّي الدّور في استيعابها، على أساس أنّه لا يقلّ ثقافة ومعرفة من المتكلّم.

ناهيك عن تلك الآليات الّتي وظّفها السّارد في خطابه من إشاريات لغويّة شكليّة في ظاهرها، ورمزية تظهر من التّراكيب اللّغويّة، لكنّها تبدي معنًى عميقا في الكلام فتختصر بذلك العبارات لتكوّن بلاغة القول وجمال البيان.

الخطاب يوحي لنا بموسوعته المعرفية طرحها الكتاب بلغة بلاغيّة أصابت عمق المعنى، وتضمّنت دلالات ومعانٍ أدّت إلى نشوء استلزامات حواريّة ظهرت في القول كنتيجة ضروريّة ومنطقيّة لما قِيل. ومعانٍ أخرى المتضمّنة في الكلام، قد تُحدّد بناءًا على معطيات تسبق القول، وهي ما يطلق عليه بالافتراض المسبق الّذي نستطيع أن نستشفه من كلام المبدع ضمن نطاق مقام التّواصل والّذي يهدف من خلاله إلى إقناع الوزير وتفعيل عمليّة التّأثير فيه لتحقيق الفعل الكلامي الّذي أبداه المخاطَب بردّ فعل تمثّل في الإعجاب والإحساس بالمتعة والفائدة.

التّداوليّة منهج مستحدث ظهر ليعطي للّغة طابعها العمليّ والفعّال ضمن الاستعمال في إطار الحوار والتّعامل المتبادل والضّروري في التّواصل الإنسانيّ، وبيّن مدى تطبيقها على الخطاب السّرديّ التّوحيديّ نظرا لمحتواه المعرفي الّذي لا يلبث ويبدي فيه جوانب الجمال والصّياغة اللّغويّة بكلّ إبداع وبلاغة وبيان.

لقد استطاعت التّداوليّة بجميع آلياتها المتعدّدة أن تبرز تلك اللّغة بجميع صياغاتها وأنساقها، والّتي بدورها شكّلت الخطاب للوجود بحلّة جميلة وبعثت جوانب الإبداع الفنيّ والجماليّ فيه، وتبيّن صلاحيتها كمنهج حديث لقراءة النّصوص القديمة وبعثها من جديد

لتعيش اللاّزمنيّة وفي عصر غير عصرها، فتلهمنا جماليّة وقيمة التّراث الأدبيّ العربيّ القديم، وما مدى تفاعله مع التّنظير النّقديّ المعاصر، فتمنح بذلك لنفسها موقعا استراتيجيّا في السّاحة النّقديّة، لكونها جديرة بقراءة النّصوص السّرديّة، وتفعيل عنصر التّجديد فيها، خاصّة وأنّ خطاب التّوحيديّ يتميّز بمزايا جماليّة اكتسحت لغة الخطاب وأظهرت جانب الإبداع فيه، وبلاغة وبيان القول، في سياق تواصليّ تداوليّ استطاع أن يظهر الخطاب من جديد، ويبرز مدى متضمّنات القول الموجودة فيه، والّتي أثرت جانب الإبداع المعرفي، وذلك من خلال دراسة اللّغة وفق الاستعمال بين طرفي الحوار، ووفق التّواصل بينهما، فجعلت منه خطابا ثريّا بمعطياته المعرفيّة والبلاغيّة والجماليّة أن تجدّد من خلاله البوح والانطلاق في عالم النّقد الحديث، فأظهرته لنا برؤية جديدة في كونه جدير بالقراءة في السّاحة الأدبيّة المعاصرة.

لقد تحقّق بيان قيمة الخطاب السّرديّ بنسبة كبيرة، خاصّة عند إسقاط تلك الآليات التّداوليّة عليه ومحاولة تفعيل وجودها ضمن طيّات خطاباته المتنوّعة العلميّة والمعرفيّة في إطار التّواصل الحواريّ وضمن السّياق المقاميّ. فكان لحضور تلك العناصر التّداوليّة الدّور الفعّال في انبثاق معرفة نقديّة جديدة جعلت من الخطاب مجالا معرفيّا رَحبًا، وأنّ هذا المنهج النّقديّ يستطيع أن يحتوي معالم ومعطيات الخطاب السّردي، ويبرز جماله الفنيّ الإبداعيّ، ويدرس لغته وفق الاستعمال والتّواصل، ويخضعه للدّراسة والقراءة من جديد كغيره من الخطابات الأخرى.

المصــادر والمراجــع

قائمة المصادر والمراجع:

- المصادر:

1- أبو حيّان التّوحيديّ- الإمتاع والمؤانسة- تحقيق أحمد جاد- دار الغدّ الجديد- ط01 - 2009م (ثلاثة أجزاء).

2- فرديناند دي سوسير- محاضرات في علم اللّسان – ترجمة عبد القادر قنيني – إفريقيا الشّرق – 2016م- ط03

- قائمة المراجع العربيّة والمترجمة:

2- أحمد المتوكّل- الخطاب وخصائص اللّغة العربيّة- دراسة في الوظيفة والبنية والنّمط- دار الأمان- الرّباط- ط01- 2010م

3- أحمد المتوكّل- قضايا اللّغة العربيّة في للّسانيات الوظيفيّة- بنية الخطاب من الجملة إلى النصّ- دار الأمان- الرّباط- المغرب- 2001م

4- أحمد فهد صالح شاهين- النّظريّة التّداوليّة- وأثرها في الدّراسات النّحويّة المُعاصرة -عالم الكتب الحديث- الأردن- ط01- 2015م

5- إبراهيم صحراوي-السّرد العربيّ القديم- الأنواع والوظائف والبنيات- منشورات الاختلاف- الجزائر- ط01- 2008م

6- الأزهر الزنّاد- نسيج النصّ- بحث فيما يكون فيه الملفوظ نصّا- المركز الثّقافيّ العربيّ - بيروت- ط01- 1996م –

7- بهاء الدّين محمّد مزيد- تبسيط التّداوليّة-شمس للنّشر والتّوزيع- القاهرة-ط01-2010م

8- جميل حمداوي- محاضرات في لسانيات النصّ- شبكة الألوكة- ط01- 2015م

9- جميل حمداوي- التّداوليات وتحليل الخطاب- مكتبة المثقّف- ط01- 2015م

10- جواد ختام- التّداوليّة- أصولها واتّجاهاتها،دار الكنوز المعرفيّة،عمان،ط2016،01م

11- جواد ختام- التّداوليّة- أصولها واتّجاهاتها- دار الكنوز المعرفة- عمّان- ط01-2016م

12- حافظ إسماعيل علوي- منتصر أمين عبد الرّحيم- التّداوليات وتحليل الخطاب- بحوث محكمة- كنوز المعرفة- الأردن- ط01- 2014م

13- حسين خمري- نظريّة النصّ- من بنية المعنى إلى سيميائيّة الدّال- منشورات الاختلاف

- الجزائر- ط01- 2007م

14- حلمي خليل- في اللّسانيات التّطبيقيّة- در المعرفة- مصر- 2002م
15- حميد لحمدانيّ- بنية النصّ السّرديّ- من منظور النّقد الأدبيّ- المركز الثّقافيّ العربيّ للنّشر- الدّار البيضاء- ط03- 2000م
16- خليفة بوجادي - في اللّسانيات التّداوليّة – محاولة تأصيليّة في الدّرس العربيّ القديم- بيت الحكمة- ط01-2009م
17- ذهبيّة حمو الحاج- لسانيات التّلفّظ- وتداوليّة الخطاب- منشورات مخبر تحليل الخطاب- جامعة مولود معمري- تيزي وزو- دار الأمل للطّباعة.
18- صابر حباشة- التّداوليّة والحجاج- صفحات للدّراسات والنّشر- سوريا- ط01- 2008م
19- صلاح فضل- بلاغة الخطاب وعلم النصّ- عالم المعرفة- 1992م
20- طه عبد الرّحمن- في أصول الحوار، وتجديد علم الكلام- المركز الثّقافيّ العربيّ- الدّار البيضاء- المغرب- ط02- 2000م
21- عبد الله إبراهيم- السّرديّة العربيّة- بحث في البنية السّرديّة للموروث الحكائيّ العربيّ- المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر- بيروت- ط02-2000م
22- عبد السّلام عشير- عندما نتواصل نغيّر- مقاربة تداوليّة معرفيّة لآليات التّواصل والحجاج- إفريقيا الشّرق- الدّار البيضاء- 2012م
23- عبد القادر شرشار- تحليل الخطاب الأدبيّ وقضايا النصّ-دراسة- منشورات اتّحاد الكتّاب العرب- دمشق- 2006م
24- عبد المالك مرتاض- نظريّة النصّ الأدبيّ- دارهومة للطّباعة- الجزائر-2007م
25- عبد الملك مرتاض- في نظريّة الرّواية- بحث في تقنيات السّرد- عالم المعرفة- الكويت- 1998م
26- عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ- استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغويّة تداوليّة- دار الكتاب الجديد- بيروت لبنان- ط01- 2004م
27- قدور عمران- البعد التّداوليّ الحجاجيّ- في الخطاب القرآنيّ الموجّه إلى بني إسرائيل-

عالم الكتب الحديث- الأردن- ط01- 2012م

28- مبارك مبارك- معجم المصطلحات الألسنيّة- دار الفكر اللّبنانيّ- بيروت- ط01- 1995م

29- محمّد بازي- صناعة الخطاب- الأنساق العميقة للتّأويليّة العربيّة- دار كنوز المعرفة- عمّان- ط01- 2015م

30- محمّد العيد- النصّ والخطاب والاتّصال- الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعي- القاهرة- ط01- 2005م

31- محمّد خطابي- لسانيات النصّ- مدخل إلى انسجام الخطاب- المركز الثّقافيّ العربيّ- الدّار البيضاء- ط01- 1991م

32- محمّد محمّد يونس علي- مدخل إلى اللّسانيات – دار الكتاب الجديدة المتحدة- ط:01 – 2004م

33- محمّد نظيف- الحوار وخصائص التّفاعل التّواصليّ- دراسات تطبيقيّة في اللّسانيات التّداوليّة- إفريقيا الشّرق- الدّار البيضاء- 2010م

34- منذر عياشي- العلاماتيّة وعلم النصّ- المركز الثّقافيّ العربيّ- الدّار البيضاء- المغرب- ط01- 2004م

35- محمود أحمد نحلة- آفاق جديدة في البحث اللّغويّ المعاصر- دار المعرفة الجامعيّة- الإسكندريّة- 2002م

36- محمود طلحة- تداوليّة الخطاب السّرديّ- دراسة تحليليّة في وحي القلم للرّافعيّ- عالم الكتب الحديث- الأردن - ط01- 2012م

37- محمود عكاشة- البرغماتيّة اللّسانيّة (التّداوليّة)- " دراسة المفاهيم والنّشأة والمبادئ"- مكتبة الآداب- القاهرة- مصر- ط01-2013م

38- مسعود صحراوي- التّداوليّة عند العلماء العرب- دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّساني العربي- دار التّنوير- الجزائر- ط01- 2008م

39- نادية رمضان النّجار-الاتّجاه التّداوليّ والوظيفيّ في الدّرس اللّغويّ- ط01-2013م

المراجع المترجمة:

40- أوزوالد ديكرو- جان ماري سشايفر- القاموس الموسوعيّ الجديد لعلوم اللّسان- ترجمة منذر عياشي- المركز الثّقافيّ العربيّ.

41- أوستين- نظريّة أفعال الكلام العامّة- "كيف ننجز الأشياء بالأفعال"- ترجمة عبد القادر قنيني- إفريقيا الشّرق- 1991م

42- آن روبول- جاك موشلر- التّداوليّة اليوم علم جديد للتّواصل- ترجمة سيف الدّين دغفوس- المنظّمة العربيّة للتّرجمة- بيروت- لبنان- ط01- 2003م

43- بول غرايس- مقال: المنطق والمحادثة- عن: عزّ الدّين مجدوب- إطلالات على النّظريات اللّسانيّة والدّلاليّة في النّصف الثّانيّ من القرن العشرين- ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين- المجمع التّونسي للعلوم- تونس- ج2- 2012م

44- بول ريكور- الوجود والزّمان والسّرد- ترجمة سعيد الغانمي- المركز الثّقافيّ العربيّ- الدّار البيضاء- ط01- 1999م

45- بول ريكور- من النصّ إلى الفعل- ترجمة محمّد برادة وحسّان بورقية- الدّراسات والبحوث الإنشائيّة- ط01- 2001م

46- تزفيطان طودوروف- الشّعريّة- ترجمة شكري المبخوت- ورجاء بن سلامة- دار توبقال للنّشر- الدّار البيضاء- المغرب- ط02- 1990م

47- ج- ب- براون- وج- يول- تحليل الخطاب- ترجمة محمّد لطفي الزليطني- منير التريكي- دار النّشر العلميّ- 1997م

48- جاك موشلر– آن ريبول- القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة- ترجمة مجموعة باحثين- بإشراف عزّ الدّين المجدوي- المركز الوطنيّ للتّرجمة- تونس- ط02- 2010م

49- جان بيجيه- البنيويّة- ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري- منشورات عويدات- بيروت- ط04- 1980م

50- جورج يول- التّداوليّة- ترجمة قصي العتابي- دار الأمان- الرّباط- ط01- 2010م

51- جون سيرل- القصديّة- ترجمة أحمد الأنصاريّ- دار الكتاب العربيّ- بيروت- 2009م

52- جون سيرل- العقل واللّغة والمجتمع- ترجمة سعيد الغانمي- منشورات دار الاختلاف- ط01-2006م

53- جيرالد برنس- قاموس السّرديات- ترجمة السيّد إمام- ميريت للنّشر- القاهرة- ط01- 2003م

54- جون لينز- اللّغة والمعنى والسّياق- ترجمة عبّاس صادق الوهاب- دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة- بغداد- ط01- 1987م

55- جون ميشل آدم- السّرد- ترجمة أحمد الودرني- دار الكتاب الجديد المتّحدة- بيروت لبنان- ط01- 2015م

56- جيوفري ليتش- مبادئ التّداوليّة- ترجمة عبد القادر قنيني- إفريقيا الشّرق- المغرب- 2013م

57- جيني توماس- مدخل إلى البرغماتيّة " التّداوليّة" – ترجمة نازك إبراهيم عبد الفتّاح- دار الزّهراء- الرّياض- ط01- 2010م

58- جينيفر ناغل- المعرفة- ترجمة مروة هاشم- دائرة الثّقافة- أبو ظبي- 2019م

59- دان سبيربر- ديدري ولسون- نظريّة الصّلة أو المناسبة في التّواصل والإدراك- ترجمة:إبراهيم عبد الله الخليفة- دار الكتاب الجديد المتّحدة- ط01- 2016م

60- دنيال مكدونيل- مقدّمة في نظريات الخطاب- ترجمة وتقديم عز الدّين إسماعيل- المكتبة الأكاديميّة- مصر-2001م

61- رولان بارت- لذّة النصّ- ترجمة منذر عياشي- ط01- 1992م

62- سارة ميلز- الخطاب- ترجمة يوسف بغول- منشورات مخبر التّرجمة- قسنطينة- 2004م

63- فان دايك- النصّ والسّياق- استقصاء البحث في الخطاب الدّلاليّ والتّداوليّ- ترجمة عبد القادر قنيني- إفريقيا الشّرق- المغرب- 2013م

64- فرنسواز أرمينكو- المقاربة التّداوليّة- ترجمة سعيد علوش- مركز الإنماء التّوجيهيّ- الرّباط.

65- فيليب بلا نشيه- التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان- ترجمة صابر حباشة- دار الحوار- سوريا- ط01- 2007م

66- كريستيان بلانتان- الحجاج- ترجمة عبد القادر المهيري- المركز الوطنيّ للتّرجمة- دار سيناترا- - تونس- ط02- 2010م

67- وليام جيمس- البرغماتيّة- Pragmatics- ترجمة وليد شحادة- دار الفرقد- سوريا- ط01- 2014م

ملخّـــص

الإمتاع والمؤانسة كتاب يضمّ ثلاثة أجزاء تحتوي على أربعين ليلة قضاها التّوحيدي في منادمة الوزير أبي عبد الله العرض، وكلّ ليلة يتوسّم هذا الأخير من التّوحيدي أن يُجيب على كلّ أسئلته في ليالي السّمر الّتي كان يستمتع فيه الوزير من خلال تلك الأسئلة المطروحة والتي تتجلّى في مجموعة من المعارف المتنوّعة والّتي ما يلبث التوحيدي إلاّ و يُجيب عليها بكل دراية وعلم بها ، نظرا لما يتمتّع به المتكلّم من معرفه موسوعيّة في شتّى المجالات السياسيّة و اجتماعيّة و الثّقافية والفلسفيّ واللّغوية وحتى المذاهب والأديان الوضعية والسّماوية...

الإمتاع والمؤانسة خطاب فنيّ يتمتّع بكل معطيات السّرد ، من زمان تعكسه ليالي السّمر الّتي ينبعث منها عبق وسحر العصر العباسيّ أو بالأحرى الثقافة والحضارة العباسيّة، كما لامست تلك اللّيالي ثقافة شعوب أجنبية متزامنة مع العصر، أو أزمنة غابرة يعلم التّوحيدي ثقافتها وفلسفتها فيسرد علومها وفلاسفتها بكل ثقة ودراية على الوزير ، فيستجيب هذا الأخير ويعجب بكلام المتكلم، ويختم اللّيلة راجيا أن يلتقي به ليلة أخرى ليعرّفه بعلوم ومعارف ، وكل ليلة يحمله الشّوق فيهفو للمزيد من الثّقافة والعلم ليستزيد أكثر من علم السّارد .

السّرد عن التّوحيديّ يحمل جانبا فكريا ومعرفيّا لا حدود له، إذ تمتدّ ثقافته عبر العصور، ويتراءى ذلك من خلال القضايا الإنسانية المطروحة الّتي أبدع في طرحه التّوحيدي ضمن سمريّة المجلس التي تزامنت مع العصر المزدهر الذي يبدو في أوج تطوّره في مجال معارفه وعلومه. فكان ذلك الحوار التّداولي يتّخذ مسلكا فكريّا وثقافيّا بين المتكلم والمتلقي، وكان الغرض منه التّأثير في المخاطَب، وإنجاز أفعال الكلام وفق تواصل كلامي تداولي بين أطراف الحوار.

الخطاب السّردي وفق هذه الدراسة التّداولية يعرّفنا بطرق التّداول في الإمتاع والمؤانسة من جانب الإفهام والحجاج والسّرد والحوار، كما تطرقت إلى الصّور البلاغيّة من استعارة وتشبيه وكناية، كلّ هذا البيان البلاغي الممتع نراه يقتحم طيّات السّمر في مجالات الكلام التي تُمتّع المتلقي فتأثّر في مشاعره وأحاسيسه وحتّى في تغيير أفكـــاره،

وفي إعجابه بما مدى عبقرية المتكلم وثقافته اللاّمحدودة، لأنّها تطرّقت لجميع جوانب الحياة والفكر الإنساني والاجتماعي والثقافيّ الّذي كان يعجّ به العصر...

الآليات التّداولية في خطاب " المؤانسة والإمتاع " تجسّدت من خلال ذلك الكلام بين المبدع ضمن سياق تواصلي استحوذ عليه زمان سمري ليليّ ممتع، وما مدى ارتباطه بمرجعية فضاء المكان قد تحدّدت معالمه بأنّه مجلس الوزير، وما يتميّز به من جوانب الرّاحة والاستمتاع التي يتمتّع بها الطرفان، كما كانت الإحالة اللّغوية والإشاريات محور الجانب التّداولي في الكلام. ناهيك عن استراتيجيّة التأثير في المخاطب، بمتضمّنات القول ومقصديّة الكلام الّتي تُعرف وتُستتشفّ من خلال الافتراض المُسبق والاستلزام الحواري، ومدى استجابة المتلقي لتفعيل وإنجاز الفعل الكلاميّ. ضمن إطار الحور كعامل مهمّ في سيرورة السّرد لدى المبدع، وكتقنيّة تداوليّة ساهمت بشكل كبير في إظهار معالم لمعرفة وعلوم العصر في سياق تواصليّ حواريّ كان لمبدأ التّعاون فيه الدّور الكبير في إرساء المعرفة، واستمرار الخطاب لتحقيق فعل التّأثير في المتلقّي لتفعيل وإنجاز الفل الكلامي المطلوب.

Summary

El imtaa w el Mouaanassa is a book includes three parts containing forty nights spent by al-Tawhidi at the congregation of Minister Abi Abdullah al-Ardah. Every night, al- Tawhidi thinks that he will answer all the questions posed by the minister , these questions are manifested in a group of diverse knowledge . al – Tawhidi answer all the questions knowingly . The speaker has an encyclopedic knowledge of various political, social, cultural, philosophical, linguistic, and even man-made ,divine sects and religions.

El imtaa w el Mouaanassa is an artistic discourse that has the components of narration, from a time reflected by Layali el Samar, which emit the fragrance and magic of the Abbasid era, or rather the Abbasid culture and civilization, as those nights touched the culture of foreign people synchronized with the era, or ancient times that Al-Tawhidi teaches about their culture and philosophy and narrates about their science , so the latter responds and admires the words of the speaker and ends the night, hoping to meet him another night to introduce him to sciences and knowledge, and every night he is carried by longing and he seeks for more culture and knowledge to increase more than the knowledge of the narrator.

The narration about al-Tawhidi bears an intellectual and cognitive aspect that has no limits, as his culture extends through the ages, and this is evident through the human issues raised that he excelled in his monotheistic approach within the Samaria Council that coincided with the prosperous era that appears at the height of its development in the field of its knowledge and sciences. That deliberative dialogue took an intellectual and cultural path between the speaker and the recipient, and its purpose was to influence the discourse, and to accomplish speech acts according to verbal and deliberative communication between the parties to the dialogue.

The narrative discourse according to this deliberative study introduces us to the ways of deliberation in terms of El imtaa w El Mouaanassa by way of understanding, pilgrims, narration and dialogue, also rhetorical images of simile and metaphor, all of this interesting rhetorical statement we see breaking into the folds of the samar in the areas of speech that enjoy the recipient, and even changing his thoughts, ,and his admiration for the extent of the genius of the speaker and his unlimited culture, because it touched on all aspects of life and human, social and cultural thought that was teeming with the era...

The deliberative mechanisms in the discourse of El imtaa w el Mouaanasa were embodied through that speech between the creator within a communicative context that was possessed by an enjoyable night-time Samari time, and how closely it is related to the reference space of the place. Linguistic reference and denotations were the focus of the pragmatic aspect of speech. Not to mention the strategy of influencing the addressee, including the contents of the saying and the intent of the speech that are known and discerned through presupposition and dialogic imperative, and the extent of the recipient's response to the activation and completion of the verbal act. Within the framework of the poplar as an important factor in the narration process of the creator, and as a deliberative technique that contributed greatly to showing the milestones of knowledge and sciences of the age in a communicative, dialogic context in which the principle of cooperation had a great role in establishing knowledge, and the continuation of discourse to achieve the effect of influencing the recipient to activate and accomplish the required speech.

مُلحـــق:

مدخل مفاهيمي حول: مدوّنة " الإمتاع والمؤانسة ":

أوّلا: التّعريف بالكاتب: أبي حيّان التّوحيديّ.

ثانيا: كتاب " الإمتاع والمؤانسة"، أسباب وشروط تأليفه.

مفاهيم حول: مدوّنة " الإمتاع والمؤانسة ":

أوّلا: التّعريف بالكاتب: أبي حيّان التّوحيديّ[1] :

1- **اسمه ونسبه:** هو علي بن محمّد بن العباس التّوحيديّ البغداديّ، كنيته "أبو حيّان"، وهي كنية غلبت على اسمه فاشتهر بها. أمّا أصله فقيل انّه من شيراز وقيل من نيسابور.

وقيل يُحتمل أن يكون نسبة إلى التّوحيد الّذي هو جوهر الإسلام، لأنّه معتزليّ والمعتزلة يسمّون أنفسهم أهل العدل والتّوحيد.

2- **مولده ونشأته:** ولد أبو حيّان التّوحيديّ في بغداد حوالي سنة ثلاثمائة وعشرة من الهجرة النّبوّية. نشا يتيما ، وذاق مرارة العيش والحرمان، وعلى الرّغم من ذلك كان متفنّنا في جميع العلوم من النّحو ولبلاغة واللّغة والشّعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة.

3**- مكانته العلميّة:** لقد عُدّ التّوحيديّ شخصيّة متميّزة، سواء من ناحيّة المخزون الفكري والمعرفي لديه، أو من ناحيّة امتلاكه لأسلوب أنيق في تعامله مع اللّغة وتوظيفها في خدمة ما يرمي إليه. حتى قيل عنه أنّه شيخ في الصّوفيّة وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقّق الكلام ومتكلّم المحقّقين، وإمام البلغاء.

4- **وفاته:** توفي أبو حيّان التّوحيديّ في شيراز سنة أربعمائة وأربع عشرة من الهجرة.

5- مصنّفاته وآثاره العلميّة:ترك أبو حيّان التّوحيديّ عدّة مصنّفات تزهو بها المكتبة العربيّة في مجلات متعدّدة منها الأدب والأخبار والفلسفة والتّصوّف واللّغويات.

ومن بين هذه المصنّفات:

* البصائر والذّخائر.
* الصّداقة والصّديق.
* أخلاق الوزيرين.
* المقابسات.

---

[1] - أبو حيّان التّوحيديّ، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد جاد، دار الغد الجديد، ط01، 2009م، ص09.

* تقريظ الجاحظ.

* الهوامل والشّوامل.

* الإشارات الإلهيّة.

* الإمتاع والمؤانسة.

ثانيا: **كتاب " الإمتاع والمؤانسة"، أسباب وشروط تأليفه:**

الإمتاع والمؤانسة خطاب أدبيّ من التّراث السّرديّ العربيّ،تميّز بعدّه خصائص أهّلته إلى أن يكون نصّا جامعًا لمختلف العلوم والمعارف الّتي حملها واستوفى جوانبها ومعطياتها الفكريّة والعلميّة، بما تضمّنته من مجالات ثقافيّة وسياسيّة واجتماعيّة، أهّلته إلى أن يصبح موسوعة عَبَرت عبر التّاريخ لتحاكي لنا ذلك التّواصل الفكري والثقافيّ عبر العصور. ولتبيّن تلك السّمات البلاغيّة والبيانيّة الّتي سمحت بأن يُصنّف ضمن قائمة الخطابات الّتي أُصطلح عليها "الموسوعة" أو "الجامع"، " وهو من الكتب القيّمة الجامعة، وإنْ غلب عليها الطّابع الأدبيّ "[1] . ويضمّ الكتاب مسامرات أربعين ليلة قضاها التّوحيديّ في منادمة الوزير، وهو من ثلاثة أجزاء، استطاع أن يُظهر فيه معظم علوم العصر العباسيّ في القرن الرّابع الهجريّ، بكلّ تناقضاته ومعارفه المتنوّعة وجوانبه الفنيّة الجماليّة، جعلت منه خطابا فريدا من نوعه بلاغة وبيانا.

يرجع سبب تأليف الكتاب، بطلب من" أبي الوفاء المهندس"،إذ عقد له لقاء مع الوزير" أبي عبد الله العارض"، " وأوصلك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض-أدام الله تأييده-وأخطب لك قبولا منه "[2]. بشرط أن يُدوّن له كلّ ما جرى في المجلس، وأهمّ المحاورات والمواضيع المطروحة فيه ، قال أبو حيّان: " وأنا أفعل ما طلبتني به من سرد جميع ذلك "[3]. والوزير بدوره عقد اتّفاق مع السّارد لتأسيس مشروع المثاقفة بينهما.

---

[1] - المصدر السّابق ، ص11.

[2] - نفسه، ص19.

[3] - نفسه، ص22.

والسّمر ليلا لإمتاعه بما يمتلكه من علم ومعرفة عن طريق التّواصل بينهما، وفق شروط محدّدة تكون فيه البلاغة والبيان محور المحادثة في التّواصل الحواريّ التّداوليّ بينهما.

السّارد حَضيَ بمسامرة الوزير، وظلّ معه طيلة أربعين ليلة، في كلّ ليلة يسرد كلّ ما جاز له من خلال ذلك السّؤال الّذي يطرحه الوزير ليستمتع بالجواب الكافي الشّافي من طرف المبدع، فيبدي انطباعا جميلا يتمثّل في حيازته على المتعة والاستفادة معًا.

وهكذا ظلّت مواضيع ليالي السّمر جُلّها تحت سيطرة السّارد الّتي لا يوفّر جهدا إلاّ ويكون له الرّأي الفاصل بالحجّة والإقناع لينتهي ليل السّمر على أمل تجدّد اللّقاء القادم في ليلة أخرى موالية يكون فيها شغف المحادثة وتحقيق المتعة للمتلقّي مرهون بلقاء وتواصل متجدّد لتحقيق الإمتاع والمؤانسة.

" الإمتاع والمؤانسة" خطاب يجمع معارف وعلوم العصر، بالإضافة إلى وقائع وأحداث وحكم وأمثال وقصص استطاع الرّاوي أن يسردها للمتلقّي بطريقة حواريّة تداوليّة في سياق تواصليّ مباشر، وبلغة استحوذت على فنّيات إبداعية ودرجة تأليف عالية بلاغةً وقولا تؤهّله إلى أن يصنّف ضمن الخطابات السرديّة الّتي بلغت عناصر السّرد فيها مرحلة الإبداع من ناحية ذكر الشخصيات والزمان وفضاء المكان والأحداث التي يعكسها السّياق التّواصلي التّداولي ّالّذي سيطر عليه وبعثه أسلوب الحوار الجاد بين المبدع والمتلقّي.

هذا الخطاب السّرديّ الفني الإبداعيّ للتّوحيديّ، وما تضمّنه من عناصر سياقيّة بجميع معطياتها الحواريّة، استطاعت أن تؤهّله إلى مرتبة إخضاعه لمنهج وتنظير تداولي حديث يستطيع أن يُبرز مكنوناته الفنيّة ، ويستوعب عناصره الحوارية الّتي تُعطي معنًى ودلالة للكلام المتداول بين طرفيّ الحوار، وتجعله مفهوما وذو فائدة، لأنّه يعكس منه الجانب الفعلي للقول عن طريق التّعبير اللّفظي لإنجاز قوّة تواصليّة تؤدّي بدورها إلى وظيفة عمليّة تتمثّل في جانب التّأثير في المتلقّي.

ومادام هذا الخطاب مستوفيا شروط المنهج التّداوليّ والّذي يتخلّل طيّات عناصر السّرد فيه، فإلى أيّ مدى يمكن إسقاط آليات هذا المنهج على الخطاب السّرديّ؟، وهل هذا الأخير يتضمّن عناصر تداوليّة سياقيّة تؤهّله إلى دراسته ضمن نطاق المنهج التّداوليّ؟ وخاصّة أنّ

السّرد عند التّوحيديّ تواصل وحوار معرفي فكري، واستنباط جوانب ذلك التّواصل الحواري الّذي استطاع أن يُحقّق بنسبة كبيرة فعل الكلام والتّأثير في المتلقّي، وذلك عن طريق تلك البنية السّرديّة وعلاقتها بالتّداوليّة من ناحيّة دراسة الكلام وفق التّواصل والاستعمال .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

مقدّمة .... أ- و

مدخـــل 01- 43

- بيـــن النصّ الخطـــــــاب 07

-التّداوليّة وجذورها الفلسفيّـــة 22

- التّداوليّة بين النّشأة والماهيّة 30

- أنواعـــــها وخصائصـــــها 35

- التّداوليّــــة وعلم الدّلالــــة 38

- التّداوليّة وتحليل الخطـــاب 41

الفصل الأوّل: 44- 112

- التّداوليّة وآلياتها، مقاربة نظريّة: 45

أ-التّلفّظ 47

ب-السّياق 51

* عناصر السّياق 55

- آليات تحليل الخطاب: 61

1- القصـــديّـــــــــة 61

2-مبدأ التّعـــــــاون 65

3- مبدأ الملاءمــــــة 69

4-الإحالة وأنواعــــها 72

5- الإشاريات وأنواعها 77

6- متضمّنات القـــول: 85

7- الافتراض المُسبــق 90

* أنواع الافتراض المسبق 94
8- الاستلزام الحواري 97
9- أفعال الكلام 101
- نظريّة أفعال الكلام 104
- تصنيف أفعال الكلام 108
- خصائص الأفعال الكلاميّة 111
الفصل الثّانيّ: 113- 205

- البنية السّرديّة في خطاب " الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيّان التّوحيديّ 114
1- البنية السّرديّة في " الإمتاع والمؤانسة " 120
* السّارد، الكاتب: أبو حيّان التّوحيديّ 133
* المُروى له، الوزير: أبو عبد الله العارض 137
* فضاء المكان " المجلس " 142
* الزّمان، " السّمر ليلا" 146
* الأحداث " الوقائع" 151
* الشّخصيات 153
2- السّياق في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ
- السّياق وتداوليّة الخطاب السّردي 157
أ- عناصر السّياق 157
ب- المؤشّرات السّياقيّة وأنواعها في الخطاب السّردي 161
- الإحالة السّياقيّة في بنية الخطاب السّرديّ 170
- الإشاريات الخطابيّة، وأبعادها التّداوليّة في سرد التّوحيديّ 177
- أنواع الإشاريات 179
* الإشاريات الشّخصيّة 179
* معاني الإشاريات الزّمانيّة 187

* معاني الإشاريات المكانيّة 193
* الإشاريات الاجتماعيّة 196
* الإشاريات الخطابيّة 199

الفصل الثّالث: 206- 261

- تداوليّة الحوار في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ: 206

1- الأطراف المتحاورة في الخطاب 207
أ- التّخاطب بين أطراف الحوار والخلفيات المعرفيّة 207
ب- الحوار تقنيّة تداوليّة خطابيّة 214

2- الخطاب السّرديّ وقواعد التّخاطب 222
أ- مبدأ التّعاون وقواعد التّواصل 222
ب- الاستلزام الحواريّ 230

3- استراتيجيّة التّأثير في المخاطب 235
أ- متضمّنات القـــــول 235
* القول المضمـــــر 237
ب- الافتراض المُسبق وأنواعــه 247
* الافتراض المسبق الواقعـيّ 248
* الافتراض المسبق المعجميّ 254
* الافتراض المسبق البنيـويّ 256
* الافتراض المسبق غير الواقعيّ 259

الفصل الرّابع: 262- 326

- أفعال الكلام وتداوليّة الخطاب السّرديّ التّوحيديّ: 263

- أفعال الكلام المباشرة وغير المباشرة 264

- أفعال الكلام ووظيفتها التّواصليّة في الخطاب السّرديّ: 267

أ- الوظيفة التّوجيهيّة 269

* صيغة الأمر، وتفعيل الفعل الإنجازيّ 270

* الاستفهام والإنجاز 278

ب- الوظيفة الإخباريّة 282

طُرق التّداول المعرفيّ في الخطاب السّرديّ التّوحيديّ: 291

1- فعل المعرفة ووظائفه الموسوعيّة التّبليغيّة 291

2- فعل الحجاج ووظائفه الإقناعيّة 303

3- فعل الوصف ووظائفه الجماليّة التّأثيريّة 320

- الخاتمة 327

- المصادر والمراجع 332

- ملخّص 339

- مُلحق 345

- فهرس الموضوعات 350